

كتاب

عِلمُ الأدَب

مقالاتٌ

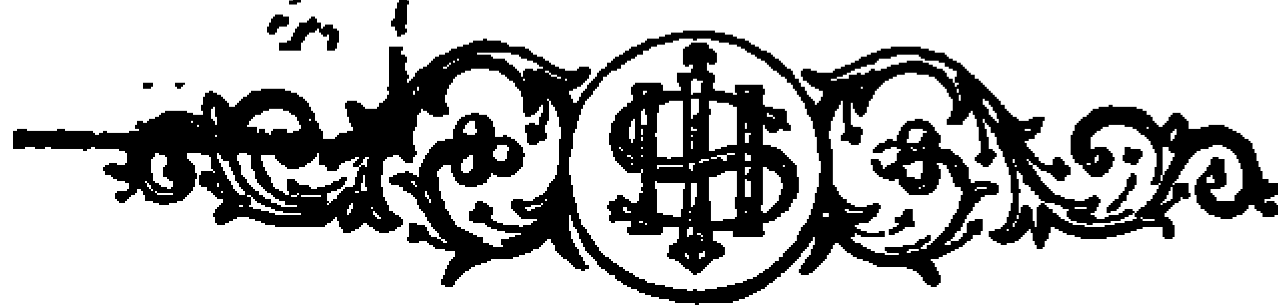
لمَشَاهيرِ العربِ

على الجزء الاول

من

عِلمِ الأدَب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي



طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٧

مقالات

لبعض مشاهير كتّاب العرب

في الانشاء

توطئة

فصل في حقيقة علم الادب واقسامهِ واركانهِ

البحث الاوَّل

في حدّ علم الادب

(عن الزمخشريّ والجرجانيّ والحاج خلفا بتصرف)

(راجع الجزء الاوَّل من علم الادب صفحة ١ من التمهيد)

عِلمُ ٱلْأَدَبِ عِلمٌ يُحتَرَزُ بِهِ عَنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلْخَطَإِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ لَفظًا وَكِتَابَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلتَّخَاطُبِ وَٱلْمُحَاوَرَاتِ فِي إِفَادَةِ ٱلْعُلُومِ وَٱسْتِفَادَتِهَا لَمَّا لَمْ تَتَبَيَّنْ لِلطَّالِبِينَ إِلَّا بِٱلْأَلفَاظِ وَٱلْكِتَابَةِ وَأَحْوَالِهِمَا كَانَ ضَبْطُ أَحْوَالِهِمَا مِمَّا ٱعْتَنَى بِهِ ٱلْعُلَمَاءُ. فَٱسْتَخْرَجُوا مِنْ أَحْوَالِهِمَا عُلُومًا سَمَّوْهَا بِٱلْعُلُومِ ٱلْأَدَبِيَّةِ لِتَوَقُّفِ أَدَبِ ٱلدَّرْسِ عَلَيْهَا بِٱلذَّاتِ وَأَدَبِ ٱلنَّفْسِ بِٱلْوَاسِطَةِ يُتَعَرَّفُ مِنْهَا ٱلتَّفَاهُمُ عَمَّا فِي ٱلضَّمَائِرِ

البحث الثاني

في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيَّة

(عن الوطواط والجرجاني)

(راجع صفحة ٢ و٣ من تمهيد علم الادب)

اَلْاَدَبُ نَوْعَانِ نَفسِيٌّ وَكَسْبِيٌّ. فَٱلنَّفسِيُّ بِتَوْفِيقِ ٱللّٰهِ يَهَبُهُ لِمَنْ يُرِيدُ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِ ٱلطِّبَاعِ. وَٱلْكَسْبِيُّ مَا ٱسْتَفَادَتْهُ ٱلْاَنْفُسُ مِنْ احَاسِنِ ٱلْاَقْوَالِ ٱلْآخِذَةِ بِاَعِنَّةِ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْاَسْمَاعِ وَهُوَ ٱلَّذِي تَرْجَمْتُ عَلَيْهِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيَقَعَ ذِكْرُهُ فِي ٱلنُّفُوسِ اَحْسَنَ مَوْقِعٍ لِتَرْمُقَهُ لِاَجْلِهِ ٱلْعُيُونُ بِٱلْاِجْلَالِ وَتَتَحَمَّلَ ٱلنُّفُوسُ بِهِ لِمَيْلِهَا اِلَيْهِ بِتَتَابُعِ ٱلْاِذْلَالِ

وَامَّا تَقْسِيمُ ٱلْاَدَبِ ٱلْكَسْبِيِّ فَاِنَّهُمْ ٱخْتَلَفُوا فِي اَقْسَامِهِ فَذَكَرَ ٱبْنُ ٱلْاَنْبَارِيِّ اَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ وَقَسَّمَهُ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْجُرْجَانِيُّ اِلَى ٱثْنَيْ عَشَرَ قِسْمًا قَالَ: لِعِلْمِ ٱلْاَدَبِ اُصُولٌ وَفُرُوعٌ. اَمَّا ٱلْاُصُولُ فَٱلْبَحْثُ فِيهَا: (١) اِمَّا (عَنِ ٱلْمُفْرَدَاتِ) مِنْ حَيْثُ جَوَاهِرِهَا وَمَوَادِّهَا وَهَيْئَاتِهَا فَعِلْمُ ٱللُّغَةِ. اَوْ مِنْ حَيْثُ صُوَرِهَا وَهَيْئَاتِهَا فَقَطْ فَعِلْمُ ٱلصَّرْفِ. اَوْ مِنْ حَيْثُ ٱنْتِسَابِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِٱلْاَصَالَةِ وَٱلْفَرْعِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلْاِشْتِقَاقِ. (٢) وَامَّا (عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ). فَاِمَّا بِٱعْتِبَارِ هَيْئَاتِهَا ٱلتَّرْكِيبِيَّةِ وَتَأْدِيَتِهَا لِمَعَانِيهَا ٱلْاَصْلِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلنَّحْوِ. وَامَّا بِٱعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ مُغَايِرَةٍ لِاَصْلِ ٱلْمَعْنَى فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي. وَامَّا بِٱعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ ٱلْاِفَادَةِ فِي مَرَاتِبِ ٱلْوُضُوحِ فَعِلْمُ

ٱلبيانِ.وَعِلمُ ٱلبَدِيعِ ذَيلٌ لِعِلمَيِ ٱلمَعَانِي وَٱلبيانِ دَاخِلٌ تَحتَهُمَا.(٣)وَامَّا (عَنِ ٱلمُرَكَّبَاتِ ٱلمَوزُونَةِ) . فَامَّا مِن حَيثُ وَزنِهَا فَعِلمُ ٱلعَرُوضِ اَو مِن حَيثُ اَوَاخِرِهَا فَعِلمُ ٱلقَوَافِي

وَامَّا ٱلفُرُوعُ فَٱلبَحثُ فِيهَا اِمَا اَن يَتَعَلَّقَ بِنُقُوشِ ٱلكِتَابَةِ فَعِلمُ ٱلخَطِّ اَو يَختَصَّ بِٱلمَنظُومِ فَٱلعِلمُ ٱلمُسَمَّى بِقَرضِ ٱلشِّعرِ . اَو بِٱلنَّثرِ فَعِلمُ ٱلاِنشَاءِ . اَو لَا يَختَصُّ بِشَيءٍ فَعِلمُ ٱلمُحَاضَرَاتِ وَمِنهُ ٱلتَّوَارِيخُ

البحث الثالث

في موضوع علم الادب واركانهِ

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٣ من تمهيد علم الادب)

هٰذَا ٱلعِلمُ لَا مَوضُوعَ لَهُ يَنظُرُ فِي اِثبَاتِ عَوَارِضِهِ اَو نَفيِهَا وَاِنَّمَا ٱلمَقصُودُ مِنهُ عِندَ اَهلِ ٱللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ وَهِيَ ٱلاِجَادَةُ فِي فَنَّيِ ٱلمَنظُومِ وَٱلمَنثُورِ عَلَى اَسَالِيبِ ٱلعَرَبِ وَمَنَاحِيهِم . فَيَجمَعُونَ لِذٰلِكَ مِن كَلَامِ ٱلعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَحصُلُ بِهِ ٱلكَلِمَةُ مِن شِعرٍ عَالِي ٱلطَّبَقَةِ وَسَجعٍ مُتَسَاوٍ فِي ٱلاِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ ٱللُّغَةِ وَٱلنَّحوِ مَنثُورَةٍ اَثنَاءَ ذٰلِكَ مُتَفَرِّقَةٍ يَستَقرِي مِنهَا ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلغَالِبِ مُعظَمَ قَوَانِينِ ٱلعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكرِ بَعضٍ مِن اَيَّامِ ٱلعَرَبِ لِيُفهَمَ بِهِ مَا يَقَعُ فِي اَشعَارِهِم مِنهَا وَكَذٰلِكَ ذِكرُ ٱلمُهِمِّ مِنَ ٱلاَنسَابِ ٱلشَّهِيرَةِ وَٱلاَخبَارِ ٱلعَامَّةِ . وَٱلمَقصُودُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ اَن لَا يَخفَى عَلَى ٱلنَّاظِرِ فِيهِ شَيءٌ مِن كَلَامِ ٱلعَرَبِ وَاَسَالِيبِهِم

وَمَنَاحِي بَلَاغَتِهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ . لِأَنَّهُ لَا تَحْصُلُ ٱلْمَلَكَةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هٰذَا ٱلْفَنِّ قَالُوا : ٱلْأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا وَٱلْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِطَرَفٍ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ ٱللِّسَانِ أَوِ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مُتُونُهَا فَقَطْ إِذْ لَا مَدْخَلَ بِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعُلُومِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلَفِهِمْ بِصِنَاعَةِ ٱلْبَدِيعِ مِنَ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَتَرَسُّلِهِمْ بِٱلْاِصْطِلَاحَاتِ ٱلْعِلْمِيَّةِ . فَٱحْتَاجَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱصْطِلَاحَاتِ ٱلْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا : وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ ٱلتَّعْلِيمِ أَنَّ أُصُولَ هٰذَا ٱلْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِينَ وَهِيَ : أَدَبُ ٱلْكَاتِبِ لِٱبْنِ قُتَيْبَةَ وَكِتَابُ ٱلْكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَكِتَابُ ٱلْبَيَانِ وَٱلتَّبْيِينِ لِلْجَاحِظِ وَكِتَابُ ٱلنَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ ٱلْقَالِي ٱلْبَغْدَادِيِّ وَمَا سِوَى هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَتَبَعٌ لَهَا وَفُرُوعٌ عَنْهَا وَكُتُبُ ٱلْمُحْدَثِينَ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ . وَكَانَ ٱلْغِنَاءُ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ أَجْزَاءِ هٰذَا ٱلْفَنِّ لِمَا هُوَ تَابِعٌ لِلشِّعْرِ إِذِ ٱلْغِنَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَلْحِينُهُ . وَكَانَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْفُضَلَاءُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ فَلَمْ يَكُنِ ٱنْتِحَالُهُ قَادِحًا فِي ٱلْعَدَالَةِ وَٱلْمُرُوءَةِ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْفَرَجِ ٱلْأَصْبَهَانِيُّ كِتَابَهُ فِي ٱلْأَغَانِي جَمَعَ فِيهِ أَخْبَارَ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ وَأَيَّامَهُمْ وَدُوَلَهُمْ . وَجَعَلَ مَبْنَاهُ عَلَى ٱلْغِنَاءِ فِي ٱلْمِائَةِ صَوْتًا ٱلَّتِي ٱخْتَارَهَا ٱلْمُغَنُّونَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَوْعَبَ فِيهِ ذٰلِكَ أَتَمَّ ٱسْتِيعَابٍ وَأَوْفَاهُ . وَلَعَمْرِي

إِنَّهُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاتِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلتَّأْرِيخِ وَٱلْغِنَاءِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ . وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا ٱلْأَدَبْ وَيَقِفُ عِنْدَهَا

البحث الرابع

في شرف الادب ومنافعهِ

(عن الثعالبي وابن عبد ربّهِ والوطواط)

(راجع صفحة ٢ من تمهيد علم الادب)

قَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلرَّجُلُ بِلَا أَدَبٍ شَخْصٌ بِغَيْرِ آلَة وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ . وَقِيلَ : ٱلْأَدَبُ أَكْرَمُ ٱلْجَوَاهِرِ طَبِيعَةً وَأَنْفَسُهَا قِيمَةً فَٱطْلُبُوهُ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلنَّبَاهَةِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلْمُرُوءَةِ وَمَنْبَهَةٌ لِلرَّأْيِ وَلِلصَّوَابِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْغُرْبَةِ وَأَنِيسٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَجَمَالٌ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَصِلَةٌ فِي ٱلْمَجَالِسِ . وَإِذَا أَكْرَمَكَ ٱلنَّاسُ لِمَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ فَلَا يُعْجِبْكَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلْكَرَامَةَ تَزُولُ بِزَوَالِهِمَا وَلْيُعْجِبْكَ إِذَا أَكْرَمُوكَ لِدِينٍ أَوْ أَدَبٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ٱلْفَتَى فَاتَهُ مَالٌ يُجَمِّلُهُ ... فَفِي ٱلتَّأَدُّبِ مِمَّا فَاتَهُ خَلَفُ
هُوَ ٱللِّبَاسُ ٱلَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ ... وَٱلْمَفْخَرُ ٱلدَّيِّنُ فِيهِ ٱلْفَضْلُ وَٱلشَّرَفُ

قَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ لِبَنِيهِ : تَأَدَّبُوا فَإِنْ كُنْتُمْ مُلُوكًا بَرَزْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَوْسَاطًا فُقْتُمْ وَإِنْ أَعْوَزَكُمُ ٱلْمَعَاشُ عِشْتُمْ . وَقِيلَ : إِنَّ ٱلْأَدَبَ يُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلْجَلِيلَةَ وَيُعِزُّ بِلَا عَشِيرَةٍ وَيُكَثِّرُ ٱلْأَنْصَارَ لِغَيْرِ

رَزِيَّتِهِ . قَالَ بُزُرْجُمْهُرُ : مَنْ كَثُرَ ادَبُهُ كَثُرَ شَرَفُهُ وَإِنْ كَانَ وَضِيعًا . وَبَعُدَ صِيتُهُ وَإِنْ كَانَ خَامِلاً . وَسَادَ وَإِنْ كَانَ غَرِيبًا وَكَثُرَتْ حَوَائِجُ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا . وَقَالُوا : مَنْ دَأَبَ فِي طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ ادْرَكَ حَاجَتَهُ وَمَلَكَ نَاصِيَتَهُ وَنَبُلَ قَدْرُهُ وَنَبُهَ ذِكْرُهُ . يَنُوبُ ٱلادَبُ عَنِ ٱلنَّسَبِ وَلَا يَنْفَعُ نَسَبٌ بِلا ادَبٍ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

كَمْ مِنْ خَسِيسٍ وَضِيعِ ٱلْقَدْرِ لَيْسَ لَهُ فِي ٱلْعِزِّ بَيْتٌ وَلَا يُنْمَى إِلَى نَسَبِ
قَدْ صَارَ بِٱلْأَدَبِ ٱلْمَحْمُودِ ذَا شَرَفٍ غَالٍ وَذَا حَسَبٍ مَحْضٍ وَذَا نَشَبِ
يُعْلِي ٱلتَّأَدُّبُ اقْوَامًا وَيَرْفَعُهُمْ حَتَّى يُسَاوُوا ذَوِي ٱلْعَلْيَاءِ فِي ٱلرُّتَبِ

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْأَعَاجِمِ يَفْتَخِرُ وَيَعْتَذِرُ :

مَالِيَ عَقْلِي وَهِمَّتِي حَسَبِي مَا انَا مَوْلىً وَلَا انَا عَرَبِي
وَإِذَا انْتَمَى مُنْتَمٍ إِلَى احَدٍ فَإِنَّنِي مُنْتَمٍ إِلَى ادَبِي

فَٱلْبَسُوا إِذًا ٱلادَبَ حُلَّةً وَتَزَيَّنُوهُ حِلْيَةً فَإِنَّهُ انْفَقُ مَعَاشٍ وَاجْمَلُ رِيَاشٍ إِنِ ٱحْتَجْتُمْ الَيْهِ كَانَ لَكُمْ مَالاً وَإِنِ ٱسْتَغْنَيْتُمْ عَنْهُ كَانَ لَكُمْ جَمَالاً

فصلٌ في قوى العقل الغريزيَّة

البحث الاوَّل

في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ

(عن الماوردي باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٣ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ اُسًّا وَلِكُلِّ اَدَبٍ يَنْبُوعًا. وَاُسُّ ٱلْفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ ٱلْآدَابِ هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱللهُ تَعَالَى لِلدِّينِ اَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا فَاَوْجَبَ ٱلدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ ٱلدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بِاَحْكَامِهِ وَاَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ. قَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: ٱلْعَقْلُ خَيْرُ ٱلْمَوَاهِبِ وَٱلْجَهْلُ شَرُّ ٱلْمَصَائِبِ. قَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ:

يَزِينُ ٱلْفَتَى فِي ٱلنَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ ... وَاِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِينُ ٱلْفَتَى فِي ٱلنَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ ... وَاِنْ كَرُمَتْ اَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
يَعِيشُ ٱلْفَتَى بِٱلْعَقْلِ فِي ٱلنَّاسِ اِنَّهُ ... عَلَى ٱلْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَاَفْضَلُ قَسْمِ ٱللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
اِذَا اَكْمَلَ ٱلرَّحْمَانُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ ... فَقَدْ كَمُلَتْ اَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَقَالَ مُطَرِّفٌ: مَا اُوتِيَ ٱلْعَبْدُ بَعْدَ ٱلْاِيمَانِ بِٱللهِ تَعَالَى اَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَقْلِ. وَيُقَالُ: مَا تَمَّ دِينُ ٱمْرِئٍ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ. قَالَ بُزُرْجُمْهِرُ: ٱلْعَقْلُ كَٱلْمِسْكِ اِنْ خَبَأْتَهُ عَبِقَ وَاِنْ بِعْتَهُ نَفَقَ. وَقَالُوا: ٱلْعَقْلُ كَنُورٍ وَضَعَهُ ٱللهُ طَبْعًا وَغَرَزَهُ فِي ٱلْقَلْبِ كَٱلنُّورِ فِي ٱلْعَيْنِ وَهُوَ ٱلْبَصَرُ.

وَكَمَا يُدرَكُ بِٱلْبَصَرِ شَوَاهِدُ ٱلْأُمُورِ كَذٰلِكَ يُدرَكُ بِنُورِ ٱلْعَقْلِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَحْجُوبِ وَٱلْمَسْتُورِ. وَعَمَى ٱلْقَلْبِ كَعَمَى ٱلْبَصَرِ. قَالَ بَزَرْجَمْهِرُ: ٱلْإِنْسَانُ صُورَةٌ فِيهَا عَقْلٌ فَإِنْ اخْطَأَهُ ٱلْعَقْلُ وَلَزِمَتْهُ ٱلصُّورَةُ فليس بِإِنْسَانٍ. قَالَ ٱلْمُتَنَبِّي:

لَوْلَا ٱلْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ

وَسُمِّيَ ٱلْعَقْلُ عَقْلًا تَشْبِيهًا بِعَقْلِ ٱلنَّاقَةِ (١) لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ يَمْنَعُ ٱلْإِنْسَانَ مِنَ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى شَهَوَاتِهِ إِذَا قَبُحَتْ كَمَا يَمْنَعُ ٱلْعَقْلُ ٱلنَّاقَةَ مِنَ ٱلشُّرُودِ إِذَا نَفَرَتْ. وَلِذَلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ: إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ

البحث الثاني

في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسَب

(عن الوطواط والماوردي)

اِعْلَمْ أَنَّ بِٱلْعَقْلِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ ٱلْأُمُورِ وَيُفْصَلُ بَيْنَ ٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ وَقَدْ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ غَرِيزِيٌّ وَمُكْتَسَبٌ. قَالَ ٱلْعُتْبِيُّ: ٱلْعَقْلُ عَقْلَانِ عَقْلٌ تَفَرَّدَ ٱللهُ بِصُنْعِهِ وَهُوَ ٱلْأَصْلُ. وَعَقْلٌ يَسْتَفِيدُهُ ٱلْمَرْءُ بِهِ وَهُوَ ٱلْفَرْعُ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا قَوَّى كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ تَقْوِيَةَ ٱلنَّارِ فِي ٱلظُّلْمَةِ. وَلِذَلِكَ قَالَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ عَقْلَيْنِ فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ

١ يُقال عَقَل الناقة عقلا اي ربطها في وسط ذراعها بحبل ويسمَّى الحبل عقالا

فَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ　　إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعٌ
كَمَا لَا تَنْفَعُ ٱلشَّمْسُ　　وَضَوْءُ ٱلْعَيْنِ مَمْنُوعٌ *

البحث الثالث

في العقل الغريزيّ وتعريفه

(عن الماوردي باختصار)

إِنَّ ٱلْعَقْلَ ٱلْغَرِيزِيَّ هُوَ ٱلْعَقْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ ٱلتَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ إِلَى نُقْصَانٍ . وَبِهِ

* قد قسَّم القزوينيُّ القوى العقلية الى اربعة اقسام مرجعها الى هذين القسمين قال:القوى العقلية اربعة اقسام.(الاول) القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي التي بها استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكريّة فيقال انها القوة الغريزيّة بها يستعدّ الانسان لادراك العلوم النظريّة.فكما ان الحياة هي الجسم للحركات الاختياريّة والادراكات الحسيّة فكذلك هذه القوّة الغريزيّة تهيئة الانسان للعلوم النظريّة والصناعات الفكريّة والحكماء يقولون لها العقل الهيولاني وهي مجرّد الاستعداد الذي هوموجود في الطفل وغير موجود في ولد البهيمة.(الثاني)القوّة التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميّز جواز الجائزات وا ستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانين فيقال له التصوُّرات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والحكماء يسمونهُ العقل بالملكة . (والثالث) قوّة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال فمن اتّصف بها يقال انهُ عاقل في العادة ومن لم يتّصف بها يقال انهُ غبيٌّ غمر .فيقال لها معانٍ مجتمعة في الذهن من مقدّمات تستنبط بها المصالح في الاعراض . (والرابع) قوّة بها تُعرف حقائق الامور وعواقبها فتقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة وتحتمل المكروه العاجل لسلامة الآجل . فاذا حصلت هذه القوّة يسمّى صاحبها عاقلًا من حيث ان اقدامهُ واحجامهُ بحسب ما يقتضيهِ النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة.والأوّلان بالطبع والأخيران بالاكتساب

يَمْتَازُ ٱلْإِنْسَانُ عَنْ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ فَإِذَا تَمَّ فِي ٱلْإِنْسَانِ سُمِّيَ عَاقِلًا وَخَرَجَ بِهِ إِلَى حَدِّ ٱلْكَمَالِ كَمَا قَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ :

اذَا تَمَّ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ وَتَمَّتْ امَانِيهِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ

وَٱخْتَلَفَ ٱلنَّاسُ فِي حَدِّ ٱلْعَقْلِ وَفِي صِفَتِهِ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى فَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ يُفْصَلُ بِهِ بَيْنَ ٱلْحَقَائِقِ ٱلْمَعْلُومَاتِ .. وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْعَقْلِ بِأَنَّهُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ ٱلْجَوَاهِرَ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُوجِبَ بَعْضُهَا مَا لَا يُوجِبُ سَائِرُهَا وَلَوْ أَوْجَبَ سَائِرُهَا مَا يُوجِبُ بَعْضُهَا لَٱسْتَغْنَى ٱلْعَاقِلُ بِوُجُودِ نَفْسِهِ عَنْ وُجُودِ عَقْلِهِ(١) . (وَٱلثَّانِي) أَنَّ ٱلْجَوْهَرَ يَصِحُّ قِيَامُهُ بِذَاتِهِ فَلَوْ كَانَ ٱلْعَقْلُ جَوْهَرًا لَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَقْلٌ بِغَيْرِ عَاقِلٍ كَمَا جَازَ أَنْ يَكُونَ جِسْمٌ بِغَيْرِ عَقْلٍ . فَٱمْتَنَعَ بِهٰذَيْنِ أَنْ يَكُونَ ٱلْعَقْلُ جَوْهَرًا . وَقَالَ آخَرُونَ : ٱلْعَقْلُ هُوَ ٱلْمُدْرِكُ لِلْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ مِمَّا قَبْلَهُ فَبَعِيدٌ مِنَ ٱلصَّوَابِ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ وَهُوَ : أَنَّ ٱلْإِدْرَاكَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْحَيِّ (٢) وَٱلْعَقْلُ عَرَضٌ يَسْتَحِيلُ ذٰلِكَ مِنْهُ كَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مُتَلَذِّذًا أَوْ آلِمًا أَوْ مُشْتَهِيًا (٣) . وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ

(١) يُريد انهُ لو كان العقل جوهراً مختلفاً عن جوهر النفس ملازماً لها لاتَّفقا في جميع اجزائها لان النفس والعقل بسيطان متماثلان في ذلك واذا تمَّ الاتفاق كان جوهر النفس وجوهر العقل واحدًا فيستغني الانسان عن عقلهِ بوجود نفسهِ وهذا باطلٌ

(٢) يُريد هنا بالادراك على ما حدَّهُ الحكماء تمثيل حقيقة الشيء وحدهُ من غير حكم عليهِ او اثبات ويُسمَّى ايضاً التصوُّر وهذا يعمُّ كل حيّ لا يختص بالانسان فقط

(٣) اي ان العقل لا يمكنهُ ادراك هذه الجزئيات كما يستحيل عليهِ ان يكون ملتذذاً او آلمًا او مشتهيًا . لان اللذَّة والألم والشهوة من الانفعالات الطارئة على المركَّب

ٱلْمُتَكَلِّمِينَ : ٱلْعَقْلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ. وَهٰذَا ٱلْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلْإِجْمَالِ وَيَتَأَوَّلُهُ مِنَ ٱلْاِحْتِمَالِ . وَٱلْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ ٱلْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ ٱلْإِجْمَالَ وَٱلْاِحْتِمَالَ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلصَّحِيحُ : إِنَّ ٱلْعَقْلَ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ. وَذٰلِكَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا مَا وَقَعَ عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ. فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ فَمِثْلُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْأَصْوَاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلسَّمْعِ وَٱلطُّعُومِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلذَّوْقِ وَٱلرَّوَائِحِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلشَّمِّ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱللَّمْسِ . فَإِذَا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِّهِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ . لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ ٱلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنْ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ . وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ فَكَٱلْعِلْمِ بِأَنَّ ٱلشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ . وَأَنَّ ٱلْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ . وَأَنَّ مِنَ ٱلْمُحَالِ ٱجْتِمَاعَ ٱلضِّدَّيْنِ. وَأَنَّ ٱلْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ ٱلْاِثْنَيْنِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ ٱلْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ. فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ ٱلْعَقْلِ

الانساني . ولإدراك العقل يقتضي ان تجرَّد مادَّتهُ عن المحسوسات وهذا ما يصنعهُ العقل بالفعل فتنتقل المفردات بذلك الى حالة الكليَّات

البحث الرابع

في العقل المكتسب

(عن الماوردي)

إنَّ ٱلعقلَ ٱلمكتسَبَ هُوَ نتيجةُ ٱلعقلِ ٱلغريزيِّ وهُوَ نهايةُ ٱلمعرفةِ وصحَّةِ ٱلسياسةِ وإصابةِ ٱلفكرةِ وليس لهذا حدٌّ لِأنَّهُ ينمي إنِ ٱستُعمِلَ وينقصُ إنْ أُهمِلَ . ونَمَاؤُهُ يكونُ بِأحدِ وجهينِ : (ٱلوجهُ ٱلأوَّلُ) بِكثرةِ ٱلاستعمالِ إذا لمْ يعارضْهُ مانعٌ مِنْ هوى ولا صادٌّ مِنْ شهوةٍ كالّذي يحصُلُ لِذوِي ٱلأسنانِ مِنَ ٱلحُنكةِ وصحَّةِ ٱلرَّوِيَّةِ لِكثرةِ ٱلتجاربِ ومُمارسةِ ٱلأمورِ . ولِذلكَ حمِدتِ ٱلعربُ آراءَ ٱلشيوخِ حتّى قالَ بعضُهُم : ٱلمشايخُ أشجارُ ٱلوقارِ . ومناجِعُ ٱلأخبارِ . لا يطيشُ لهُم سهمٌ . ولا يسقطُ لهُم وهمٌ . إنْ رأوكَ في قبيحٍ صدُّوكَ . وإنْ أبصروكَ على جميلٍ أمدُّوكَ . وقيلَ : عليكُم بِآراءِ ٱلشيوخِ فإنَّهُمْ إنْ فقدُوا ذكاءَ ٱلطبعِ فقدْ مرَّتْ على عيونِهِمْ وُجوهُ ٱلعِبَرِ . وتصدَّتْ لِأسماعِهِمْ آثارُ ٱلغِيَرِ . وقيلَ في منثورِ ٱلحِكَمِ : مَنْ طالَ عُمرُهُ نقصتْ قُوَّةُ بدنِهِ وزادتْ قُوَّةُ عقلِهِ . وقالَ فيهِ : لا تدعُ ٱلأيّامُ جاهلاً إلّا أدَّبتْهُ . وقالَ بعضُ ٱلحُكماءِ : كفى بِٱلتجاربِ تأدُّبًا وبِتقلُّبِ ٱلأيّامِ عِظَةً . وقالَ بعضُ ٱلبلغاءِ : ٱلتجربةُ مرآةُ ٱلعقلِ . وٱلغِرَّةُ ثمرةُ ٱلجهلِ . وقالَ بعضُ ٱلأدباءِ : كفى مُخبِرًا عمّا بقيَ ما مضى وكفى عِبَرًا لِأُولي ٱلألبابِ ما جرَّبوا . وقالَ بعضُ ٱلشعراءِ :

اَلَمْ تَرَ اَنَّ ٱلْعَقْلَ زَيْنٌ لِاَهْلِهِ ... وَلٰكِنْ تَمَامُ ٱلْعَقْلِ طُولُ ٱلتَّجَارِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

اِذَا طَالَ عُمْرُ ٱلْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ ... اَفَادَتْ لَهُ ٱلْاَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

(وَاَمَّا ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ ٱلذَّكَاءِ وَحُسْنِ ٱلْفِطْنَةِ وَذٰلِكَ جُودَةُ ٱلْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ مُهْمَلٍ لِلْحَدْسِ . فَاِذَا ٱمْتَزَجَ بِٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوُّ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُكْتَسَبِ . كَٱلَّذِي يَكُونُ فِي ٱلْاَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعَقْلِ وَجُودَةِ ٱلرَّأْيِ حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ حِينَ تَنَافَرَ اِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ ٱلطُّفَيْلِيِّ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ : عَلَيْكُمْ بِٱلْحَدِيثِ ٱلسِّنِّ . ٱلْحَدِيدِ ٱلذِّهْنِ . وَلَعَلَّ هَرِمًا اَرَادَ اَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَٱعْتَذَرَ بِمَا قَالَ . لٰكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ اِذْعَانًا لِلْحَقِّ فَصَارَا اِلَى اَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ . فَاَبَى اَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا اِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا . وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ :

يَاهَرِمُ ٱبْنَ ٱلْاَكْرَمِينَ مَنْصِبَا ... اِنَّكَ قَدْ اُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ : عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ ٱلشَّبَابِ فَاِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ ٱلْقِدَمِ . وَلَا ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ ٱلْهَرَمِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَاَيْتُ ٱلْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ ٱنْتِهَابًا ... وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ ٱلسِّنِينَا

وَلَوْ اَنَّ ٱلسِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ ... حَوَى ٱلْآبَاءُ اَنْصِبَةَ ٱلْبَنِينَا

وَحَكَى ٱلْاَصْمَعِيُّ قَالَ : قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ اَوْلَادِ ٱلْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَاَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ : اَيَسُرُّكَ اَنْ يَكُونَ لَكَ

مِئَةُ أَلفِ دِرْهَمٍ وَأَنتَ أَحمَقُ. قَالَ: لَا. قَالَ: فَقُلتُ: وَلِمَ. قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمقِي جِنَايَةً تَذهَبُ بِمَالِي وَيَبقَى عَلَيَّ حُمقِي. فَانظُرْ إِلَى هٰذَا الصَّبِيِّ كَيفَ استَخرَجَ بِفَرطِ ذَكَائِهِ وَاستَنبَطَ بِجُودَةِ قَرِيحَتِهِ مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ أَكبَرُ مِنهُ سِنًّا وَأَكثَرُ تَجرِبَةً. وَأَحسَنُ مِنْ هٰذَا الذَّكَاءِ وَالفِطْنَةِ مَا حَكَى ابنُ قُتَيبَةَ: إِنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ مَرَّ بِصِبيَانٍ يَلعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبدُاللهِ بنُ الزُّبَيرِ فَهَرَبُوا مِنهُ إِلَّا عَبدَاللهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَالَكَ لَا تَهرُبُ مَعَ أَصحَابِكَ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ لَمْ أَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَأَخَافَكَ وَلَمْ يَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَأُوسِعَ لَكَ. فَانظُرْ مَا تَضَمَّنَهُ هٰذَا الجَوَابُ مِنَ الفِطْنَةِ وَقُوَّةِ المُنَّةِ وَحُسنِ البَدِيهَةِ كَيفَ نَفَى عَنهُ اللَّومَ وَأَثبَتَ لَهُ الحُجَّةَ فَلَيسَ لِلذَّكَاءِ غَايَةٌ. وَلَا لِجُودَةِ القَرِيحَةِ نِهَايَةٌ

البحث الخامس

في التصوُّر والتمثُّل

(من كتاب زجر النفس لهرمس)

يَا نَفسُ إِنَّ مُبدِعَ الأَشيَاءِ وَمُنشِئَهَا جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسمَاؤُهُ أَبدَعَكِ وَجَعَلَكِ ذَاتَ التَّصَوُّرِ وَالتَّمَثُّلِ. فَأَمَّا التَّصَوُّرُ فَتَصَوُّرُكِ الشَّيءَ عَلَى حَقِيقَةِ مَا أَبدَعَهُ مُبدِعُهُ. وَأَمَّا التَّمَثُّلُ فَتَمَثُّلُكِ مَا خَفِيَ عَنكِ مِنْ عَالَمِ العَقلِ بِمَا شَاهَدتِهِ فِي عَالَمِ الحِسِّ مِثلًا بِمِثلٍ وَمَعنًى بِمَعنًى كَمَا أَنْ تَدُلَّ ذَاتُ الصُّورَةِ المَطبُوعَةِ فِي الشَّمعِ عَلَى مَعنَاهَا وَحَقِيقَتِهَا فِي الطَّابِعِ وَكَمَا تَدُلُّ الصُّورَةُ المُمَثَّلَةُ فِي الطَّابِعِ عَلَى مَعنَى حَقِيقَتِهَا فِي نَفسِ مُمَثِّلِهَا وَمُصَوِّرِهَا وَكَمَا يُؤَثِّرُ المَاءُ فِي الرَّملِ مَعَانِيَ حَرَكَاتِهِ وَتَمَوُّجِهِ

البحث السادس

الخيال والخيالي

(عن الحاج خلفا بتصرّف)

(راجع صفحة ٥ من توطئة علم الادب)

اَلْخَيَالُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الشَّخْصِ وَعِنْدَ الْحُكَمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى اِحدى الْحَوَاسِّ الْبَاطِنَة . وَهُوَ قُوَّةٌ تَحْفَظُ الصُّوَرَ الْمُرْتَسِمَةَ فِي الْحِسِّ الْمُشْتَرِكِ اِذَا غَابَتْ تِلْكَ الصُّوَرُ عَنِ الْحَوَاسِّ الْبَاطِنَة . وَمَحَلُّهُ مُؤَخَّرُ التَّجْوِيفِ الْاَوَّلِ مِنَ التَّجَاوِيفِ الثَّلَاثَةِ لِلدِّمَاغِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ(١).وَاسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ الْخَيَالِ بِاَنَّا اِذَا شَاهَدْنَا صُورَةً ثُمَّ ذَهِلْنَا عَنْهَا زَمَانًا ثُمَّ نُشَاهِدُ مَرَّةً اُخرَى نَحْكُمُ عَلَيهَا بِاَنَّهَا هِيَ الَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ . فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الصُّورَةُ مَحْفُوظَة فِينَا زَمَانَ الذُّهُولِ لَامْتَنَعَ الْحُكْمُ بِاَنَّهَا هِيَ الَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبلَ ذٰلِكَ.(وَالْخَيَالِيُّ) يُطْلَقُ عَلَى الصُّورَةِ الْمُرْتَسِمَةِ فِي الْخَيَالِ الْمُتَأَدِّيَةِ اِلَيهِ مِنْ طُرُقِ الْحَوَاسِّ.وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْمَعْدُومِ الَّذِي اخْتَرَعَتْهُ الْمُتَخَيِّلَةُ وَرَكَّبَتْهُ مِنَ الْاُمورِ الْمَحْسُوسَةِ اَيِ الْمُدرَكَةِ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ . وَبِقَوْلِنَا مِنَ الْاُمورِ الْمَحْسُوسَةِ خَرَجَ الْوَهْمِيُّ بِمَعْنَى مَا اخْتَرَعَتْهُ الْقُوَّةُ الْمُتَخَيِّلَةُ اخْتِرَاعًا صِرْفًا عَلَى نَحْوِ الْمَحْسُوسَاتِ وَبِهٰذَا الْمَعْنى يُسْتَعْمَلُ فِي بَابِ التَّشْبِيهِ كَمَا فِي قَولِ الشَّاعِرِ :

وَكَاَنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيقِ م اِذَا تَصَوَّبَ اَوْ تَصَعَّدْ
اَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

---

(١) ليس هذا الرأي بمقرَّر

فَإِنَّ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْيَاقُوتِيَّةَ ٱلْمَنْشُورَةَ عَلَى ٱلرِّمَاحِ ٱلزَّبَرْجَدِيَّةِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْحِسُّ لِأَنَّ ٱلْحِسَّ إِنَّمَا يُدْرِكُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْمَادَّةِ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْمُدْرِكِ عَلَى هَيْئَاتٍ مَحْسُوسَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِهِ. لٰكِنَّ مَادَّتَهُ ٱلَّتِي يَتَرَكَّبُ هُوَ مِنْهَا كَٱلْأَعْلَامِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلرِّمَاحِ وَٱلزَّبَرْجَدِ كُلٌّ مِنْهَا مَحْسُوسٌ بِٱلْبَصَرِ

البحث السابع

في الحافظة

(عن الماوردي باختصار)

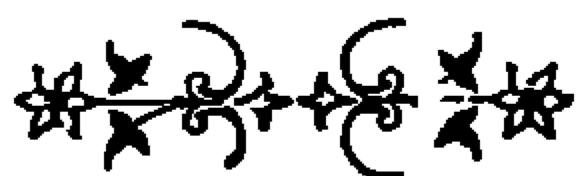
(راجع صفحة ٥٩٦ من توطئة علم الادب)

رُبَّمَا ٱسْتَثْقَلَ ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلدَّرْسَ وَٱلْحِفْظَ وَٱتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَٱلْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَمَنْ أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلِٱمْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُعْقِبُهُ ٱلثِّقَةُ إِلَّا خَجَلًا وَٱلتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا. وَهٰذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: ٱلضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ ٱلْأَمَلِ فِي ٱلتَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادُ ٱلرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلضَّجُورَ خَائِبٌ وَأَنَّ ٱلطَّوِيلَ ٱلْأَمَلِ مَغْرُورٌ وَأَنَّ ٱلْفَاسِدَ ٱلرَّأْيِ مُصَابٌ. وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا: حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فِي كُتُبِكَ. وَقَالُوا: لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَعْبُرُ مَعَكَ ٱلْوَادِي وَلَا يَعْمُرُ بِكَ ٱلنَّادِيَ. وَأُنْشِدْتُ عَنِ ٱلرَّبِيعِ لِلشَّافِعِيِّ:

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِي
إِنْ كُنْتُ فِي ٱلْبَيْتِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِيهِ مَعِي
أَوْ كُنْتُ فِي ٱلسُّوقِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِي ٱلسُّوقِ

وَرُبَّمَا ٱعْتَنَى ٱلْمُتَعَلِّمُ بِٱلْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظًا لِأَلْفَاظِ ٱلْمَعَانِي قَيِّمًا بِتِلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ فَهُوَ كَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي لَا يَدْفَعُ شُبْهَةً وَلَا يُؤَيِّدُ حُجَّةً وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: هِمَّةُ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلرِّوَايَةُ . وَهِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرِّعَايَةُ . وَرَوَى ٱبْنُ مَسْعُودٍ : كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً . وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً . فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لَا يَرْوِي . وَيَرْوِي مَنْ لَا يَرْعَوِي . وَحَدَّثَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا أَبَا سَعِيدٍ عَمَّنْ . قَالَ : مَا تَصْنَعُ بِعَمَّنْ . أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ نَالَتْكَ عِظَتُهُ وَقَامَتْ عَلَيْكَ حُجَّتُهُ

وَرُبَّمَا ٱعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَأَغْفَلَ تَقْيِيدَ ٱلْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ذِهْنِهِ وَهٰذَا خَطَأٌ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلشَّكَّ مُعْتَرِضٌ وَٱلنِّسْيَانَ طَارِقٌ . وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ : ٱجْعَلْ مَا فِي ٱلْكُتُبِ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَمَا فِي ٱلْقَلْبِ ٱلنَّفَقَةَ . وَقَالَ مَهْبُودٌ : لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ ٱلْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ ٱلْأَوَّلِينَ لَانْحَلَّ مَعَ ٱلنِّسْيَانِ عُقُودُ ٱلْآخِرِينَ



البحث الثامن

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٦ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ انَّ لفظَةَ ٱلذَّوْق يَتداولُها ٱلمُعْتَنُونَ بِفُنونِ ٱلبيانِ. ومعناها حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلبَلَاغَةِ لِلِسَانِ ٱلَّتي هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلكَلَامِ لِلمعنى مِن جَمِيعِ وُجُوهِهِ بخَوَاصَّ تقعُ لِلتَّرَاكِيبِ فِي إِفادةِ ذٰلِكَ. فَٱلمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ ٱلعَرَبِ وَٱلبليغ فِيهِ يتحَرَّى ٱلهيئةَ ٱلمُفِيدَةَ لِذٰلِكَ على اسَالِيبِ ٱلعرَبِ وَانحاءِ مُخَاطَبَاتِهِمْ وينظِمُ ٱلكَلَامَ على ذٰلِكَ ٱلوَجْهِ جُهْدَهُ. فَإِذَا ٱتَّصَلَتْ مَقَامَاتُهُ بِمُخالَطَةِ كَلَامِ ٱلعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ ٱلمَلَكَةُ فِي نَظْمِ ٱلكَلَامِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلوَجهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ امرُ ٱلتَّرْكِيبِ حَتَّى لا يَكَادُ يَنْحُو فِيهِ غَيْرَ مَنْحَى ٱلبَلَاغَةِ ٱلَّتِي لِلعَرَبِ. وَإِنْ سَمِعَ تَرْكِيباً غيرَ جَارٍ عَلَى ذٰلِكَ ٱلمَنْحَى مَجَّهُ وَنَبَا عَنْهُ سَمْعُهُ بِادْنَى فِكْرٍ بَلْ وَبِغَيْرِ فِكْرٍ اِلَّا بِمَا ٱسْتَفَادَهُ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ. فَإِنَّ ٱلمَلَكَاتِ إِذَا ٱستَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ فِي مَحَالِّهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذٰلِكَ ٱلمَحَلِّ. وَلِذٰلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ شَأْنَ ٱلمَلَكَاتِ انَّ ٱلصَّوَابَ لِلعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ إِعرَابًا وَبَلَاغَةً امرٌ طَبِيعِيٌّ وَيَقُولُ: كَانَتِ ٱلعَرَبُ تَنْطِقُ بِٱلطَّبعِ. وَلَيسَ كَذٰلِكَ. وَإِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسَانِيَّةٌ فِي نَظْمِ ٱلكَلَامِ تَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ انَّهَا جِبِلَّةٌ وَطَبْعٌ وَهٰذِهِ

الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه . وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها اهل صناعة اللسان . فإن هذه القوانين انما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها . واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم . ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لانه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده . واذا عرض عليه الكلام حائداً عن اسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم اعرض عنه ومجه وعلم انه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم . وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع اهل القوانين النحوية والبيانية . فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا امر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم . ومثاله لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وربي في جيلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وانما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه . وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم واشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين

اَحيائِهِم.وَالْقَوَانِينُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذَا.وَاسْتُعِيرَ لِهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ عِنْدَمَا تَرْسَخُ وَتَسْتَقِرُّ اسْمُ ٱلذَّوْقِ ٱلَّذِي اصْطَلَحَ عَلَيْهِ اَهْلُ صِنَاعَةِ ٱلْبَيَانِ. وَٱلذَّوْقُ اِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِاِدْرَاكِ ٱلطُّعُومِ لٰكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي ٱللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ ٱلنُّطْقِ بِٱلْكَلَامِ كَمَا هُوَ مَحَلٌّ لِاِدْرَاكِ ٱلطُّعُومِ ٱسْتُعِيرَ لَهَا ٱسْمُهُ وَاَيْضًا فَهُوَ وِجْدَانِيٌّ لِلِّسَانِ كَمَا اَنَّ ٱلطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ . وَاِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ اَنَّ ٱلْاَعَاجِمَ ٱلدَّاخِلِينَ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلطَّارِئِينَ عَلَيْهِ ٱلْمُضْطَرِّينَ اِلَى ٱلنُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ اَهْلِهِ كَٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَكَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ فَاِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هٰذَا ٱلذَّوْقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي قَرَّرْنَا اَمْرَهَا . لِاَنَّ قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ وَسَبْقِ مَلَكَةٍ اُخْرَى اِلَى ٱللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ اَنْ يَعْتَنُوا بِمَا يَتَدَاوَلُهُ اَهْلُ ٱلْمِصْرِ(١) بَيْنَهُمْ فِي ٱلْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يَضْطَرُّونَ اِلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِاَهْلِ ٱلْاَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ . وَاِنَّمَا لَهُمْ فِي ذٰلِكَ مَلَكَةٌ اُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةَ ٱللِّسَانِ ٱلْمَطْلُوبَةَ. وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُسَطَّرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ اِنَّمَا حَصَّلَ اَحْكَامَهَا كَمَا عَرَفْتَ وَاِنَّمَا تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ بِٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلْاِعْتِيَادِ وَٱلتَّكَرُّرِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ. فَاِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ اَنَّ سِيبَوَيْهِ وَٱلْفَارِسِيَّ وَٱلزَّمَخْشَرِيَّ وَاَمْثَالَهُمْ مِنْ فُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ كَانُوا اَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ لَهُمْ فَاعْلَمْ اَنَّ اُولٰئِكَ ٱلْقَوْمَ

(١) وفي نسخة : اهل المُضَر

اَلَّذِينَ تَسمعُ عَنهُم اِنَّمَا كَانُوا عَجماً فِي نسبِهِمْ فقطْ وَأَمَّا ٱلْمَربَى وَٱلنَّشأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ أَهلِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ مِنَ ٱلعَربِ وَمَنْ تَعَلَّمهَا مِنْهُمْ فَٱسْتَوْلَوْا بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى غَايَةٍ لَا وَرَاءَهَا . وَكَأَنَّهُم فِي أَوَّلِ نَشأَتِهِمْ مِنَ ٱلعَرَبِ ٱلَّذِينَ نَشَأُوا فِي اَحيائِهِم(١) حَتَّى أَدرَكُوا كُنْهَ ٱللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا . فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَجماً فِي ٱلنَّسبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدرَكُوا ٱلْمِلَّةَ فِي عُنفُوانِهَا وَٱللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذهَبْ آثَارُ ٱلْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ ٱلأَمْصَارِ . ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى غَايَتِهِ . وَٱلْوَاحِدُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلْعَجَمِ إِذَا خَالَطَ أَهْلَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَمْصَارِ فَأَوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ ٱلْمَقْصُودَةَ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ مُنْتَحِيَةَ ٱلْآثَارِ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمْ ٱلْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخْرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ بِٱلْمُدَارَسَةِ وَٱلْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ٱلْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى فِي ٱلْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مَخْدُوشَةً . وَإِنْ فَرَضْنَا عَجَمِيًّا فِي ٱلنَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْحِفْظِ وَٱلْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذٰلِكَ لٰكِنَّهُ مِنَ ٱلنُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ . وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا ٱلذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُغَالَطَةٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ

(١) وفي نسخة : في اجيالهم

وَلَيستْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

البحث التاسع

في المطالعة

(المثل السائر لابي الفتح بن الاثير الموصلي)

(راجع صفحة ٨ من توطئة علم الادب)

إِنَّ فِي ٱلِاطِّلَاعِ عَلَى كَلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلْمَنظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ فَوَائِدَ جَمَّةً لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْهُ أَغْرَاضُ ٱلنَّاسِ وَنَتَائِجُ أَفْكَارِهِمْ وَيُعْرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ وَإِلَى أَيْنَ تَرَامَتْ بِهِ صَنْعَتُهُ فِي ذٰلِكَ. فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ مِمَّا تَشْحَذُ ٱلْقَرِيحَةَ وَتُذَكِّي ٱلْفِطْنَةَ. وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي ذُكِرَتْ وَتَعِبَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا كَٱلشَّيْءِ ٱلْمُلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنْهُ مَا أَرَادَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْمَسْبُوقِ إِلَيْهَا قَدْ يَنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ. وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ خَوَاطِرَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي ٱلْجُودَةِ وَٱلرَّدَاءَةِ فَإِنَّ بَعْضَهَا لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ أَوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ. وَكَثِيرًا مَا تَتَسَاوَى ٱلْقَرَائِحُ وَٱلْأَفْكَارُ فِي ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْمَعَانِي حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنًى مَوْضُوعٍ بِلَفْظٍ ثُمَّ يَأْتِي ٱلْآخَرُ بَعْدَهُ بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ بِعَيْنِهِمَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلْأَوَّلُ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وُقُوعَ ٱلْحَافِرِ عَلَى ٱلْحَافِرِ

البحث العاشر

في الارتياض والممارسة

(المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٩ و ١٠ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَيُّها ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي انَّ مَدارَ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ عَلَى حَاكِمِ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ ٱلَّذِي هُوَ اَنْفَعُ مِنْ ذَوْقِ ٱلتَّعْلِيمِ. وَهٰذا ٱلْكِتَابُ وَإِنْ كَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ إِلَيْكَ أُسْتَاذًا اَوْ إِذَا سَأَلْتَ عَمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي فَنِّهِ قِيلَ لَكَ هٰذَا فَإِنَّ ٱلدُّرْبَةَ وَٱلْإِدْمَانَ اَجْدَى عَلَيْكَ نَفْعًا وَاَهْدَى بَصَرًا وَسَمْعًا. وَهُمَا يُرِيَانِكَ ٱلْخَبَرَ عِيَانًا وَيَجْعَلَانِ عُسْرَكَ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِمْكَانًا وَكُلَّ جَارِحَةٍ مِنْكَ قَلْبًا وَلِسَانًا. فَخُذْ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ مَا اَعْطَاكَ وَٱسْتَنْبِطْ بِإِدْمَانِكَ مَا اَخْطَاكَ. وَمَا مَثَلِي فِيمَا مَهَّدْتُهُ لَكَ مِنْ هٰذَا ٱلطَّرِيقِ إِلَّا كَمَنْ طَبَعَ سَيْفًا وَوَضَعَهُ فِي يَمِينِكَ لِتُقَاتِلَ بِهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَخْلُقَ لَكَ قَلْبًا فَإِنَّ حَمْلَ ٱلنِّصَالِ غَيْرُ مُبَاشَرَةِ ٱلْقِتَالِ

وَإِنَّمَا يَبْلُغُ ٱلْإِنْسَانُ غَايَتَهُ   مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِٱلرَّحْلِ شِمْلَالُ

وَإِنَّ صَاحِبَ ٱلْكِتَابَةِ لَا يَرَى فِي اَمْرِهِ إِلَّا صُعُوبَةً وَوُعُورَةً وَطَرِيقًا مُشْكِلَةَ ٱلْمَذَاهِبِ كَثِيرَةَ ٱلشِّعَابِ. فَإِذَا اَكْرَهَ خَاطِرَهُ عَلَى سُلُوكِهَا وَشَجَّعَهُ عَلَى تَوَرُّدِهَا فَمَا مَضَى بِهِ هُنَيْهَةٌ حَتَّى يَسْتَبِرَّ بِهِ ٱلطَّرِيقُ وَيَتَّضِحَ لَدَيْهِ. وَٱلتَّعَبُ عَلَى مَنَازِلِ ٱلْعَلْيَاءِ إِمَارَةٌ

البحث الحادي عشر

في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين

(المثل السائر باختصار)

(راجع صفحة ١٠ من توطئة علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ هُوَ كَنْزُ ٱلْكِتَابَةِ وَمَنْبَعُهَا وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِشَيْءٍ. وَلَمَّا حُبِّبَتْ إِلَيَّ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةُ وَبَلَّغَنِي ٱللّٰهُ مِنْهَا مَا بَلَّغَنِي وَجَدتُّ ٱلطَّرِيقَ يَنْقَسِمُ فِيهَا إِلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ: (ٱلْأُولَى) أَنْ يَتَصَفَّحَ ٱلْكَاتِبُ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَيَطَّلِعَ عَلَى أَوْضَاعِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي ثُمَّ يَحْذُو حَذْوَهُمْ. وَهٰذِهِ أَدْنَى ٱلطَّبَقَاتِ عِنْدِي. (ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَمْزُجَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَسْتَجِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ زِيَادَةٍ حَسَنَةٍ إِمَّا فِي تَحْسِينِ ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي تَحْسِينِ ٱلْمَعَانِي. وَهٰذِهِ ٱلطَّبَقَةُ ٱلْوُسْطَى وَهِيَ أَعْلَى مِنَ ٱلَّتِي قَبْلَهَا. (ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ لَا يَتَصَفَّحَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَلَا يَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ يَصْرِفَ هَمَّهُ إِلَى حِفْظِ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْأَخْبَارِ وَعِدَّةٍ مِنْ دَوَاوِينِ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَى شِعْرِهِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظِ. ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ٱلِٱقْتِبَاسِ مِنْ هٰذِهِ فَيَقُومُ وَيَقَعُ وَيُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَيَضِلُّ وَيَهْتَدِي حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَفْتَتِحُهَا لِنَفْسِهِ. وَأَخْلِقْ بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقِ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً غَرِيبَةً لَا شَرِكَةَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا. وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ طَرِيقُ ٱلِٱجْتِهَادِ وَصَاحِبُهَا يُعَدُّ إِمَامًا فِي فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ. إِلَّا أَنَّهَا مُسْتَوْعِرَةٌ جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُهَا إِلَّا مَنْ رَزَقَهُ ٱللّٰهُ

تعالى لساناً هجّاماً وخاطراً رقّاماً وانما تكون نفاسة الاشياء بعزّة حصولها ومشقة وصولها :

ليس حلواً وجودك الشيء تبغيه م طلاباً حتّى يعزّ طلابه

وهذه الطريق يجهلها كثير من متعاطي هذه الصناعة والذي يعلمها منهم يرضى بالحواشي والاطراف ويقنع من لآليها بمعرفة ما في الاصداف . ولا اريد بهذه الطريقة ان يكون الكاتب مرتبطاً في كتابته بما يستخرجه بحيث انه لا ينشيء كتاباً الّا من ذلك بل اريد انه اذا حفظ مما قدّمنا شيئاً ثم نقب عن ذلك تنقيب مطّلع على معانيه مفتش عن دفائنه وقلّبه ظهراً لبطن عرف حينئذ من اين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية . الا ترى صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر الى معرفة اخبار الاحكام والى معرفة علم العربية والفرائض والحساب من المعلوم والمجهول . وكذلك يجري الحكم في الكاتب اذا احب الترقي الى درجة الاجتهاد في الكتابة فانه يحتاج الى ادوات كثيرة سنذكرها

فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليهِ من المعارف

البحث الاوَّل

في صفة الكاتب الظاهرة

(عن ابراهيم الشيباني وآثار الاول للحسن بن عبدالله)

قِيلَ اِنَّهُمْ قَدِ ٱسْتَحْسَنُوا فِي ٱلْكَاتِبِ ٱعْتِدَالَ ٱلْقَامَةِ وَصِغَرَ ٱلْهَامَةِ وَخِفَّةَ ٱللَّهَازِمِ وَصِدْقَ ٱلْحِسِّ وَلُطْفَ ٱلْمَذْهَبِ وَحَلَاوَةَ ٱلشَّمَائِلِ وَحُسْنَ ٱلْاِشَارَةِ وَمَلَاحَةَ ٱلزِّيِّ حَتَّى قَالَ بَعْضُ ٱلْمَهَالِبَةِ لِوُلْدِهِ : تَزَيَّوْا بِزِيِّ ٱلْكُتَّابِ فَاِنَّ فِيهِمْ ادبَ ٱلْمُلُوكِ وَتَوَاضُعَ ٱلسُّوقَةِ . وَقِيلَ : اِنَّ مِنْ كَمَالِ آلَةِ ٱلْكِتَابَةِ ان يَكُونَ ٱلْكَاتِبُ نَقِيَّ ٱلْمَلْبَسِ نَظِيفَ ٱلْمَجْلِسِ ظَاهِرَ ٱلْمُرُوَّةِ دَقِيقَ ٱلذِّهْنِ حَسَنَ ٱلْفَهْمِ وَافِرَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَقْلِ صَادِقَ ٱلْحِسِّ حَسَنَ ٱلْبَيَانِ صَحِيحَ ٱلرَّأْيِ وَٱلْعِبَارَةِ مَلِيحَ ٱلتَّأَنِّي فِي نَظْمِ ٱلْمَعَانِي وَنَثْرِهَا دَقِيقَ حَوَاشِي ٱللِّسَانِ حُلْوَ ٱلْاِشَارَةِ مَلِيحَ ٱلْاِسْتِعَارَةِ لَطِيفَ ٱلْمَسَالِكِ مُسْتَقِرَّ ٱلتَّرْكِيبِ . وَلَا يَكُونَ مَعَ ذٰلِكَ فَدْمَ ٱلْمَنْظَرِ مُتَفَاوِتَ ٱلْاَجْزَاءِ مُضْطَرِبَ ٱلْخَلْقِ . فَاِنَّهُمْ زَعَمُوا اَنَّ هٰذِهِ ٱلصُّورَةَ لَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهَا ٱلذَّكَاءُ وَٱلْفِطْنَةُ. وَاِنِ ٱتَّفَقَ اَنْ يَكُونَ حَسَنَ ٱلْخَطِّ فَهُوَ كَمَالُهُ وَاِلَّا فَيَكُونُ هُوَ ٱلْمُنْشِئَ وَغَيْرُهُ ٱلْكَاتِبَ . وَنَظَرَ احْمَدُ ٱبْنُ خَصِيبٍ اِلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ فَقَالَ : لَاَنْ يَكُونَ هٰذَا فِنْطَاسَ مَرْكَبٍ اَشْبَهُ مِنْ اَنْ يَكُونَ كَاتِبًا . قَالَ بَعْضُهُمْ :

عَلَيْكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ رَشِيقٍ ذَكِيٍّ فِي شَمَائِلِهِ حَذَارَهْ

تُنَاجِيهِ بِطَرْفِكَ مِنْ بَعِيدٍ　　فَيَفْهَمُ رَجْعَ لَحْظِكَ بِالْإِشَارَهْ

فَإِذَا ٱجْتَمَعَتْ لِلْكَاتِبِ هٰذِهِ ٱلْخِلَالُ وَٱنْتَظَمَتْ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ فَهُوَ ٱلْكَاتِبُ ٱلْبَلِيغُ وَٱلْأَدِيبُ ٱلنِّحْرِيرُ وَإِنْ قَصُرَتْ بِهِ آلَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْآلَاتِ وَقَعَدَتْ بِهِ أَدَاةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَدَوَاتِ فَهُوَ مَنْقُوصُ ٱلْجَمَالِ مُنْكَسِفُ ٱلْحِسِّ مَنْحُوسُ ٱلنَّصِيبِ

البحث الثاني

في ادوات علم الكتابة

(عن المثل السائر لابن الاثير الموصلي باختصار)

اِعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ تَفْتَقِرُ إِلَى آلَاتٍ كَثِيرَةٍ. وَقَدْ قِيلَ: يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِكُلِّ عِلْمٍ حَتَّى قِيلَ: كُلُّ ذِي عِلْمٍ يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ إِلَيْهِ فَيَقُولَ: فُلَانٌ ٱلنَّحْوِيُّ وَفُلَانٌ ٱلْفَقِيهُ وَلَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ إِلَى ٱلْكِتَابَةِ فَيَقُولَ: فُلَانٌ ٱلْكَاتِبُ وَذٰلِكَ لِمَا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْخَوْضِ فِي كُلِّ فَنٍّ. وَمِلَاكُ هٰذَا كُلِّهِ ٱلطَّبْعُ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ طَبْعٌ فَإِنَّهُ لَا تُغْنِي تِلْكَ ٱلْآلَاتُ شَيْئًا. وَمِثَالُ ذٰلِكَ كَمَثَلِ ٱلنَّارِ ٱلْكَامِنَةِ فِي ٱلزِّنَادِ وَٱلْحَدِيدَةِ ٱلَّتِي يُقْدَحُ بِهَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ٱلزِّنَادِ نَارٌ لَا تُفِيدُ تِلْكَ ٱلْحَدِيدَةُ شَيْئًا. وَكَثِيرًا مَا رَأَيْنَا مِنْ غَرَائِبِ ٱلطِّبَاعِ فِي تَعَلُّمِ ٱلْعُلُومِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ لَهُ نَفَاذٌ فِي تَعَلُّمِ عِلْمٍ مُشْكِلِ ٱلْمَسْلَكِ صَعْبِ ٱلْمَأْخَذِ فَإِذَا كُلِّفَ تَعَلُّمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ سَهْلِ ٱلْعُلُومِ نَكَسَ

عَلَى عَقِبَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَفَاذٌ . وَأَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الطَّبْعِ فِي ٱلْمَنْظُومِ يُجِيدُ فِي ٱلْمَدِيحِ دُونَ ٱلْهِجَاءِ أَوْ فِي ٱلْهِجَاءِ دُونَ ٱلْمَدِيحِ أَوْ يُجِيدُ فِي ٱلْمَرَاثِي دُونَ ٱلتَّهَانِي أَوْ فِي ٱلتَّهَانِي دُونَ ٱلْمَرَاثِي. وَكَذٰلِكَ صَاحِبُ ٱلطَّبْعِ فِي ٱلْمَنْثُورِ. هٰذَا ٱبْنُ ٱلْحَرِيرِيِّ صَاحِبُ ٱلْمَقَامَاتِ قَدْ كَانَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَنْمِيقِ ٱلْمَقَامَاتِ وَاحِدًا فِي فَنِّهِ فَلَمَّا حَضَرَ بِبَغْدَادَ وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ قِيلَ هٰذَا يَسْتَصْلِحُ لِكِتَابَةِ ٱلْإِنْشَاءِ فِي دِيوَانِ ٱلْخِلَافَةِ وَيَحْسُنُ أَثَرُهُ فِيهِ . فَأُحْضِرَ وَكُلِّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَأُفْحِمَ وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلَةٍ وَلَا قَصِيرَةٍ . . . . وَبَلَغَنِي عَنِ ٱلشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ ٱلْخَشَّابِ ٱلنَّحْوِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : ٱبْنُ ٱلْحَرِيرِيِّ رَجُلُ مَقَامَاتٍ أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ سِوَاهَا وَإِنْ أَتَى بِغَيْرِهَا لَا يَقُولُ شَيْئًا . فَٱنْظُرْ أَيُّهَا ٱلْمُتَأَمِّلُ إِلَى هٰذَا ٱلتَّفَاوُتِ فِي ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ وَمِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ قِيلَ : شَيْئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا ٱلْبَيَانُ وَٱلْجَمَالُ

البحث الثالث

فيما يجب على الكاتب معرفتهُ

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ أَنْ يَتَرَشَّحَ بِهِ لِلْكِتَابَةِ قِرَاءَةُ مَا يَتَّفِقُ مِنْ (كُتُبِ ٱلنَّحْوِ) ٱلَّتِي يَحْصُلُ بِهَا ٱلْمَقْصُودُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ بِحَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ طَرَفَيِ ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي يَقْرَأُهُ وَيَسْتَكْمِلُ ٱسْتِشْرَاحَهُ وَيُكِبُّ عَلَى

ٱلأعرابِ ويُلازمهُ ويجعلهُ دأبهُ ليرتسمَ في فكرهِ ويدورَ على لسانهِ وينطلقَ بهِ عِقالُ قلمهِ وكَلِمهِ ويزولَ بهِ ٱلوهمُ عن سجيّتهِ ويكونَ على بصيرةٍ من عبارتهِ. فإنهُ لو أتى من ٱلبلاغةِ بأتمّ ما يكونُ ولحنَ ذهبتْ محاسنُ ما أتى بهِ وٱنهدّتْ طبقةُ كلامهِ وألغي جميعُ ما يُحسنهُ ووُقِفَ بهِ عندَ ما جهلهُ . ويتعلّقُ بذٰلكَ قراءةُ ما تهيّأَ من مختصراتِ (كتبِ ٱللغةِ) كالفصيحِ لثعلبٍ وكفايةِ ٱلمتحفظِ وغيرِ ذٰلكَ من كتبِ ٱلألفاظِ ليتّسعَ عليهِ نطاقُ ٱلنطقِ وينفسحَ لهُ مجالُ ٱلعبارةِ وينفتحَ لهُ بابُ ٱلأوصافِ فيما يحتاجُ إلى وصفهِ من خيلٍ أو سلاحٍ أو حربٍ أو سيرٍ أو قتالٍ أو غيرِ ذٰلكَ مما يحتاجُ إلى وصفهِ ويضطرُّ إلى نعتهِ . ويتّصلُ بذٰلكَ حفظُ (خُطبِ ٱلبلغاءِ) من ٱلصحابةِ وغيرِهم ومخاطباتِهم ومحاوراتِهم ومراجعاتِهم وما ادّعاهُ كلٌّ منهم لنفسهِ أو لقومهِ وما نقضهُ عليهِ خصمهُ لما في ذٰلكَ من معرفةِ ٱلوقائعِ بنظائرِها وتلقّي ٱلحوادثِ بما شاكلَها وٱلاقتداءِ بطريقةِ مَن فلجَ على خصمهِ وٱقتفاءِ آثارِ من ٱضطرَّ إلى عذرٍ أو إبطالِ دعوى أو إثباتِها فلحنَ بحجّتهِ وتخلّصَ بألطفِ مأخذهِ ودقّةِ مسلكهِ وحسنِ عبارتهِ . . .

فٱنظرْ في هٰذا وأمثالهِ وٱلحفظُ منهُ وٱلإكثارُ من مطالعتهِ مما يشحذُ ٱلقرائحَ ويفتقُ ٱلأذهانَ ويرتسمُ في ٱلخواطرِ ويكمنُ في ٱلأفكارِ حتّى يفيضَ ما غاضَ منهُ على لسانِ ٱلقلمِ ويتذوقُهُ لكلّ واقعةٍ منوالٌ يُنسجُ عليهِ ومثالٌ ينظرُ في نظائرِ ٱلأمورِ إليهِ

ثمّ ٱلنظرُ في (أيامِ ٱلعربِ) ووقائعِهم وحروبِهم وتسميةِ ٱلأيامِ

ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ ومَعْرِفَةِ يَوْمِ كُلِّ قَبِيلَةٍ عَلَى ٱلأُخْرَى وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلأَشْعَارِ وَٱلْمُنَاقَضَاتِ . لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِمَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ وَاقِعَةٍ قَدِيمَةٍ أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي مُكَاتَبَةٍ مِنْ ذِكْرِ أَيَّامٍ مَشْهُورَةٍ أَوْ ذِكْرِ فَارِسٍ مُعَيَّنٍ . . . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ فِي نَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَيَّامِ عَالِمًا بِمَا جَرَى فِيهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ إِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا مَا يَقُولُ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا وَحَسْبُهُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي صِنَاعَتِهِ وَقُصُورًا عَمَّا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ ٱلْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ

ثُمَّ (ٱلنَّظَرُ فِي ٱلتَّوَارِيخِ)وَمَعْرِفَةُ أَخْبَارِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلِاطِّلَاعِ عَلَى سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتِهِمْ وَذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَمَا ٱتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّجَارِبِ ٱلَّتِي بَلَغُوا بِهَا أَقْصَى ٱلْمَآرِبِ وَغَدَتْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ كَٱلْمِرْآةِ ٱلَّتِي تُصَوِّرُ لَهُمْ وُجُودَ ٱلتَّدْبِيرِ وَتُرِيهِمْ مَا ٱسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ صَغِيرِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلْكَبِيرِ . فَإِنَّهُ قَدْ يُضْطَرُّ إِلَى ٱلسُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالِ مَنْ سَلَفَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْعَصْرِ وَإِلَى ٱلْآنَ وَيُسْتَخْبَرُ كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَكَيْفَ ٱنْتَصَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ . أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ ذِكْرُ وَاقِعَةٍ بِعَيْنِهَا أَوْ يُخْتَجُّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ قَدِيمَةٍ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا مِنْ مَجَازِهَا وَلَا صِدْقَهَا مِنْ مَيْنِهَا

ثُمَّ (حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ) وَمُطَالَعَةُ شُرُوحِهَا وَٱسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهَا وَٱلتَّوَفُّرُ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْهَا كَٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْمُفَضَّلِيَّاتِ وَٱلْأَصْمَعِيَّاتِ وَدِيوَانِ ٱلْهُذَلِيِّينَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لِمَا فِي

ذلكَ مِنْ غزارةِ ٱلْموادّ وصحّةِ ٱلِاسْتشهادِ وكثرة ٱلنقْلِ وصقلِ مِرآةِ ٱلعقلِ وٱنتزاعِ ٱلأمْثالِ وٱلأخذِ في ٱختراعِ ٱلمعاني على اصحّ مِثالٍ وٱلِاطّلاعِ على أصولِ ٱللغةِ وشواهدِها وٱلِاضطلاعِ مِنْ نوادرِ ٱلعربيّةِ وشوارِدِها . وقدْ كانَ ٱلصدرُ ٱلأوّلُ يعتنُونَ بذلكَ غايةَ ٱلِاعتناء . فذُكِرَ انَّ عُمرَ كانَ يُقدّمُ زُهيرَ بنَ ابي سلمى في ٱلشعْرِ فقيلَ لهُ : بِمَ ٱستحقَّ ذلكَ عِندكَ . فقالَ : كانَ لا يُعاظِلُ بينَ ٱلقولِ ولا يتّبِعُ حوشيَّ ٱلكلامِ ولا يمدحُ ٱلرجلَ الّا بما يكونُ في ٱلرجالِ . فإذا أكثرَ ٱلمترشِّحُ للكتابةِ مِنْ حفظِ خيارِ ٱلشعرِ وتدبّرَ معانيهُ يسهلُ عليهِ حالُهُ وظهرتْ لهُ مواضعُ ٱلِاستشهادِ بهِ وساقهُ ٱلكلامُ الى ابرازِ ما في ذخيرةِ حفظِهِ ووضعهِ في مكانِهِ ونقلِهِ في ٱلِاستشهادِ اوِ ٱلتضمينِ الى ما كأنّهُ وُضِعَ لهُ . . . .

وكذلكَ حفظُ جانبٍ جيّدٍ مِنْ شعرِ ٱلمحدَثينَ كأبي تمّام ومُسلمِ ٱبنِ ٱلوليدِ وٱلبحتريِّ وٱبنِ ٱلروميِّ وٱلمتنبي لِلُطفِ مأخذِهمْ ودورانِ ٱلصناعةِ في كلامِهمْ ودقّةِ توليدِ ٱلمعاني في اشعارِهمْ وقُربِ أسلوبِهمْ مِنْ أسلوبِ ٱلخطابةِ وٱلكتابةِ وخصوصًا ٱلمتنبي ٱلذي كأنّهُ ينطِقُ عنْ ألسنةِ ٱلناسِ في محاوراتِهِمْ . وكثُرَ ٱلِاستشهادُ لِشعرِهِ حتّى قلَّ مَنْ يجهلُهُ وحتّى اكتُفيَ بالبيتِ ٱلواحدِ في ٱلدلالةِ على ٱلقصدِ وبلوغِ ٱلغرضِ في ٱلجوابِ كما كتبَ بعضُ مُلوكِ ٱلعربِ الى مَنْ كرّرَ كُتُبَهُ وأرسلَهُ اليهِ بقولِ ٱلمتنبي :

وَلا كُتْبَ الّا ٱلمَشرفيّةُ عِندَهُ   وَلا رُسُلٌ الّا ٱلخميسُ ٱلعرمرمُ

وَكذلكَ ٱلنَّظَرُ فِي رَسَائِلِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ دُونَ حِفْظِهَا لِمَا فِي ٱلنَّظَرِ فِيهَا مِنْ تَنْقِيحِ ٱلْقَرِيحَةِ وَإِرْشَادِ ٱلْخَاطِرِ وَتَسْهِيلِ ٱلطُّرُقِ وَٱلنَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِ ٱلْمُجِيدِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ ٱلْمُحْسِنِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا ٱنْتَجَتْهُ ٱلْقَرَائِحُ مِنْ أَبْكَارِ ٱلْأَفْكَارِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا رَوَّقَتْهُ ٱلْخَوَاطِرُ مِنْ حِيَاضِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ ٱلْقَاصِرَ وَٱلِاحْتِرَازِ مِمَّا أَظْهَرَهُ ٱلنَّقْدُ وَرَدِّ مَا بَهْرَجَهُ ٱلسَّبْكُ . فَأَمَّا ٱلنَّهْيُ عَنْ حِفْظِ ذَٰلِكَ فَلِئَلَّا يَكِلَّ ٱلْخَاطِرُ عَمَّا فِي حَاصِلِهِ وَيَسْتَنِدَ ٱلْفِكْرُ إِلَى مَا فِي مُودَعِهِ وَيَكْتَفِيَ بِمَا لَيْسَ لَهُ وَيَتَلَبَّسَ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ ....

وكذلكَ (ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَمْثَالِ) ٱلْوَارِدَةِ عَنِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا كَأَمْثَالِ ٱلْمَيْدَانِيِّ وَٱلْمُفَضَّلِ بْنِ سَلَمَةَ ٱلضَّبِّيِّ وَحَمْزَةَ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَأَمْثَالِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْوَارِدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ كَأَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ وَأَبِي تَمَّامٍ وَٱلْمُتَنَبِّي وَأَمْثَالِ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱلْأَمْثَالِ ٱلْمَوْضُوعَةِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْحَيَوَانِ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ لِيَسْتَشْهِدَ بِٱلْمَثَلِ فِي مَوْضِعِهِ وَيُورِدَهُ فِي مَكَانِهِ وَيَكُونَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَصْلِهِ وَأَوَّلِ مَنْ أَرْسَلَهُ مَثَلًا وَمَنِ ٱسْتَشْهَدَ بِهِ وَذِكْرِ سَبَبِهِ ....

وَأَمَّا (ٱلتَّمَثُّلُ بِٱلشِّعْرِ) فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ تَمَثَّلَ يَوْمًا بِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

ثُمَّ قَالَ : لِمَنْ هٰذَا. فَقِيلَ لَهُ : لِلنَّابِغَةِ. فَقَالَ : ذَاكَ أَشْعَرُ شُعَرَائِكُمْ. وَسَأَلَ عُمَرُ ٱبْنَ عَبَّاسٍ عَنْ شَيْءٍ فَأَجَابَهُ عَنْهُ فَأَعْجَبَهُ جَوَابُهُ فَقَالَ :

شِنْشِنَةٌ اعرفها مِنْ اخزم . وامثالُ ذلكَ مما تمثّل بهِ الصحابةُ كثيرٌ .

وكذلكَ النظرُ في (الاحكام السلطانيّةِ) فانّهُ قد يؤمرُ بأمرٍ فيَعرِفُ بها كيفَ يُخلِصُ قلمهُ على حُكمِ الشريعةِ المطهرةِ مِنْ ولايةِ القضاءِ والحسبةِ وغيرِ ذلكَ . فهذهِ امورٌ كليّةٌ لابدَّ للمترشحِ لهذهِ الصناعةِ مِن التصدي للاطلاعِ عليها والاكبابِ على مطالعتها والاستكثار منها. ينفقُ مِنْ تلكَ الموادِ ويسلكُ في الوصولِ الى تلكَ الصناعةِ بذلكَ الجوادِ والا فليعلمْ انّهُ في وادٍ والكتابةُ في وادٍ

واما الامورُ الخاصةُ التي تزيدُ معرفتها قدرهُ ويزينُ العلمُ بها نظمهُ ونثرهُ فانها مِنَ المكملاتِ لهذا الفنِّ وانْ لمْ يضطرَّ اليها ذو الذهنِ الثاقبِ والطبعِ السليمِ والقريحةِ المطاوعةِ والفكرةِ المنقحةِ والبديهةِ المجيبةِ والرويّةِ المتصرِّفةِ . لكنَّ العالمَ بها متمكّنٌ من ازمّةِ المعاني يقولُ عن علمٍ ويتصرّفُ عن معرفةٍ وينتقدُ بحجةٍ ويتخيرُ بدليلٍ ويستحسنُ ببرهانٍ ويصوغُ الكلامَ بترتيبٍ

مِنْ ذلكَ (عِلمُ المعاني والبيانُ والبديعُ) وما يلحقُ بها وانا اشيرُ الآنَ الى نكتٍ منها تدلُّ على جلالةِ قدرِ هذا العلمِ وعظمِ الفائدةِ بهِ وانَّ الاديبَ والكاتبَ العاريَيْنِ منهُ قاصرانِ عن ادنى رتبِ الكمالِ يجيدانِ ولا يدريانِ كيفَ يجيبانِ . فلو سُئِلَ عنْ علّةِ معنًى استحسنهُ او لفظٍ استحلاهُ او تركيبٍ استجادهُ لمْ يقدِرْ على الاتيانِ بدليلٍ على ذلكَ كما قالَ بعضهمْ :

يا ابا جعفرٍ اتحكمُ في الشعرِ م وما فيكَ آلةُ الحكامِ

إنَّ نَقْدَ ٱلدِّينَارِ إلَّا عَلَى ٱلصَّرْ فِيَ صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ ٱلْكَلَامِ
قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفْرِقُ فِي ٱلْأَ م شْعَارِ بَيْنَ ٱلْأَرْوَاحِ وَٱلْأَجْسَامِ

وَحَكَى ٱلْإِمَامُ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ ٱلْجُرْجَانِيُّ قَالَ: رَكِبَ ٱلْكِنْدِيُّ ٱلْمُتَفَلْسِفُ إِلَى أَبِي ٱلْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَشْوًا. فَقَالَ لَهُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ: فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدْتَ ذٰلِكَ. قَالَ: وَجَدْتُ ٱلْعَرَبَ تَقُولُ: عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ. ثُمَّ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ. ثُمَّ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ. فَٱلْأَلْفَاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ. فَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ: بَلِ ٱلْمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِٱخْتِلَافِ ٱلْأَلْفَاظِ. فَقَوْلُهُمْ: عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ إِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ. وَقَوْلُهُمْ: إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ. وَقَوْلُهُمْ: إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ قِيَامَهُ. فَمَا أَحَارَ ٱلْمُتَفَلْسِفُ جَوَابًا. فَإِذَا ذَهَبَ مِثْلُ هٰذَا عَلَى ٱلْكِنْدِيِّ فَمَا ٱلظَّنُّ بِغَيْرِهِ. وَإِنْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي ٱمْتِزَاجِهِ بِٱلْقُلُوبِ غَيْرُ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ ٱلْوَرَى غَيْرُ ٱلَّذِي يُدْعَى ٱلْجَمَالَ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ

لٰكِنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلْكَلَامِ يُعْلَمُ سَبَبُ تَحْسِينِهِ وَتُعْلَلُ مَوَادُّ تَمْكِينِهِ وَيُجَابُ عَنِ ٱلْعِلَّةِ فِي ٱنْحِطَاطِهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَيُذْكَرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱرْتِقَائِهِ مِنْ حَضِيضِ ٱلْقَوْلِ إِلَى أَيْفَاعِهِ



الجزء الاول

في علم الانشاء

بحث في تعريف الانشاء

(عن ابي الخير وعن آداب المنشئ لابن صدر الدين)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١)

إِنَّ ٱلإِنْشاءَ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلْمَنْثُورِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَلِيغٌ وَفَصِيحٌ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلآدَابِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَٱللائِقَةِ بِٱلْمَقَامِ . وَمَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِمَّا ذُكِرَ وَمَبَادِيهِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلْخُطَبِ وَٱلرَّسَائِلِ بَلْ لَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُلُومِ سِيَّمَا ٱلْحِكْمَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَسِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَوَصَايَا ٱلْعُقَلاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلأُمُورِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ . هٰذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْخَيْرِ . وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا اوْرَدَهُ فِي عِلْمِ مَبَادِئِ ٱلإِنْشَاءِ وادَوَاتِهِ فَلا وَجْهَ لِجَعْلِهِ عِلْمًا آخَرَ . وَامَّا ٱبْنُ صَدْرِ ٱلدِّينِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْمَعَايِبِ وَنُبْذَةً مِنْ آدَابِ ٱلْمُنْشِئِ . وَزُبْدَةُ كَلامِهِ انَّ لِلنَّثْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ نَثْرٌ مَحَاسِنُ وَمَعَايِبُ يَجِبُ عَلَى ٱلْمُنْشِئِ انْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا فَيَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلْمَعَايِبِ . وَلا بُدَّ انْ يَكُونَ اعْلَى كَعْبًا فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ مُحْتَرِزًا عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلأَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ وَمَا يُخِلُّ لَهُ بِفَهْمِ ٱلْمُرَادِ وَيُوجِبُ

صعوبته وان يتحرز عن التكرار وان يجعل الالفاظ تابعة للمعاني
دون العكس . اذ المعاني اذا تركبت على سجيتها طلبت لانفسها
الفاظا تليق بها فيحسن اللفظ والمعنى جميعا . واما جعل الالفاظ
متكلفة والمعاني تابعة لها فهو كلباس مليح على منظر قبيح فيجب
ان يجتنب عما يفعله بعض من لهم شغف بايراد شيء من المحسنات
اللفظية فيصرفون العناية الى المحسنات ويجعلون الكلام كانه غير
مسوق لافادة المعنى فلا يبالون بخفاء الدلالات وركاكة المعنى .
ومن اعظم ما يليق لمن يتعاطى الانشاء ان يكتب ما يراد لا ما
يريد . كما قيل في الصاحب والصابئ : ان الصابئ يكتب ما يراد
والصاحب يكتب ما يريد . ولا بد ان يلاحظ في كتاب النثر حال
المرسل والمرسل اليه ويعنون الكتاب بما يناسب المقام

الفصل الاول

في الفصاحة

البحث الاوَّل

في تحديد الفصاحة

(عن الفصاحة والبلاغة للامام السيوطي باختصار)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الاول من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ لُغَةً تُنْبِئُ عَنِ ٱلْإِبَانَةِ وَٱلظُّهُورِ يُقَالُ : فَصُحَ ٱلْاعْجَمِيُّ وَافْصَحَ إِذَا ٱنْطَلَقَ لِسَانُهُ وَخَلَصَتْ لُغَتُهُ مِنَ ٱللُّكْنَةِ وَجَادَتْ فَلَمْ يَلْحَنْ . وَافْصَحَ بِهِ اَيْ صَرَّحَ . وَعِنْدَ اهْلِ ٱلْمَعَانِي تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا : وَصْفٌ فِي ٱلْكَلَامِ بِهِ يَقَعُ ٱلتَّفَاضُلُ وَيَثْبُتُ ٱلْإِعْجَازُ . قَالَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ : اَعْلَمْ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ . وَاَصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : اَفْصَحَ ٱللَّبَنُ إِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ . وَهِيَ بِٱلِٱصْطِلَاحِ : عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُتَبَادِرَةِ إِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْمَأْنُوسَةِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا

البحث الثاني

في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما

(عن كتاب الصناعتين الكتابة والانشاء لابي هلال العسكري باختصار)

اَلْبَلَاغَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ : بَلَغْتُ ٱلْغَايَةَ إِذَا ٱنْتَهَيْتُ إِلَيْهَا وَبَلَّغْتُهَا

غَيْرِي. ومَبْلَغُ ٱلشَّيْءِ مُنْتَهَاهُ . وَٱلْمُبَالَغَةُ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلْانْتِهَاءُ إِلَى غَايَتِهِ. فَسُمِّيَتِ ٱلْبَلَاغَةُ بَلَاغَةً لِأَنَّهَا تُنْهِي ٱلْمَعْنَى إِلَى قَلْبِ ٱلسَّامِعِ فَيَفْهَمُهُ وَسُمِّيَتِ ٱلْبُلْغَةُ بُلْغَةً لِأَنَّكَ تَتَبَلَّغُ بِهَا فَتَنْتَهِي بِكَ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَهِيَ ٱلْبَلَاغُ أَيْضًا. وَيُقَالُ: ٱلدُّنْيَا بَلَاغٌ لِأَنَّهَا تُؤَدِّيكَ إِلَى ٱلْآخِرَةِ. وَٱلْبَلَاغُ أَيْضًا ٱلتَّبْلِيغُ . وَمِنْهُ : هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ أَيْ تَبْلِيغٌ. وَيُقَالُ: بَلُغَ ٱلرَّجُلُ بَلَاغَةً إِذَا صَارَ بَلِيغًا كَمَا يُقَالُ نَبُلَ نَبَالَةً إِذَا صَارَ نَبِيلًا. وَكَلَامٌ بَلِيغٌ وَبَلْغٌ (بالفتح) كَمَا يُقَالُ وَجِيزٌ وَوَجْزٌ . وَرَجُلٌ بِلْغٌ (بالكسر) يَبْلُغُ مَا يُرِيدُ وَفِي مَثَلٍ لَهُمْ: أَحْمَقُ بِلْغٌ . وَيُقَالُ : ابلَغْتُ فِي ٱلْكَلَامِ إِذَا أَتَيْتَ بِٱلْبَلَاغَةِ فِيهِ كَمَا تَقُولُ : أَبْرَحْتُ إِذَا أَتَيْتَ بِٱلْبُرَحَاءِ وَهُوَ ٱلْأَمْرُ ٱلْجَسِيمُ . وَٱلْبَلَاغَةُ مِنْ صِفَةِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَلِهٰذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِصِفَةٍ كَانَ مَوْضُوعُهَا ٱلْكَلَامَ وَتَسْمِيَتُنَا ٱلْمُتَكَلِّمَ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ تَوَسُّعٌ وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ كَلَامَهُ بَلِيغٌ كَمَا تَقُولُ : فُلَانٌ رَجُلٌ مُحْكَمٌ وَتَعْنِي أَنَّ أَفْعَالَهُ مُحْكَمَةٌ . وَكَذٰلِكَ كَثْرَةُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ جَعَلَتْ تَسْمِيَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ كَٱلْحَقِيقَةِ

أَمَّا ٱلْفَصَاحَةُ فَقَدْ قَالَ قَوْمٌ إِنَّهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : أَفْصَحَ فُلَانٌ عَمَّا فِي نَفْسِهِ إِذَا أَظْهَرَهُ . وَٱلشَّاهِدُ عَلَى أَنَّهَا هِيَ ٱلْإِظْهَارُ قَوْلُ ٱلْعَرَبِ أَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ إِذَا أَضَاءَ وَفَصَحَ أَيْضًا . وَأَفْصَحَ ٱلْأَعْجَمِيُّ إِذَا أَبَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ يُبِينُ وَفَصُحَ ٱللَّحَّانُ إِذَا عَبَّرَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَأَظْهَرَهُ عَلَى جِهَةِ ٱلصَّوَابِ دُونَ ٱلْخَطَإِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ عَلَى هٰذَا فَٱلْفَصَاحَةُ

وَٱلْبَلَاغَةُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ إِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِبَانَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى وَٱلْإِظْهَارُ لَهُ . وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : ٱلْفَصَاحَةُ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ . فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللهُ تَعَالَى فَصِيحًا إِذَا كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى ٱلْآلَةِ وَلَا يَجُوزُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلْآلَةُ . وَيُوصَفُ كَلَامُهُ بِٱلْفَصَاحَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ تَمَامِ ٱلْبَيَانِ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ ٱلْأَلْثَغَ وَٱلتَّمْتَامَ لَا يُسَمَّيَانِ فَصِيحَيْنِ لِنُقْصَانِ آلَتِهِمَا عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ . وَقِيلَ : زِيَادٌ ٱلْأَعْجَمُ . لِنُقْصَانِ آلَةِ نُطْقِهِ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنِ ٱلْحِمَارِ بِٱلْهِمَارِ فَهُوَ أَعْجَمُ وَشِعْرُهُ فَصِيحٌ لِتَمَامِ بَيَانِهِ . فَعَلَى هَذَا تَكُونُ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْآلَةَ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ دُونَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْبَلَاغَةُ إِنَّمَا هِيَ إِنْهَاءُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْقَلْبِ فَكَأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَتَضَمَّنُ ٱللَّفْظَ وَٱلْبَلَاغَةَ تَتَنَاوَلُ ٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْبَبْغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحًا وَلَا يُسَمَّى بَلِيغًا إِذْ هُوَ مُقِيمُ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ لَهُ قَصْدٌ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ . وَقَدْ يَجُوزُ مَعَ هَذَا أَنْ يُسَمَّى ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ فَصِيحًا بَلِيغًا إِذَا كَانَ وَاضِحَ ٱلْمَعْنَى سَهْلَ ٱللَّفْظِ وَجَيِّدَ ٱلسَّبْكِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٍّ وَلَا مُتَكَلَّفٍ وَخِمٍ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَحَدِ ٱلْإِسْمَيْنِ شَيْءٌ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى وَتَقْوِيمِ ٱلْحُرُوفِ . وَشَهِدْتُ قَوْمًا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ لَا يُسَمَّى فَصِيحًا حَتَّى يَجْمَعَ مَعَ هَذِهِ ٱلنُّعُوتِ فَخَامَةً وَشِدَّةَ جَزَالَةٍ فَيَكُونَ مِثْلَ كَلَامِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ : إِنَّ ٱلنَّاسَ عَبِيدُ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلدِّينُ لَغْوٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا

مُحِصُوا بِالْإِبْتِلَاءِ قَلَّ ٱلدَّيَانُونَ . وَمِثْلُ ٱلْمَنْظُومِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

تَرَى غَابَةَ ٱلْخَطِّيِّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ كَمَا أَشْرَقَتْ فَوْقَ ٱلصِّوَارِ قُرُونُهَا

(قَالُوا) وَإِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ يَجْمَعُ نُعُوتَ ٱلْجُودَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَخَامَةٌ وَفَضْلُ جَزَالَةٍ سُمِّيَ بَلِيغًا ثُمَّ فَصِيحًا كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ ٱلْوَفَاةِ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلَا زَادٍ وَيُقْدِمُ عَلَى مَلِكٍ عَادِلٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَيَسْكُنُ قَبْرًا مُوحِشًا بِلَا أَنِيسٍ . وَقَوْلِ آخَرَ لِأَخٍ لَهُ : مَدَدْتَ إِلَى ٱلْمَوَدَّةِ يَدًا فَشَكَرْنَاكَ وَشَفَعْتَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْجَفَاءِ فَعَذَرْنَاكَ وَٱلرُّجُوعُ إِلَى مَحْمُودِ ٱلْوُدِّ أَوْلَى بِكَ مِنَ ٱلْمُقَامِ عَلَى مَكْرُوهِ ٱلصَّدِّ . وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى صِحَّةِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ بِقَوْلِ ٱلْعَاصِي بْنِ عَدِيٍّ : ٱلشَّجَاعَةُ قَلْبٌ رَكِينٌ وَٱلْفَصَاحَةُ لِسَانٌ رَزِينٌ . وَٱللِّسَانُ هَاهُنَا ٱلْكَلَامُ . وَٱلرَّزِينُ ٱلَّذِي فِيهِ فَخَامَةٌ وَجَزَالَةٌ وَلَيْسَ ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ سُلُوكَ مَذْهَبِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ . وَإِنَّمَا قَصَدْتُ فِيهِ مَقْصِدَ صُنَّاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْكُتَّابِ فَلِهٰذَا لَمْ أُطِلِ ٱلْكَلَامَ فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ

البحث الثالث

في حقيقة الفصاحة

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ هٰذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى ٱلْوَالِجِ وَمَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ عَلَى

ٱلنَّاهِجِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِرُونَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَٱلْبَحْثَ عَنْهُ وَلَمْ اَجِدْ مِنْ ذلك ما يعوَّلُ عَلَيْهِ اِلَّا ٱلْقَلِيلَ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبيَانُ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ يُقَالُ : اَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ اِذَا ظَهَرَ ثُمَّ اِنَّهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ وَلَا يَكْشِفُونَ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيهِ . وَبِهٰذَا ٱلْقَوْلِ لَا تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ ٱلْفَصَاحَةِ لِاَنَّهُ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مِنَ ٱلْاعْتِرَاضَاتِ . (اَحَدُهَا) : اَنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنِ ٱللَّفْظُ ظَاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ اِذَا ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) : اَنَّهُ اِذَا كَانَ ٱللَّفْظُ ٱلْفَصِيحُ هُوَ ٱلظَّاهِرَ ٱلْبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذٰلِكَ بِٱلنِّسَبِ وَٱلْاِضَافَاتِ اِلَى ٱلْاَشْخَاصِ فَاِنَّ ٱللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لِزَيْدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ اِذَنْ فَصِيحٌ عِنْدَ هٰذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْدَ هٰذَا . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْفَصِيحُ هُوَ فَصِيحٌ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ لَا خِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لِاَنَّهُ اِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ ٱلْفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَا هِيَ لَمْ يَبْقَ فِي ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ خِلَافٌ . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّالِثُ) : اَنَّهُ اِذَا جِيءَ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَنْبُو عَنْهُ ٱلسَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ وَصْفُ حُسْنٍ لِلَّفْظِ لَا وَصْفُ قُبْحٍ . فَهٰذِهِ ٱلْاعْتِرَاضَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ اِنَّ ٱللَّفْظَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ . وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى اَقْوَالِ ٱلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مَلَكَتْنِي ٱلْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا اُعَوِّلُ عَلَيْهِ وَلِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِي هٰذَا ٱلْفَنَّ وَمُعَارَكَتِي اِيَّاهُ ٱنْكَشَفَ لِي ٱلسِّرُّ فِيهِ وَسَاُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هٰذَا

وَأُحقِّقُ ٱلقَوْلَ فِيهِ فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلبَيِّنُ وَأَعنِي بِٱلظَّاهِرِ ٱلبَيِّنِ أَنْ تَكُونَ أَلفَاظُهُ مَفهُومَةً لَا يُحْتَاجُ فِي فَهْمِهَا إِلَى ٱستِخرَاجٍ مِنْ كِتَابِ لُغَةٍ . وَإِنَّمَا كَانَتْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ لِأَنَّهَا تَكُونُ مَأْلُوفَةَ ٱلِاستِعمَالِ بَيْنَ أَرْبَابِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ دَائِرَةً فِي كَلَامِهِمْ . وَإِنَّمَا كَانَتْ مَأْلُوفَةَ ٱلِاستِعمَالِ دَائِرَةً فِي ٱلْكَلَامِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱلأَلفَاظِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا . وَذٰلِكَ أَنَّ أَرْبَابَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ غَرْبَلُوا ٱللُّغَةَ بِٱعْتِبَارِ أَلفَاظِهَا وَسَبَرُوا وَقَسَّمُوا فَٱختَارُوا ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلأَلفَاظِ فَٱستَعمَلُوهُ وَنَفَوْا ٱلقَبِيحَ مِنْهَا فَلَمْ يَستَعمِلُوهُ فَحُسْنُ ٱلِاستِعمَالِ سَبَبُ ٱستِعمَالِهَا دُونَ غَيْرِهَا وَٱستِعمَالُهَا سَبَبُ ظُهُورِهَا وَبَيَانِهَا . فَٱلفَصِيحُ إِذَنْ مِنَ ٱلأَلفَاظِ هُوَ ٱلحَسَنُ . فَإِنْ قِيلَ : مِنْ أَيِّ وَجْهٍ عَلِمَ أَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ٱلْحَسَنَ مِنَ ٱلأَلفَاظِ حَتَّى ٱستَعمَلُوهُ وَعَلِمُوا ٱلقَبِيحَ مِنْهَا حَتَّى نَفَوْهُ وَلَمْ يَستَعمِلُوهُ . قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ : إِنَّ هٰذَا مِنَ ٱلأُمُورِ ٱلمَحسُوسَةِ ٱلَّتِي شَاهِدُهَا مِنْ نَفْسِهَا لِأَنَّ ٱلأَلفَاظَ دَاخِلَةٌ فِي حَيِّزِ ٱلأَصوَاتِ فَٱلَّذِي يَستَلِذُّهُ ٱلسَّمْعُ مِنْهَا وَيَمِيلُ إِلَيْهِ هُوَ ٱلْحَسَنُ وَٱلَّذِي يَكْرَهُهُ وَيَنْفِرُ عَنْهُ ٱلقَبِيحُ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلسَّمْعَ يَستَلِذُّ صَوْتَ ٱلبُلْبُلِ مِنَ ٱلطَّيْرِ وَصَوْتَ ٱلشُّحْرُورِ وَيَمِيلُ إِلَيْهِمَا وَيَكْرَهُ صَوْتَ ٱلغُرَابِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَكَذٰلِكَ يَكْرَهُ نَهِيقَ ٱلْحِمَارِ وَلَا يَجِدُ ذٰلِكَ فِي صَهِيلِ ٱلفَرَسِ . وَٱلأَلفَاظُ جَارِيَةٌ هٰذَا ٱلمَجْرَى فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ لَفظَةَ ٱلمُزْنَةِ وَٱلدِّيمَةِ حَسَنَةٌ يَستَلِذُّهَا ٱلسَّمْعُ . وَأَنَّ لَفظَةَ ٱلبُعَاقِ قَبِيحَةٌ يَكْرَهُهَا ٱلسَّمْعُ . وَهٰذِهِ ٱللَّفَظَاتُ ٱلثَّلَاثُ مِنْ صِفَةِ ٱلمَطَرِ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ . وَمَعَ هٰذَا فَإِنَّكَ تَرَى لَفظَتَيِ ٱلمُزْنَةِ

وَٱلدِّيمَةِ وَمَا جرى مجراهما مألوفي الاستعمال وترى لفظ البعاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل . وان استعمل فانما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة او ذوقه غير ذوق سليم وان كان عربيا محضا من الجاهلية الاقدمين فان حقيقة الشيء اذا علمت وجب الوقوف عندها ولم يعرج على ما خرج عنها . واذ ثبتت ان الفصيح من الالفاظ هو الظاهر البين وانما كان ظاهرا بينا لانه مألوف الاستعمال وانما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه وحسنه مدرك بالسمع . والذي يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يأتلف عن مخارج الحروف فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح والحسن هو الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بفصاحة لانه ضدها لمكان قبحه . وقد مثلت المثال المتقدم بلفظة المزنة والديمة ولفظة البعاق ولو كانت الفصاحة لامر يرجع الى المعنى لكانت هذه الالفاظ في الدلالة عليه سواء ليس منها حسن ومنها قبيح . ولما لم يكن كذلك علمنا انها تخص اللفظ دون المعنى . وليس لقائل ههنا ان يقول لا لفظ الا بمعنى فكيف فصلت انت بين اللفظ والمعنى . قلت : لم افصل بينهما وانما خصصت اللفظ بصفة هي له والمعنى يجيء فيه ضمنا وتبعا

❊ ❊ ❊

البحث الرابع

في احكام الفصاحة وشروطها

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣و٤ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّهُ يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فِي تَأْلِيفِهِ اِلى ثَلَاثَةِ اَشْيَاء : (اَلاوَّلُ) مِنْهَا اخْتِيَارُ الالفاظِ الْمُفْرَدَةِ . وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ اللَّآلِئِ الْمبدَّدةِ فَاِنَهَا تُتَخَيَّرُ وتنتقى قبلَ النَّظْمِ . (اَلثَّانِي) نَظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ اُخْتِهَا فِي الْمُشَاكَلَةِ لَهَا لِئَلَّا يَجِيءَ الكَلَامُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذٰلكَ حُكْمُ العِقْدِ الْمَنْظُومِ فِي اقْتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهُ بأُخْتِها الْمشاكِلَةِ لَهَا . (اَلثَّالِثُ) الْغَرَضُ الْمَقْصُودُ مِنْ ذٰلِكَ الكَلَامِ عَلَى اخْتِلَافِ اَنْوَاعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُوضَعُ فِيهِ العِقْدُ الْمَنْظُومُ فَتارةً يُجْعَلُ اِكْلِيلا عَلَى الرَّأْسِ وَتارةً يُجْعَلُ قِلَادَةً فِي الْعُنُقِ وتارةً يُجْعَلُ شَنْفًا فِي الْأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هٰذِهِ الْمَوَاضِعِ هَيْئَةٌ مِنَ الْحُسْنِ تَخُصُّهُ . فَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ اَشْيَاءَ لَا بُدَّ لِلْخَطِيبِ وَالشَّاعِرِ مِنَ الْعِنَايَةِ بِهَا وَهِيَ الاَصلُ الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ الكَلَامِ مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ . فَالاوَّلُ وَالثَّانِي مِنْ هٰذِهِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ هُمَا الْمُرَادُ بِالْفَصَاحَةِ . وَالثلاثَةُ بِجُمْلَتِهَا هِيَ الْمُرَادُ بِالبلَاغَةِ. وَهٰذَا الْمَوْضِعُ يَضِلُّ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ الْعُلَمَاءُ بِصِنَاعَةِ صَوْغِ الكَلَامِ مِنَ النظمِ والنثرِ فَكَيْفَ الْجُهَّالُ الَّذِينَ لَمْ تَنْفَحْهُمْ رَائِحَتُهُ . وَمَنْ

الَّذِي يُؤتِيهِ اللهُ فِطرَةً نَاصِعَةً يَكَادُ زَيتُهَا يُضِيءُ وَلَو لَمْ تَمسَسهُ نَارٌ حَتَّى يَنظُرَ الَى مَا يَستَعمِلُهُ مِنَ الالفَاظِ فَيَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا

وَقَد ذَكَرَ مَن تَقَدَّمَنِي مِن عُلَمَاءِ البَيَانِ لِلالفَاظِ المُفرَدَةِ خَصَائِصَ وَهَيئَاتٍ تَتَّصِفُ بِهَا وَاختَلَفُوا فِي ذٰلِكَ وَاستَحسَنَ احَدُهُم شَيئًا فَخُولِفَ فِيهِ وَكَذٰلِكَ استَقبَحَ الآخَرُ شَيئًا فَخُولِفَ فِيهِ . وَلَو حَقَّقُوا النَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى السِّرِّ فِي اتِّصَافِ بَعضِ الالفَاظِ بِالحُسنِ وَبَعضِهَا بِالقُبحِ لَمَا كَانَ بَينَهُم خِلَافٌ فِي شَيءٍ مِنهَا

وَقَد رَايتُ جَمَاعَةً مِنَ الجُهَّالِ اِذَا قِيلَ لِاحَدِهِم اِنَّ هٰذِهِ اللَّفظَةَ حَسَنَةٌ وَهٰذِهِ قَبِيحَةٌ انكَرَ ذٰلِكَ وَقَالَ : كُلُّ الالفَاظِ حَسَنٌ وَالوَاضِعُ لَم يَضَعِ الّا حَسَنًا . وَمَن يَبلُغُ جَهلُهُ اِلَى اَن لَا يُفَرِّقَ بَينَ لَفظَةِ الغُصنِ وَلَفظَةِ العُسلُوجِ وَبَينَ لَفظَةِ المُدَامَةِ وَلَفظَةِ الاِسفِنطِ وَبَينَ لَفظَةِ السَّيفِ وَلَفظَةِ الخَنشَلِيلِ وَبَينَ لَفظَةِ الاَسَدِ وَلَفظَةِ الفَدَوكَسِ فَلَا يَنبَغِي اَن يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَ يُجَاوَبَ بِجَوَابٍ

وَقَد بَقِيَت هُنَاكَ اَوصَافٌ اُخَرُ يَنبَغِي اَن يُنَبَّهَ عَلَيهَا . فَمِنهَا اَن لَا تَكُونَ الكَلِمَةُ وَحشِيَّةً . وَقَد خَفِيَ الوَحشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ المُنتَمِينَ اِلَى صِنَاعَةِ النَّظمِ وَالنَّثرِ وَظَنُّوهُ المُستَقبَحَ مِنَ الالفَاظِ وَلَيسَ كَذٰلِكَ بَلِ الوَحشِيُّ يَنقَسِمُ قِسمَينِ اَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَالآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ . وَذٰلِكَ اَنَّهُ مَنسُوبٌ اِلَى اسمِ الوَحشِ الَّذِي يَسكُنُ القِفَارَ وَلَيسَ بِاَنِيسٍ وَكَذٰلِكَ الالفَاظُ الَّتِي لَم تَكُن مَأنُوسَةَ الاِستِعمَالِ . وَلَيسَ مِن شَرطِ الوَحشِ اَن يَكُونَ مُستَقبَحًا بَل اَن يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ

ٱلإِنس فتَارةً يكُونُ حسناً وَتارةً يكُونُ قبيحًا . وعَلى هٰذا فإنَّ احدَ قِسمَي ٱلوَحشِيّ وَهوَ ٱلغريبُ ٱلحسَنُ يختلِفُ باختِلافِ ٱلنِّسبِ وٱلإِضافاتِ . وَاما ٱلقِسمُ ٱلآخرُ مِن ٱلوَحشِيّ ٱلَّذي هُوَ قبيحٌ فانَّ ٱلنَّاسَ فِي ٱستِقباحِهِ سَوَاءٌ وَلَا يختلِفُ بِهِ عَرَبِيٌّ بادٍ ولا قرويٌّ مُتحضِّرٌ. وَاحسَنُ ٱلأَلفاظِ مَا كَانَ مَأْلوفا مُتداولا لانَّهُ لَم يَكُن مأْلوفا مُتداوَلًا اِلَّا لِمكَانِ حُسنِهِ وَقد تقدَّمَ ٱلكَلامُ عَلى ذٰلكَ فِي بَابِ ٱلفصَاحةِ . فَانَّ اربابَ ٱلخطَابةِ وَٱلشِّعرِ نَظرُوا اِلَى ٱلأَلفاظِ وَنقَّبوا عنها ثُمَّ عدَلُوا اِلَى ٱلأَحسَنِ مِنهَا فَٱستعمَلُوهُ وتركُوا مَا سِواهُ وَهُوَ ايضا يتفاوتُ فِي درَجاتِ حُسنِهِ فالأَلفاظُ اِذَن تنقَسِمُ ثَلاثَةَ اقسام : قِسمانِ حَسنانِ وَقِسمٌ قبيحٌ . فالقِسمانِ ٱلحسنانِ احدُهما مَا تداولَ ٱستِعمالَهُ ٱلأَوَّلُ وَٱلآخِرُ مِنَ ٱلزمَنِ ٱلقَدِيمِ اِلَى زَمَانِنا هٰذا وَلَا يُطلَقُ عَليهِ انَّهُ وَحشِيٌّ. وَٱلآخرُ مَا تداولَ ٱستِعمالَهُ ٱلأَوَّلُ دُونَ ٱلآخِرِ وَيختلِفُ فِي ٱستِعمالِهِ بِٱلنِّسبَةِ اِلَى ٱلزمَنِ واهلِهِ وَهذَا هُوَ ٱلَّذي لَا يُعابُ ٱستِعمالُهُ عِندَ ٱلعرَبِ لِأَنَّهُ لَم يَكُن عندَهُم وَحشِيا وَهُوَ عِندَنا وَحشِيٌّ

وَلَا يَسبِق وَهمكَ ايُّها ٱلمُتأَمِّلُ الَى قَولِ ٱلقائِلِ ٱلذي غلبَ عليهِ غِلَظُ ٱلطَّبعِ وَفجاجَةُ ٱلذِّهنِ بِانَّ ٱلعربَ كانت تستعمِلُ مِن ٱلأَلفاظِ كَذا وَكَذا فَهذَا دَليلٌ عَلى انَّهُ حَسَنٌ . بَل يَنبغِي ان تَعلَمَ انَّ ٱلَّذي نَستحسِنُهُ نَحنُ فِي زَمانِنا هٰذا هُوَ ٱلَّذي كَانَ عِندَ ٱلعرَبِ مُستحسَنا وَٱلَّذي نَستقبِحُهُ هُوَ ٱلَّذي كانَ عِندَهُم مُستقبَحا. وَٱلِاستِعمالُ لَيسَ بِدَلِيلٍ عَلَى ٱلحُسنِ فإِنَّا نَحنُ نَستعمِلُ ٱلآنَ مِنَ ٱلكَلامِ مَا

ليس بحسن وانما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن في كل الاحوال . وهذا طريق يضل بغير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة في صوغ الالفاظ واختيارها فانه معذور في ان يقول ما قال :

لا يعرف الحزن الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

ومع هذا فان قول القائل : بان العرب كانت تستعمل من الالفاظ كذا وكذا وهذا دليل على انه حسن. قول فاسد لا يصدر الا عن جاهل. فان استحسان الالفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لانه شيء ليس للتقليد فيه مجال وانما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات اذا وجدت علم حسنه من قبحه. واما الذي نقلد العرب فيه من الالفاظ فانما هو الاستشهاد باشعارها على ما ينقل من لغتها والاخذ باقوالها في الاوضاع النحوية في رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف اليه وجزم الشرط واشباه ذلك وما عداه فلا . وحسن الالفاظ وقبحها ليس اضافيا الى زيد دون عمرو او الى عمرو دون زيد لانه وصف ذوقي لا يتغير الا بالاضافة . الا ترى ان لفظة المزنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم وهلم جرا لا يختلف احد في حسنها . وكذلك لفظة البعاق فانها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم فاذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم اياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت اذن الى استعمالهم اياها بل يعاب مستعملها ويغلظ له النكير حيث استعملها

فلا تظن ان الوحشي من الالفاظ ما يكرهه سمعك ويثقل عليك النطق به وانما هو الغريب الذي يقل استعماله فتارة يخف على سمعك ولا تجد به كراهة وتارة يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة. وذلك في اللفظ عيبان: (احدهما) انه غريب الاستعمال (والآخر) انه ثقيل على السمع كريه على الذوق. واذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته وهو الذي يسمى الوحشي الغليظ ويسمى ايضاً المتوعر وليس وراءه في القبح درجة اخرى ولا يستعمله الا اجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن اصلاً. فان قيل: فما هذا النوع من الالفاظ. قلت: قد ثبت لك انه ما كرهه سمعك وثقل على لسانك النطق به. وساضرب لك في ذلك مثالاً فمنه ما ورد لتأبط شراً في كتاب الحماسة:

يظل بموماة ويمسي بغيرها جحيشاً ويعروري ظهور المسالك

فان لفظة (جحيش) من الالفاظ المنكرة القبيحة. ويا لله العجب أليس انها بمعنى (فريد) وفريد لفظة حسنة رائقة ولو وضعت في هذا البيت موضع جحيش لما اختل شيئاً من وزنه. فتأبط شراً ملوم من وجهين في هذا الموضع: احدهما انه استعمل القبيح. والآخر انه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنه. ومما هو اقبح منها ما ورد لابي تمام قوله:

قد قلت لما اطلخم الامر وانبعثت عشواء تالية غبساً دهاريسا

فلفظةُ (طَلخمَّ) مِنَ ٱلالفَاظِ ٱلْمُنكَرَة ٱلَّتي جمعت ٱلوَصْفَين القبيحَيْنِ في انَّها غريبةٌ وَانها غليظةٌ في ٱلسَّمع كريهةٌ عَلى ٱلذوقِ وكذٰلكَ لفظةُ (دَهَارِيسَ) ايضًا . وعَلى هٰذَا وَرَدَ قَوْلَهُ مِنْ ابياتٍ يصف فرسا مِنْ جُملَتِها :

نِعْمَ مَتاعُ ٱلدُّنيا حَبَاكَ بِهِ   اروعُ لَا جَيْدَرٌ ولاجِبسُ

فَلفظةُ (جَيدَر) غليظَةٌ . واغلَظُ مِنها قولُ ابي ٱلطَيّبِ ٱلْمتَنبي :

جَفَختْ وَهُمْ لايجفخُونَ بها بِهِمْ   شيَمٌ عَلَى ٱلحسَبِ ٱلْاغرِّ دَلائلُ

فَإنَّ لفظَةَ (جَفَخ) مُرَّةُ الطَعمِ وَإذَا مرَّتْ عَلَى ٱلسَّمع اقشعرَّ مِنها وابُو ٱلطيّبِ في استعمالها كاستعمالِ تابطَ شرًا لفظَة جحيش . فانَّ تأبطَ شرًّا كانَتْ لَهُ مَندوحَةٌ عَن استعمالِ تلْكَ ٱللفظةِ كما اشرْنا فيما تقدم . وكذلكَ ابو ٱلطيّبِ في استعمالِ هٰذه ٱللفظةِ ٱلتي هِيَ جفخت فَإنَّ معناها فخرتْ والجفخُ ٱلفخرُ يقالُ : جَفَخَ فُلَانٌ إذَا فَخرَ . ولو استعملَ عوضًا عَنْ جفخت فخرتْ لاستقامَ ٱلبيتُ وحظيَ في استعماله بالاحسنِ . ومَا اعلمُ كيفَ يذهبُ هٰذَا وَامثالُهُ على مثلِ هؤلاءِ ٱلفحُولِ مِنَ ٱلشعراءِ . وهَذا ٱلذي ذكرْتهُ ومَا يجري مجرَاهُ من ٱلالفَاظِ هو ٱلوَحشيُّ ٱلغليظُ ٱلذي لَيسَ لَهُ مَا يدانِيهِ في قُبحِهِ وكَرَاهتِه . وهذه ٱلامْثلَة دليلٌ على مَا اوردْنَاهُ . وَٱلعربُ اذَنْ لا تُلَامُ عَلى استعمَالِ ٱلغريبِ ٱلحسنِ من ٱلالفاظ وَإنما تُلامُ على ٱلغريب ٱلقبيح . وَامَّا ٱلحَضريُّ فإنهُ عَلَى استعمَالِ ٱلقسمَيْنِ معا وَهُوَ في احدِهمَا اشدُّ ملامَةً منهُ في ٱلآخرِ

البحث الخامس

في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة

(عن المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٦ من علم الادب)

وَيَفْتَقِرُ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ الى مَعْرِفَةِ عِدَّةِ اَسْمَاءٍ لِمَا يَقَعُ اَسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ لِيَجِدَ اِذَا ضَاقَ بِهِ مَوْضِعٌ فِي كَلَامِهِ بِإِيرَادِ بَعْضِ ٱلْاَلْفَاظِ فِيهِ ٱلْعُدُولَ عَنْهُ اِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ . وَهٰذِهِ ٱلْاَسْمَاءُ تُسَمَّى ٱلْمُتَرَادِفَةَ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْمُسَمَّى وَٱخْتِلَافُ اَسْمَائِهِ كَقَوْلِنَا: ٱلْخَمْرُ وَٱلرَّاحُ وَٱلْمُدَامُ . فَاِنَّ ٱلْمُسَمَّى بِهٰذِهِ ٱلْاَسْمَاءِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَاَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ اِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّجْنِيسِ فِي كَلَامِهِ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْاِسْمِ وَٱخْتِلَافُ ٱلْمُسَمَّيَاتِ. كَٱلْعَيْنِ فَاِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَعَلَى يَنْبُوعِ ٱلْمَاءِ وَعَلَى ٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمُشْتَرَكَةَ تَفْتَقِرُ فِي ٱلِاسْتِعْمَالِ اِلَى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهَا كَيْ لَا تَكُونَ مُبْهَمَةً . لِاَنَّا اِذَا قُلْنَا: عَيْنٌ. ثُمَّ سَكَتْنَا وَقَعَ ذٰلِكَ عَلَى مُحْتَمَلَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَٱلْعَيْنِ ٱلنَّابِعَةِ وَٱلْمَطَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ مَوْضُوعٌ بِإِزَاءِ هٰذَا ٱلِاسْمِ . وَاِذَا قُرِنَ اِلَيْهِ قَرِينَةٌ تُخَصِّصُهُ زَالَ ذٰلِكَ ٱلْاِبْهَامُ بِاَنْ تَقُولَ : عَيْنٌ حَسْنَاءُ اَوْ عَيْنٌ نَضَّاخَةٌ اَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ لِلْعُلَمَاءِ فِيهِ مُجَاذَبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ . فَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرَكُ حَقِيقَةً فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا وَيَقُولُ :

إنَّ ذلكَ يُخِلُّ بفائدةِ وضعِ اللُّغةِ لِأنَّ اللُّغةَ إنَّما هيَ وضعُ الألفاظِ في دلالتِها على المعاني أيْ وضعُ الأسماءِ على المسمَّياتِ لِتكونَ مُنبئةً عنها عِندَ إطلاقِ اللفظِ والاشتراكِ لا بيانَ فيهِ وإنَّما هو ضِدُّ البيانِ. لكنَّ طريقَ البيانِ أنْ يُجعلَ أحدُ المعنيَيْنِ في اللفظِ المشتركِ حقيقةً والآخرُ مجازيًا. فإذا قلْنا: هذهِ كلمةٌ. وأطلقْنا القولَ فُهِمَ مِنهُ اللفظةُ الواحدةُ. وإذا قيَّدْنا اللفظَ فقلْنا: هذهِ كلمةٌ شاعِرةٌ. فُهِمَ مِنهُ القصيدةُ المقصدةُ مِنَ الشِّعرِ وهيَ مجموعُ كلماتٍ كثيرةٍ. ولوْ أطلقْنا مِنْ غيرِ تقييدٍ وأردْنا القصيدةَ مِنَ الشِّعرِ لَمَا فُهِمَ مُرادُنا ألبتَّةَ.

هذا خلاصةُ ما ذهبَ إليهِ مَنْ يُنكِرُ وقوعَ اللفظِ المشتركِ في المعنيَيْنِ حقيقةً. وفي ذلكَ ما فيهِ. وسأُبيِّنُ ما يدخلُهُ مِنَ الخللِ فأقولُ في الجوابِ عنْ ذلكَ ما استخرجتُهُ بفكري ولمْ يكنْ لِأحدٍ فيهِ قولٌ مِنْ قبلي وهوَ: أمَّا قولُكَ: إنَّ فائدةَ وضعِ اللُّغةِ إنَّما هوَ البيانُ عِندَ إطلاقِ اللفظِ واللفظُ المشتركُ يُخِلُّ بهذهِ الفائدةِ. فهذا غيرُ مُسلَّمٍ بلْ فائدةُ وضعِ اللُّغةِ هوَ البيانُ والتَّحسينُ

(أمَّا البيانُ) فقدْ وفَى الأسماءُ المتبايِنةُ الَّتي كلُّ اسمٍ واحدٍ دلَّ على مُسمَّى واحدٍ. فإذا أُطلِقَ اللفظُ في هذهِ الأسماءِ كانَ بيِّنًا مفهومًا لا يحتاجُ إلى قرينةٍ ولوْ لمْ يضعِ الواضعُ مِنَ الأسماءِ شيئًا غيرَها لكانَ كافيًا في البيانِ

(وأمَّا التَّحسينُ) فإنَّ الواضعَ لِهذهِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّتي هيَ أحسنُ اللُّغاتِ نظرًا إلى ما يحتاجُ إليهِ أربابُ الفصاحةِ والبلاغةِ فيما يصوغونَهُ

مِن نظم ونَثر ورَأى انَ مِنْ مُهِمَّات ذٰلكَ ٱلتجْنيسَ وَلا يَقُومُ بِهِ اِلَّا ٱلأَسْمَاء ٱلْمُشتركَةُ ٱلَّتِي هِيَ كُلُّ ٱسْم وَاحِدٍ دلَّ عَلَى مُسمَّيَيْن فَصَاعِدا فَوَضعهَا مِنْ اَجلِ ذٰلكَ . وهٰذَا ٱلْوَضعُ يَتَجاذَبُهُ جَانِبَانِ يَتَرَجَّحُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَر . وَبَيَانُهُ اَنَّ ٱلتَّحْسِينَ يَقضِي بوَضعِ ٱلأَسْمَاء ٱلْمُشْتَرِكَةِ وَوَضعُها يَنْهَبُ بِفَائِدَةِ ٱلْبَيَان عِنْدَ اِطلَاقِ ٱللفظِ . وَعَلى هٰذَا فَإِنْ وَضَعَهَا ٱلْوَاضِعُ ذَهَبَ بفَائدَةِ ٱلْبَيَانِ وَاِنْ لَمْ يَضَعْ ذَهَبَ بفَائِـدَةِ ٱلتحسِينِ. لٰـكِنَّهُ اِنْ وَضعَ ٱسْتَدْرَكَ مَا ذَهَبَ مِنْ فَائدَةِ ٱلْبيَانِ بِٱلْقَرِينَةِ وَاِنْ لَمْ يَضَع لَمْ يَسْتدرِكْ مَا ذَهَبَ من فَائدَةِ ٱلتَّحْسينِ فَتَرَجَّحَ حِينَئذ جَانبُ ٱلْوَضعِ فَوُضِع

البحث السادس

في فصاحة المفرد وفصاحة المركَّب

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٥٤و من علم الادب)

اَلْفَصاحَةُ فِي ٱلْفَرْدِ هِيَ اَنْ تَـكُون مِمَّا ٱسْتَعْمَلتِ ٱلْعربُ ٱلْفُصحاء كثيرا وَدَارَ عَلَى اَلسِنَتِهِمْ فَسلمَ مِنْ ستَّة اَشيَاء . (اَلاوَّلُ) : اَنْ لَا يَتْرُكَ مِن حُرُوفٍ مُتَنَافِرَةٍ كلَفْظَة (ٱلْعُخعِ) وَهُوَ نَبتٌ . سُئل اعرَابِيٌّ عَنْ نَاقَتِهِ فَقَالَ : تَرَكْتُهَا تَرعَى ٱلْعُخعِ . وَاِنَّمَا تَنافرَتْ حُرُوفُ هٰذِهِ ٱلْـكَلِمَةِ لِـكَوْنِهَا مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِـدٍ وَهُوَ ٱلْحلقُ . (اَلثَّانِي) : ان لَا تَتَوَالَى فِيهِ اَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتَيْنِ يَحْدُثُ بِسَبَبِهِمَا ثِقْلٌ . (اَلثَّالِثُ) :

انْ لَا يَكُونَ مُتَنَاهِيًا فِي كَثْرَةِ ٱلْحُرُوفِ بِلَا زِيَادَةِ مَعْنًى نَحْوُ : خَنْدَرِيس . وَلَا فِي قِلَّتِهَا نَحْوُ : جِدْ عَنْ ذَا ٱلْمَرْءِ . وَخَيْرُ ٱلْأُمُورِ اَوْسَطُهَا وَهُوَ ٱلثُّلَاثِيُّ اِذْ لَا فَضْلَةَ فِيهِ عَمَّا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ حَرْفِ ٱلْاَبْتِدَاءِ وَحَرْفِ ٱلْوَقْفِ وَحَرْف فاصل بَيْنَ ٱلْوَقْفِ وَٱلِابْتداء . اما لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱلْحُرُوفِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى زَائِد لَكَانَتِ ٱللفظَةُ فَصِيحَةً نَحْوُ : اَخْشَوْشَنَ . مَعْنَاهُ اَزْيَدُ مِنْ خَشُنَ . (الرَّابِعُ) : اَنْ لَا يَكُونَ وَحْشِيًّا غَيْرَ مَأْلُوفٍ نَحْوُ : ٱلْاِسْفِنْطِ لِلْخَمْرِ وَٱلْخَنْشَلِيلِ لِلسَّيْفِ وَٱلْفَدَوْكَسِ لِلْاَسَدِ . فَهٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظُ غَرِيبَةٌ يَمُجُّهَا ٱلطَّبْعُ وَلَا يُطَّلَعُ عَلَى مَعْنَاهَا اِلَّا بَعْدَ بَحْثٍ فِي كُتُبِ ٱللُّغَةِ . (ٱلْخَامِسُ) : انْ لَا يَكُونَ مُبْتَذَلًا وذلِكَ نَحْوُ انْ يَخْرُجَ ٱللَّفْظُ عَنْ اَصْلِ وَضْعِهِ وَيُسْتَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مُسْتَقْبَحٍ . (ٱلسَّادِسُ) : اَنْ لَا يَكُونَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ اَحَدُهُمَا مَكْرُوهٌ كَمَا لَوْ قُلْتَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَّرْتُهُ . فَاِنَّهُ يَحْتَمِلُ ٱلْاِكْرَامَ وَٱلْاِهَانَةَ . ولو كَانَ فِي ٱلْكَلَامِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْحَسَنِ لَكَانَ ٱللَّفْظُ فَصِيحًا كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَّرْتُهُ وَنَصَرْتُهُ . فَلَفْظُ (نَصَرْتُهُ) يُعَيِّنُ فِيهِ ٱلْمَعْنَى الحَسَنَ . وَعَلَيْهِ يَكُونُ ٱللَّفْظُ حَسَنًا فِي نَفْسِهِ فَيُعَدُّ قَبِيحًا بِسَبَبِ مَحَلِّهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَمَوْقِعِهِ مِنْهُ

وَامَّا ٱلْفَصَاحَةُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ فَهُوَ انْ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ اَشْيَاءَ . (ٱلْاَوَّلُ) : سَلَامَةُ مُفْرَدَاتِهِ مِنَ ٱلسِّتَّةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ ٱلذِّكْرِ فِي ٱلْمُفْرَدِ لِاَنَّ لِلْمُرَكَّبِ حُكْمَ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ . (ٱلثَّانِي) : اَنْ يَسْلَمَ مِنْ ضُعْفِ ٱلتَّأْلِيفِ وَهُوَ خُرُوجُهُ عَنْ قَوَاعِدِ ٱلْعَرَبِيَّةِ كَقَوْلِهِ :

جزا ربُّهُ عنّي عديَّ بنَ حاتمٍ جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقدْ فعلْ

فانَّهُ خالفَ القياسَ في اعادةِ الضميرِ في (ربّه) الى عديٍّ وهوَ متأخرٌ لفظاً ومعنًى . والقاعدةُ العربيَّةُ انْ يعودَ الضميرُ على ما قبلهُ او على ما بعدَهُ لفظاً لا معنًى . (الثالثُ) : انْ يسلَمَ مِنْ تنافرِ الكلمةِ وذلكَ انْ تكونَ الكلمةُ حالَ الافرادِ غيرَ متنافرةٍ فإذا رُكّبتْ حصلَ التنافرُ نحوُ قولهِ :

وقبرُ حربٍ (١) بمكانٍ قفرٌ وليسَ قربَ قبرِ حربٍ قبرُ

قيلَ : إنَّ هذا البيتَ لا يمكنُ انشادُهُ في الغالبِ ثلاثَ مرّاتٍ متواليةٍ الّا ويغلطُ المنشدُ فيهِ لانَّ نفسَ اجتماعِ الكلامِ والقربَ في الخارجِ يحدثانِ ثقلاً . واذا كانَ التنافرُ في حروفِ الكلمةِ فهوَ راجعٌ الى عدمِ فصاحةِ المفردِ ولا يسلمُ المركّبُ من التنافرِ متى تسلمُ مفرداتُهُ كقولِ ابي تمّامٍ :

كريمٌ متى امدحْهُ امدحْهُ والورى معي واذا ما لمتُهُ لمتُهُ وحدي

فالتنافرُ فيهِ مِنْ وجهِ تكرارِ (امدحْهُ) لا مِنْ وجهِ انَّ حروفَ (امدحْهُ) متنافرةٌ لاجتماعِ حرفَي الحلقِ . (الرابعُ) : انْ يسلمَ مِنَ التعقيدِ وهوَ ايرادُ كلامٍ خفيِّ الدلالةِ على معناهُ وهوَ منْ جهةِ اللفظِ ومِنْ جهةِ المعنى . فمِنْ جهةِ اللفظِ كتأخيرِ الالفاظِ وتقديمِها على مواضعِها وحصولِ الفصلِ اذ ذاكَ بينَ الاشياءِ المتلازمةِ كقولِ الفرزدقِ يمدحُ ابراهيمَ خالَ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ :

---

(١) حرب اسم رجل

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكاً ٱبُو أُمِّهِ حَيٌّ ٱبُوهُ يُقَارِبُهْ (١)

ٱلتَّقْدِيرُ: وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ فِي ٱلشَّرَفِ إِلَّا مُمَلَّكٌ ٱبُو أُمِّ ذٰلِكَ ٱلْمُمَلَّكِ ٱبُو هٰذَا ٱلْمَمْدُوحِ. فَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ٱلْمُؤْذِنِ بِٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ ٱلدَّلَالَةَ فِي ٱللَّفْظِ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ مِنْ كَلَامِ ٱلْفُصَحَاءِ كَقَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٢)

فَجَعَلَ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ كِنَايَةً عَمَّا يَلْزَمُ فِرَاقَ ٱلْأَحِبَّةِ مِنَ ٱلْكَآبَةِ وَٱلْحُزْنِ وَأَصَابَ. لٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي جَعْلِ جُمُودِ ٱلْعَيْنِ كِنَايَةً عَمَّا يُوجِبُهُ دَوَامُ ٱلتَّلَاقِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ لِٱعْتِقَادِهِ أَنَّ ٱلسُّرُورَ بِمَعْنَى ٱلْجُمُودِ. لِأَنَّ جُمُودَ ٱلْعَيْنِ عِنْدَ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا يَلْزَمُ بُخْلَهَا بِٱلدُّمُوعِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ لَا ٱلسُّرُورَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيَّ جَعَلَ بَيْتَ ٱلْعَبَّاسِ (سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ) مِنَ ٱلْمُطَابَقَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ فِي ٱلْبَيْتِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْحُزْنِ. وَٱلْجُمُودَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلسُّرُورِ فَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مُطَابَقَةٌ بِهٰذَا ٱللَّفْظِ. وَجَعَلَ ٱلتَّعْقِيدَ ٱللَّفْظِيَّ فِيمَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلثِّقَلِ مِنْ تَوَالِي ٱلْمُضَافَاتِ وَٱلضَّمَائِرِ وَٱلصِّفَاتِ وَٱلْأَفْعَالِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَتَكْرَارِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا جَرَى مَجْرَى

(١) اي ليس في الناس مثل الممدوح حيٌّ يقاربهُ الّا ابن اختهِ وهو هشام المملّك اي المعطى الملك

(٢) المعنى: اني اطيب نفساً بالبعد والفراق واوطنها على مقاساة الحزن والتجرع غصصاً تفيض لاجلها الدموع من عيني الى ان يأتي بعد العسر يسرٌ

ذلكَ. (الخامسُ) انْ يَسلَمَ مِنَ التكرارِ الْموجِبِ فِي الثِقلِ كتكرارِ اللفظَةِ ذاتِها وتوالِي الإضافاتِ والصِفاتِ ولا يُخلُّ بالفصاحةِ قطعا تكرارُ اللفظَةِ للتوكيدِ وانَّمَا يُعابُ قُبحُ التكرارِ بلا فائدةٍ كقولِ بعضِهِمْ :

كُنتُ كُنتُ كَتَمتُ السِّرَّ كُنتُ كَمَا
كُنَّا وَكُنتَ وَلٰكِن ذاكَ لَمْ يكُنِ

فَجاءَتِ الحُرُوفُ قَلِقَة مكدُودَةً غيرَ مُتمَكِّنة فِي مَواضِعِها. (وَتَتابُعِ الإضافَاتِ) مثلُ قولِ ابِي فائِدٍ :

حمامةَ جَرعَا حَومَةِ الجَنْدلِ اسْجَعِي　　فأنتِ بِمَرْاى مِنْ سُعادَ وَمَسْمَعِ (١)

فَفِيه اضافَةُ حَمَامَة الِى جرعَا وجرعَا الِى حومَة وحَومَةِ الِى الجَندلِ . وَلَيسَ هٰذا بفصِيحٍ مَأنوس

(وتَوالِي الصِفاتِ) ذَكرهُ الطِّيبِي ذلكَ مِمَا يُحدِثُ فِي الكَلَامِ ثِقلا واستَشهدَ عَلى ذٰلكَ بقولِ المتَنبِي :

دَانٍ بعيدٌ مُحِبٌّ مُبغِضٌ بَهِجٌ　　اغرُّ حُلوٌ مُمِرٌّ لَيِّنٌ شَرِسُ

(١) الجرعا تخفيف الجرعاء ومؤنث الاجرع وهي ارض ذات رمل لا تنبت شيئًا. والحومة معظم الشيء. والجندل ارض ذات حجارة يقول : اسجعي يا حمامة ارضٍ قفرةٍ سبخة فان سعاد تراك وتسمعك



الفصل الثاني

في البلاغة

البحث الاول

في الابانة عن حدّ البلاغة

(من كتاب الصاعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٩ من علم الادب)

اَلْبلاغَةُ كُلُّ ما تُبَلِّغُ بِهِ ٱلمعنَى قَلْبَ ٱلسَّامعِ فتُمَكِّنُهُ في نفسه كتَمَكُّنِهِ فِي نَفْسِكَ مَع صُورَةٍ مَقْبُولَةٍ ومَعْرِضٍ حَسَنٍ . وَإِنما جعلْنا حُسْنَ ٱلْمَعْرِض وَقَبُولَ ٱلصُّورَةِ شرطا فِي ٱلبَلَاغَةِ لِانَّ ٱلكلامَ إِذ كَانَتْ عِبَارَتُهُ رَثَّةً ومَعْرِضُهُ خَلَقًا لَمْ يسمَّ بليغا وَإِنْ كَانَ مَفْهُومَ ٱلمعنَى مَكشوفَ ٱلمغزَى . اَلَا تَرَى الى مَعْنَى ٱلكاتِبِ الذِي كَتَبَ إِلى بَعْضِ مُعاوِلِيهِ : (قدْ تَاخَّرَ ٱلْاَمرُ فِيَما وعَدْتَّ حَمَلَهُ ضَحْوَةَ انهارِ وَٱلْقَوْمُ غَيْرُ مُقيمِينَ لَيسَ لَهُمْ صَبْرٌ . فَاِنْ رَاَيْتَ فِي إِزَاحَةِ ٱلعِلَّةِ مَعَ ٱلْجَهْدِ فَعَلْتَ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ) . فَمَعْنَاهُ مفهومٌ وَمَغْزَاهُ مَعْلومٌ وَلَيس كَلَامُهُ بِبَلِيغٍ فهذا يَدُلُّ عَلَى انَّ مِنْ شرط ٱلْبَلَاغَةِ اَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى مفهوما وَٱللفظُ مَقْبُولا عَلَى مَا قدّمْناهُ . وَمَنْ قَالَ ان ٱلبَلاغَة إِنمَا هِيَ إِفهامُ ٱلمَعنَى فَقطْ فَقَدْ جَعَلَ ٱلْفَصَاحَةَ وَٱللُّكنة وَٱلْخَطَأَ وَٱلصواب وَٱلإِغلَاقَ

وَٱلْإِبَانَةَ سَوَاء . وَأَيضًا فَلَوْ كَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاضِحُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْقَرِيبُ ٱلسَّلِسُ ٱلْحُلْوُ بَلِيغًا وَمَا خَالَفَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَبْهِمِ ٱلْمُسْتَغْلَقِ وَٱلْمُتَكَلَّفِ ٱلْمُتَعَقِّدِ أَيْضًا بَلِيغًا لَكَانَ كُلُّ ذَلِكَ مَحْمُودًا وَمَمْدُوحًا مَقْبُولًا لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ ٱسْمٌ يُمْدَحُ بِهِ ٱلْكَلَامُ . فَلَمَّا رَأَيْنَا أَحَدَهُمَا مُسْتَحْسَنًا وَٱلْآخَرَ مُسْتَهْجَنًا عَلِمْنَا أَنَّ ٱلَّذِي يُسْتَحْسَنُ هُوَ ٱلْبَلِيغُ وَٱلَّذِي يُسْتَهْجَنُ لَيْسَ بِبَلِيغٍ . وَقَالَ ٱلْعَتَّابِيُّ : كُلُّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَإِنَّمَا عَنَى أَنَّ مَنْ أَفْهَمَكَ حَاجَتَهُ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْعِبَارَةِ ٱلنَّيِّرَةِ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَلَوْ حَمَلْنَا هٰذَا ٱلْكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلْأَلْكَنُ بَلِيغًا لِأَنَّهُ يُفْهِمُنَا حَاجَتَهُ بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ٱلنَّاسِ بُلَغَاءَ حَتَّى ٱلْأَطْفَالُ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يَعْدَمُ أَنْ يَدُلَّ عَلَى غَرَضِهِ بِعُجْمَتِهِ وَلُكْنَتِهِ وَإِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ بَلْ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ ٱلسِّنَّوْرُ بَلِيغًا لِأَنَّا نَسْتَدِلُّ بِضُغَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ إِرَادَتِهِ وَهٰذَا ظَاهِرُ ٱلْإِحَالَةِ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ وَجَمْجَمَةَ ٱلْأَعْجَمِيِّ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ لَنَا فِي سَمَاعِهَا لَا لِأَنَّ تِلْكَ بَلَاغَةٌ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْأَعْرَابِيَّ إِنْ سَمِعَ ذَلِكَ لَمْ يَفْهَمْهُ إِذْ لَا عَادَةَ لَهُ بِسَمَاعِهِ . وَأَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَسْأَلَ بَعْضَ ٱلْأَعْرَابِ عَنْ أَهْلِهِ فَقَالَ : كَيْفَ أَهْلِكَ (بِٱلْكَسْرِ). فَقَالَ لَهُ ٱلْأَعْرَابِيُّ : صَلْبًا . إِذْ لَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَسْأَلُهُ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي يَهْلِكُ بِهِ . وَسَمِعَ أَعْرَابِيٌّ قَصِيدَةَ أَبِي تَمَّامٍ فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ :

طَلَلَ ٱلْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا

فَقَالَ : إِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ أَشْيَاءَ أَفْهَمُهَا وَأَشْيَاءَ لَا أَفْهَمُهَا

فَإِمَّا انْ يَكُونَ قَائِلُهَا اشْعَرَ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَإِمَّا انْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ اشْعَرَ مِنْهُ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعَانِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ بِأَسْرِهَا لِعَادَتِنَا لِسَمَاعِ مِثْلِهَا لَا لِأَنَّا اعْرَفُ بِٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ . وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَا مِنْ انَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِنَّمَا هِيَ إِيضَاحُ ٱلْمَعْنَى وَتَحْسِينُ ٱللَّفْظِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱلْبَلَاغَةُ تَصْحِيحُ ٱلْأَقْسَامِ وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ : ٱلْبَلَاغَةُ قَوْلٌ يَضْطَرُّ ٱلْعُقُولَ إِلَى فَهْمِهِ بِأَسْهَلِ ٱلْعِبَارَةِ . فَقَوْلُهُ : (يَضْطَرُّ ٱلْعُقُولَ إِلَى فَهْمِهِ) عِبَارَةٌ عَنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى . وَقَوْلُهُ : (بِأَسْهَلِ ٱلْعِبَارَةِ) تَنْبِيهٌ عَلَى تَسْلِيسِ ٱللَّفْظِ وَتَرْكِ تَنْقِيحِهِ

البحث الثاني

اقوال في تحديد البلاغة

(ملخص عن زهر الاداب للحصري وكتاب الصناعتين للعسكري)

قَالَ اعْرَابِيٌّ : ٱلْبَلَاغَةُ ٱلتَّقَرُّبُ مِنَ ٱلْبَعِيدِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنَ ٱلْكُلْفَةِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى : ٱلْبَلَاغَةُ تَقْرِيرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْأَفْهَامِ مِنْ اقْرَبِ وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَلَاغَةُ ٱلْبُلُوغُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَلَمْ يَطُلْ سَفَرُ ٱلْكَلَامِ . قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْعُقُولِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ . وَقَالَ ايْضًا : ٱلْعَقْلُ رَائِدُ ٱلرُّوحِ وَٱلْعِلْمُ رَائِدُ ٱلْعَقْلِ وَٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْعِلْمِ . قَالَ إِبْرٰهِيمُ ٱلْإِمَامُ : يَكْفِي مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ انْ لَا يُؤْتَى ٱلسَّامِعُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ ٱلنَّاطِقِ وَلَا يُؤْتَى ٱلنَّاطِقُ مِنْ سُوءِ فَهْمِ ٱلسَّامِعِ . قَالَ ٱلْعَتَّابِيُّ : ٱلْبَلَاغَةُ مَدُّ

ٱلْكَلَام بِمَعانيه اذا قَصُر وحُسْنُ ٱلتَّأْلِيفِ اِذَا طَالَ . قَالَ اعْرابِيٌّ : ٱلْبلَاغَة اِيجَازٌ فِي غَيْرِ عَجْز وَاطْنابٌ فِي غيْرِ خطَل . وَقدْ قِيل لِلْيونانِيِّ : مَا ٱلبلاغَةُ . قالَ : تَصْحِيحُ ٱلْاقْسام وَٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ . وَقِيلَ لِلرُّومِيِّ : مَا ٱلبلاغَةُ . قَالَ : حُسْنُ ٱلِاقْتِضَابِ عِنْد ٱلْبداهَةِ وَٱلْغَزارَةُ يَوْمَ ٱلْاِطَالةِ . وَقِيل لِلهِنْدِيِّ : مَا ٱلْبلاغَة . قال : وُضُوحُ ٱلدَّلَالةِ وَٱنْتِهازُ ٱلْفُرْصة وَحُسْنُ ٱلْاشارَة . وَقِيل لِلفارِسِيِّ : مَا ٱلْبلَاغَةُ . قَالَ : مَعْرِفَةُ ٱلْفَصل من ٱلْوَصل . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عيسى ٱلرُّمَانِيُّ : ٱلْبَلاغَة اِيصالُ ٱلْمَعْنَى الى ٱلقَلْب فِي حُسْنِ صُورَةٍ مِن ٱللَفْظ . وَسُئِلَ بعضُهُمْ عن ٱلْبلَاغَةِ قَال : ابْلَغُ ٱلْكلام مَا حَسُن اِيجازه . وَقَلَّ مَجَازُهُ . وَكَثُرَ اعْجازُهُ . وتَناسَبتْ صُدُورُهُ وَاعْجَازُهُ . وَقِيلَ لِجعفر بْنِ خَالِدٍ : مَا ٱلْبَلَاغَة . قالَ : ٱلتقرُّبُ مِنَ ٱلمعْنى ٱلْبَعِيدِ وَٱلدَّلَالةُ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكثِيرِ . وَقِيلَ لِآخَرَ : مَا ٱلْبلاغَةُ . قَالَ : تَطْوِيلُ ٱلْقَصِيرِ وَتَقْصِيرُ ٱلطَوِيل . وَقِيل لأعْرابِيّ : مَا ٱلْبَلاغةُ . قَالَ : حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتقْرِيبُ ٱلْبعِيدِ وَحُسْنُ ٱلِاسْتِعارة . وَقِيلَ لِجَالِينُوسَ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ . قالَ : ايضاحُ ٱلْمُعْضِلِ وفَكُّ ٱلْمُشْكِل . وقِيلَ لِلخلِيل بْنِ احْمدَ : مَا ٱلْبلَاغَةُ . فقالَ : مَا قَرُب طَرَفاه وبَعُد مُنْتَهاهُ . وقِيل لِخالِدِ بْنِ صفوانَ : مَا ٱلبلاغَةُ . قَالَ : اصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وٱلْقصدُ اِلَى ٱلْحُجَّةِ . وَقِيل لِآخر : مَا ٱلْبلَاغةُ . قَالَ : تَصْوِيرُ ٱلْحَقِّ فِي صُورةِ ٱلْباطل وتَصْوِيرُ ٱلْباطلِ فِي صُورةِ ٱلْحَقِّ (١) . وَقِيل لِاِبْرٰهِيمَ ٱلْاِمَامِ : مَا ٱلْبَلاغَةُ . فقالَ : ٱلْجَزَالَةُ وَٱلْاِصَالَةُ

---

(١) لا يجوز ذلك الا على طريقة المغايرة في الامور القابلة المدح والذم

قَالَ إسْحَاقُ بْنُ حَسَّان: لَمْ يُفَسِّرْ أَحَدٌ ٱلبلاغَة تَفسيرَ ٱبْنِ ٱلْمقفع اذْ قَالَ: ٱلْبلاغَةُ لِمعانٍ تَجْرِي في وُجُوه كَثيرَةٍ: فَمِنْها مَا يَكُونُ في ٱلاشارَةِ. وَمنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْحديثِ. وَمنهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلِاسْتِمَاع وَمنْها مَا يَكُونُ فِي ٱلِاحْتِجاجِ. وَمنْهَا مَا يَكُونُ شعْرا. وَمِنْها مَا يَكُونُ ٱبتداء. وَمِنها مَا يَكُونُ جَوَابًا. وَمِنْها مَا يَكُونُ سجعا. وَمِنها مَا يَكُونُ خُطَبا. وَمِنْها رُبَّمَا كَانَتْ رَسَائِلَ. فَغَايَةُ (١) هٰذه ٱلا بواب ٱلْوَحْيُ فيها وَٱلْإِشَارَةُ الَى ٱلْمَعْنَى ابْلَغْ وَٱلْايجازُ هُوَ ٱلْبلاغَةُ. فَٱلسُّكُوتُ يُسمَّى بلاغَة مجازا وَهُوَ في حَالَة لَا يَنْجعُ فِيها ٱلْقولُ وَلا يَنْفَعُ فِيها إقامَةُ الحُجَجِ إما عِنْدَ جَاهِل لَا يَفْهَمُ الخِطاب أو عِنْدَ وضيع لَا يَرْهَبُ الْجواب. أَوْ ظَالِمٍ سَلِيط يَحْكُمُ بِالْهوى وَلا يَرْتَدِعُ بِكَلِمَةِ ٱلتقْوَى وَاذا كَانَ ٱلْكَلامُ يُعْرَى مِن ٱلْخيْر اَوْ يَجْلبُ ٱلشَّرَّ فَٱلسُّكُوتُ أَوْلَى كَمَا قالَ أَبُو ٱلْعتاهيَة:

مَا كُلُّ نُطْق لَهُ جَوَابٌ   جَوابُ مَا يُكْرَهُ ٱلسُّكُوتُ

وَرُبَّمَا كَانَ صَمْتُكَ فِي حَال أَرْفَقَ مِنْ كلامِكَ وَلَهُ وجْهٌ آخرُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: كُلُّ صَامِت نَاطِقٌ منْ جِهةِ ٱلدَّلالَةِ. وَذٰلكَ أَنَّ دَلَائلَ ٱلصَّنْعَة فِي جميع ٱلْاشْيَاء وَاضحَةٌ. وٱلْمَوْعظَةُ فِيها قَائِمَةٌ. وقَدْ قَالَ ٱلرَّقَاشِيُّ: سَلِ ٱلْأرْضَ مَنْ شَقَّ أَنْهارَكِ وَغَرَس أشجارَكِ وَجَنَى ثِمَارَك. فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارا أَجَابَتْكَ ٱعْتِبَارا. وَقَوْلُ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ: (رُبَّمَا كَانَتِ ٱلْبلاغة بِٱلِاستِمَاع) فَلِأَنَّ ٱلْمُخَاطَبَ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ ٱلِاسْتِمَاعَ لَمْ

(١) وفي نسخة: عامّة

يَقِفُ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُؤَدِّي إِلَى ٱلْخِطَابِ . فَٱلِاسْتِمَاعُ ٱلْحَسَنُ عَوْنٌ لِلْبَلِيغِ عَلَى إِفْهَامِ ٱلْمَعْنَى

وَقَدْ جَاءَ لِلْبَلَاغَةِ تَعْرِيفَاتٌ أُخَرُ مِنْهَا قَوْلُ بَعْضِ حُكَمَاءِ ٱلْهِنْدِ : جِمَاعُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْبَصَرُ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاقِعِ ٱلْفُرْصَةِ وَمِنَ ٱلْبَصَرِ بِٱلْحُجَّةِ أَنْ تَدَعَ ٱلْإِفْصَاحَ بِهَا إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَنْهَا إِذَا كَانَ طَرِيقُ ٱلْإِفْصَاحِ وَعْرًا وَكَانَتِ ٱلْكِنَايَةُ أَحْضَرَ نَفْعًا . قَالَ آخَرُ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا يُؤْنِسُ مَسْمَعُهُ . وَيُؤْيِسُ مُصْنَعُهُ . وَٱلْبَلِيغُ مَنْ يَجْتَنِي مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ أَنْوَارَهَا . وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ثِمَارَهَا . لَيْسَتِ ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ يُطَالَ عِنَانُ ٱلْقَلَمِ أَوْ سِنَانُهُ . أَوْ يُبْسَطَ رِهَانُ ٱلْقَوْلِ وَمَيْدَانُهُ . بَلْ هِيَ أَنْ يَبْلُغَ أَمَدَ ٱلْمُرَادِ بِأَلْفَاظٍ أَعْيَانٍ وَمَعَانٍ أَفْرَادٍ مِنْ حَيْثُ لَا تَزِيدُ عَلَى ٱلْحَاجَةِ وَلَا إِخْلَالٌ يُفْضِي إِلَى ٱلْفَاقَةِ . وَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْبَلَاغَةَ قَالَ : هِيَ مَيْدَانٌ لَا يُقْطَعُ إِلَّا بِسَوَابِقِ ٱلْأَذْهَانِ . وَلَا يُسْلَكُ إِلَّا بِبَصَائِرِ ٱلْبَيَانِ . يَعْبَثُ صَاحِبُهَا بِٱلْكَلَامِ . وَيَقُودُهُ بِأَلْيَنِ زِمَامٍ . حَتَّى كَأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ تَتَحَاشَدُ فِي ٱلتَّسَابُقِ إِلَى خَوَاطِرِهِ وَٱلْمَعَانِي تَتَغَايَرُ فِي ٱلِانْثِيَالِ عَلَى أَنَامِلِهِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ ٱلطَّائِيِّ :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهِرْتُ لَهُ … حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وَقِيلَ فِي بَلِيغٍ : فُلَانٌ مَشْرَفِيُّ ٱلْمَشْرِقِ . وَصَيْرَفِيُّ ٱلْمَنْطِقِ . ٱلْبَيَانُ أَصْغَرُ صِفَاتِهِ . وَٱلْبَلَاغَةُ عَفْوُ خَطَرَاتِهِ . كَأَنَّهُ أُوحِيَ بِٱلتَّوْفِيقِ إِلَى صَدْرِهِ . وَحُسْنُ ٱلصَّوَابِ بَيْنَ طَبْعِهِ وَفِكْرِهِ . يَحُزُّ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ . وَيَسْبِقُ فِيهَا إِلَى دَرْكِ ٱلْمَرَامِ . كَأَنَّمَا جُمِعَ ٱلْكَلَامُ حَوْلَهُ حَتَّى ٱنْتَقَى مِنْهُ وَٱنْتَخَبَ . وَتَنَاوَلَ مِنْهُ مَا طَلَبَ . وَتَرَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَذْنَابًا لَا رُؤُسًا .

وَاَجسَادًا لَا نُفُوسًا . وَقِيلَ فِي آخَرَ : يَرْضَى بِعَفْوِ ٱلطَّبْعِ . وَيَقْنَعُ بِمَا خَفَّ عَلَى ٱلسَّمْعِ . وَيُوجِزُ فَلَا يُخِلُّ . وَيُطْنِبُ فَلَا يُمِلُّ . فَلِلّٰهِ فُلَانٌ اَخَذَ بِاَزِمَّةِ ٱلْقَوْلِ يَقُودُهَا كَيْفَ اَرَادَ وَيَجْذُبُهَا اَنَّى شَاءَ فَلَا تَعْصِيهِ بَيْنَ ٱلصَّعْبِ وَٱلذَّلُولِ . وَلَا تُسْلِمُهُ عِنْدَ ٱلْحُزُونِ وَٱلسُّهُولِ . كَلَامُهُ يَشْتَدُّ مَرَّةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلصَّخْرُ ٱلْاَمْلَسُ . وَيَلِينُ تَارَةً حَتَّى تَقُولَ : اَ ٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ . يَقُولُ : فَيَصُولُ . وَيُجِيبُ . فَيُصِيبُ . وَيَكْتُبُ فَيُطَبِّقُ ٱلْمَفْصِلَ . وَيَنْسُقُ ٱلدُّرَّ ٱلْمُفَصَّلَ . وَيَرِدُ مَشَارِعَ ٱلْكَلَامِ وَهِيَ صَافِيَةٌ لَمْ تُطْرَقْ . وَجَامَّةٌ لَمْ تُرْتَقْ . خَاطِرُهُ ٱلْبَرْقُ اَوْ اَسْرَعُ لَمْعًا . وَٱلسَّيْفُ اَوْ اَحَدُّ قَطْعًا . وَٱلْمَاءُ اَوْ اَسْلَسُ جَرْيًا . وَٱلْفَلَكُ اَوْ اَقْوَمُ هَدْيًا . يَسْهُلُ ٱلْكَلَامُ عَلَى لَفْظِهِ وَتَتَزَاحَمُ ٱلْمَعَانِي عَلَى طَبْعِهِ فَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْمَى ٱلْبَعِيدَ بِقَرِيبِ سَعْيِهِ . وَيَسْتَنْبِطُ ٱلْمَشْرَعَ ٱلْعَمِيقَ بِيَسِيرِ جَرْيِهِ . لِسَانُهُ يَفْلِقُ ٱلصُّخُورَ . وَيُفِيضُ ٱلْبُحُورَ . خَطِيبٌ لَا تَنَالُهُ حُبْسَةٌ وَلَا تَرْتَهِنُهُ لُكْنَةٌ وَلَا تَتَحَيَّفُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ وَلَا تَعْتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ يُحْسِنُ ٱلسِّفَارَةَ . وَيَسْتَوْفِي ٱلْعِبَارَةَ . وَيُؤَدِّي ٱلْاَلْفَاظَ . وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْاَغْرَاضَ . قَالَ حَتَّى قَالَ ٱلْكَلَامُ : لَوْ اَعْفَيْتَ . وَكَتَبَ حَتَّى قَالَتِ ٱلْاَقْلَامُ : قَدْ اَحْفَيْتَ

البحث الثالث

في أوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات

(عن زهر الاداب للقيرواني)

قَالَ بَعْضٌ مِنْ وُلْدِ عَقَائِلِ هٰذَا ٱلْمَنْثُورِ . وَاِلْفِ فَوَاصِلِ هٰذِهِ

ٱلشُّذُورِ: تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنْ اَهْلِ ٱلصِّنَاعَاتِ فَوَصَفُوا بَلَاغَاتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ صِنَاعَاتِهِمْ . (فَقَالَ ٱلْجَوْهَرِيُّ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ نِظَامًا مَا ثَقَبَتْهُ يَدُ ٱلْفِكْرَةِ وَنَظَمَتْهُ ٱلْفِطْنَةُ وَوُصِلَ جَوْهَرُ مَعَانِيهِ فِي سُمُوطِ اَلْفَاظِهِ فَٱحْتَمَلَتْهُ نُحُورُ ٱلرُّوَاةِ . (وَقَالَ ٱلْعَطَّارُ) : اَطْيَبُ ٱلْكَلَامِ مَا عُجِنَ عَنْبَرُ اَلْفَاظِهِ بِمِسْكِ مَعَانِيهِ فَفَاحَ نَسِيمُ نَشْقِهِ . وَسَطَعَتْ رَائِحَةُ عَبَقِهِ . فَتَعَلَّقَتْ بِهِ ٱلرُّوَاةُ. وَتَعَطَّرَتْ بِهِ ٱلسُّرَاةُ .(وَقَالَ ٱلصَّائِغُ) :خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْمَيْتَهُ بِكِيرِ ٱلْفِكْرِ. وَسَبَكْتَهُ بِمَشَاعِلِ ٱلنَّظَرِ. وَخَلَّصْتَهُ مِنْ خَبَثِ ٱلْاِطْنَابِ فَبَرَزَ بُرُوزَ ٱلْاِبْرِيزِ. فِي مَعْنًى وَجِيزٍ.(وَقَالَ ٱلصَّيْرَفِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا نَقَدَتْهُ يَدُ ٱلْبَصِيرَةِ وَجَلَتْهُ عَيْنُ ٱلرَّوِيَّةِ وَوَزَنْتَهُ بِمِعْيَارِ ٱلْفَصَاحَةِ فَلَا نَظَرَ يُزَيِّفُهُ وَلَا سَمَاعَ يُبَهْرِجُهُ . (وَقَالَ ٱلْحَدَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا نَصَبْتَ عَلَيْهِ مِنْفَخَةَ ٱلْقَرِيحَةِ وَاَشْعَلْتَ عَلَيْهِ نَارَ ٱلْبَصِيرَةِ ثُمَّ اَخْرَجْتَهُ مِنْ فَحْمِ ٱلْاِفْحَامِ . وَرَقَّقْتَهُ بِفِطِّيسِ ٱلْاِفْهَامِ .(وَقَالَ ٱلنَّجَّارُ) :خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْكَمْتَ نَجْرَ مَعْنَاهُ بِقَدُومِ ٱلتَّقْدِيرِ. وَنَشَرْتَهُ بِمِنْشَارِ ٱلتَّدْبِيرِ . فَصَارَ بَابًا لِبَيْتِ ٱلْبَيَانِ . وَعَارِضَةً لِسَقْفِ ٱللِّسَانِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَطُفَتْ رِفَافُ اَلْفَاظِهِ وَحَسُنَتْ مَطَارِحُ مَعَانِيهِ فَتَنَزَّهَتْ فِي زَرَابِيِّ مَحَاسِنِهِ عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينَ . وَاَصَاخَتْ لِنَمَارِقِ بَهْجَتِهِ آذَانُ ٱلسَّامِعِينَ . (وَقَالَ ٱلْمَلَّاحُ) : اَبْيَنُ ٱلْكَلَامِ مَا عَلَّقْتَ وَذَمَ اَلْفَاظِهِ بِبَكَرَةِ مَعَانِيهِ ثُمَّ اَرْسَلْتَهُ فِي قَلِيبِ ٱلْفِطَنِ رِيًّا فَٱمْتَحَتَ بِهِ سِقَاءَ يَكْشِفُ ٱلشُّبُهَاتِ . وَٱسْتَنْبَطَتْ بِهِ مَعْنًى يُرْوِي مِنْ ظَمَاءِ ٱلْمُشْكِلَاتِ . (وَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ) : ٱلْبَلَاغَةُ رِدَاءٌ فَجُرُبَّانُهُ ٱلْبَيَانُ

وَجَيْبُهُ ٱلْمَعْرِفَةُ وَكُدَّاهُ ٱلْوَجَازَةُ وَدَخَارِيصُهُ ٱلْإِفْهَامُ وَدُرُوزُهُ ٱلْحَلَاوَةُ وَلَابِسُهُ جَسَدُ ٱللَّفْظِ وَرُوحُ ٱلْمَعْنَى . (وَقَالَ ٱلصَّبَّاغُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ تَنْضُ بَهْجَةَ اِيجَازِهِ . وَلَمْ تُكْشَفْ صِبْغَةُ إِعْجَازِهِ . قَدْ صَقَلَتْهُ يَدُ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ كُمُودِ ٱلْإِشْكَالِ فَرَاعَ كَوَاعِبَ ٱلْآدَابِ . وَاَلِفَ عَذَارَى ٱلْأَلْبَابِ . (وَقَالَ ٱلْحَائِكُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا اتَّصَلَتْ لُحْمَةُ اَلْفَاظِهِ بِسَدَى مَعَانِيهِ فَخَرَجَ مُفَوَّفًا مُنَيَّرًا وَمُوَشًّى مُحَبَّرًا . (وَقَالَ ٱلْبَزَّازُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا صَدَقَ رَقْمُ اَلْفَاظِهِ وَحَسُنَ نَشْرُ مَعَانِيهِ فَلَمْ يُسْتَعْجَمْ عَنْكَ نَشْرٌ وَلَمْ يَسْتَبْهِمْ عَلَيْكَ طَيٌّ . (وَقَالَ ٱلرَّائِضُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ حَدِّ ٱلتَّخْلِيعِ اِلَى مَنْزِلَةِ ٱلتَّقْرِيبِ اِلَّا بَعْدَ ٱلرِّيَاضَةِ وَكَانَ كَالْمُهْرِ ٱلَّذِي اَطْمَعَ اَوَّلُ رِيَاضَتِهِ فِي تَمَامِ ثَقَافَتِهِ . (وَقَالَ ٱلْجَمَّالُ) : اَلْبَلِيغُ مَنْ اَخَذَ بِخِطَامِ كَلَامِهِ فَاَنَاخَهُ فِي مَبْرَكِ ٱلْمَعْنَى ثُمَّ جَعَلَ ٱلِاخْتِصَارَ لَهُ عِقَالًا . وَٱلْإِيجَازَ لَهُ مَجَالًا . فَلَمْ يَنِدَّ عَنِ ٱلْآذَانِ . وَلَمْ يَشُذَّ عَنِ ٱلْأَذْهَانِ . (وَقَالَ ٱلْخَمَّارُ) : اَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا طَبَخَتْهُ مَرَاجِلُ ٱلْعِلْمِ وَصَفَّاهُ رَاوُوقُ ٱلْفَهْمِ وَضَمَّنَتْهُ دِنَانُ ٱلْحِكْمَةِ فَتَمَشَّتْ فِي ٱلْمَفَاصِلِ عُذُوبَتُهُ وَفِي ٱلْأَفْكَارِ دِقَّتُهُ وَفِي ٱلْعُقُولِ حِدَّتُهُ . (وَقَالَ ٱلْفُقَّاعِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا رَوَّحَتْ اَلْفَاظُهُ غَبَاوَةَ ٱلشَّكِّ وَدَفَعَتْ دِقَّتُهُ فَظَاظَةَ ٱلْجَهْلِ فَطَابَ جُشَاءُ قِطَعِهِ وَعَذُبَ مَصُّ جُرَعِهِ . (وَقَالَ ٱلطَّبِيبُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اِذَا بَاشَرَ دَوَاءُ بَيَانِهِ سُقْمَ ٱلشُّبْهَةِ اَسْتَطْلَقَتْ طَبِيعَةُ ٱلْغَبَاوَةِ فَشَفَى مِنْ سُوءِ ٱلتَّفَهُّمِ وَاَوْرَثَ صِحَّةَ ٱلتَّوَهُّمِ . (قَالَ ٱلْكَحَّالُ) : كَمَا اَنَّ ٱلرَّمَدَ قَذَى ٱلْأَبْصَارِ فَالشُّبْهَةُ قَذَى ٱلْبَصَائِرِ

فَاكْحَلْ عَيْنَ اللُّكْنَةِ بِمِيلِ الْبَلَاغَةِ وَاجْلُ رَمَصَ الْغَفْلَةِ بِمِرْوَدِ الْيَقْظَةِ. (ثُمَّ قَالَ): اجْمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى انَّ ابْلَغَ الْكَلَامِ مَا اِذَا اشْرَقَتْ شَمْسُهُ انْكَشَفَ لَبْسُهُ وَاِذَا صَدَقَتْ انْوَاؤُهُ اخْضَرَّتْ احْمَاؤُهُ

الفصل الثالث

في المعاني

البحث الاوَّل

في حقيقة المعاني

(عن كشَّاف اصطلاحات الفنون بتصرُّف)

(راجع صفحة ١٠ من علم الادب)

اَلْمَعْنَى لُغَةً اَلْمَقْصُودُ وَفِي الْاِصْطِلَاحِ هُوَ الصُّورَةُ الذِّهْنِيَّةُ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ وُضِعَ بِاِزَائِهَا اللَّفْظُ اَيْ مِنْ حَيْثُ اِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَكُونُ بِالْوَضْعِ فَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يُسَمَّى مَعْنًى مُفْرَدًا. وَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مُرَكَّبًا. فَالْاِفْرَادُ وَالتَّرْكِيبُ صِفَتَانِ لِلْاَلْفَاظِ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِمَا الْمَعَانِي تَبَعًا. وَعِلْمُ الْمَعَانِي عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ الْخَطَاءِ فِي تَأْدِيَةِ الْمُرَادِ وَتُعْرَفُ اَحْوَالُ اللَّفْظِ الْعَرَبِيِّ الَّتِي بِهَا يُطَابِقُ اللَّفْظُ مُقْتَضَى الْحَالِ وَهُوَ مِنْ اُصُولِ الْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ يَبْحَثُ عَنِ الْمُرَكَّبَاتِ عَلَى الْاِطْلَاقِ بِاعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ زَائِدَةٍ عَلَى اَصْلِ الْمَعْنَى. قَالَ بَعْضُ اَهْلِ الْمَعَانِي: اَلْكَلَامُ الَّذِي يُوصَفُ

بِالْبَلَاغَةِ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ بِلَفْظِهِ عَلَى مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ اوِ الْعُرْفِيِّ اوِ الشَّرْعِيِّ . ثُمَّ تَجِدُ لِذَلِكَ الْمَعْنَى دَلَالَةً ثَانِيَةً عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ الَّذِي يُرِيدُ الْمُتَكَلِّمُ اِثْبَاتَهُ اوْ نَفْيَهُ فَهُنَاكَ اَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ اُوَلٌ وَمَعَانٍ ثَوَانٍ . فَالْمَعَانِي الْاُوَلُ هِيَ مَدْلُولَاتُ التَّرَاكِيبِ وَالْاَلْفَاظِ الَّتِي تُسَمَّى فِي عِلْمِ النَّحْوِ اَصْلَ الْمَعْنَى . وَالْمَعَانِي الثَّوَانِي الْاَغْرَاضُ الَّتِي يُسَاقُ لَهَا الْكَلَامُ . وَلِذَا قِيلَ : مُقْتَضَى الْحَالِ هُوَ الْمَعْنَى الثَّانِي . كَرَدِّ الْاِنْكَارِ وَدَفْعِ الشَّكِّ مَثَلًا اِذَا قُلْنَا : اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ . فَالْمَعْنَى الْاَوَّلُ هُوَ الْقِيَامُ الْمُؤَكَّدُ وَالْمَعْنَى الثَّانِي رَدُّ الْاِنْكَارِ وَدَفْعُ الشَّكِّ . وَاِذَا قُلْنَا : هُوَ اَسَدٌ فِي صُورَةِ الْاِنْسَانِ . فَالْمَعْنَى الْاَوَّلُ هُوَ مَدْلُولُ هٰذَا الْكَلَامِ وَالْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ اَنَّهُ شُجَاعٌ . فَالْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الَّذِي يُرَادُ اِيرَادُهُ فِي الطُّرُقِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمَفْهُومُ مِنْ تِلْكَ الطُّرُقِ هُوَ الْمَعْنَى الْاَوَّلُ . وَتَسْمِيَتُهُ بِالْمَعْنَى الثَّانِي لِكَوْنِ اللَّفْظِ دَالًّا عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ الْمَعْنَى الْاَوَّلِ . فَدَلَالَةُ الْمَعْنَى الْاَوَّلِ عَلَى الثَّانِي عَقْلِيَّةٌ قَطْعًا وَاَمَّا دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى الْاَوَّلِ فَقَدْ تَكُونُ وَضْعِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ عَقْلِيَّةً . وَقَدْ تُسَمَّى الْمَعَانِي الْاُوَلُ بِالْخُصُوصِيَّاتِ وَالْكَيْفِيَّاتِ الزَّائِدَةِ عَلَى اَصْلِ الْمَعْنَى وَبِالصُّوَرِ وَالْخَوَاصِّ وَالْمَزَايَا مَجَازًا . ثُمَّ اِنَّهُمْ سَمَّوْا تَرْتِيبَ الْمَعَانِي الْاُوَلِ وَكَذَا الْمَعَانِي الْاُوَلَ اَلْفَاظًا . وَفَضِيلَةَ الْكَلَامِ بِاعْتِبَارِ هٰذَا التَّرْتِيبِ لِكَوْنِ الْمَعْنَى الْاَوَّلِ مَحَلَّ الْفَضِيلَةِ لِاَنَّ تَرْتِيبَ الْمَعَانِي الْاَصْلِيَّةِ فِي النَّفْسِ ثُمَّ تَرْتِيبَ الْاَلْفَاظِ فِي النُّطْقِ عَلَى حَذْوِهَا عَلَى وَجْهٍ يَنْتَقِلُ مِنْهَا الذِّهْنُ بِتَوَسُّلِهَا اِلَى الْخَوَاصِّ فِي الْاِفَادَةِ بِلَا اِخْلَالٍ وَلَا تَعَقُّدٍ هُوَ

ٱلْبَلَاغَةُ. فيَكُونُ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْأُولِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَخْصُوصِ مَنْشَأَ ٱلْفَضِيلَةِ وَمَنَاطَ ٱلْبَرَاعَةِ بِلَا شَكٍّ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي تَتَبَيَّنُ بِٱلْأَلْفَاظِ وَلَمْ يَكُنْ لِتَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي سَبِيلٌ إِلَّا بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ تَجَوَّزُوا فَعَبَّرُوا عَنْ تَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ ثُمَّ بِٱلْأَلْفَاظِ بِحَذْفِ ٱلتَّرْتِيبِ . وَإِذَا وَصَفُوا ٱللَّفْظَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَفْخِيمِهِ كَأَنْ يُقَالَ ٱلْبَلَاغَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱللَّفْظِ. أَوْ هُوَ مَحَلُّ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ ٱلِٱتِّصَافَ بِٱلْفَصَاحَةِ وَنَحْوِهَا لَمْ يُرِيدُوا ٱللَّفْظَ ٱلْمَنْطُوقَ وَلٰكِنْ أَرَادُوا مَعْنَى ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي دَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي

البحث الثاني

في صحّة المعاني

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ١٠١ و١١٠ من علم الادب)

أَمَّا صِحَّةُ ٱلْمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : (أَحَدُهَا) إِيضَاحُ تَفْسِيرِهَا حَتَّى لَا تَكُونَ مُشْكِلَةً وَلَا مُجْمَلَةً . (وَٱلثَّانِي) ٱسْتِيفَاءُ تَقْسِيمِهَا حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا وَلَا يَخْرُجَ عَنْهَا مَا هُوَ فِيهَا . (وَٱلثَّالِثُ) صِحَّةُ مُقَابَلَاتِهَا . وَٱلْمُقَابَلَةُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمَعْنَى بِمَا يُوَافِقُهُ وَحَقِيقَةُ هٰذِهِ ٱلْمُقَارَبَةِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ تَصِيرُ مُتَشَاكِلَةً . وَٱلثَّانِي مُقَابَلَتُهُ بِمَا يُضَادُّهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ ٱلْمُقَابَلَةِ. وَلَيْسَ لِلْمُقَابَلَةِ إِلَّا أَحَدُ هٰذَيْنِ ٱلْوَجْهَيْنِ: ٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلِٱئْتِلَافِ وَٱلْمُضَادَّةِ مَعَ ٱلِٱخْتِلَافِ . فَأَمَّا فَصَاحَةُ

اَلْاَلفَاظِ فَتَكُونُ بِثَلَاثَةِ اَوجُهٍ : (اَحَدُهَا) مُجَانَبَةُ اَلْغَرِيبِ اَلْوَحْشِيِّ حَتَى لَا يَمُجَّهُ سَمعٌ وَلَا يَنفِرَ مِنهُ طَبعٌ . (وَالثَّانِي) تَنَكُّبُ اللَّفظِ اَلْمُبْتَذَلِ وَالعُدُولُ عَنِ اَلْكَلَامِ اَلْمُستَرْذَلِ حَتَى لا يَستَسْقِطَهُ خَاصِيٌّ وَلَا يَنبُوَ عَنهُ فَهمُ عَامِيٍّ كَمَا قَالَ اَلْجَاحِظُ فِي كِتَابِ اَلْبَيَانِ : اَمَّا اَنَا فَلَمْ اَرَ قَومًا اَمثَلَ طَرِيقَةً فِي اَلبَلَاغَةِ مِنَ اَلْكُتَّابِ وَذَلِكَ اَنَّهُمْ قَدِ اَلْتَمَسُوا مِنَ اَلْاَلفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَعِّرًا وَحشِيا وَلَا سَاقِطًا عَامِيًا . (وَالثَّالِثُ) اَنْ يَكُونَ بَينَ اَلالفَاظِ وَمَعَانِيهَا مُنَاسَبَةٌ وَمُطَابَقَةٌ . اَمَّا اَلْمُطَابَقَةُ فَهِيَ اَنْ تَكُونَ اَلْاَلفَاظُ كَالْقَوَالِبِ لِمَعَانِيهَا فَلَا تَزِيدُ عَلَيهَا وَلَا تَنقُصُ عَنهَا . وَقَالَ بِشرُ بنُ اَلْمُعتَمِرِ فِي وَصِيَّتِهِ فِي اَلبَلَاغَةِ : اِذَا لَمْ تَجِدِ اَللَّفظَةَ وَاقِعَةً مَوقِعَهَا وَلَا صَائِرَةً اِلَى مُستَقَرِّهَا وَلَا حَالَّةً فِي مَركَزِهَا بَلْ وَجَدتَهَا قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوضِعِهَا فَلَا تُكرِهْهَا عَلَى اَلْقَرَارِ فِي غَيرِ مَوضِعِهَا فَاِنَّكَ اِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرضَ اَلشِّعرِ اَلْمَوزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ اَختِيَارَ اَلْمَنثُورِ لَمْ يَعِبكَ بِتَرْكِ ذَلِكَ اَحَدٌ وَاِذَا اَنتَ تَكَلَّفتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا فَهِيمًا عَابَكَ مَنْ اَنتَ اَقَلُّ عَيبًا مِنهُ وَاَزرَى عَلَيكَ مَنْ اَنتَ فَوقَهُ . وَاَمَّا اَلْمُنَاسَبَةُ فَهِيَ اَنْ يَكُونَ اَلْمَعنَى يَلِيقُ بِبَعضِ اَلْاَلفَاظِ اِمَّا لِعُرفٍ مُستَعمَلٍ اَوْ لِاَتِّفَاقٍ مُستَحسَنٍ حَتَّى اذا ذُكِرَتْ تِلكَ اَلْمَعَانِي بِغَيرِ تِلكَ اَلْاَلفَاظِ كَانَتْ نَافِرَةً عَنهَا وَاِنْ كَانَتْ اَفصَحَ وَاَوضَحَ لِاَعتِيَادِ مَا سِوَاهَا . وَقَالَ بَعضُ اَلْبُلَغَاءِ : لا يَكُونُ اَلْبَلِيغُ بَلِيغًا حَتَّى يَكُونَ مَعنَى كَلَامِهِ اَسبَقَ اِلَى فَهمِكَ مِنْ لَفظِهِ اِلَى سَمعِكَ . وَاَمَّا مُعَاطَاةُ اَلْاِعرَابِ وَتَجَنُّبُ اَللَّحنِ فَاِنَّمَا هُوَ مِنْ

صِفَاتِ ٱلصَّوَابِ . وَٱلْبَلَاغَةُ اَعْلَى مِنْهُ رُتْبَة وَاشْرَفُ مَنْزِلَةً وَلَيسَ لِمَن لَحَنَ فِي كَلَامِهِ مَدْخَلٌ فِي ٱلْأُدَبَاءِ فَضْلًا عَنْ انْ يَكُونَ فِي عِدَادِ ٱلْبُلَغَاءِ

البحث الثالث

في انواع المعاني

(ملخّص عن زهر الاداب للقيرواني)

(راجع صفحة ١٢ من علم الادب)

قَالَ ابُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ٱلْجَاحِظُ : قَالَ بَعْضُ جَهَابِذَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنُقَّادِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْمَعَانِي ٱلْقَائِمَةُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَصَوَّرَةُ فِي اذْهَانِهِمْ ٱلْمُخْتَلِجَةُ فِي نُفُوسِهِمْ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِخَوَاطِرِهِمْ وَٱلْحَادِثَةُ عَنْ فِكَرِهِمْ مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ وَمَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي مَعْنَى مَعْدُومَةٌ لَا يَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ وَلَا حَاجَةَ اَخِيهِ وَخَلِيطِهِ وَلَا مَعْنَى شَرِيكِهِ وَٱلْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى اَمْرِهِ وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ اِلَّا بِغَيْرِهِ . وَاِنَّمَا يُحْيِي تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ذِكْرُهُمْ لَهَا وَاِخْبَارُهُمْ عَنْهَا وَٱسْتِعْمَالُهُمْ اِيَّاهَا . وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ ٱلْفَهْمِ وَتُجَلِّيهَا لِلْعَقْلِ وَتَجْعَلُ ٱلْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا وَٱلْغَائِبَ شَاهِدًا وَٱلْبَعِيدَ قَرِيبًا . وَهِيَ ٱلَّتِي تُلَخِّصُ ٱلْمُلْتَبِسَ وَتَحُلُّ ٱلْمُنْعَقِدَ وَتَجْعَلُ ٱلْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا وَٱلْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا وَٱلْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا وَٱلْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا . وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ وَصَوَابِ ٱلْاِشَارَةِ وَحُسْنِ ٱلْاِخْتِصَارِ وَدِقَّةِ ٱلْمَدْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ ٱلْمَعْنَى . وَكُلَّمَا

كَانَتِ ٱلدَّلَالَةُ اوضَحَ وَافصَحَ وَكَانَتِ ٱلاِشَارَةُ ابيَنَ وَانوَرَ كَانَتْ انفَعَ وَانجَعَ فِي ٱلبَيَانِ . ثُمَّ اعلَمْ حَفِظَكَ ٱللّٰهُ انَّ حُكمَ ٱلمَعَانِي خِلَافُ حُكمِ ٱلاَلفَاظِ لِانَّ ٱلمَعَانِي مَبْسُوطَةٌ اِلَى غَايَةٍ وَمُمتَدَّةٌ اِلَى غَيرِ نِهَايَةٍ ولَسْمَاءُ ٱلمَعَانِي مَحْصُورَةٌ مَعْدُودَةٌ وَمُحَصَّلَةٌ مَحْدُودَةٌ. وَجَمِيعُ اَصْنَافِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلمَعَانِي مِنْ لَفظٍ اَوْ غَيرِ لَفظٍ خَمسَةُ اَشيَاءَ لَا تَنقُصُ وَلَا تَزِيدُ : اَوَّلُهَا ٱللَّفظُ. ثُمَّ ٱلاِشَارَةُ. ثُمَّ ٱلعَقدُ. ثُمَّ ٱلخَطُّ. ثُمَّ ٱلحَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى نِصْبَةً. وَٱلنِّصْبَةُ هِيَ ٱلحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلاَصْنَافِ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَاتِ. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ ٱلخَمسَةِ صُورَةٌ بَائِنَةٌ مِنْ صُورَةِ صَاحِبَتِهَا وَحِلْيَةٌ مُخَالِفَةٌ لِحِلْيَةِ اُختِهَا. وَهِيَ ٱلَّتِي تَكْشِفُ لَكَ عَنْ اَعيَانِ ٱلمَعَانِي فِي ٱلجُملَةِ وَعَنْ حَقَائِقِهَا فِي ٱلتَّفسِيرِ وَعَنْ اَجنَاسِهَا وَاَقدَارِهَا وَعَنْ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا وَعَنْ طَبَقَاتِهَا فِي ٱلسَّارِّ وَٱلضَّارِّ وَعَمَّا يَكُونُ مِنهَا لَغْوًا مُبَهْرَجًا وَسَاقِطًا مُطَّرَحًا . وَفِي نَحوِ قَوْلِ اَبِي عُثمَانَ (اِنَّ ٱلمَعَانِي غَيرُ مَقْصُورَةٍ وَلَا مَحْصُورَةٍ) يَقُولُ اَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ لِاَبِي دُلَفَ بْنِ عِيسَى ٱلعِجْلِيِّ :

وَلَوْ كَانَ يَفْنَى ٱلشِّعْرُ اَفْنَتْهُ مَا قَرَتْ حِيَاضُكَ مِنهُ فِي ٱلعُصُورِ ٱلذَّوَاهِبِ
وَلٰكِنَّهُ فَيضُ ٱلعُقُولِ اِذَا ٱنجَلَتْ سَحَائِبُ مِنهُ اُعقِبَتْ بِسَحَائِبِ

وَقَالَ اَبُو ٱلعَبَّاسِ بْنُ ٱلمُعتَزِّ : لَحظَةُ ٱلقَلبِ اَسرَعُ مِنْ لَحظَةِ ٱلعَينِ وَابعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلغَائِصَةُ فِي اَعمَاقِ اَودِيَةِ ٱلفِكرِ وَٱلمُتَامِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلعَوَاقِبِ وَٱلجَامِعَةُ بَينَ مَا غَابَ وَحَضَرَ وَٱلمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ. وَٱلقَلبُ كَٱلمُملِي لِلكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ اِذَا نَطَقَ وَٱليَدُ

إذا كتبت . والعاقل يكسو المعاني وشي الكلام في قلبه ثم يبديها بألفاظ كواس في احسن زينة . والجاهل يستعجل باظهار المعاني قبل العناية بتزيين معارضها واستكمال محاسنها . قيل لبشار ابن برد : بما فقت اهل عصرك وسبقت اهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب الفاظه . فقال : لأني لم اقبل كل ما تورده علي قريحتي ويناجيني به طبعي ويبعثه فكري . ونظرت الى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فسرت اليها بفهم جيد وغريزة قوية فاحكمت سبرها وانتقيت حرها وكشفت عن حقائقها واحترزت من متكلفها وما ملك قيادي قط الاعجاب بشيء مما آتي به

البحث الرابع

في الحكم على المعاني

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرف)

فائدة هذا الفصل الاحاطة باساليب المعاني على اختلافها وتباينها . وصاحب هذه الصناعة مفتقر الى هذا الفصل والذي يليه بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة لا سيما مفسري الاشعار فانهم به اعنى . واعلم ان الاصل في المعنى ان يحمل على ظاهر لفظه ومن يذهب الى التأويل يفتقر الى دليل كقول القائل : وثيابك فطهر . فالظاهر من لفظ (الثياب) هو ما يلبس ومن تاول ذهب الى ان المراد هو القلب لا الملبوس . وهذا لا بد له من

دَلِيل لِانّه عدولٌ عَنْ ظَاهِرِ اللفظ . وكذلكَ وَرَدَ عن عيسى بْن مَرْيَمَ عَلَيه السَّلامُ أنَّهُ قَالَ : اذا اردتَ انْ تصلّي فَادْخل بَيتك واغلقْ بَابَك . فَالظَّاهِرُ مِنْ هٰذا هُو الْبيتْ وَالْبابُ . وَمَنْ تاوّل ذهَب الى أنّهُ ارادَ انّكَ تجمعُ عَليكَ همَّ قلبكَ وتمنعُ انْ يَخطُر به سوى امرِ الصّلاة . فعبّر عَنِ الْقلبِ بِالْبيت وعَنْ منع الخواطر التي تخطرُ لَهُ باغلاق الْباب . وهٰذا يحتاجُ الى دَليل لأنَّهُ عدولٌ عَنْ ظاهِرِ اللفظِ .
فَالمعنى المحمولُ عَلى ظاهِره لا يقعُ في تفسيره خِلافٌ والمعنى المعدولُ عَنْ ظاهِرهِ الى التأويلِ يقعُ فيه الخلافُ اذ بابُ التأويل غيرُ محصورٍ . والعُلَماءُ متفاوتونَ في هٰذا فانَّهُ قد يأخُذ بعضُهم وجهاً ضعيفاً من التأويلِ فيكسُوهُ بعبارتِهِ قوّةً تميّزُهُ على غيرِهِ مِنَ الوجوه القويّةِ فَإنَّ السَّيفَ بضاربِهِ

إنَّ السُّيوفَ مَعَ الّذينَ قلوبُهُمْ — كقلوبِهنَّ إذا التقى الجمعانِ
تلقى الحسامَ عَلى جراءةِ حدّهِ — مِثلَ الجبانِ بكفِّ كلِّ جبانِ

وهٰذا الفصلُ الّذي نحنُ بِصددِ ذِكْرِه هاهُنا يرجعُ اكثرُهُ إلى التأويلِ لأنَّهُ ادقُّ ولا يخلو تأويلُ المعنى مِنْ ثلاثةِ اقسام : إمّا انْ يُفهَمَ مِنهُ شيءٌ واحِدٌ لا يحتَمِلُ غيرَهُ . وَإما انْ يحتَمِلَ الشَّيءَ وغيرَهُ . وتلكَ الغيريّةُ إمّا انْ تكونَ ضِدًّا اوْ لا تكون ضِدًّا وليس لنا قِسمٌ رابعٌ . (فَالأوّلُ) يقعُ عَلَيهِ اكثرُ الأشعارِ ولا يجري في الدّقّةِ واللّطافةِ مجرى القسمَينِ الآخرَينِ . (وَامّا القِسمُ الثّاني) فَانّهُ قليلُ الوقوعِ جدًّا وهُوَ مِنَ التأويلاتِ المعنويّةِ . لِأنَّ

دَلَالَةَ اللَّفظِ عَلَى الْمعنَى وَضِدِّهِ اَغربُ مِنْ دَلالَتِهِ عَلَى الْمعنَى وَغيرِهِ . فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : اذَا لَمْ تَستَحِ فَاصْنَعْ ما شِئْتَ . وَهٰذا يَشتَمِلُ عَلَى مَعنَيَينِ ضِدَّيْنِ : (اَحدُهُما) اَنَّ الْمرَادَ بِهِ اِذَا لَم تَفعَلْ فِعلاً تَستَحِي مِنْهُ فَافعَلْ مَاشِئْتَ . (وَالآخرُ) اَنَّ الْمرَادَ بِهِ اِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حَيَاءٌ يَنزَعكَ عَنْ فِعلِ مَا يُستَحى منهُ فَافعَلْ مَاشِئْتَ . وَهٰذَانِ مَعنَيَانِ ضِدَّانِ اَحدُهُمَا مَدحٌ وَالآخَرُ ذَمٌّ . وَيَجرِي عَلَى هٰذَا النَّهجِ مِنَ الشِّعرِ قَوْلُ اَبِي الطَّيبِ فِي قَصِيدَة يَمدَحُ بِهَا كَافورا :

وَاَظلمُ اَهلِ الظُّلمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ‏ ‏ ‏ ‏ لِمَنْ بَاتَ فِي نَعمَائِهِ يَتقَلَّبُ

وَهٰذَا البيتُ يُستَخرَجُ مِنْهُ مَعنَيَانِ ضِدَّانِ : (اَحدُهُما) اَنَّ الْمُنعَمَ عَلَيهِ يَحسِدُ الْمُنعِمَ . (وَالآخرُ) اَنَّ الْمُنعِمَ يَحسِدُ الْمُنعَمَ عَلَيهِ . وكَذٰلِكَ وَرَدَ قَولُهُ اَيضا مِنْ قَصِيدَةٍ يَمدَحُهُ :

فَاِنْ نِلتُ مَا اَمَّلْتُ مِنكَ فَرُبَّمَا ‏ ‏ ‏ ‏ شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعجِزُ الطَّيرَ وِرْدُهُ

فَاِنَّ هٰذَا الْبَيتَ يَحتَمِلُ مَدحًا وذمًا وَ اذَا اُخِذَ بِمُفرَدِهِ مِنْ غيرِ نَظرٍ اِلَى مَا قبلَهُ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِالذَّمِّ اولَى منهُ بِالْمَدحِ لِاَنَّهُ يَتَضَمَّنُ وَصفَ نَوَالِهِ بِالْبُعدِ وَالشُّذُوذِ . وَصَدرُ الْبَيتِ مُفتَتَحٌ (بِاِنْ) الشَّرطِيَّةِ وقَدْ اُجِيبَ بِلَفظَةِ (رُبَّ) الَّتِي مَعنَاهَا التَّقلِيلُ اَيْ : لَستُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى يَقِينٍ فَاِنْ نِلتُهُ فَرُبَّمَا وَصَلْتُ اِلَى مَوْرِدٍ لَا يَصِلُ اِلَيهِ الطَّيرُ لِبُعدِهِ . وَاِذَا نُظِرَ اِلَى مَا قَبلَ هٰذَا الْبَيتِ دَلَّ عَلَى الْمَدحِ خَاصَّةً لِارْتِبَاطِهِ بِالْمَعنَى الَّذِي قَبلَهُ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقصِدُ الْمُتَنَبِّي هٰذَا الْقِسْمَ فِي شِعرِهِ كَقَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ اَوَّلُهَا :

عدوّك مذمومٌ بكلّ لسانِ ولو كان مِن اعدائك ٱلقمرانِ
ولِلّهِ سرٌّ في علاكَ وانما كلامُ ٱلعِدى ضربٌ مِن ٱلهذيانِ

ثُمَّ قالَ :

فما لك تُعنى بٱلأسنةِ وٱلقنا وجدُّك طعّانٌ بغيرِ سِنانِ

فإنَّ هٰذا بٱلذمّ اشبهُ مِنهُ بٱلمدحِ لِانهُ يقولُ: لم تبلغ ما بلغتهُ بسعيك واهتِمامِك بل بجدٍّ وسعادةٍ. وهٰذا لا فضلَ فيهِ لِأنَّ ٱلسعادةَ تنالُ ٱلخامِلَ وٱلجاهِدَ ومَن لا يستحقُّها. وأكثرُ ما كان ٱلمتنبي يستعمِلُ هٰذا ٱلقسمَ في قصائده ٱلكافوريّاتِ ... وهٰذا ٱلقِسمُ مِنَ ٱلكلامِ يسمّى ٱلموجَه اي لهُ وجهانِ وهو مِمّا يدلُّ على براعةِ ٱلشاعرِ وحسنِ تأتّيه. (وامّا ٱلقسمُ ٱلثالثُ) فإنّهُ يكونُ اكثرَ وقوعًا مِنَ ٱلقسمِ ٱلثاني وهوَ واسطةٌ بينَ طرفَينِ. لِأنَّ ٱلقسمَ ٱلاوّلَ كثيرُ ٱلوقوعِ . وٱلقسمَ ٱلثاني قليلُ ٱلوقوعِ . وهٰذا ٱلقِسمُ ٱلثالثُ وسطٌ بينهما فمِما جاءَ مِنهُ قولُهُ: ولَا تقتُلوا انفُسكُم. فإنَّ هٰذا لهُ وجهانِ مِنَ ٱلتأويلِ احدُهما ٱلقتلُ ٱلحقيقيُّ ٱلذي هُو معرُوفٌ وٱلآخرُ هُو ٱلقتلُ ٱلمجازيُّ وهوَ ٱلإكبابُ على ٱلمعاصِي فإنَّ ٱلإنسانَ إذا اكبَّ على ٱلمعاصِي قتلَ نفسَهُ في ٱلآخرةِ .... ومِمّا يجري على هٰذا ٱلنهجِ ما يُحكى عَنْ افلاطونَ انّهُ قالَ : تركُ ٱلدّواءِ دواءٌ. فذهبَ بعضُ ٱلأطبّاءِ إلى انّهُ ارادَ: إنْ لَطُفَ ٱلمزاجُ وٱنتهى إلى غايةٍ لَايحتمِلُ ٱلدّواءَ فتركُهُ حينئذٍ وٱلإضرابُ عنهُ دواءٌ . وذهبَ آخرونَ إلى انّهُ ارادَ بٱلتركِ ٱلوضعَ اي : وضعُ ٱلدّواءِ على ٱلداءِ دواءٌ . يُشيرُ بذٰلِكَ

إلى حذق الطبيب في أوقات علاجه. ومثله في الشعر قول الفرزدق:

إذا جعفر مرّت على هضبة الحمى ... فقد لعن الأحياء منها قبورها

وهذا يدل على معنيين: (أحدهما) ذمّ الأحياء والآخر ذمّ الأموات. أما (ذمّ الأحياء) فهو أنهم خذلوا الأموات يريد أنهم تلاقوا قتالهم وقوماً آخرين ففرّ الأحياء عنهم وأسلموهم أو إنهم استنجدوهم فلم ينجدوهم. وأما (ذمّ الأموات) فهو أن لهم مخازي وفضائح توجب عاراً وشناراً فهم يعدّون بها الأحياء ويلصقونها بهم. وعلى هذا ورد قول أبي تمام:

بالشعر طول إذا اصطكّت قصائده ... في معشر وبه عن معشر قصر

فهذا البيت يحتمل تأويلين. (أحدهما) أن الشعر يتسع مجاله بمدحك ويضيق بمدح غيرك. يريد بذلك أن مآثره كثيرة ومآثر غيره قليلة. (والآخر) أن الشعر يكون ذا فخر ونباهة بمدحك وذا خمول بمدح غيرك. فلفظة الطول: يفهم منها ضد القصر ويفهم منها الفخر من قولنا: طال فلان على فلان أي فخر عليه. ومما ينتظم بهذا السلك قول أبي كبير الهذلي:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينه ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وهذا يحتمل وجهين من التأويل. (أحدهما) أنه أراد بسعي الدهر سرعة تقضي الأوقات مدة الوصال. فلما انقضى الوصل عاد الدهر إلى حالته في السكون والبطء. (والآخر) أنه أراد بسعي

اَلدَّهر بالنمائم وَالوشايات فلمَّا انقضى ما كَانَ بينهما من الوصل سكنوا أو تركوا السعاية . وهذا من باب وضع المضاف إليه مكان المضاف كقوله : وَاسأل القرية اي اهل القرية . ومن الدقيق المعنى في هذا الباب قول ابي الطيب المتنبي في عضد الدولة من جملة قصيدته التي اولها (اوه بديل من قولتي واها) فقال :

لو فطنت خيله لنائله ... لم يرضها ان تراه يرضاها

وهذا يستنبط منه معنيان . (احدهما) ان خيله لو علمت مقدار عطاياه النفيسة لما رضيت له بان تكون من جملة عطاياه لان عطاياه انفس منها . (الآخر) ان خيله لو علمت انه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك اذ تكره خروجها عن ملكه . وهذان الوجهان انا ذكرتهما وانما المذكور منهما احدهما . وهذا الذي اشرت إليه من الكلام على المعاني وتأويلاتها كاف لمن عنده ذوق وله قوة على حملها على اشباهها ونظائرها

البحث الخامس

في التَّرجيح بين المعاني

(عن المثل السائر باختصار)

هذا الفصل هو ميزان الخواطر الذي يوزن به نقد درهمها وديناريها بل المحك الذي يعلم منه مقدار عيارها ولا يزن به إلا ذو فكرة منتقدة ولمحة منتقدة . فليس كل من حمل ميزانا سمي صرافا .

وَلا كُلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمِّيَ عَرَّافًا . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَا ٱلتَّرْجِيحِ وَٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ أَنَّ هُنَاكَ يُرَجِّحُ بَيْنَ دَلِيلَيِ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي حُكْمٍ شَرْعِيٍّ وَهٰهُنَا يُرَجِّحُ بَيْنَ جَانِبَيْ فَصَاحَةٍ وَبَلاغَةٍ فِي أَلْفَاظٍ وَمَعَانٍ خِطَابِيَّةٍ . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّ صَاحِبَ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ يُرَجِّحُ بَيْنَ خَبَرِ ٱلتَّوَاتُرِ مَثَلًا وَبَيْنَ خَبَرِ ٱلْآحَادِ أَوْ بَيْنَ ٱلْمُسْنَدِ وَٱلْمُرْسَلِ أَوْ مَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهٰذَا لَا يُعَرِّضُ إِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلٰكِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُرَجِّحَ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ أَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ وَيَكُونَ نَاظِرًا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ إِلَى ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخِطَابِيَّةِ . وَلَرُبَّمَا ٱتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ ٱلتَّرْجِيحِ ٱلْفِقْهِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ كَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ أَوْ مَا شَابَهَ ذٰلِكَ . وَكُنَّا قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَأَقْسَامِهَا . وَلْنُبَيِّنْ فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مَوَاضِعَ ٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ وُجُوهِ تَأْوِيلَاتِهَا فَنَقُولُ : (أَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ) مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ إِذْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا فَلَيْسَ مِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ فِي شَيْءٍ . وَٱلتَّرْجِيحُ إِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ وَلَا يَخْلُو ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ حَقِيقَةً فِي أَحَدِهِمَا مَجَازًا فِي ٱلْآخَرِ . أَوْ حَقِيقَةً فِيهِمَا جَمِيعًا أَوْ مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ . وَٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ ٱلْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ . (وَأَمَّا ٱلتَّرْجِيحُ بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ) فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهَةِ ٱلنَّظَرِ لِمَكَانِ ٱلْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا . وَٱلشَّيْئَانِ ٱلْمُخْتَلِفَانِ يَظْهَرُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ ٱلْمُشْتَبِهَيْنِ . . . .

(وأما مثال المعنيين) إذا كانا حقيقين فقوله : التمسوا الرزق في خبايا الارض والخبايا جمع خبية وهو كل ما يخبأ كائنا ما كان . وهذا يدل على معنيين حقيقين : (احدهما) الكنوز المخبوءة في بطون الارض. (والآخر) الحرث والغراس. وجانب الحرث والغراس ارجح لان مواضع الكنوز لا تعلم حتى تلتمس وهو لا يأمر بذلك لانه شيء مجهول غير معلوم فبقي المراد بخبايا الارض ما يحرث ويغرس.

(واما مثال المجازين) فقول ابي تمام :

قد بلونا ابا سعيد حديثا ... وبلونا ابا سعيد قديما

ووردناه ساحلا وقليبا ... ورعيناه بارضا وجميما

فعلمنا ان ليس الا بشق م النفس صار الكريم يدعى كريما

فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان : (احدهما) انه اراد بهما الكثير والقليل بالنسبة الى الساحل والقليب . (والآخر) انه اراد بهما السبب وغير السبب . فان الساحل لا يحتاج في ورده الى سبب والقليب يحتاج في ورده الى سبب. وكلا هذين المعنيين مجاز . فان حقيقة الساحل والقليب غيرهما والوجه هو الثاني لانه هو ادل على بلاغة القائل ومدح المقول فيه. اما بلاغة القائل فالسلامة من هجنة التكرير بالمخالفة بين صدر البيت وعجزه . فان عجزه يدل على القليل والكثير لان البارض هو اول النبت حين يبدو فاذا كثر وتكاثف سمي جميما . فكأنه قال : اخذنا منه تبرعا ومسئلة وقليلا وكثيرا . واما مدح المقول

فِيهِ فَلتَعْدَادِ حَالاتِهِ ٱلْأَرْبَعِ فِي تَبَرُّعِهِ وَسُؤَالِهِ وَإِكْثَارِهِ وَإِقْلَالِهِ وَمَا فِي مُعَانَاةِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلْمَشَاقِّ . فَهٰذَا إِمَّا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّرْجِيحِ ٱلْبَلَاغِي بَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَبَيْنَ ٱلْمَجَازِ وَٱلْمَجَازِ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ

البحث السادس

في الفصل والوصل

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ١٨ من علم الادب)

ٱلْفَصْلُ وَٱلْوَصْلُ هُوَ ٱلْعِلْمُ بِمَوَاضِعِ ٱلْعَطْفِ وَٱلْاِسْتِئْنَافِ وَٱلْهُدَى الى كَيْفِيَّةِ إِيقَاعِ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ فِي مَوَاضِعِهَا. وَهُوَ من اعظَمِ أَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَدَّ ٱلْبَلَاغَةَ بِأَنَّهَا مَعْرِفَةُ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ: إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ لِإِحْرَازِ ٱلْفَضِيلَةِ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا كَمَلَ لِسَائِرِ مَعَانِي ٱلْبَلَاغَةِ . اِعْلَمْ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْعَطْفِ ٱلتَّشْرِيكُ بَيْنَ ٱلْمَعْطُوفِ وَٱلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْعَاطِفَةِ مَا لَا يُفِيدُ إِلَّا هٰذَا ٱلْقَدْرَ وَهُوَ ٱلْوَاوُ . وَمِنْهَا مَا يُفِيدُ فَائِدَةً زَائِدَةً كَٱلْفَاءِ وَثُمَّ وَأَوْ . وَغَرَضُنَا هَا هُنَا يَتَعَلَّقُ بِمَا لَا يُفِيدُ إِلَّا ٱلِاشْتِرَاكَ فَنَقُولُ : ٱلْعَطْفُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ كَقَوْلِكَ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَلْقُهُ حَسَنٌ وَخُلُقُهُ قَبِيحٌ . فَقَدْ أَشْرَكْتَ بَيْنَهُمَا فِي ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعْنَى لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَيِّدًا لِلْمَوْصُوفِ . وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَعْنًى يَقَعُ ذٰلِكَ ٱلِاشْتِرَاكُ فِيهِ وَحَتَّى يَكُونَا كَٱلنَّظِيرَيْنِ وَٱلشَّرِيكَيْنِ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَ

ٱلسَّامِعْ حَالَةَ ٱلاوَّلِ عساهُ يَعرِفْ حَالَةَ ٱلثَّانِي . يَدلُّكَ عَلَى ذٰلكَ انَّكَ اِذا عَطَفْتَ عَلَى ٱلاَوَّلِ شَيْئًا لَيسَ مِنْهُ سَبَبٌ وَلا هُوَ مِمَّا يُذكَرُ بِذِكرِهِ لَمْ يَسْتَقِمْ . فَلَو قُلتَ : (خرجتُ ٱليَومَ مِنْ دَارِي وَاحسَنَ ٱلَّذِي يَقُولُ بَيتَ كَذَا) قُلتَ مَا يُضحِكُ مِنْهُ . وَانْ لَمْ يَكُنْ فِي قُوَّةِ ٱلمُفْرَدِ فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلاَولُ) اَنْ يَكُونَ مَعنَى اِحدَى ٱلجُملَتَيْنِ لذاتِهِ مُتَعَلِّقًا بِمَعنَى ٱلاُخرَى كَمَا اذَا كَانَتْ كَالتَوكِيدِ لَهَا اوْ كَالصِّفَةِ فَلَا يَجُوزُ اِدخَالُ ٱلعَاطِفِ عَلَيهِ لِاَنَّ التَوكِيدَ وَٱلصِّفَةَ مُتَعَلِّقَانِ بِٱلمُؤَكَّدِ وَٱلمَوصُوفِ لِذَاتَيهِمَا . وَٱلتَعلُّقُ ٱلذَّاتِيُّ يُغنِي عَنْ لَفظٍ يَدُلُّ عَلَى ٱلتَعلُّقِ . فَمِثَالُ ٱلتَوكِيدِ قَوْلُهُ : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللهِ وَبِٱليَومِ ٱلآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤمِنِينَ يُخَادِعُونَ ٱللهَ . وَلَمْ يَقُلْ : (وَيُخَادِعُونَ) لِاَنَّ ٱلمُخَادَعَةَ لَيسَتْ شَيْئًا غَيرَ قَوْلِهِمْ : آمَنَّا مَعَ اَنَّهُمْ غَيرُ مُؤمِنِينَ . وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ ٱلاِثبَاتُ (بِانْ وَاِلَّا) عَلَى هٰذَا ٱلحَدِّ قَوْلُهُ : اِنْ هُوَ اِلَّا وَحيٌ يُوحَى . فَٱلاِثبَاتُ فِي قَوله تَأكِيدٌ لِنَفيِ مَا يُنفَى . (ٱلقِسمُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلجُملَتَيْنِ تَعَلُّقٌ ذَاتِيٌّ فَاِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَيَجِبُ تَرْكُ ٱلعَاطِفِ اَيضًا لِاَنَّ ٱلعَطفَ لِلتَشرِيكِ وَلا تَشرِيكَ . وَمِنْ هَاهُنَا عَابُوا عَلَى اَبِي تَمَّام قَوْلَهُ :

لا وَٱلَّذِي عَالِمٌ اَنَّ ٱلنَوَى مُرٌّ وَاَنَّ اَبَا ٱلحُسَيْنِ كَرِيمُ

اِذْ لَامُنَاسَبَةَ بَيْنَ مَرَارَةِ ٱلنَوَى وَبَيْنَ كَرَمِ اَبِي ٱلحُسَيْنِ . وَلِذٰلكَ لَمْ يُحسِنْ جَوَازَ ٱلعَاطِفِ . وَاِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَاِمَّا اَنْ يَكُونَ بِٱلَّذِي اُخبِرَ بِهِمَا اَوْ بِٱلَّذِي اُخبِرَ عَنْهُمَا اَوْ بِهِمَا كِلَيْهِمَا . وَهٰذَا ٱلاَخِيرُ

هو ٱلْمُعْتَبَرُ في ٱلعطفِ ومعنى ٱلْمُنَاسَبَة ان يكُونَا مُتَشَابهَيْنِ كقولك :
زَيْدٌ كَاتِبٌ وَعَمْرو. او مُتَضَادَّيْن تضادا عَلَى ٱلْخُصوص كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ
طَوِيلٌ وَعَمْرو قصيرٌ . وَكَقَوْلِكَ : ٱلعِلْمُ حَسَنٌ وَٱلْجَهْلُ قَبِيحٌ . فَلَوْ
قُلْتَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو شَاعِرٌ لَٱخْتَلَّ إِذ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ طُولِ ٱلقامَةِ
وَٱلشِّعْرِ . وَإِنْ كَانَ ٱلْمُحَدَّثُ عَنْهُ فِي ٱلْجُمْلَتَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا كَقَوْلِكَ :
فُلانٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَضُرُّ وينفع وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ . يجب
إِدْخَالُ ٱلعَاطِفِ فَإِنَّ ٱلغرضَ جعلُهُ فَاعِلًا للأمرين. فَلَوْ قُلْتَ : يَقُولُ
يَفْعَلُ بلا عَاطف لَتُوُهِّمَ أَنَّ ٱلثَّانِي رُجُوعٌ عَنِ ٱلأَوَّلِ . و اذا أفاد
ٱلعاطفُ ٱلِاجْتِمَاعَ ازداد ٱلِاشْتِرَاكُ كقولك : ٱلْعَجَبُ مِنْ أَنَّكَ أَحْسَنْتَ
وَأَسَأْتَ . وَٱلْعَجَبُ مِنْ أَنَّكَ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ تَأْتِي مِثْلَهُ . وكقوله :

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ وَأَنْ نَكُفَّ ٱلأَذَى عَنْكُمْ وتُؤْذُونَا

فَإِنَّ ٱلْمَعْنَى جَعْلُ ٱلْفِعْلَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ أَيْ لَا تَطْمَعُوا أَنْ
تَرَوْا إِكْرَامَنَا إِيَّاكُمْ يُوجَدُ مَعَ إِهَانَتِكُمْ إِيَّانَا . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَجِبُ
إِسْقَاطُ ٱلعَاطِفِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ لِٱخْتِلَالِ ٱلْمَعْنَى عِنْدَ إِثْبَاتِهِ
كَقَوْلِهِ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ
مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ. فقوله : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ) كلامٌ
مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ إِخْبَارٌ مِنْهُ . فَلَوْ أَتَى بِٱلْوَاوِ لَكَانَ إِخْبَارًا عَنِ ٱلْيَهُودِ
بِأَنَّهُمْ وَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فَيَخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى. قَالَ عَبْدُ ٱلقاهرِ :
وَإِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمِ ٱلْكَلَامَ
إِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا يَقْتَضِي سُؤَالًا تَنْزِلَتَهُ إِذَا صُرِّحَ بِذَلِكَ ٱلسُّؤَالِ

كثيرا. فمن لطيف ذلك قوله :

زعم العواذل انني في غمرة   صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

لما حكى عن العواذل قولهم إنه في غمرة وكان ذلك مما يحرك السامع على ان يسأله : فما جوابك عن ذلك . اخرج الكلام مخرجه اذا كان قد قيل فقال : اقول صدقوا . انا كما قالوا ولكن لا مطمع لهم في فلاحي . ولو قال : وصدقوا لكن لم يضع نفسه في انه مسئول . وامثال ذلك كثيرة . واذا كان كذلك فلا حاجة الى العاطف بخلاف قوله : يخادعون الله وهو خادعهم . ومكروا ومكر الله : فان كل واحد من الجملتين خبر

(ومما يجب) ذكره هاهنا الجملة اذا وقعت حالا فانها تجيء مع الواو تارة و بدونها اخرى. فنقول الجملة اذا وقعت حالا فلا بد ان تكون خبرية تحتمل الصدق والكذب وهو على قسمين: (الاول) وله احوال : (الاولى) ان يجمع لها بين الواو وضمير صاحب الحال كقولك: جاء زيد ومعه غلامه ولقيت زيدا وفرسه سابقه. وهذه الواو تسمى واو الحال . (الثانية) ان تجيء بالضمير من غير واو كقولك : كلمته فوه الى فيّ. وهو في معنى مشافها والرابط الضمير. (الثالثة) ان تجيء بالواو من غير ضمير وهو كثير كقولك : لقيتك والجيش قادم . وزرتنا والشتاء خارج . قال امرؤ القيس :

وقد اغتدي والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الاوابد هيكل

ويجوز ان يجمع بين حالين: مفرد وجملة . اذا اجزنا وقوع حالين

كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ رَاكِبًا وَٱلْحَسَنُ قَادِمٌ . فَٱلْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ ٱلتَّاءِ اَوْ مِنَ ٱلْكَافِ وَٱلْعَامِلُ فِيهَا (لَقِيتُ) اَو مِنْ ضَمِيرِ (رَاكِبٍ) وَرَاكِبٌ هُوَ ٱلْعَامِلُ فِيهَا . (اَلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) اَلْجُمْلَةُ ٱلْفِعْلِيَّةُ . وَلَا بُدَّ اَنْ تَكُونَ مَاضِيًا اَوْ مُضَارِعًا . اَمَّا ٱلْمَاضِي فَلَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْوَاوِ وَقَدْ اَوْ بِاَحَدِهِمَا كَقَوْلِكَ : تَكَلَّمْتُ وَقَدْ عَجِلْتَ . وَجَاءَ زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَ عَمْرًا . وَجِئْتُ وَاَسْرَعْتُ فِي ٱلْمَجِيءِ . وَلَمْ يُجِزِ ٱلْبَصْرِيُّونَ خُلُوَّهُ عَنْهُمَا وَقَالُوا فِي قَوْلِ اَبِي صَخْرٍ ٱلْهُذَلِيِّ :

وَاِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ   كَمَا ٱنْتَفَضَ ٱلْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ ٱلْقَطْرُ

اِنَّ (قَدْ) مُقَدَّرَةٌ فِيهَا فَاِنَّ ٱلشَّيْءَ اِذَا عُرِفَ مَوْضِعُهُ جَازَ حَذْفُهُ .

وَاَمَّا ٱلْمُضَارِعُ فَاِنْ كَانَ مُوجَبًا فَلَا يُؤْتَى مَعَهُ بِٱلْوَاوِ تَقُولُ : جَاءَنِي زَيْدٌ يَضْحَكُ وَجَاءَ عَمْرٌو يُسْرِعُ وَجَلَسَ يُحَدِّثُنَا (بِٱلرَّفْعِ) اَيْ مُحَدِّثًا لَنَا بِتَجَرُّدِهِ عَمَّا يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ اَشْبَهَ ٱسْمَ ٱلْفَاعِلِ اِذَا وَقَعَ حَالًا . وَاِنْ كَانَ مَنْفِيًّا جَازَ حَذْفُ ٱلْوَاوِ مُرَاعَاةً لِاَصْلِ ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِيجَابُ وَجَازَ اِثْبَاتُهَا لِاَنَّ ٱلْفِعْلَ لَيْسَ هُوَ ٱلْحَالَ . فَاِنَّ مَعْنَى قَوْلِكَ : (جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ) جَلَسَ زَيْدٌ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ . فَجَرَى مَجْرَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْاِسْمِيَّةِ . فَٱلْحَذْفُ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ مَا يَفُوهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : اَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . فَقَوْلُهُ : (لَا يَمَسُّنَا) فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى ٱلْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ ٱلْمَرْفُوعِ فِي اَحَلَّنَا . وَٱلْاِثْبَاتُ كَقَوْلِكَ : جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . وَقَالَ : اَفَلَا يَرَوْنَ اَلَّا يَرْجِعُ اِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَشَبَّهُوا بِهِ ٱلْفِعْلَ

ٱلْماضِي فقالُوا : جَاءَ زَيْدٌ مَا ضَرَبَ عَمرا . وجَاءَ زَيدٌ ومَا ضَربَ عَمرَا

البحث السابع

في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزه بانَّ وانَّما

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ١٩ من علم الادب)

امَّا (اِنَّ) فلَهَا فَوائدُ : (ٱلْاولى) انَّها تَرْبطُ ٱلْجُمْلةَ ٱلثَّانِيَةَ بِٱلْاُولَى وَبسببها يَحْصُلُ ٱلتَّأليفُ بَيْنهُما حتَّى كَانَّ ٱلْكَلامَيْنِ اُفْرِغا افْراغا وَاحِدًا ولَوْ اَسْقطتَها كان ٱلثاني نَابيا عَن ٱلْاَوَّلِ كقولِهِ : يَا اَيُّها ٱلنَاسُ ٱتقُوا رَبكُمْ انَّ زَلْزلَةَ ٱلساعَةِ شيْءٌ عَظِيمٌ . (ٱلثَّانِيَةُ) اَنَّك تَرَى لِضَميرِ ٱلشأنِ وٱلْقصةِ في ٱلْجُملةِ ٱلشَّرطيَّة مَع (انَّ) مِن ٱلْحُسْنِ وَٱللُّطفِ مَا لَا تراهُ اِذا هِيَ لَمْ تَدْخل عَلَيْها كقوْلِهِ : اِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ فَاِنَّ ٱللهَ لَا يُضيعُ اَجرَ ٱلْمُحْسِنينَ . (ٱلثَّالثةُ) انَّها تُهَيّئُ ٱلنَكِرَةَ وَتُصْلِحُها لِاَنْ يُحدَثَ عَنْهَا وَاِنْ كَانَتِ ٱلنَكِرةُ مَوْصُوفةً جَازَ حَذْفُها وَلٰكِنَّ دُخُولَها اَصْلحُ كَقَوْلِ حَسّانٍ :

اِنَّ دَهْرا يَلُفُّ شَمْلِي بجُمْلٍ لَزَمانٌ يَهُمُّ بِٱلْاِحْسانِ

(ٱلرَّابِعةُ) انَّها تُغْنِي عَنِ ٱلْخبرِ كَمَا اِذَا قِيلَ لَكَ : ٱلنَاسُ اَلْبُوا عَليكُمْ فهلْ لَكُمْ اَحَدٌ . فَقُلْتُ : اِنَّ زَيْدًا اَوْ اِنَّ عَمرًا . اَيْ لَنا . قالَ ٱلْاَعْشَى :

اِنَّ مَحَلًا وَاِنَّ مُرْتَحَلًا وَاِنَّ فِي ٱلسَّفْرِ اِذْ مَضَوْا مَهَلًا

(اَلْخَامِسَةُ) قَالَ اَلْمُبَرِّد إِذا قُلْتَ : إِنَّ عَبْدَاَللّهِ قَائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . فَإِذا قُلْتَ : إِنَّ عَبْدَاَللّهِ لقائِمٌ . فَهُوَ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنكِرٍ لقيامِهِ سَوَاءٌ كَانَ اَلْمُنكِرُ هُوَ اَلسَّائِلَ اوِ اَلْحَاضِرِينَ

(وَامَا إِنمَا)فَتارَة تَجِيءُ لِلْحَصْرِ بِمَعْنَى اَنَّ هٰذَا اَلْحُكْمَ لايُوجَدُ فِي غيرِ اَلْمَذْكُورِ وهُوَ بِمَنْزِلَة (لَيسَ إِلَّا) كقوْلِهِ : إِنمَا يَسْتَجِيبُ اَلذِينَ يَسْمَعُونَ . وقوْلِهِ : إِنمَا تُنْذِرُ مَن اَتَّبعَ اَلذِّكرَ . وَقَوْلِهِ : إِنمَا انتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاهَا . وتارَةً تَجِيءُ لِبَيَان انَ هٰذَا اَلْامْرَ ظَاهِرٌ عِنْدَ كُلِّ احدٍ سَوَاءٌ كانَ كذلكَ اوْ فِي زَعْمِ اَلْمتَكَلِّم . ومِنْهُ قوْلُ اَلشاعِرِ :

انمَا مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ اللهِ م تَجلتْ مِنْ وَجْهِهِ اَلظلْمَاءُ

مُدعِيًا انَّ ذٰلكَ مما لَا يُنكِرُهُ اَحَدٌ مِنَ اَلنَاسِ . (فَائدَةٌ) إِذَا دخَلَ(مَا وإِلَّا) عَلَى اَلْجُمْلَةِ اَلْمُشْتَمِلَة عَلَى اَلْمَنصوبِ كَانَ اَلْمَقْصودُ بِاَلذِّكْر مَا اَتَّصل (بِإِلَّا) مُتاَخِرا عَنْهُ . فإِذَا قُلْتَ :مَا ضَرَبَ عَمْرًا الا زَيدٌ . فَاَلْمَقْصودُ اَلْمرْفوع . وإِذا قلتَ : مَا ضَرَبَ زَيدٌ إِلَّا عَمْرا . فاَلْمَقْصودُ اَلْمَنصُوبُ . وَإِذَا قُلْتَ :مَا ضَربَ زَيْدٌ إِلا عَمْرا . فَاَلْاَخْتِصَاصُ بِاَلضَّارِبِ . وَإِذا قُلْتَ :مَا ضَربَ اَلَّا زَيدا عمْرٌو . فَالْاَخْتِصَاصُ بِاَلْمضْرُوبِ . وإِذَا قُلْتَ : لَمْ اَكسُ إِلَّا زَيدا جُبة . فَاَلْمَعْنَى تَخصِيصُ كُسْوةِ اَلْجُبَةِ بَيْنَ اَلناسِ بِزَيْدٍ . وكَذٰلِكَ اَلْحكْمُ حَيْثُ يكُونُ يَدُلُّ احَدُ اَلْمَفْعُولَيْنِ جارًا وَمَجْرُورا كقَوْلِ اَلسيِّدِ اَلْحِمْيَرِيِّ :

لَوْ خُيِّرَ اَلْمِنْبَرُ فُرْسَانَهُ مَا اَخْتَارَ إِلَّا مِنكُمُ فَارِسا

وكَذٰلِكَ حُكْمُ اَلْمبْتَدَإ وَاَلخبَرِ واَلْفعْلِ وَاَلْفَاعِلِ كَقَوْلِكَ : مَا

زَيدٌ اِلَّا قائمٌ وَمَا قَائمٌ اِلَّا زَيدٌ. وَاما (اِنَّمَا) فَالِاختِصَاصُ فيها يَقعُ مَعَ اَلْمُتَاخر. فاِذَا قُلتَ: اِنما ضَرَبَ زَيدًا عَمرٌو. فَالِاختِصَاصُ فِي اَلضَّارِب. وَقولُهُ: (اِنَّمَا يَخشَى اَللهَ مِنْ عِبَادِهِ اَلْعُلَماءُ) فَاَلغرضُ بَيَانُ اَلْمَرفُوعِ وهو اَنَّ اَلخاشِين هُمُ اَلعُلَمَاءُ. ولَوْ قُدِّمَ اَلْمَرفُوعُ لصارَ اَلمقصودُ بَيَانَ اَلْمَخشِيِّ مِنْهُ فَالْاَوَّلُ اَتَمُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ اَلفرزدَقِ:

اَنَا اَلرائدُ اَلحَامي اَلذِّمَارَ وَاِنَّمَا ... يُدَافِعُ عَنْ اَحسابِكُمْ اَنَا اوْ مِثْلِي

فاِنَّ غَرَضَهُ اَنْ يَحصُرَ اَلْمُدَافِعَ بِاَنَّهُ هُوَ لَا اَلْمُدَافَعُ عَنْهُ. ولَوْ قَالَ: انما اَنَا اُدَافِعُ عَنْ اَحسابِكُمْ. توجَّهَ اَلتخصيصُ اِلى اَلْمُدَافَعِ عَنْهُ. اِذا اَدخلتَ عليهِمَا (انما) فَاِنْ قَدَّمتَ اَلخبَرَ فَالِاختِصَاصُ للمُبتدإِ. وَاِنْ لم تُقدِّمْهُ فللخبَرِ. فَاِذا قُلتَ: انما هذَا لكَ فَالِاختِصاصُ فِي (لَكَ) بِدليلِ اَنَّكَ تَقُولُ بعدَهُ: لا لغيرِكَ. واِنْ قُلتَ: انما لك هذا. فَالِاختصاص فِي هذا بِدَلِيلِ انك تَقُول بَعدَهُ لا ذاكَ. ثمَّ قَدْ يَجتَمِعُ مَعهُ حَرْفُ اَلنفيِ اِما مُتاَخرًا كقولك: انما يَجِيءُ زَيدٌ لَا عَمرٌو. وَقالَ لبيدٌ:

وَاِذَا جُوزِيتَ قَرْضًا فَاَجزِهِ ... انما يَجزِي اَلفَتَى لَيسَ اَلجَمَلْ

وَاما مُقَدَّمًا عَلَيهِ كقولِكَ: مَا جَاءَنِي زَيدٌ وانما جاءَنِي عَمرٌو. فَهاهُنَا لَوْ لَمْ تَقُلْ: (اِنَّمَا). وَقُلْتَ: مَا جَاءَنِي زَيدٌ وجَاءَنِي عَمرٌو. لكَانَ اَلكَلَامُ مَعَ مَنْ ظَنَّ اَنَّهُمَا جَاءَا جميعًا. وَاِذَا اَدخلتَها كَانَ اَلكَلامُ مَعَ مَنْ غَلِطَ في اَلجائِي اَنهُ زَيدٌ لَا عَمرٌو. واَعلمْ اَنَّ اَقوَى مَا يَكُونُ اِنَّمَا اذا كانَ لا يرادُ بِالكَلامِ اَلَّذِي بَعدَهَا نَفسُ مَعنَاهَا

وَلٰكِنَّ ٱلتعريضَ بِأمْرٍ هُوَ مُقْتَضَاهُ . وهٰذَا ٱلْغَرَضُ لَايَحْصُلُ بِدُونِ (إِنَّمَا) لِاَنَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا تَضْمِينَ ٱلْكَلَامِ مَعْنَى ٱلنَّفْيِ بَعْدَ ٱلْاِثْبَاتِ . فَإِذَا اسْقِطتَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اِثْبَاتُ ٱلْحُكْمِ لِلْمَذْكُورِينَ فَلَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ غَيْرِهِمْ إِلَّا انْ يُذْكَرَ فِي مَعْرِضِ مَدْحِ ٱلْاِنسانِ بِٱلتَّيَقُّظِ وَٱلْكَرَمِ وَامْثَالِهِمَا كَما يُقَالُ : كذٰلِكَ يَفْعَلُ ٱلْعَاقِلُ وهٰكَذَا يَفْعَلُ ٱلْكَرِيمُ

البحث الثامن

في التقديم والتأخير

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع علم الادب صفحة ١٩)

إِذَا قُدِّمَ ٱلشَّيْءُ عَلَى غَيْرِهِ فَإِمَّا انْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ كَمَا إِذَا قُدِّمَ ٱلْخَبَرُ عَلَى ٱلْمُبْتَدَإِ . وَإِمَّا ان يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ وَلٰكِن ٱنْتَقَلَ ٱلشَّيْءُ مِنْ حُكْمٍ إِلَى آخَرَ . كَما إِذَا جِئْتَ إِلَى ٱسْمَيْنِ جَازَ انْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدَأً فَجَعَلْتَ احدهما مُبْتَدَأً كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ ٱلْمُنْطَلِقُ وَٱلْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ . قَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ : كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ ٱلَّذِي بَيَانُهُ اهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ اعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعاً يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ . وَمِثَالُهُ إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا تَعَلَّقَ غَرَضُهُمْ بِقَتْلِ خَارِجِيٍّ مُفْسِدٍ وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ صَدَرَ ٱلْقَتْلُ مِنْهُ وَارَادَ مُرِيدٌ ٱلْاِخْبَارَ بِذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ ٱلْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ : قَتَلَ ٱلْخَارِجِيَّ زَيْدٌ . وَلَا يَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ ٱلْخَارِجِيَّ . لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

اَنَّ قَتْلَ اَلْخَارِجِيّ هُوَ اَلذِي يَعْنِيهِمْ . وَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ قَتْلٌ مِنْ رَجُلٍ يَبْعُدُ فِي اَعْتِقَادِ اَلنَّاسِ وُقُوعُ اَلْقَتْلِ مِنْ مِثْلِهِ قَدَّمَ اَلْمُخْبِرُ ذِكْرَ اَلْفَاعِلِ فَيَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا . لِاَعْتِقَادِ اَلنَّاسِ فِي اَلْمَذْكُورِ خِلَافَ ذٰلِكَ (اه). وَلْنَذْكُرْ مِنْهُ ثَلَاثَةَ مَوَاضِعَ يُعْرَفُ بِهَا مَا لَمْ يُذْكَرْ :

(اَلْأَوَّلُ اَلِاَسْتِفْهَامُ) فَإِذَا ادْخَلْتَهُ عَلَى اَلْفِعْلِ وَقُلْتَ : اضَرَبْتَ زَيْدًا . كَانَ اَلشَّكُّ فِي وُجُودِ اَلْفِعْلِ مُحققا وَاَلشَّكُّ فِي تَعْيِينِ اَلْفَاعِلِ وَهٰكَذَا حُكْمُ اَلنَّكِرَة . فَإِذَا قُلْتَ : اَجَاءَكَ رَجُلٌ فَإِنَّ اَلْمَقْصُودَ هَلْ وُجِدَ اَلْمَجِيءُ مِنْ رَجُلٍ . فَإِذَا قُلْتَ : ارَجُلٌ جَاءَكَ كَانَ ذٰلِكَ سُؤَالًا عَنْ جِنْسِ مَنْ جَاءَ بَعْدَ اَلْحُكْمِ بِوُجُودِ اَلْمَجِيءِ مِنْ اِنْسَان . وَقِسْ عَلَيْهِ اَلْخَبَرَ فِي قَوْلِكَ : ضَرَبْتُ زَيْدا وزيدا ضَرَبْتُ . وَجَاءَنِي رَجُلٌ تَمِيمِيٌّ . وَرَجُلٌ تَمِيمِيٌّ جَاءَنِي . ثُمَّ اَلِاَسْتِفْهَامُ قَدْ يَجِيءُ لِلْاِنْكَار : وَهُوَ اِمَّا لِلتَّقْرِيرِ وَاَلتَّوْبِيخِ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ : اَاَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا . وَاِمَّا لِاِنْكَارِ اَنَّهُ اَلْفَاعِلُ مَعَ تَحْقِيقِ اَلْفِعْلِ كَقَوْلِكَ لِمَنِ اَنْتَحَلَ شِعْرًا : اَاَنْتَ قُلْتَ هٰذا . وَاِنْ كَانَ اَلْفِعْلُ مُضَارِعا فَاِنْ ادْخَلْتَ حَرْفَ اَلِاَسْتِفْهَامِ عَلَيْهِ كَانَ اِما لِاِنْكَارِ وُجُودِهِ كَقَوْلِهِ : انُلْزِمُكُمُوهَا وَاَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . اَوْ لِاِنْكَارِ اَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى اَلْفِعْلِ كَقَوْلِ اَمْرِئِ اَلْقَيْسِ :

اَيَقْتُلُنِي وَاَلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَاَنْيَابِ اَغْوَالِ

اَوْ لِإِزَالَةِ طَمَعِ مَنْ طَمِعَ فِي اَمْرٍ لَا يَكُونُ فَيُجَهِّلُهُ فِي طَمَعِهِ كَقَوْلِكَ : اَيَرْضَى عَنْكَ فُلَانٌ وَاَنْتَ عَلَى مَا يَكْرَهُ . اَوْ لِتَعْنِيفِ مَنْ يُضِيعُ اَلْحَقَّ كَقَوْلِ اَلشَّاعِرِ :

أأترك إن قلت دراهم خالد زيارته إني إذا للئيم

أو لتقديم الفعل كما تقول لمن يركب الخطر : أتركب في هذا الوقت . وإن أدخلته على الاسم فهو لإنكار صدور الفعل من ذلك الفاعل إما لاستحقار كقولك : أأنت تمنعني . أو للتعظيم كقولك : أهو يسأل الناس . أو للمبالغة إما في كرمه كقولك : أهو يمنع سائله . وإما في خساسته كقولك : أهو يسمح بمثل هذا . وقد يكون لبيان استحالة فعل ظن ممكنا كقوله : أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي . وكذلك إذا أدخلته على المفعول كقوله : أغير الله أتخذ وليا و أغير الله تدعون . وأبشرا منا واحدا نتبعه . بنوا كفرهم على أن البشر ليس بمثابة أن يتبع و يطاع

(في التقديم والتأخير في النفي) إذا أدخلت النفي على الفعل فقلت : ما ضربت زيدا . فقد نفيت عن زيد ضربا واقعا بزيد وهذا لا يقتضي كون زيد مضروبا . وإذا أدخلته على الاسم فقلت : ما أنا ضربت زيدا اقتضى من باب دليل الخطاب كون زيد مضروبا وعليه قول المتنبي :

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله ولكن لشعري فيك من نفسه شعر

وكذلك (حكم الجار والمجرور وحكم المفعول) . فإذا قلت : ما أمرتك بهذا . لم يقتض أن يكون قد أمرته بشيء غير هذا . وإذا قلت : ما بهذا أمرتك . اقتضاه . وإذا قدمت صفة العموم على السلب وقلت : كل ذلك لم أفعله برفع (كل) كان نفيا عاما

وَيناقِضُهُ ٱلْإِثباتْ ٱلخاص . فَلوْ فعلتَ بعضَهُ كُنْت كاذبا. وإن قدمت ٱلسّلب وقُلتَ: لَمْ افعلْ كُل ذلك . كَانَ نَفْيا لِلعُمومِ وَلا يُنافِي ٱلاثباتَ ٱلخاصَ فلوْ فعلتَ بَعضهُ لَمْ تكُن كاذبا. (ٱلثالثْ في ٱلتقديم وَٱلتأخِيرِ فِي لَخبَرِ ٱلمُثبتِ) مَا تقدّم فِي ٱلِاسْتفهام وَالنّفيِ قائمٌ هَاهُنا فَإِذا قدّمت ٱلاسمَ وقلت : زَيدٌ فعَل وأنَا فعلت. فالقصدْ ان ٱلفَاعل إما لتخصيصِ ذلكَ ٱلفعل به كقولك : انا شفَعتْ في شأنه مدَّعيا الِانفِرادَ بِذلِكَ . او لتأكيدِ إثبات ٱلفعل لَهُ لَا للحصرِ كَقولكَ: هوِ يُعطي ٱلجزيل . ليتمكن فِي نفس ٱلسّامعِ ان ذلك دَأْبُهُ دُونَ نَفيِه عَنْ غيْره كَقول درنا بنت عَشعشة :

همَا يَلبسانِ المجدَ اَحسن لِبسة　　شَحِيحان مَا اسْطَاعَا عليه كلاهُمَا

وَٱلسّببُ فِي هذا ٱلتأكيدِ اذا قلت مَثلا: (زَيدٌ) . فقدْ اشعَرت بِانكَ ترِيدُ ٱلحديث عَنهُ فيحْصلُ للسّامِعِ تشوقٌ الَى معرفتهِ . فإذا ذكرتهُ قبلتهُ ٱلنفسْ قَبُولَ ٱلصدِيقِ صَديقهُ فيكُون ذلك ابلغَ في ٱلتحقيقِ ونَفيِ ٱلشكِ وَٱلشبهة. ولهذا تقُولُ لِمَنْ تعدهُ: انَا اعطيك . انَا اكفيك . انَا اقومُ بهذَا ٱلأمر . وَذلك اذا كانَ منْ شأنِ من سبقَ لَهُ وعْدٌ انْ يَعتَرِضَهُ ٱلشكُّ في وفائه . وَلِذلِكَ يُقَالُ فِي ٱلمدحِ : انتَ تعطي ٱلجزِيلَ . انت تجودُ حين لا يجودُ احدٌ . وَمِنْ هاهُنا تعرفُ ٱلفخامَةَ فِي ٱلجُملِ ٱلتِي فِيها ضميرُ ٱلشأن وَٱلقصةِ كَقَولِهِ : فإنها لَا تعمَى ٱلابصارُ وَلكِنْ تعمَى ٱلقلوبُ ٱلتِي في ٱلصُدورِ . وَكَقوله: إِنَّهُ لَا يُفلِحُ ٱلكَافِرُونَ . (وَانَّهَا) فِيهَا مَا لَيسَ فِي قَولِكَ : فَإنَّ

ٱلأَبصارَ لَا تعمى وَإِنَّ ٱلكافِرِينَ لَا يُفلِحُونَ . وَهٰذَا ٱلكلامُ فِي ٱلخَبَرِ ٱلمَنفِيِّ . فَاذَا قُلتَ . أَنتَ لَا تُحسِنُ هٰذَا . كَانَ أَبلَغَ مِنْ أَنْ تقولَ : لَا تُحسِنُ هٰذَا . فَٱلأَوَّلُ لِمَنْ هُوَ أَشَدُّ إِعجَابًا بِنَفسِهِ وَأَكثَرُ دعوى بِأَنَّهُ يُحسِنُ . وَٱعلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَقدِيمُ ٱلِٱسمِ كَٱللازِمِ وَهُوَ : (كَمِثلٍ) فِي نَحوِ قَولِهِ :

يَاعَاذِلِي دَعنِي مِنْ عَذلِكَ   مِثلِي لَا يَقبَلُ مِنْ مِثلِكَ

وَقَولِ ٱلمُتَنَبِّي :

مِثلُكَ يَثنِي ٱلحُزنَ عَنْ صَوبِهِ   وَيَستَرِدُّ ٱلدمعَ عَنْ غَربِهِ

وكقولِ ٱلنَّاسِ : مِثلُكَ يَرعَى ٱلحَقَّ وَٱلحُرمَةَ . وَمَا أَشبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يَقصِدُ فِيهِ ٱلإِنسانُ سوى ٱلَّذِي أُضِيفَ إِلَيهِ وَجِيءَ بِهِ لِلمُبَالَغَةِ . وَٱلمَعنَى أَنَّ مَنْ كَانَ مِثلَهُ فِي ٱلحَالِ وَٱلصِّفَةِ كَانَ مِنْ مُقتَضَى ٱلقِيَاسِ أَنْ يَفعَلَ مَا ذُكِرَ فَكَيفَ بِهِ . وَقَدْ عَبَّرَ ٱلمُتَنَبِّي عَنْ هٰذا ٱلمَعنَى فقالَ :

وَلَمْ أَقُلْ مِثلُكَ أَعنِي بِهِ   سِوَاكَ يَافَردًا بِلَا مُشبِهِ

وكذٰلكَ حُكمُ (غَيرٍ) اذا سلكَ فِيهِ هٰذَا ٱلمَسلَكُ كَقَولِ ٱلمُتَنَبِّي :

غَيرِي بِأَكثَرِ هٰذَا ٱلنَّاسِ يَنخَدِعُ   إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

أَيْ لَستُ مِمَّنْ يَنخَدِعُ وَيَغتَرُّ . وَلَوْ لَمْ يُقَدَّمْ (مِثلًا وغيرًا) فِي هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ لَمْ يَرِدْ هٰذا ٱلمَعنَى

(أَمَّا مَوَاضِعُ ٱلتَّقدِيمِ وَٱلتَّأخِيرِ) فَقَدْ يَحسُنُ ٱلتَّقدِيمُ فِي مَوَاضِعَ : (ٱلأَوَّلُ) أَنْ تَكُونَ ٱلحَاجَةُ إِلَى ذِكرِهِ أَشَدَّ كَقَولِكَ : قَطَعَ ٱللِّصَّ ٱلأَمِيرُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْيَقَ بِمَا قَبلَهُ مِنَ ٱلكَلَامِ أَوْ

بِمَا بعدهُ كَقَوْلِهِ: وَتُغشِي وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ . فَانَّهُ اَشْكَلُ بِمَا بَعْدَهُ . وَهُوَ قَوْلُهُ : اِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحساب . وبِمَا قبلهُ وَهُوَ : مُقرَّنِينَ فِي ٱلْاَصْفَاد . (اَلثَّالِثُ) اَنْ يكُون اعرفَ اَوْ اَشدَّ تعلُّقًا بِمَا بَعْدهُ كَقَوْلكَ : زَيْدٌ قَامَ . وَقامَ زَيدٌ . وَزَيدٌ ٱلطَّوِيلُ . (اَلرَّابِعُ) اَنْ يكُونَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلَّتِي لَهَا صَدرُ ٱلْكَلَامِ كَحُرُوفِ ٱلْاَسْتِفهامِ وَٱلنَّفْيِ فَانَّ ٱلْاَسْتِفهَامَ طَلَبُ فَهمِ ٱلشَّيْءِ وَهُوَ حَالَةٌ اِضَافِيَّةٌ فَلا تَسْتَقِلُّ بِٱلْمَفْهُومِيَّةِ فَيَشتَدُّ اتِّصالُهُ بِمَا بَعْدَهُ . (اَلْخَامِسُ) تَقْدِيمُ ٱلْكُلِّيِّ عَلَى جُزْئِيَّاتِهِ . فَاِنَّ ٱلشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ اَكْثَرَ عُمُومًا كَان اَعْرفَ فَانَّ ٱلْوُجُود لَمَّا كَان اَعَمَّ ٱلْاُمُورِ كَانَ اعْرَفَهَا عِنْدَ ٱلْعَقْلِ . (اَلسَّادِسُ) تَقْدِيمُ ٱلدَّلِيلِ عَلَى ٱلْمَدْلُولِ

وَامَّا ٱلتَّأْخِيرُ فَيحْسُنُ فِي مَوَاضِعَ : (اَلْاَوَّلُ) تَمَامُ ٱلْاِسْمِ كَٱلصِّلَةِ وَٱلْمُضَافِ اِلَيهِ . (اَلثَّانِي) تَوَابِعُ ٱلْاَسْمَاءِ . (اَلثَّالِثُ) ٱلْفَاعِلُ . (اَلرَّابِعُ) ٱلْمُضمَرُ وَهُوَ انْ كَانَ مُتأَخِّرًا لَفظًا وَتَقْدِيرًا كَقَولِكَ : ضَرَبَ زَيدٌ غُلَامَهُ . اَوْ مُؤَخَّرًا فِي ٱللفظ مُقدَّمًا فِي ٱلْمَعْنَى كقولِهِ : وَاذَا ٱبْتَلَى اِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ . اَوْ بِٱلْعَكْسِ كَقَوْلكَ: ضربَ غُلَامَهُ زَيدٌ. جَازَ . وَان تَقدَّمَ لَفظًا وَمَعْنًى لَمْ يَجُزْ كَقَوْلكَ : ضَرَبَ غُلَامُهُ زَيدًا . (اَلْخَامِسُ)مَا يُفْضِي اِلَى ٱللَّبْسِ كَقَوْلكَ: ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى . وَاَكْرَمَ هٰذَا هٰذَا. فَيجِبُ فيهِ تَقْدِيمُ ٱلْفَاعِلِ .(اَلسَّادِسُ)ٱلْعَامِلُ ٱلَّذي يَضْعُفُ عَمَلُهُ كَٱلصِّفَةِ ٱلْمُشَبَّهَةِ وَٱلتَّمْيِيزِ وَمَا عَمِلَ فِيهِ حَرْفٌ اَوْ مَعنًى كَقَوْلِكَ: هُوَ حَسَنٌ وَجْهًا . وَكَرِيمٌ اَبًا . وَتَصَبَّبَ عَرَقًا. وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا وَاِنَّ

زَيدًا قَائِمٌ . وفي الدَارِ سَعْدُ جَالسٌ . ولَا يَجُوزُ الفصلُ بَينَ العَامِلِ والمَعْمولِ بِمَا ليس مِنهُ فلا تقولُ : كَانَتْ زَيدًا الحُمى تَأخذُ . اذا رفَعتَ الحُمى بكَانَتْ للفصلِ بَين العامِلِ وما عَمِلَ فيه . فإنْ اضمرْتَ الحُمى في كَانتْ صحت المسْئَلة

البحث التاسع

في الحذف والاضمار

(عن صناعة الترسل ايضا)

(راجع صفحة ٢٠ من علم الادب)

اِعلمْ انَ الافعال المتعديَة التي يتركُ ذكرُ مفعولاتها على قسمينِ : (الاوَّلُ) انْ لا يكونَ لهُ مفعولٌ معينٌ فقد يتركُ مفعولهُ لفظا وتقديرًا ويُجعلُ حالُهُ كحال غيرِ المتعدي كقولهمْ : فلانٌ يَحُلُّ ويعقدُ ويأمرُ وينهى ويضرُّ وينفعُ . والمقصودُ اِثباتُ المعنى في نفسِهِ الشيْء من غيرِ تعرُّضٍ لحديثِ المفعولِ فكأنكَ قلتَ : بحَيثُ يكونُ منهُ حلٌّ وعقدٌ وامرٌ ونهيٌ وضرٌّ ونفعٌ . وبالجملةِ متى كَانَ الغرضُ بيانَ حالِ الفاعلِ فقط فلا تُعدِّ الفعلَ فإنْ تعديتهُ تنقُصُ الغرضَ . الَا ترى انكَ إذا قلتَ : فلانٌ يُعطي الدنانيرَ كَانَ المقصودُ بيانَ جنسِ مَا تناوَلهُ الاعطاءُ لا بيانُ حالِ كونهِ معطيا . (الثاني) انْ يكونَ له مفعولٌ معلومٌ اِلَّا انهُ يُحذفُ منَ اللفظ لاغراضٍ : (الاولُ) انْ يكونَ المرادُ بيانَ حالِ الفاعِلِ وانَ ذلكَ الفعلَ دأْبُهُ لا بيانُ

المفعول كقول طفيل :

جزى الله عنا جعفرا حين ازلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
ابوا ان يملونا ولو ان امنا تلاقي الذي لاقوه منا لملت
هم خلطونا بالنفوس والجأوا الى حجرات ادفأت واظلت

والاصل ان يقول : لملتنا والجأونا وادفأتنا واظلتنا فحذف المفعول المعين من هذه المواضع الاربعة وكأنه قد ابهم ولم يقصد قصد شيء يقع عليه كما تقول : قد مل فلان . تريد قد دخل عليه الملال من غير ان تخص شيئا بل لا تريد على ان تجعل الملال من صفته . فكذلك الشاعر جعل هذه الاوصاف من ذاتهم ولو اضاف الى مفعول معين لبطل هذا الغرض . (الثاني) ان يكون المقصود ذكره الا انك لا تذكره ايهاما لانك لا تقصد ذكره كقول البحتري :

شجو حساده وغيظ عداه ان يرى مبصر ويسمع واع

المعنى ان يرى مبصر محاسنه وان يسمع واع اخباره . ولكنه تغافل عن ذلك ايذانا بان فضائله يكفي فيها ان يقع عليها بصر ويعيها سمع حتى يعلم انه المنفرد بالفضائل فليس لحساده وعداه اشجى من علمهم بان ها هنا مبصرا وسامعا . (الثالث) ان يحذف لكونه بينا كقولهم : اصغيت اليك . اي اذني . واغضيت عليك . اي جفني

(فصل في حذف المبتدا والخبر) قد يحسن حذف المبتدا حيث يكون الغرض انه قد بلغ في استحقاق الوصف بما جعل وصفا له

إلى حيثُ يُعلمُ بِٱلضَّرورةِ أنَّ ذلكَ ليسَ إلّا لهُ سواءٌ كانَ في نفسهِ كذلكَ أو بحسبِ دعوى ٱلشَّاعرِ على طريقِ ٱلمبالغةِ فذكرُهُ يُبطلُ هذا ٱلغرضَ. ولهذا قالَ عبدُ ٱلقاهرِ : ما مِن ٱسمٍ يُحذفُ في ٱلحالةِ ينبغي أنْ يُحذفَ فيها إلّا وحذفُهُ أحسنُ مِنْ ذكرِهِ فمِنْ حذفِ ٱلمبتدإِ قولُ ٱلشَّاعرِ :

لا يُبعِدِ ٱللهُ ٱلتَّلبُّبَ وٱلغاراتِ إذْ قالَ ٱلخميسُ نَعَمْ

أيْ هذهِ نَعَمْ . قالَ عبدُ ٱلقاهرِ : ومِنَ ٱلمواضعِ ٱلتي يطَّرِدُ فيها حذفُ ٱلمبتدإِ بِٱلقطعِ وٱلٱستئنافِ أنَّهمْ يبدأُونَ بذكرِ ٱلرَّجلِ ويُقدِّمونَ بعضَ أمرِهِ ثُمَّ يدعونَ ٱلكلامَ ٱلأوَّلَ فيستأنفونَ كلاماً آخرَ إذا فعلوا ذلكَ أتوا في أكثرِ ٱلأمرِ بخبرٍ مِنْ غيرِ مبتدإٍ مثالُ ذلكَ :

وعلمتُ أنِّي يومَ ذا كَ منازلٌ كعباً ونهدا
قومٌ إذا لبسوا ٱلحديدَ تنمَّروا حلقاً وقدّا

وقولُ ٱلحطيئةِ :

همُ حلُّوا مِنَ ٱلشَّرفِ ٱلمُعلَّى ومِنْ حسبِ ٱلعشيرةِ حيثُ شاءوا
أُساةُ مكارمٍ وأُساةُ كلْمٍ دماؤُهمُ مِنَ ٱلكَلَبِ ٱلشِّفاءُ

وأمثلتُهُ كثيرةٌ . ومِنْ حذفِ ٱلخبرِ قولُهُ : لولا أنتمْ لكُنَّا مؤمنينَ أي لولا أنتمْ مُضِلُّونا . وقولُ عُمرَ : لولا عليٌّ لهلكَ عُمرُ . أي لولا عليٌّ حاضرٌ أو مُفتٍ . ومِمَّا يحتملُ ٱلأمرينِ قولُهُ : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ . وقولُهُ : فصبرٌ جميلٌ

ٱلإضمارُ على شريطةِ ٱلتَّفسيرِ كقولكَ : أكرمَني وأكرمتُ عبدَ ٱللهِ أي

اَكْرَمَني عَبْدُاللهِ واَكْرَمتُ عَبْدَاللهِ. وَمِمَّا يُشْبِهُ ذٰلِكَ مفعُولُ اَلْمشِيئَةِ اِذا جاءَتْ بعْدَ (لو). فَاِنْ كانَ مَفْعُولُهَا عَظِيماً اوْ غَرِيباً فَالْاَوْلى ذِكْرُهُ كقَوْلِهِ:

وَلَوْ شِئْتُ اَنْ اَبكيَ دَماً لبَكَيْتُهُ   عليهِ وَلٰكِنْ ساحَةُ اَلصَّبْرِ اَوْسَعُ

فَاِنَّ بُكَاءَ اَلْانسانِ دَماً عَجِيبٌ. وَاِنْ لَمْ يكُنْ كَذٰلِكَ فَالْاَوْلى حذْفُهُ كقَوْلِهِ: وَلَوْ شَاءَ اَللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى اَلْهُدَى. وَاَلتَّقْدِيرُ: وَلَوْ شَاءَ اَللهُ اَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى اَلْهُدى لَجَمَعَهُمْ. وَاَعْلَمْ اَنَّهُ قَدْ تُتْرَكُ اَلْكِنَايَةُ اِلَى اَلتَّصْرِيحِ لِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادةِ اَلْفَخَامَةِ كقَوْلِ اَلْبُحْتُرِيِّ:

قَدْ طَلبْنا فلم نجِدْ لكَ فِي اَلسُّؤْ   دُدِ وَاَلمجْدِ وَاَلْمَكَارِمِ مِثْلَا

اَلْمَعْنى قَدْ طَلبْنَا لكَ مِثْلَا. ثُمَّ حُذِفَ لِاَنَّ هٰذَا اَلْمَدْحَ اِنَّمَا يَتِمُّ بِنَفْيِ اَلْمِثْلِ فلوْ قَالَ: قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلا فِي اَلسُّؤْدُدِ وَاَلمجْدِ فَلَمْ نَجِدْ لَكَانَ قَدْ اَوْقَعَ نَفْيَ اَلْوُجُودِ عَلَى ضَمِيرِ (اَلْمِثْلِ) فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ اَلْمُبَالَغَة مَا اِذا اَوْقَعَهُ عَلَى صَرِيحِ اَلْمِثْلِ. فَاِنَّ اَلْكِنَايَةَ لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ اَلصَّرِيحِ. وَعَلَى ذٰلِك قَوْلُ اَلشَّاعِرِ:

لَا اَرَى اَلْمَوْتَ يَسْبِقُ اَلموْتَ شَيْءٌ   نَغَّصَ اَلْمَوْتُ ذَا اَلْغِنَى وَاَلْفَقِيرَا

البحث العاشر

في جوامع الكلم

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

اِنَّ اَلْكَلِمَ جمعُ كَلِمَةٍ. وَاَلْجَوَامِعِ جَمْعُ جَامِعَةٍ. وَاَلْجَامِعَةُ اَسْمُ فَاعِلَةٍ مِنْ جَمَعَتْ فَهِيَ جَامِعَةٌ. كَمَا يُقَالُ فِي اَلْمُذَكَّرِ جَمَعَ فَهُوَ جَامِعٌ

وَٱلْمُرَادُ بِجَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ ٱلْكَلِمُ ٱلْجَوَامِعُ لِلْمَعَانِي. وَهُوَ عِنْدِي يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: (اَلْقِسْمُ ٱلْاَوَّلُ) مِنْهُمَا هُوَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِاَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ سَابِقٌ وَهُوَ اَنَّ لَنَا اَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ اَخَوَاتُهَا مِمَّا يَجُوزُ اَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْمَجَازِ. وَمِنْهُ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ. وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي اَقْوَالِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُفْلِقِينَ. وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ ٱلْاَشْعَارَ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا وَحَفِظْتُ مَا حَفِظْتُ مِنْهَا وَكُنْتُ اِذَا مَرَرْتُ بِنَظَرِي فِي دِيوَانٍ مِنَ ٱلدَّوَاوِينِ وَيَلُوحُ لِي فِيهِ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظِ اَجِدُ لَهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ وَطَرَبًا كَطَرَبِ ٱلْاَلْحَانِ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاظِمِينَ وَٱلنَّاثِرِينَ يَمُرُّ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ سِوَى اَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيمَا نَظَرْتُ اَنَا فِيهِ وَيَظُنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ اَنَافَ عَلَى قَفًا ... مِنْهُمْ لِاَعْبَاءِ ٱلْوَغَى حَمَّالِ
سَبَقَ ٱلْمَشِيبَ اِلَيْهِ حَتَّى ٱبْتَزَّهُ ... وَطَنَ ٱلنُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

فَقَوْلُهُ: (وَطَنُ ٱلنُّهَى) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا يُجَاءُ بِمِثْلِهَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى اَفْكَارِهِ وَيَدٌ ... تُمْضِي ٱلْاُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ

فَقَوْلُهُ: (قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى اَفْكَارِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَوَامِعِ. وَمُرَادُهُ بِذٰلِكَ اَنَّ قَلْبَهُ لَا تَمْلَأُهُ ٱلْاَفْكَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ وَاِنَّمَا هُوَ عَالٍ

عَلَيْهَا يَصِفُ بِذَلِكَ عَدَمَ ٱحْتِفَالِهِ بِٱلْفَوَادِحِ وَقِلَّةَ مُبَالاتِهِ بِٱلْخُطُوبِ ٱلَّتِي تُحْدِثُ افْكَارًا تَسْتَغْرِقُ ٱلْقُلُوبَ وَهٰذِهِ عِبَارَةٌ عَجِيبَةٌ لا يُؤْتَى بِمِثْلِهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا . (وَامَّا) مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ فَكَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ :

سَقَى ٱللّٰهُ اوْطَارًا لَنَا وَمَآرِبًا ... تَقَطَّعَ مِنْ اقْرَانِهَا مَا تَقَطَّعَا

لَيَالٍ تُنَسِّينِي ٱللَّيَالِي حِسَابَهَا ... بُلَهْنِيَةٌ اقْضِي بِهَا ٱلْحَوْلَ اجْمَعَا

سِوَى عِزَّةٍ لَا اعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ ... وَاعْمِلُ فِيهِ ٱللَّهْوَ مَرْاى وَمَسْمَعَا

فَقَوْلُهُ : (لَا اعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ اَيْ اِنِّي قَدْ شُغِلْتُ بِٱللَّذَّاتِ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامِ وَلَوْ وَصَفَ ٱشْتِغَالَهُ بِٱللَّذَّاتِ مَهْمَا وَصَفَ لَمْ يَأْتِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (لَا اعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ). (وَامَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) مِنْ جَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ فَٱلْمُرَادُ بِهِ ٱلْإِيجَازُ ٱلَّذِي يُدَلُّ بِهِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ اَيْ تَكُونُ ٱلْأَلْفَاظُ جَامِعَةً ٱلْمَعَانِي ٱلْمَقْصُودَةِ عَلَى اِيجَازِهَا وَٱخْتِصَارِهَا . وَسَيَأْتِي فِي بَابِ ٱلْإِيجَازِ مِنْهُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ وَمَقْنَعٌ . (فَاِنْ قِيلَ) : فَمَا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ ذَكَرْتَهُمَا فَاِنَّهُمَا بِٱلنَّظَرِ سَوَاءٌ . (قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ) : اِنَّ ٱلْإِيجَازَ هُوَ انْ يُؤْتَى بِأَلْفَاظٍ دَالَّةٍ عَلَى مَعْنًى مِنْ غَيْرِ انْ تَزِيدَ عَلَى ذَلِكَ ٱلْمَعْنَى وَلَا يُشْتَرَطُ فِي تِلْكَ ٱلْأَلْفَاظِ انَّهَا لَا نَظِيرَ لَهَا فَانَّهَا تَكُونُ قَدِ ٱتَّصَفَتْ بِوَصْفٍ آخَرَ خَارِجٍ عَنْ وَصْفِ ٱلْإِيجَازِ . وَحِينَئِذٍ يَكُونُ اِيجَازًا اوْ زِيَادَةً . وَامَّا هٰذَا ٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ فَاِنَّهُ ٱلْفَاظٌ افْرَادٌ فِي حُسْنِهَا لَا نَظِيرَ لَهَا . فَتَارَةً تَكُونُ مُوجَزَةً وَتَارَةً لَا تَكُونُ

مُوجَزَةَ . وَلَيسَ ٱلغَرَضُ مِنهَا ٱلإِيجَازَ وَإِنَّمَا ٱلغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ ٱلحُسنِ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَولِ أَبِي تَمَّامٍ : (وَطَنَ ٱلنُّهَى) فَإِنَّ ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأسِ وَلَاشَكَّ أَنَّ ٱلرَّأسَ أَوجَزُ لِأَنَّ ٱلرَّأسَ لَفظَةٌ وَاحِدَةٌ .وَوَطَنَ ٱلنُّهَى لَفظَتَانِ . إِلَّا إِنَّ(وَطَنَ ٱلنُّهَى) أَحسَنُ فِي ٱلتَّعبِيرِ عَنِ ٱلرَّأسِ . فَبَانَ بِهٰذَا أَنَّ أَحَدَ هٰذَينِ ٱلقِسمَينِ غَيرُ ٱلآخَرِ

البحث الحادي عشر

في الانسجام

(عن شرح بديعية العميان لابن جابر وبديعية الحموي)

(راجع صفحة ٢١ من علم الادب)

اَلإِنسِجَامُ لُغَةً جَرَيَانُ ٱلمَاءِ وَعِندَ أَهلِ ٱلبَلَاغَةِ هُوَ أَن يَأتِيَ ٱلنَّاظِمُ أَوِ ٱلنَّاثِرُ بِكَلَامٍ خَالٍ مِنَ ٱلتَّعقِيدِ ٱللَّفظِيِّ وَٱلمَعنَوِيِّ بَسِيطًا مَفهُومًا دَقِيقَ ٱلأَلفَاظِ جَلِيلَ ٱلمَعنَى لَا تَكَلُّفَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ يَتَحَدَّرُ كَتَحَدُّرِ ٱلمَاءِ ٱلمُنسَجِمِ فَيَكَادُ لِسُهُولَةِ تَركِيبِهِ وَعُذُوبَةِ أَلفَاظِهِ أَن يَسِيلَ رِقَّةً . وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَن هُوَ مَطبُوعٌ عَلَى سَلَامَةِ ٱلذَّوقِ وَتَوَقُّدِ ٱلفِكرَةِ وَبَرَاعَةِ ٱلإِنشَاءِ وَحُسنِ ٱلأَسَالِيبِ . فَإِن كَانَ مَصنُوعًا فَلَا بُدَّ أَن يَقَعَ فِيهِ غَالِبًا مَا يُظهِرُ صِنَاعَتَهُ مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِغَيرِهِ مِن نَفسِ صَانِعِهِ . وَإِنَّ فُحُولَ هٰذَا ٱلمَيدَانِ مَا أَثقَلُوا كَاهِلَ سُهُولَتِهِ بِنَوعٍ مِن أَنوَاعِ ٱلبَدِيعِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَن يَأتِيَ عَفوًا مِن غَيرِ قَصدٍ . وَعَلَى هٰذَا أَجمَعَ عُلَمَاءُ ٱلبَدِيعِ فِي حَدِّ هٰذَا ٱلنَّوعِ فَإِنَّهُم قَرَّرُوا : أَن يَكُونَ بَعِيدًا فِي ٱلتَّصَنُّعِ خَالِيًا مِنَ ٱلأَنوَاعِ ٱلبَدِيعِيَّةِ إِلَّا أَن يَأتِيَ

فِي ضِمْنِ ٱلسُّهُولَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ. وَانْ كَانَ ٱلِٱنْسِجَامُ فِي ٱلنَّثْرِ تَكُونُ غَالِبُ فَقَرَاتِهِ مَوْزُونَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِقُوَّةِ ٱنْسِجَامِهِ. وانْ كَانَ فِي ٱلنَّظْمِ فَتَكَادُ ٱلأَبْيَاتُ انْ تَسِيلَ رِقَّةً وَعُذُوبَةً. وَرُبَّمَا دَخَلَتْ فِي ٱلْمَطْرَبِ وَٱلْمَرْقَصِ

البحث الثاني عشر

في القول في النظم

(عن صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٤ من علم الادب)

اَلنَّظْمُ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاخِي مَعَانِي ٱلنَّحْوِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَذٰلِكَ انْ تَضَعَ كَلَامَكَ ٱلْوَضْعَ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ عِلْمُ ٱلنَّحْوِ بِانْ تَنْظُرَ فِي كُلِّ بَابٍ إِلَى قَوَانِينِهِ وَٱلْفُرُوقِ ٱلَّتِي بَيْنَ مَعَانِي ٱخْتِلَافِ صِيَغِهِ وَتَضَعَ ٱلْحُرُوفَ مَوَاضِعَهَا وَتُرَاعِيَ شَرَائِطَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَمَوَاضِعَ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ وَمَوَاضِعَ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَعْتَبِرَ ٱلْإِصَابَةَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلتَّمْثِيلِ. وَقَدْ اطْبَقَ ٱلْعُلَمَاءُ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ ٱلنَّظْمِ وَانْ لَا فَضْلَ مَعَ عَدَمِهِ وَلَوْ بَلَغَ ٱلْكَلَامُ فِي غَرَابَةِ مَعْنَاهُ إِلَى مَا بَلَغَ. وَانَّ سَبَبَ فَسَادِهِ تَرْكُ ٱلْعَمَلِ بِقَرَائِنِ ٱلنَّحْوِ وَٱسْتِعْمَالُ شَيْءٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. ثُمَّ ٱلْجُمَلُ ٱلْكَثِيرَةُ إِذَا نُظِمَتْ نَظْمًا وَاحِدًا فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْاوَّلُ) انْ يَتَعَلَّقَ ٱلْبَعْضُ بِٱلْبَعْضِ فَلَا يَحْتَاجُ وَاضِعُهُ إِلَى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ بَلْ هُوَ كَمَنْ عَمَدَ إِلَى ٱللَّآلِئِ

ينظمها في سلك . ومثاله قول الجاحظ : جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعروف نسبا وبينك وبين الصدق سببا . وكقول النابغة النعمان : يفاخرك ابن ابي جفنة وان لقفاك خير من وجهه ولشمالك خير من يمينه ولأخمصك خير من رأسه ولخطأك خير من صوابه ولخدمك خير من قومه . وهذا النظم لا يستحق الفضل الا بسلامة معناه وسلامة الفاظه اذ ليس فيه معنى دقيق لا يدركه الا بثاقب الفكر . وربما ظن بالكلام انه من هذا الجنس ولا يكون منه . (الثاني) ان تكون الجمل المذكورة يتعلق بعضها ببعض وهناك تظهر قوة الطبع وجودة القريحة واستقامة الذهن . ثم ليس لهذا الباب قانون يحفظ فانما يجيء على وجوه شتى :

(فمنها الايجاز) وهو التعبير عن الغرض باقل ما يمكن من الحروف وهو على ضربين : (احدهما) ايجاز قصر وهو تقليل اللفظ وتكثير المعنى . (والثاني) ايجاز حذف وهو الاستغناء بالمذكور عما لم يذكر . (ومنها التأكيد) وهو تقوية المعنى وتقريره اما باظهار البرهان كقول قابوس :

يا ذا الذي بصروف الدهر عيرنا ... هل عاند الدهر الا من له خطر
اما ترى البحر يعلو فوقه جيف ... وتستقر باقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم غير ذي عدد ... وليس يكسف الا الشمس والقمر

(او بالعزيمة) كقوله : فورب السماء والارض انه لحق .

(او بالتكرار) كقولهم : الله الله والاسد الاسد

الفصل الرابع

في البيان

البحث الاول

في تحديد البيان على وجه الاجمال

(من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغرر الخصائص للوطواط بتصرُّف)

(راجع صفحة ٢٧ و٢٨ من علم الادب)

اَلْبَيَانُ اَسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَلَى بَيَانِ اَلْمَعْنَى وَهَتَكَ لَكَ اَلْحُجُبَ دُونَ اَلضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ اَلسَّامِعُ اِلَى حَقِيقَتِهِ وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذٰلِكَ اَلْبَيَانُ وَمِنْ اَيِّ جِنْسٍ كَانَ ذٰلِكَ اَلدَّلِيلُ. لِاَنَّ مَدَارَ اَلْاَمْرِ وَاَلْغَايَةَ اَلَّتِي يَجْرِي اِلَيْهَا اَلْقَائِلُ وَاَلسَّامِعُ اِنَّمَا هُوَ اَلْفَهْمُ وَاَلْاِفْهَامُ فَبِاَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ اَلْاِفْهَامَ وَاَوْضَحْتَ عَنِ اَلْمَعْنَى فَذٰلِكَ هُوَ اَلْبَيَانُ فِي ذٰلِكَ اَلْمَوْضِعِ . وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَلْبَرْمَكِيِّ : مَا اَلْبَيَانُ . قَالَ : اَنْ يَكُونَ اَلْاِسْمُ يُحِيطُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَغْزَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ اَلشَّرِكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِاَلْفِكْرَةِ وَيَكُونَ سَلِيمًا مِنَ اَلتَّكَلُّفِ بَعِيدًا مِنَ اَلصَّنْعَةِ بَرِيئًا مِنَ اَلتَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ اَلتَّأْوِيلِ . وَقَالُوا : اَلْبَيَانُ بَصَرٌ وَاَلْعِيُّ عَمًى كَمَا اَنَّ اَلْعِلْمَ بَصَرٌ وَاَلْجَهْلَ عَمًى وَاَلْبَيَانُ مِنْ نَتَائِجِ اَلْعِلْمِ وَاَلْعِيُّ مِنْ نَتَائِجِ اَلْجَهْلِ . وَقَالُوا : حَيَاةُ اَلْمُرُوءَةِ اَلصِّدْقُ وَحَيَاةُ اَلرُّوحِ اَلْعَفَافُ وَحَيَاةُ اَلْحِلْمِ اَلْعِلْمُ وَحَيَاةُ اَلْعِلْمِ

ٱلْبَيَانُ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلتَّوْأَمِ : ٱلرُّوحُ عِمَادُ ٱلْبَدَنِ وَٱلْعِلْمُ عِمَادُ ٱلرُّوحِ وَٱلْبَيَانُ عِمَادُ ٱلْعِلْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى حَدِّ ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَنَقَّصُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . (وَفِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ): ٱلْبَيَانُ هُوَ أَنْ يُحْسِنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تَهْجِسُ فِي ٱلضَّمِيرِ فَيُحْتَاجُ إِلَى نَقْشِ صُوَرِهَا ٱلْمُخَيَّلَةِ أَوِ ٱلْمَعْقُولَةِ إِلَى ضَمِيرِ مَنْ يُخَاطِبُهُ . وَقَالَ آخَرُ : خَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقُّنُهُ وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللِّسَانِ تَعَاهُدُهُ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ ٱلْعُقُولِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱللِّسَانِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ

البحث الثاني

في تعريف علم البيان

(عن الكشّاف للتهانوي وكشف الظنون للحاجّ خلفا)

(راجع صفحة ٢٧ من علم الادب)

ٱلْبَيَانُ لُغَةً ٱلْكَشْفُ وَٱلتَّوْضِيحُ وَٱلظُّهُورُ وَهُوَ فِي ٱلْاصْطِلَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْفَصِيحِ ٱلْمُعْرِبِ عَمَّا فِي ٱلضَّمِيرِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى ٱلْإِثْبَاتِ بِٱلدَّلِيلِ . وَقِيلَ : ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْبَيَانِ وَٱلتِّبْيَانِ بِأَنَّ ٱلْبَيَانَ هُوَ إِظْهَارُ ٱلْمُرَادِ . وَٱلتِّبْيَانَ يَحْتَوِي عَلَى كَدِّ ٱلْخَاطِرِ وَإِعْمَالِ ٱلْقَلْبِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا قِيلَ : ٱلتِّبْيَانُ بَيَانٌ مَعَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ .

وَٱلْبيَانُ عِندَ ٱلْبُلَغَـاء : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ اِيرَادُ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِتَرَاكِيبَ مُخْتَلِفَةٍ فِي وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ بِاَنْ يَكُونَ دلَالَةُ بَعْضِهَا اجْلَى مِنْ بَعْضٍ . وَمَوضُوعُهُ ٱللَفظُ ٱلْبَلِيغُ مِنْ حَيْثُ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَغَرضُهُ تَحْصِيلُ مَلَـكَةِ ٱلافَادَةِ بِالدَلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وفَهم مَدْلُولَاتِهَا . وغَايَتُهُ ٱلِاحْتِرَازُ عَنِ ٱلخَطَاِ فِي تَعْيِينِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَمَبَادئُهُ بَعْضُهَا عَقْلِيَّةٌ كَاقْسامِ ٱلدَّلَالَةِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلعِلَاقَاتِ . وَبَعْضُهَا وِجْدَانِيَّةٌ ذَوْقِيَّةٌ كَوُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهَـاتِ وَاقْسامِ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وكَيْفِيَّةِ حُسْنِهَا . وَاِنَّمَا ٱخْتَارُوا فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وُضُوحَ ٱلدَّلَالَـةِ لِاَنَّ بَحْثَهُمْ لَمَّا ٱقْتَصَرَ عَلَى ٱلدَلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ اَعْنِي ٱلتَضَمُّنِيَّـةَ وَٱلِالْتِزَامِيَّةَ وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ خَفِيَّـةً سِيَّمَا اِذَا كَانَ ٱللُّزُومُ بِحَسَبِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلطَّبَائِعِ فَوَجَبَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِلَفظٍ اوْضَحَ . مَثَلًا : اِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ دَقِيقًا فِي ٱلْغَايَةِ تَحْتَاجُ ٱلْحَاسَّةُ فِي اِبْصَارِهَا اِلَى شُعَاعٍ قَوِيٍّ بِخِـلَافِ ٱلْمَرْئِيِّ اِذَا كَانَ جَلِيلًا . وَكَذَا ٱلحَالُ فِي ٱلرُّؤْيَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ اَعْنِي ٱلفَهْمَ وَٱلِادْرَاكَ . وَٱلْحَاصِلُ اَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ دِقَّةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا مِنَ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْـكِنَايَاتِ مَعَ وُضُوحِ ٱلْالفَاظِ ٱلدَّالَّةِ عَلَيهَا



البحث الثالث

في الحقيقة والمجاز

(من المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ مُهِمٌّ كَبِيرٌ مِنْ مُهِمَّاتِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ بِأَجْمَعِهِ . فَإِنَّ فِي تَصْرِيفِ ٱلْعِبَارَاتِ عَلَى ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْمَجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا . فَأَمَّا ٱلْحَقِيقَةُ فَهِيَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَأَمَّا ٱلْمَجَازُ فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ مِنْ أَصْلِ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ جَازَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِذَا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ . فَٱلْمَجَازُ إِذًا ٱسْمٌ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي يُجَازُ فِيهِ كَٱلْمَعَاجِ وَٱلْمَزَارِ وَأَشْبَاهِهِمَا . وَحَقِيقَتُهُ هِيَ ٱلِٱنْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ . فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ كَقَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَإِنَّ زَيْدًا إِنْسَانٌ وَٱلْأَسَدَ هُوَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانُ ٱلْمَعْرُوفُ . وَقَدْ جُزْنَا مِنَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى ٱلْأَسَدِيَّةِ . أَيْ عَبَرْنَا مِنْ هٰذِهِ إِلَى هٰذِهِ لِوُصْلَةٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ هِيَ صِفَةُ ٱلشَّجَاعَةِ . وَقَدْ يَكُونُ ٱلْعُبُورُ لِغَيْرِ وُصْلَةٍ . وَذٰلِكَ هُوَ ٱلِٱتِّسَاعُ كَقَوْلِهِمْ فِي كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : قَالَ ٱلْأَسَدُ . قَالَ ٱلثَّعْلَبُ . فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ . وَإِنَّمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمَا ٱتِّسَاعًا مَحْضًا لَا غَيْرُ . . . . وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازَ فِيهِ . وَذَهَبَ آخَرُونَ : إِلَى أَنَّهُ كُلَّهُ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ فِيهِ . وَكِلَا هٰذَيْنِ

ٱلْمَذْهَبَيْنِ فَاسِدٌ عِنْدِي . وَسَأُجِيبُ ٱلْخَصْمَ عَمَّا ٱدَّعَاهُ فِيهِمَا فَأَقُولُ : مَحَلُّ ٱلنِّزَاعِ هُوَ إِنَّ ٱللُّغَةَ كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا كُلَّهَا مَجَازٌ . وَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ قَوْلِكَ إِنَّهَا كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ كِلَا ٱلطَّرَفَيْنِ عِنْدِي سَوَاءٌ . لِأَنَّ مُنْكِرَهُمَا غَيْرُ مُسَلِّمٍ لَهُمَا . وَأَنَا بِصَدَدِ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ فِي ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . وَٱلْحَقِيقَةُ ٱللُّغَوِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي وَلَيْسَتْ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي هِيَ ذَاتُ ٱلشَّيْءِ أَيْ نَفْسُهُ وَعَيْنُهُ . فَٱلْحَقِيقَةُ ٱللَّفْظِيَّةُ إِذًا هِيَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ . وَٱلْمَجَازُ هُوَ نَقْلُ ٱلْمَعْنَى عَنِ ٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ إِلَى لَفْظٍ آخَرَ غَيْرِهِ . وَتَقْرِيرُ ذٰلِكَ بِأَنْ أَقُولَ : ٱلْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَفْتَقِرُ إِلَى أَسْمَاءٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَيْهَا لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهَا بِٱسْمِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّفَاهُمِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ . وَهٰذَا يَقَعُ ضَرُورَةً لَا بُدَّ مِنْهَا . فَٱلِٱسْمُ ٱلْمَوْضُوعُ بِإِزَاءِ ٱلْمُسَمَّى هُوَ حَقِيقَةٌ لَهُ فَإِذَا نُقِلَ إِلَى غَيْرِهِ صَارَ مَجَازًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَا إِذَا قُلْنَا : شَمْسٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْكَوْكَبَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْكَثِيرَ ٱلضَّوْءِ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . وَكَذٰلِكَ إِذَا قُلْنَا : بَحْرٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْمَاءَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْمُجْتَمِعَ ٱلَّذِي طَعْمُهُ مِلْحٌ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . فَإِذَا نَقَلْنَا ٱلشَّمْسَ إِلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيحِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ لَهُ ذٰلِكَ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . وَكَذٰلِكَ إِذَا نَقَلْنَا ٱلْبَحْرَ إِلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ ذٰلِكَ لَهُ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . (فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُقَالُ لَهُ شَمْسٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ بَحْرٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . (فَٱلْجَوَابُ) عَنْ ذٰلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا)

نَظَرِيٌّ وَٱلآخَرُ وَضعِيٌّ . (امَا ٱلنظَرِيُّ) فَهُوَ انَّ ٱلأَلفَاظَ اِنَّمَا جُعِلَتْ اَدِلَّةَ عَلَى اِفهَامِ ٱلمَعَانِي وَلَوْ كَانَ مَا ذَهَبتَ اِلَيهِ صَحِيحًا لَكَانَ ٱلبَحْرُ يُطلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلمَاءِ ٱلعَظِيمِ ٱلمِلْحِ وعَلَى ٱلرَّجُلِ ٱلجَوَادِ بِٱلاشتِرَاكِ . وكذلكَ ٱلشَّمسُ اَيضًا فَانَّهَا كَانَتْ تُطلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلكَوكَبِ ٱلعَظِيمِ ٱلكَثِيرِ ٱلضَّوءِ وعَلَى هٰذَا ٱلوَجهِ ٱلمَلِيحِ بِٱلاشتِرَاكِ . وَحِينَئِذٍ فَاِذَا وَرَدَ احَدُ هٰذَينِ ٱللفظَينِ مُطلَقًا بِغَيرِ قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهُ فَلَا يُفهَمُ ٱلمُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مِنْ احدِ ٱلمَعنَيَينِ ٱلمُشتَرَكَينِ ٱلمُندَرِجَينِ تَحتَهُ وَنَحنُ نَرى ٱلأَمرَ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَاِنَّا اِذَا قُلنَا : شَمسٌ اَوْ بَحرٌ . وَاَطلَقنَا ٱلقَولَ لَا يُفهَمُ مِنْ ذَلِكَ وَجهٌ مَلِيحٌ وَلَا رَجُلٌ جَوَادٌ . وَاِنمَا يُفهَمُ مِنهُ ذَلِكَ ٱلكَوكَبُ ٱلمَعلُومُ وَذَلِكَ ٱلمَاءُ ٱلمَعلُومُ لَا غَيرُ فَبَطَلَ اِذَا مَا ذَهَبتَ اِلَيهِ بِمَا بَيَّنَاهُ وَاوضَحنَاهُ . (فَاِنْ قُلتَ) : اِنَّ ٱلعُرفَ يُخَالِفُ مَا ذَهَبتَ اِلَيهِ فَاِنَّ مِنَ ٱلأَلفَاظِ مَا اذَا اُطلِقَ لَمْ يَذهَبِ ٱلفَهمُ مِنهُ اِلَّا اِلَى ٱلمَجَازِ دُونَ ٱلحَقِيقَةِ . (قُلتُ فِي ٱلجَوَابِ) : هٰذَا شَيءٌ ذَهَبَ اِلَيهِ بَعضُهُمْ وَلَيسَ ٱلأَمرُ كَمَا ذَهَبُوا اِلَيهِ . لِأَنَّهُ ان كَانَ اِطلَاقُ ٱللَّفظِ فِيهِ بَينَ عَامَّةِ ٱلنَّاسِ فَهؤُلاءِ لَا يَفهَمُونَ اِلَّا ٱلمَعنَى ٱلمَجَازِيَّ . لِاَنَّهُمْ لَمْ يَعلَمُوا اَصلَ وَضعِ ٱلكَلِمَةِ . وَاَمَّا خَاصَّةُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يَعلَمُونَ اَصلَ ٱلوَضعِ فَاِنَّهُمْ لَا يَفهَمُونَ عِندَ اِطلَاقِ ٱللَّفظِ اِلَّا ٱلحَقِيقَةَ لَا غَيرُ . . . (وَاَمَّا ٱلوَجهُ ٱلوَضعِيُّ) فَهُوَ اَنَّ ٱلمَرجِعَ فِي هٰذَا وَمَا يَجرِي مَجرَاهُ اِلَى اَصلِ ٱللُّغَةِ ٱلَّتِي هِيَ وَضعُ ٱلأَسمَاءِ عَلَى ٱلمُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهَا اَنَّ ٱلوَجهَ ٱلمَلِيحَ يُسَمَّى شَمسًا وَلَا اَنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلجَوَادَ يُسَمَّى بَحرًا . وَاِنَّمَا اَهلُ

ٱلْخطابَةِ وَٱلشِّعْرِ توسّعُوا فِي ٱلْأَساليبِ ٱلْمَعْنوية فنقلُوا ٱلْحقيقةَ إلى ٱلمجازِ وَلَمْ يَكُنْ ذٰلكَ منْ وَاضِعِ ٱللُّغةِ في اصلِ ٱلوضْعِ وَلهذَا ٱختصَّ كُلٌّ مِنْهم بشيْءٍ ٱخترعَهُ فِي ٱلتوسّعاتِ ٱلمجازيّـةِ . هَذَا ٱمْرُؤُ ٱلقيس قَدِ ٱخترعَ شَيئًا لَمْ يكُنْ قبلَهُ . فمِنْ ذٰلكَ انَّهُ اوّلُ مَنْ عبّرَ عنْ ٱلفرسِ بقوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْأَوابِدِ) . ولَمْ يُسْمَعْ ذٰلكَ لِاحدٍ مِنْ قبْلِهِ . . . وَوَاضعُ ٱللُّغة مَا ذكرَ شيْئا منْ ذٰلكَ فعلِمْنا حِينَئِذٍ انَّ منَ ٱللُّغـةِ حَقيقةً بوضعِهِ وَمجازا بتوسّعاتِ اهلِ ٱلْخطَابةِ وٱلشِّعْرِ . وَفِي زمانِنَا هٰذا قَدْ يَخترعُونَ اشياءَ مِنَ ٱلمجازِ عَلَى حُكْمِ ٱلْاستِعـارةِ لَمْ تَكُنْ مِنْ قبلُ . ولَوْ كانَ هٰذا موْقوفا مِنْ جهةِ وَاضعِ ٱللُّغـةِ لمَا ٱخترعَهُ احدٌ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا زِيدَ فيهِ وَلَا نَقصَ مِنْهُ . واما ٱلفرقُ بيْنَهُ وبيْنَ ٱلْحقيقةِ فهُوَ انَّ ٱلْحقيقةَ جارِيَةٌ عَلَى ٱلْعُمُومِ فِي نَظَائِرِ . الَا تَرَى اذَا قُلْنا : فُلانٌ عالمٌ صَدقَ عَلَى كُلِّ ذِي علْم . بِخِلَافِ (وَٱسْأَلِ ٱلقَرْيَةَ) . لِأَنَّهُ لَا يصحُّ الا فِي بَعْضِ ٱلجمادَاتِ دُونَ بَعْضٍ إِذِ ٱلمرادُ اهْلُ ٱلقرْيَةِ لِأَنَّهُمْ مِمَّنْ يصحُّ ٱلسُّؤالُ لَهُمْ . وَلَا يَجُـوزُ انْ يُقالَ : وَٱسْأَلِ ٱلْحَجَرَ وَٱلتُّرابَ . وَقَدْ يَحْسُنُ انْ يُقالَ : وَٱسْأَلِ ٱلرّبعَ وَٱلطّلَلَ . (وَٱعْلَمْ) انَّ كُلَّ مجازٍ فلَهُ حَقيقةٌ لِانَّهُ لَمْ يَصِحَّ انْ يُطلَقَ عَلَيْهِ ٱسْمُ ٱلمجازِ إِلَّا عَنْ حَقيقةٍ مَوْضُوعةٍ لَهُ إِذِ ٱلمجازُ هُوَ ٱسْمٌ لِلْمَوْضُوعِ ٱلذِي يُنْتَقلُ فيهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَان فجُعِلَ ذٰلكَ لنقْلِ ٱلْأَلفَاظِ مِنَ ٱلحقيقةِ إِلَى غَيْرِهَا . وَإِذا كَانَ كُلُّ مَجازٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَقيقةٍ نُقِلَ عَنْها إِلَى حالَةٍ ٱلمجازيّةِ فَكَذٰلكَ ليْسَ مِنْ ضَرُورةِ كُلِّ حَقيقةٍ انْ يَكُونَ لَهَا مجازٌ . فَإِنَّ

مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ مَا لَا مَجَازَ لَهُ كَأَسْمَاءِ ٱلْأَعْلَامِ لِأَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلذَّوَاتِ لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّفَاتِ

وَكَذٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَجَازَ أَوْلَى بِٱلْاسْتِعْمَالِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْأَصْلُ أَوْلَى مِنْهُ حَيْثُ هُوَ فَرْعٌ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخِطَابِيِّ هُوَ إِثْبَاتُ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ بِٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّصْوِيرِ حَتَّى يَكَادَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عِيَانًا . أَلَا تُرَى أَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . هِيَ قَوْلُنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَكِنْ فُرِقَ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ وَٱلتَّخْيِيلِ وَإِثْبَاتِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ . لِأَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَا يَتَخَيَّلُ مِنْهُ ٱلسَّامِعُ سِوَى أَنَّهُ رَجُلٌ جَرِيءٌ مِقْدَامٌ . فَإِذَا قُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . يُخَيَّلُ عِنْدَ ذٰلِكَ صُورَةُ ٱلْأَسَدِ وَهَيْئَتُهُ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلْقُوَّةِ وَدَقِّ ٱلْفَرَائِسِ . وَقَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) هُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : مَانِعُ ٱلْأَوَابِدِ عَنِ ٱلذَّهَابِ وَٱلْإِفْلَاتِ . وَٱلْقَيْدُ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْمَنْعِ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ لِأَنَّكَ تُشَاهِدُ مَا فِي ٱلْقَيْدِ مِنَ ٱلْمَنْعِ فَلَا تَشُكُّ فِيهِ . وَكَقَوْلِهِمْ : هٰذَا مِيزَانُ ٱلْقِيَاسِ أَيْ تَعْدِيلُهُ . وَٱلْمَجَازُ أَبْلَغُ لِأَنَّ ٱلْمِيزَانَ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلتَّعْدِيلَ حَتَّى تُعَايِنَهُ وَلِلْعِيَانِ فَضْلٌ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَكَذٰلِكَ : ٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ أَيْ حَقِيقَةُ تَقْوِيمِهِ . وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَأَعْجَبُ مَا فِي ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ أَنَّهَا تَنْقُلُ ٱلسَّامِعَ عَنْ خُلُقِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ حَتَّى إِنَّهَا يَسْمَحُ بِهَا ٱلْبَخِيلُ

وَيَشْجُعُ بِهَا ٱلْجَبَانُ وَيُحْكَمُ بِهَا ٱلطَّائِشُ ٱلْمُتَسَرِّعُ وَيَجِدُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَا عِنْدَ سَمَاعِهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ حَتَّى إِذَا قُطِعَ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ أَفَاقَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ بَذْلِ مَالٍ . اوْ تَرْكِ عُقُوبَةٍ . أَوْ إِقْدَامٍ عَلَى أَمْرٍ مَهُولٍ وَهٰذَا هُوَ فَحْوَى ٱلسِّحْرِ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُسْتَغْنِي مِنْ إِلْقَاءِ ٱلْعَصَا وَٱلْحِبَالِ . (وَٱعْلَمْ) انَّهُ اذا وَرَدَ عَلَيْكَ كَلَامٌ يَجُوزُ انْ يُحْمَلَ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ بِٱخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَٱنْظُرْ فَانْ كَانَ لَا مَزِيَّةَ لِمَعْنَاهُ فِي حَمْلِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ فَلَا يَنْبَغِي انْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَصْلُ وَٱلْمَجَازُ هُوَ ٱلْفَرْعُ وَلَا يُعْدَلُ عَنِ ٱلْأَصْلِ إِلَى ٱلْفَرْعِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ

البحث الرابع

في الاستعارة

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هِيَ ٱدِّعَاءُ مَعْنَى ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلشَّيْءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ مِنَ ٱلْبَيْنِ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ جَعْلُ ٱلشَّيْءِ لِلشَّيْءِ لِأَجْلِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ أَسَدًا تَعْنِي ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ . وَٱلثَّانِي كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ ٱلشَّمَالِ زِمَامُهَا

اثبت اليد للشمال مبالغة في تشبيهها بالقادر في التصرف فيه.
وحدّ الرماني الاستعارة فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في اصل اللغة على سبيل النقل للابانة. وقال ابن المعتز: هي استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها الى شيء لم يعرف بها.
وذكر الخفاجي كلام الرماني وقال: وتفسير هذه الجملة ان قوله مثلا: (واشتعل الرأس شيبا). استعارة لان الاشتعال للنار ولم توضع في اصل اللغة للشيب فلما نقل اليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه. لان الشيب لما كان نافذا في الرأس شيئا فشيئا حتى يحيله الى غير لونه الاول كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب حتى تحيله الى غير حالته المتقدمة. فهذا من نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان ولا بد ان يكون اوضح من الحقيقة لاجل التشبيه العارض فيها. لان الحقيقة لو قامت مقامها لكانت اولى بها لانها الاصل وليس يخفى على المتأمل ان قوله: (واشتعل الرأس شيبا). ابلغ من: كثر شيب الرأس. وهو حقيقة هذا المعنى. وقوله: (يوم يكشف عن ساق). احسن وابلغ في ما قصد له من قوله لو قال: يوم يكشف عن شدة الامر. وان كان المعنيان واحدا. الا ترى انك تقول لمن يحتاج الى الجد في امره: شمّر عن ساقك. فيكون هذا القول منك ازكز في نفسه من قولك: جدّ في امرك. وقال دريد بن الصمة:

كميش الازار خارج نصف ساقه ... صبور على الضراء طلاع انجد

وَقالَ ٱلْهذليُّ :

وَكُنتُ إِذَا جَارٌ دَعَا بِغُدومِهِ أُشَمِّرُ حَتَّى يَنْصِفَ ٱلسَّاقَ مِئْزَرِي

وَلَا بُدَّ لِلِاسْتِعَارَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ هِيَ اصْلُهَا وَهِيَ: مُسْتَعَارٌ مِنْهُ. وَمُسْتَعَارٌ بِهِ. وَمُسْتَعَارٌ لَهُ. فَٱلنَّارُ فِي قَوْلِهِ: (ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا). مُسْتَعَارٌ مِنْهَا. وَٱلِاشْتِعَالُ مُسْتَعَارٌ. وَٱلشَّيْبُ مُسْتَعَارٌ لَهُ. وَامَّا قَوْلُنَا: (مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ). فَٱعْلَمْ انَّنَا إِذَا طَرَحْنَاهُ كَقَوْلِنَا: رَايْتُ اسَدًا. وَارَدْنَا ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ فَهُوَ ٱسْتِعَارَةٌ بِٱلِاتِّفَاقِ وَإِنْ ذَكَرْنَا مَعَهُ ٱلْمُشَبَّهَ وَقُلْنَا: زَيْدٌ اسَدٌ. فَٱلْمُخْتَارُ انَّهُ لَيْسَ بِٱسْتِعَارَةٍ إِذْ فِي ٱللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى انَّهُ لَيْسَ بِاسَدٍ فَلَمْ تَحْصُلِ ٱلْمُبَالَغَةُ. وَإِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ ٱلْاسَدُ. فَهُوَ ابْعَدُ عَنِ ٱلِاسْتِعَارَةِ فَإِنَّ ٱلْاوَّلَ خَرَجَ بِٱلتَّنْكِيرِ مِنْ انْ يَحْسُنَ فِيهِ كَافُ ٱلتَّشْبِيهِ. فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ كَاسَدٍ. كَلَامٌ نَازِلٌ بِخِلَافِ ٱلثَّانِي. قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْاثِيرِ: وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْادَاةِ قَدْ خَلَطُوهُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَذٰلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ. وَسَأُوضِحُ وَجْهَ ٱلْخَطَإِ فِيهِ وَأُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَاقُولُ: إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُظْهَرَ ٱلْادَاةِ فَلَا حَاجَةَ لِبَيَانِ ذِكْرِهِ لِانَّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلٰكِنْ نَذْكُرُ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْادَاةِ فَنَقُولُ: إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ وَٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ عَلَى انَّهُ تَشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْادَاةِ قِيلَ فِيهِ: زَيْدٌ اسَدٌ. اي كَٱلْاسَدِ. فَادَاةُ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ. وَإِذَا اظْهِرَتْ حَسُنَ ظُهُورُهَا وَلَمْ تَقْدَحْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي اظْهِرَتْ فِيهِ وَلَمْ تُزِلْ عَنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهٰذَا بِخِلَافِ مَا إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ دُونَ ٱلْمَنْقُولِ فَإِنَّهُ لَا يَحْسُنُ

فِيهِ ظُهُورُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ وَإِذَا اُظْهِرَت اَزَالَتْ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْقَبَاحَةِ ... فَٱلْفَرْقُ إِذًا بَيْنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ وَبَيْنَ ٱلِاسْتِعَارَةِ اَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ يَحْسُنُ اِظْهَارُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ وَٱلِاسْتِعَارَةُ لَايَحْسُنُ ذٰلِكَ فِيهَا . وَٱلِاسْتِعَارَةُ اَخَصُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ إِذ قَصْدُ ٱلْمُبَالَغَةِ شَرْطٌ فِي ٱلِاسْتِعَارَةِ دُونَ ٱلْمَجَازِ . وَاَيْضًا فَكُلُّ اسْتِعَارَةٍ مِنَ ٱلْبَدِيعِ وَلَيْسَ كُلُّ مَجَازٍ مِنْهُ وَٱلْحَقُّ اَنَّ ٱلْمَعْنَى يُعَارُ اَوَّلًا ثُمَّ بِوَاسِطَتِهِ يُعَارُ ٱللَّفْظُ . وَلَا تَحْسُنُ ٱلِاسْتِعَارَةُ اِلَّا حَيْثُ كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ مُقَرَّرًا بَيْنَهُما ظَاهِرًا اَوَّلًا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَوْ قُلْتَ : رَاَيْتُ نَخْلَةً اَوْ خَامَةً . وَاَنْتَ تُرِيدُ مُؤْمِنًا اِشَارَةً اِلَى قَوْلِهِ : مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلنَّخْلَةِ اَوْ مَثَلِ ٱلْخَامَةِ . لَكُنْتَ كَٱلْمُلْغِزِ ٱلتَّارِكِ لِمَا يُفْهَمُ وَكُلَّمَا زَادَ ٱلتَّشْبِيهُ خَفَاءً زَادَتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حُسْنًا بِحَيْثُ يَكُونُ اَلْطَفَ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ. وَرُبَّمَا جُمِعَ بَيْنَ عِدَّةِ اسْتِعَارَاتٍ اِلْحَاقًا لِلشَّكْلِ بِٱلشَّكْلِ لِاِتْمَامِ ٱلتَّشْبِيهِ فَتَزِيدُ ٱلِاسْتِعَارَةُ بِهِ حُسْنًا كَقَوْلِ امْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي صِفَةِ ٱللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَاَرْدَفَ اَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَٱعْلَمْ اَنَّهُ لَا بُدَّ اَيْضًا مِنْ مَعْنًى يَشْتَرِكُ بَيْنَ ٱلْمُسْتَعَارِ وَٱلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ مَثَلًا وَمَانِعِ ٱلْاَوَابِدِ هُوَ ٱلْحَبْسُ وَعَدَمُ ٱلْاِفْلَاتِ . وَبَيْنَ مِيزَانِ ٱلْقِيَاسِ وَتَعْدِيلِ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ هُوَ ارْتِفَاعُ ٱلْحَيْفِ وَٱلْمَيْلِ اِلَى اَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْمَجَازَاتِ

البحث الخامس

فيما تدخله الاستعارة وما لا تدخله

(عن صناعة الترسل ايضاً)

اَلْأَعلَامُ لَا يَدْخُلُهَا اَلِاسْتِعَارَةُ لِمَا تَقَدَّمَ فِي اَلْمَجَازِ . وَأَمَّا اَلْفِعْلُ وَالِاسْتِعَارَةُ تَقَعُ أَوَّلًا فِي اَلْمَصْدَرِ ثُمَّ تَقَعُ بِوَاسِطَة ذٰلِكَ فِي اَلْفِعْلِ . فَإِذَا قُلْتَ : نَطَقَتِ اَلْحَالُ بِكَذَا . فهذا إِنما يَصِحُّ لِأَنَّكَ وَجَدْتَ اَلْحَالَ مُشَابِهَةً لِلنُّطْقِ فِي اَلدَّلَالَةِ عَلَى اَلشَّيْءِ فَلَا جَرَمَ اسْتَعَرْتَ اَلنُّطْقَ لِتِلْكَ اَلْحَالَةِ ثُمَّ نَقَلْتَهُ إِلَى اَلْفِعْلِ . وَالْأَسْمَاءُ اَلْمُشْتَقَّةُ فِي ذٰلِكَ كَالْفِعْلِ . فَظَهَرَ أَنَّ اَلِاسْتِعَارَةَ إِنَّمَا تَقَعُ وُقُوعًا أَوَّلِيًّا فِي أَسْمَاءِ اَلْأَجْنَاسِ . ثُمَّ اَلْفِعْلُ إِذَا كَانَ مُسْتَعَارًا فَاسْتِعَارَتُهُ إِمَّا مِنْ جِهَةِ فَاعِلِهِ كَقَوْلِهِ : نَطَقَتِ اَلْحَالُ بِكَذَا أَوْ لَعِبَتْ بِهِ اَلْهُمُومُ . وَكَقَوْلِ جَرِيرٍ :

يَحْثِي اَلرَّوَامِسَ رَبْعُهَا فَتُجِدُّهُ ... بَعْدَ اَلْبِلَى وَتُمِيتُهُ اَلْأَمْطَارُ

أَوْ مِنْ جِهَةِ مَفْعُولِهِ كَقَوْلِ اَبْنِ اَلْمُعْتَزِّ :

جُمِعَ اَلْحَقُّ لَنَا فِي إِمَامٍ ... قَتَلَ اَلْجَوْرَ وَأَحْيَا اَلسَّمَاحَا

أَوْ مِنْ جِهَةِ اَلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ اَلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ . وَيَتَّصِلُ بِهٰذَا تَرْشِيحُ اَلِاسْتِعَارَةِ وَتَجْرِيدُهَا . أَمَّا تَرْشِيحُهَا فَهُوَ أَنْ تَنْظُرَ فِيهَا إِلَى اَلْمُسْتَعَارِ وَتُرَاعِيَ جَانِبَهُ وَتُولِيَهُ مَا تَسْتَدْعِيهِ وَتَضُمَّ إِلَيْهِ مَا تَقْتَضِيهِ كَقَوْلِ اَلنَّابِغَةِ :

وَصَدْرٍ أَرَاحَ اَللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... تَضَاعَفَ فِيهِ اَلْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

المستعار فيه وهو الازاحة منظور اليه في لفظ العازب . واما تجريدها فهو ان يكون المستعار له منظورا اليه كقوله: فأذاقها الله لباس الجوع والخوف . فان الاذاقة وقعت عبارة عما يدرك من اثر الضرر والالم تشبيها له بما يدرك من طعم المر. الشبع واللباس عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكانه قال : فاذاقها ما غشيها من الم الجوع والخوف . وكقول زهير :

لدى اسد شاكي السلاح مقذف ... له لبد اظفاره لم تقلم

فلو نظر الى المستعار لقال : لدى اسد دامي او دامي البراثن مثلا. ونظر زهير في آخر البيت الى المستعار . ومنه قول كثير :

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا ... غلقت لضحكته رقاب المال

استعار الرداء للمعروف لانه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه . ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء

ويقرب من ذلك الاستعارة بالكناية وهو ان لا يصرح بذكر المستعار بل يذكر بعض لوازمه تنبيها به كقوله : شجاع يفترس اقرانه وعالم يغترف منه الناس. وكقول ابي ذؤيب :

واذا المنية انشبت اظفارها ... الفيت كل تميمة لا تنفع

تنبيها على ان الشجاع اسد والعالم بحر والمنية سبع . وهذا وان كان يشبه الاستعارة المجردة الا انه اغرب واعجب. ويقرب منه قول زهير :

وَمَنْ يَعْصِ اَطْرَافَ ٱلزِّمَاحِ فَاِنَّهُ ... يُطِيعُ ٱلْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : مَنْ لَمْ يَرْضَ بِاَحْكَامِ ٱلصُّلْحِ رَضِيَ بِاَحْكَامِ ٱلْحَرْبِ اَيْ اَشْرَعُوا ٱلْاَسِنَّةَ وَاَخِّرُوا ٱلزِّمَاحَ . وَقَدْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُمَاثَلَةَ اَيْضًا . وَقَدْ يُنَزِّلُونَ ٱلِاسْتِعَارَةَ مَنْزِلَةَ ٱلْحَقِيقَةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ يَسْتَعِيرُونَ ٱلْوَصْفَ ٱلْمَحْسُوسَ لِلشَّيْءِ ٱلْمَعْقُولِ . وَيَجْعَلُونَ كَاَنَّ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ثَابِتَةٌ لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَاَنَّ ٱلِاسْتِعَارَةَ لَمْ تُوجَدْ اَصْلًا . مِثَالُهُ اسْتِعَارَتُهُمُ ٱلْعُلُوَّ لِزِيَادَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْرِ وَٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ وَضْعُهُمُ ٱلْكَلَامَ وَضْعَ مَنْ يَذْكُرُ عُلُوًّا مَكَانِيًّا . كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ ٱلْحَسُودُ ... بِاَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي ٱلسَّمَاءِ

وَكَقَوْلِهِ اَيْضًا :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَاَنَّمَا ... تُحَاوِلُ ثَارًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

البحث السادس

في اقسام الاستعارة

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٣٢ من علم الادب)

هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يُعْتَمَدَ نَفْسُ ٱلتَّشْبِيهِ وَهُوَ اَنْ يَشْتَرِكَ شَيْئَانِ فِي وَصْفٍ وَاَحَدُهُمَا اَنْقَصُ مِنَ ٱلْآخَرِ . فَيُعْطَى ٱلنَّاقِصُ

ٱسْمَ ٱلزَّائِدِ مُبَالَغَةً فِي تَحْقِيقِ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ لَهُ كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُ أَسَدًا. وَأَنْتَ تَعْنِي رَجُلًا شُجَاعًا. (وَٱلثَّانِي) تَعْتَمِدُ لَوَازِمُهُ عِنْدَمَا يَكُونُ جِهَةُ ٱلِٱشْتِرَاكِ وَصْفًا وَإِنَّمَا ثَبَتَ كَمَالُهُ فِي ٱلْمُسْتَعَارِ فِي وَاسِطَةِ شَيْءٍ آخَرَ فَتُثْبِتُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ لِلْمُسْتَعَارِ لَهُ مُبَالَغَةً فِي إِثْبَاتِ ٱلْمُشْتَرَكِ. كَقَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا:

إِذَا هَزَّهُ فِي عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِذُ أَفْوَاهِ ٱلْمَنَايَا ٱلضَّوَاحِكُ

لَمَّا شَبَّهَ ٱلْمَنَايَا عِنْدَ هَزَّةِ ٱلسَّيْفِ بِٱلسُّرُورِ وَكَمَالُ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ إِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلضَّحِكِ ٱلَّذِي يَتَهَالَلُ بِهِ ٱلنَّوَاجِذُ أَثْبَتَهُ تَحْقِيقًا لِلْوَصْفِ ٱلْمَقْصُودِ وَإِلَّا فَلَيْسَ لِلْمَنَايَا مَا يُنْقَلُ إِلَيْهِ ٱسْمُ ٱلنَّوَاجِذِ. وَهٰكَذَا ٱلْكَلَامُ فِي قَوْلِ ٱلْحَمَاسِيِّ:

سَقَاهُ ٱلرَّدَى سَيْفٌ إِذَا سُلَّ أَوْمَضَتْ إِلَيْهِ مَنَايَا ٱلْمَوْتِ مِنْ كُلِّ مَرْقَبِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ مُرْخَى ٱلْعِنَانِ وَمُلْقَى ٱلزِّمَامِ. وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقِسْمَيْنِ أَنَّكَ إِنْ رَجَعْتَ فِي ٱلْأَوَّلِ إِلَى ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَقْصَدُ مِنْ كُلِّ ٱسْتِعَارَةٍ مُقَيَّدَةٍ وَجَدْتَهُ يَأْتِيكَ عَفْوًا كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُ رَجُلًا كَٱلْأَسَدِ أَوْ مِثْلَهُ أَوْ شِبْهَهُ. وَإِنْ رُمْتَهُ فِي ٱلثَّانِي لَا يُؤَاتِيكَ تِلْكَ ٱلْمُؤَاتَاةَ إِذْ لَا وَجْهَ أَنْ تَقُولَ: شَيْءٌ مِثْلُ ٱلْيَدِ لِلشِّمَالِ. وَإِنَّمَا تَهَيَّأَ لَكَ ٱلتَّشْبِيهُ بَعْدَ أَنْ تَخْرِقَ إِلَيْهِ سِتْرًا أَوْ تَعْمَلَ تَأَمُّلًا وَفِكْرًا. وَفِي إِغْفَالِ هٰذَا ٱلْأَصْلِ وُقُوعٌ فِي ٱلتَّشْبِيهِ. وَذٰلِكَ أَنَّ مَنْ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ كُلَّ ٱسْمٍ يُسْتَعَارُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ يُمْكِنُ ٱلْإِشَارَةُ إِلَيْهِ تَتَنَاوَلُهُ فِي حَالَةِ ٱلْمَجَازِ كَمَا تَتَنَاوَلُ مُسَمَّاهُ فِي حَالَةِ

الْحَقِيقَةِ . ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ : وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . وَقَوْلِهِ : تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . ارْتَبَكَ فِي الشَّكِّ وَحَامَ حَوْلَ الظَّاهِرِ وَوَقَعَ فِي التَّشْبِيهِ الَّذِي هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ . فَفِي مَعْرِفَةِ هٰذَا الْخَلَاصُ مِنْ ذٰلِكَ التَّشْبِيهِ وَيُسَمَّى هٰذَا النَّوْعُ اسْتِعَارَةً تَخْيِيلِيَّةً وَهُوَ كَإِثْبَاتِ الْجَنَاحِ لِلذُّلِّ فِي قَوْلِهِ : وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ . إِذَا عُرِفَ هٰذَا فَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ : (الْأَوَّلُ) أَنْ يُسْتَعَارَ الْمَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ . وَذٰلِكَ إِمَّا أَنْ يَشْتَرِكَا فِي الذَّاتِ وَيَخْتَلِفَا فِي الصِّفَاتِ كَاسْتِعَارَةِ الطَّيَرَانِ لِغَيْرِ ذِي جَنَاحٍ فِي السُّرْعَةِ . فَإِنَّ الطَّيَرَانَ وَالْعَدْوَ يَشْتَرِكَانِ فِي الْحَقِيقَةِ وَهِيَ الْحَرَكَةُ الْمَكَانِيَّةُ إِلَّا أَنَّ الطَّيَرَانَ أَسْرَعُ . أَوْ بِأَنْ يَخْتَلِفَا فِي الذَّاتِ وَيَشْتَرِكَا فِي صِفَةٍ إِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ : رَأَيْتُ شَمْسًا . وَيُرِيدُونَ إِنْسَانًا يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ . وَكَقَوْلِهِ : وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا . فَالْمُسْتَعَارُ مِنْهُ النَّارُ وَالْمُسْتَعَارُ لَهُ الشَّيْبُ وَالْجَامِعُ الِانْبِسَاطُ وَلٰكِنَّهُ فِي النَّارِ أَقْوَى . وَإِمَّا غَيْرِ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ : إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . الْمُسْتَعَارُ لَهُ الرِّيحُ وَالْمُسْتَعَارُ مِنْهُ الْمَرْأَةُ وَالْجَامِعُ الْمَنْعُ مِنْ ظُهُورِ النَّتِيجَةِ . (الثَّانِي) أَنْ يُسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لِشَيْءٍ مَعْقُولٍ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ أَوْ ثُبُوتِيٍّ وَأَحَدُهُمَا أَكْمَلُ مِنْ ذٰلِكَ الْوَصْفِ فَيُنَزَّلُ النَّاقِصُ مَنْزِلَةَ الْكَامِلِ كَاسْتِعَارَةِ اسْمِ الْعَدَمِ لِلْوُجُودِ إِذَا اشْتَرَكَا فِي عَدَمِ الْفَائِدَةِ أَوِ اسْتِعَارَةِ اسْمِ الْوُجُودِ لِلْعَدَمِ إِذَا بَقِيَتْ آثَارُهُ الْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ كَتَشْبِيهِ الْجَهْلِ بِالْمَوْتِ لِاشْتِرَاكِ الْمَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ الْإِدْرَاكِ وَالْعَقْلِ . وَكَقَوْلِهِمْ : فُلَانٌ لَقِيَ الْمَوْتَ إِذَا لَقِيَ

ٱلشَدائدَ لِأَشْتِرَاكِهِمَا فِي ٱلْمَكْرُوهِيَّةِ . وَقَوْلِهِ: وَلما سكتَ عَنْ موسى ٱلْغَضَبُ . وَٱلسُّكُوتُ وَٱلزَّوالُ امْرَانِ معْقُولَانِ . (ٱلثَّالِثُ) انْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَاسْتِعَارَةِ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي هُوَ محْسُوسٌ وَٱسْتِعَارَةِ ٱلْقِسْطَاسِ لِلعَدْلِ . وَكَقَوْلِهِ: بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْباطِل فَيَدْمَغُهُ . فَٱلْقَذفُ وَٱلدمغ مُسْتَعَارَانِ . وقَوْلِهِ: فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . وَقَوْلِهِ : أَلَمْ تَرَ انهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . ٱلْوَادِي وَٱلْهَيَمَانُ مُسْتَعَارَانِ . (ٱلرَّابِعُ) انْ يُسْتَعَارَ ٱسْمُ ٱلْمَعْقُولِ لِلْمَحْسُوسِ عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْمَذْكُورِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَقَوْلِهِ: إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغيْظِ . فَٱلشهيقُ وَٱلْغَيْظُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ: حتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ اوزارَهَا

البحث السابع

في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها

(عن كتاب الصناعتين وصناعة الترسل)

قَالَ مُحَمَّدٌ ابو عَبْدِٱللهِ بْنِ سِنان ٱلْخَفَاجِيُّ: وَقَدِ ٱخْتارَ ابو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ بِشْرٍ ٱلآمِدِيُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلِاسْتِعَارَةِ قَوْلَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وَارْدَفَ اعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَقَالَ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلِاسْتِعَارَةَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ وَصْفَ احْوَالِ ٱللَّيْلِ فَذَكَرَ ٱمْتِدَادَ وَسطِهِ وَتَثَاقُلَ صَدْرِهِ لِلذَّهَابِ وَٱلِانْبِعَاثِ وَتَرَادُفَ اعْجَازِهِ وَاوَاخِرهُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَقَالَ ٱلْخَفَاجِيُّ :

وَهٰذَا ٱلَّـذِي ذَكَرَهُ ابُو ٱلْقَاسِمِ لَا ارْضَى بِهِ غَايَةَ ٱلرِّضَى وَلَوْ كُنْتُ اَسْكُنُ اِلَى تَقْلِيدِ اَحَدٍ مِنْ عُلَماءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَقَـلَّدْتُهُ لِحُسْنِ نَظَرِهِ وَصِحَّةِ فِكْرِهِ وَهُوَ عِنْدِي مِنَ ٱلْوَسَطِ لَيْسَ مِنْ جَيِّدِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ وَلَا مِنْ رَدِيئِهَا . وَاِنَّمَا قُلْتُ ذٰلِكَ لِاَنَّ اَبَا ٱلْقَاسِمِ قَدْ اَفْصَحَ بِاَنَّ اَمْرَءَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا جَعَـلَ لِلَّيْلِ وَسَطًا وَعَجْزًا ٱسْتَعَارَ لَهُ ٱسْمَ ٱلصُّلْبِ وَجَعَلَهُ مُتَمَطِّيًا مِنْ اَجْلِ ٱمْتِدَادِهِ وَجَعَلَ ٱلْكَلْكَلَ مِنْ اَجْلِ نُهُوضِهِ وَكُلُّ هٰذَا اِنَّمَا يَحْسُنُ بَعْضُهُ لِاَجْلِ بَعْضٍ . فَذِكْرُ ٱلصُّلْبِ اِنَّمَا حَسُنَ لِاَجْلِ ٱلْعَجْزِ . وَٱلتَّمَطِّي لِاَجْلِ ٱلصُّلْبِ . وَٱلْكَلْكَلُ لِمَجْمُوعِ ذٰلِكَ . وَهٰذِهِ ٱلْاِسْتِعَارَةُ ٱلْمَبْنِيَّةُ عَلَى غَيْرِهَا فَلِذٰلِكَ لَمْ ارَ انْ تُجْعَلَ مِنَ اَبْلَغِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَكَانَتِ ٱسْتِعَارَةُ طُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ فِي قَوْلِهِ :

وَجَعَلْتُ رَحْلِي فَوْقَ نَاجِيةٍ يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنَامِهَا ٱلرَّحْلُ

اَوْفَقَ وَاَوْضَحَ . لِاَنَّهَا غَنِيَّةٌ بِنَفْسِهَا غَيْرُ مُفْتَقِرَةٍ اِلَى مُقَدَّمَةٍ حِلْيَتِهَا .

(وَقَالَ) وَقَدْ كُنْتُ مَثَّلْتُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلْمَذْمُومَةِ بِبَيْتَيْنِ اَحَدُهُمَا قَوْلُ ٱبْنِ نُبَاتَةَ :

حَتَّى اِذَا بَهَرُوا ٱلْاَبَاطِحَ وَٱلثَّرَى نَظَرُوا اِلَيْكَ بِاَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ

فَنَظَرُ اَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ مِنْ اَشْبَهِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَاَلْيَقِهَا . لِاَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ اِذَا كَانَ مُقَابِلًا لِمَنْ يَمُرُّ بِهِ كَانَّهُ مُنَاظِرٌ اِلَيْهِ . وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي بَيْتُ اَبِي تَمَّامٍ :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ ٱلدِّينِ وَٱشْتَتَرَتْ بِٱلْاَشْتَرَيْنِ عُيُونُ ٱلشِّرْكِ فَٱصْطُلِمَا

وَقُرَّةُ عَيْنِ ٱلدِّينِ وَٱسْتِتَارُ عُيُونَ ٱلشِّرْكِ مِنْ اَقْبَحِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ

لعدم الشبه الذي لأجله جعل للشرك عيونا . ومن تأمل هذين البيتين لا يفهم معنى الاستعارة لان النوار والشرك لا عيون لهما على الحقيقة . وقد قبحت استعارة العيون لاحدهما وحسنت للآخر . والعلة فيه ان النوار يشبه العيون . والدين والشرك ليس فيهما ما يشبهها ولا يقاربها .

ومن احسن الاستعارات كقول الشريف الرضي :

رسا النسيم بواديكم ولا برحت   حوامل المزن في اجداثكم تضع
ولا يزال جنين النبت ترضعه   على قبوركم العراصة الهمع

لان المزن تحمل الماء واذا حملت تضعه فاستعارة الحمل لها والوضع المعروفين من اقرب شيء واشبهه . وكذلك جنين النبت لان الجنين المستور مأخوذ من الجنة . واذا كان النبت مستورا والغيث يسقيه كان ذلك بمنزلة الرضاع

وامثال المحاسن في ذلك والمساوئ كثيرة وقد اخذ القول في هذا الباب حقه . مع ان اقوال العلماء بهذا الفن فيه اكثر من ذلك

البحث الثامن

في ما جاء من الاستعارات في كلام العرب

(عن كتاب الصناعتين للعسكري وسر العربيّة للثعالبي)

وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي قَوْلِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلِاسْتِعَارَاتِ فَكَثِيرٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : هٰذَا رَأْسُ ٱلْأَمْرِ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُ ٱلْمَالِ . وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي جَنْبِ غَيْرِهِ يَسِيرٌ . وَيَقُولُونَ : هٰذَا جَنَاحُ ٱلْحَرْبِ وَقَلْبُهَا وَجَنَاحُ ٱلطَّرِيقِ . وَهٰؤُلَاءِ رُؤُوسُ ٱلْقَوْمِ وَجَمَاجِمُهُمْ وَعُيُونُهُم . وَفُلَانٌ ظَهْرُ فُلَانٍ وَلِسَانُ قَوْمِهِ وَنَابُهُمْ وَعَضُدُهُمْ . وَهٰذَا كَلَامٌ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . وَفِي ٱلْعَرَبِ : ٱلْجَمَاجِمُ . وَٱلْقَبَائِلُ . وَٱلْأَفْخَاذُ . وَٱلْبُطُونُ . وَخَرَجَ عَلَيْنَا عُنُقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيْضَاءُ . وَهٰذِهِ عَيْنُ ٱلْمَاءِ . وَحَاجِبُ ٱلشَّمْسِ . وَلِسَانُ ٱلنَّارِ . وَهٰذَا أَنْفُ ٱلْجَبَلِ . وَبَطْنُ ٱلْوَادِي . وَكَبِدُ ٱلسَّمَاءِ . وَسَاقُ ٱلشَّجَرَةِ . وَيَقُولُونَ فِي ٱلتَّفَرُّقِ : ٱنْشَقَّتْ عَصَاهُمْ . وَشَالَتْ نَعَامَتُهُمْ . وَمَرُّوا بَيْنَ سَمْعِ ٱلْأَرْضِ وَبَصَرِهَا . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْأَمْرِ : كَشَفَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . أَبْدَى ٱلشَّرُّ نَاجِذَيْهِ . حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ . دَارَتْ رَحَى ٱلْحَرْبِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ : ٱفْتَرَّ ٱلصُّبْحُ عَنْ نَوَاجِذِهِ . ضَرَبَ بِعَمُودِهِ . سُلَّ سَيْفُ ٱلصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ ٱلظَّلَامِ . نَعَرَ ٱلصُّبْحُ فِي قَفَا ٱللَّيْلِ . بَاحَ ٱلصَّبَاحُ بِسِرِّهِ . وَهَى نِطَاقُ ٱلْجَوْزَاءِ . ٱنْحَطَّ قِنْدِيلُ ٱلثُّرَيَّا . ذَرَّ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ . ٱرْتَفَعَ ٱلنَّهَارُ . تَرَجَّلَتِ ٱلشَّمْسُ بِجَمَرَاتِ ٱلظَّهِيرَةِ . بَقَلَ وَجْهُ ٱلنَّهَارِ . خَفَقَتْ رَايَاتُ ٱلظَّلَامِ .

نوّرت حدائق الجو . شاب رأس الليل . لبست الشمس جلبابها . قام خطيب الرعد . خفق قلب البرق . انحلّ عقد السماء . وهي عقد الأنداء . انقطع شريان الغمام . تنفس الربيع . تعطّر النسيم . تبرّجت الأرض . قوي سلطان الحرّ . آن ان يجيش مرجله . ويثور قسطله . انحسر قناع الصيف . جاشت جيوش الخريف . حلّت الشمس الميزان . وعدل الزمان . دبّت عقارب البرد . اقدم الشتاء كلكله . شابت مفارق الجبال . يوم عبوس قمطرير . كشّر عن ناب الزمهرير . وكقولهم في محاسن الكلام : الادب غذاء الروح . الشباب باكورة الحياة . النار فاكهة الشتاء . العيال سوس المال . النبيذ كيمياء الفرح . الوحدة قبر الحي . الصبر مفتاح الفرج . الدين داء الكرام . النمام جسر الشر . الارجاف زند الفتنة . الشكر نسيم النعم . الربيع شباب الزمان . الولد ريحانة الروح . الشمس قطيفة المساكين . الطيب لسان المروة . ويسمون النبات نوا . قال : وجف انواء السحاب . اي جف البقل . ويقولون للمطر سماء . قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناها وإن كانوا غضابا

ويقولون : ضحكت الارض اذا انبتت لانها تبدي عن حسن النبات كما يفترّ الضاحك عن الثغر . ويقال : ضحكت الظلمة . والنور يضاحك الشمس . قال الأعشى :

يضاحك الشمس منه كوكب مشرق
مؤزّر لعميم النبت مكتهل

وَيَقُولُونَ : ضَحِكَ ٱلسَّحَابُ بِٱلْبَرْقِ وَحَنَّ بِٱلرَّعْدِ وَبَكَى بِٱلْقَطْرِ . وَيَقُولُونَ : لَقِيتُ مِنْ فُلَانٍ عَرَقَ ٱلْقِرْبَةِ اي شِدَّةً وَمَشَقَّةً . (وَاصْلُ هٰذَا انَّ حَامِلَ ٱلْقِرْبَةِ يَتْعَبُ مِنْ ثِقْلِهَا حَتَّى يَعْرَقَ) . وَيَقُولُونَ ايضًا : لَقِيتُ مِنْهُ عَرَقَ ٱلْجَبِينِ . وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ : بِأَرْضِ فُلَانٍ شَجَرٌ قَدْ صَاحَ . وَذٰلِكَ اِذَا طَالَ فَتَبَيَّنَ لِلنَّاظِرِ بِطُولِهِ وَدَلَّ عَلَى نَفْسِهِ لِانَّ ٱلصَّائِحَ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ بِصَوْتِهِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ :

كَٱلْكَرْمِ اِذْ نَادَى مِنَ ٱلْكَافُورِ

وَمِمَّا جَاءَ ايضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مَا نَصُّهُ : اَلْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِٱلْمَنْطِقِ . وَقَوْلُهُ : اذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ . وَقَوْلُهُ : اِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ . وَقَوْلُهُ : اَذَاقَهَا ٱللّٰهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . وَقَوْلُهُ : اَشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا . وَقَوْلُهُ : وَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ٱلْعَذَابِ . وَقَوْلُهُ : لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَقَالَ عَلِيٌّ : اَلسَّفَرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ . وَقَالَ : وَامَا وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلْاِسْلَامِ . وَلَهُ قَوْلُهُ لِٱبْنِ عَبَّاسٍ : ارْغَبْ رَاغِبَهُمْ وَٱحْلُلْ عُقْدَةَ ٱلْخَوْفِ عَنْهُمْ . وَقَوْلُهُ : اَلْعِلْمُ قُفْلٌ مِفْتَاحُهُ ٱلْمَسْئَلَةُ . وَقَوْلُهُ : اَلْحِلْمُ وَٱلْاَنَاةُ تَوْاَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ . وَقَالَ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ يَصِفُ ٱلدُّنْيَا : اِنَّ ٱمْرَءًا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا فِي فَرْحَةٍ اِلَّا اَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا تَرْحَةً وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا اِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْرًا . وَلَمْ تُطِلَّهُ فِيهَا غَابَةُ رَخَاءٍ اِلَّا هَبَّتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ . وَلَمْ يُمْسِ مِنْهَا فِي جَنَاحِ آمِنٍ اِلَّا اَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ . وَقَالَ ابُو بَكْرٍ : اِنَّ ٱلْمَلِكَ اِذَا مَلَكَ زَهَّدَهُ ٱللّٰهُ

في مَا لَهُ ورَغْبَهُ فِيما في يَدِ غيْرِه وَاشْرَبَ قَلْبُهُ الاشْفَاقَ . فَهُوَ يَحْسدُ عَلى الْقَليلِ وَيَسْخَطُ عَلَى الْكَثيرِ جَزْلُ الظَّاهِرِ حَزِينُ الْبَاطِنِ . فاذَا وَجَبَتْ نَفْسُهُ وَنَفِرَ عُمُرُهُ وضَحى ظِلُّهُ حاسَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فَاشَدَّ حسابَهُ وَاقَلَّ عقرَهُ . وَكَتَبَ خَالِدُ بنُ الْوَلِيد اِلَى مَرازِبَةِ فَارِسَ: اَلْحَمْدُ للهِ الَّذي قصّر خِدْمَتَكُمْ وفَرَّقَ كَلِمتَكُمْ . وَقالَ الْحجاجُ : دُلُوني عَلَى رَجُل سَمِينِ الاَمَانَةِ اَعْجَف الْخِيانَةِ . وَقالَ عَبْدُاللهِ بْنُ وَهْب : اَلرَّأْيُ لِاَصْحَابِهِ لَاخيرَ فِي الرَّأْيِ الْفطِيرِ وَالْكَلامِ الْقَضِيب . فَلما بَايَعُوهُ قَالَ : دعُوا الرَّأْيَ يَغبُّ فَاِنَّ غُبُوبَهُ يكْشِفُ لَكُمْ عَنْ مَحلِّهِ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيّ : اَنَّكَ لَحسنُ الْكدْيَةِ . قال : عِنْوانُ نعْمَةِ اللهِ عِنْدِي . وَقَالَ اَكْثَمُ بْنُ صَيفيّ : اَلْحِلْمُ دعَامَةُ الْعقْلِ .وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوان لِرَجل : رَحِمَ اللهُ اَبَاكَ فَاِنَّهُ كانَ يَقْرِي الْعَيْنَ جَمَالا وَالاُذْن بيَانا . وَقِيل لِرؤْبَةَ : كَيْفَ تَرَكْتَ مَا وراءكَ . قالَ : التُّرابُ يَابِسٌ وَالْمالُ عَابِسٌ . وقَالَ الْمَنْصورُ لِبعْضِهِمْ : بَلغَنِي اَنَّكَ بَخِيلٌ : قالَ مَا اَجْمُدُ فِي حَقّ وَلَا اَذُوبُ فِي بَاطلٍ . وَقَالَ ابْرَاهِيمُ الْمَوْصِلِيُّ : قُلْتُ للعباس ابْنِ الْحُسيْنِ: انّي لأُحبُّكَ . قَالَ : رائد ذٰلِكَ عِندي . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : اَلاسْتِطَالَةُ لِسانُ الْجهالة . وَقالَ يَحْيَى بْنُ خَالد : اَلشُّكْرُ كُفْوُ النعْمَةِ . وَقَالَ اَعرَابِيٌّ : خَرجْتُ فِي لَيْلةٍ حِنْدِسٍ قد اَلْقتْ عَلَى الاَرْضِ اَكْرَاعِها فَمحتْ صُورَةَ الاَبْدَانِ فَمَا كُنا نَتعارَفُ اِلَّا بِالآذَانِ . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِآخر : يَسارُ النفسِ خيْرٌ مِنْ يَسارِ الْمَالِ وَرُبَّ شَبْعان مِنَ النعمِ غَرْثَانَ مِنَ الْكَرَم . وَقَال آخرُ فِي حَرْب : جَعَلُوا الْحَرْب

أرْشِيَةَ ٱلْمَوْتِ وَٱسْتَقَوْا بِهَا أرْوَاحَ ٱلْعَدُوِّ . وَقَالَ آخَرُ : فُلانٌ أمْلَسُ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وَقَالَ أحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ شَتَمَهُ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَأْمُونِ : رَأيْتُهُ يَسْتَمْلِي مَا يَلْقَانِي بِهِ مِنْ عَيْنَيْكَ. وَقِيلَ لِأعْرَابِيٍّ : أيُّ طَعَامٍ أطْيَبُ . قَالَ : ٱلْجُوعُ أبْصَرُ . وَمَدَحَ أعْرَابِيٌّ رَجُلًا قَالَ : كَانَ يَفْتَحُ مِنَ ٱلرَّأْيِ أبْوَابًا مُنْسَدَّةً وَيَغْسِلُ مِنَ ٱلْعَارِ وُجُوهًا مُسْوَدَّةً. إذَا عَرَضَتْ لَهُ زِينَةُ ٱلدُّنْيَا هَجَّنَتْهَا صُورَةُ ٱلْحَمْدِ عِنْدَهُ وَإنَّ لِلْمَصَانِعِ لَغَارَةً عَلَى أمْوَالِهِ كَغَارَةِ سُيُوفِهِ عَلَى أعْدَائِهِ . وَمَدَحَ أعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أُولَائِكَ غُرَرٌ تُضِيءُ فِي ظُلَمِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشْكِلَةِ قَدْ صَغَتْ آذَانُ ٱلْمَجْدِ إلَيْهِمْ . وَقَالَ أعْرَابِيٌّ يَمْدَحُ رَجُلًا : إنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ أنَّ ٱللّٰهَ مَادَّتُهُ . وَمَدَحَ أعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ : لِسَانُهُ أحْلَى مِنَ ٱلشَّهْدِ وَقَلْبُهُ سِجْنُ ٱلْحِقْدِ. إنْ أسَأْتَ إلَيْهِ أحْسَنَ وَكَأنَّهُ ٱلْمُسِيءُ. وَإذَا أجْرَمْتَ غَفَرَ وَكَأنَّهُ ٱلْمُجْرِمُ . اِشْتَرَى بِٱلْمَعْرُوفِ عِرْضَهُ مِنَ ٱلْأذَى فَهُوَ وَإنْ كَانَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا بِأسْرِهَا فَوَهَبَهَا رَأى بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ حُقُوقًا لَا يَسْتَعْذِبُ ٱلْخَنَى وَلَا يَسْتَحْسِنُ غَيْرَ ٱلْوَفَاءِ. وَقَالَ أعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ : لَا تُدَنِّسْ شِعْرَكَ بِعِرْضِ فُلَانٍ فَإنَّهُ سَمِينُ ٱلْمَالِ مَهْزُولُ ٱلْمَعْرُوفِ مِنَ ٱلْمَرْزُوقِينَ فَجَاءَةَ قَصِيرُ عُمْرِ ٱلْغِنَى طَوِيلُ حَيَاةِ ٱلْفَقْرِ . وَسَألَ أعْرَابِيٌّ فَقِيلَ لَهُ : عَلَيْكَ بِٱلصَّيَارِفِ . فَقَالَ : هُنَاكَ مَرَارَةُ ٱللُّؤْمِ . وَذَكَرَ أعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أُولَائِكَ قَوْمٌ قَدْ سَلَخَتْ أقْفَاءَهُمْ بِٱلْهِجَاءِ وَدَبَغَتْ جُلُودَهُمْ بِٱللَّوْمِ . فَلِبَاسُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلْمَلَامَةُ وَزَادُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ٱلنَّدَامَةُ . وَذَمَّ أعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : هُمْ أقَلُّ ذُنُوبًا إلَى أعْدَائِهِمْ

وأكثر تجرؤا على اصدقائهم . يصومون عن المعروف ويفطرون على الفحشاء . وذمّ اعرابيٌّ رجلا فقال : ذاك رجلٌ تغدو اليه مواكب الضلالة وترجع من عنده بذور الآثام معدمٌ مما يحبّ مثرٍ مما يكره . وقال آخر : ما رأيت دمعة ترقرق في عين وتجري على خد احرّ من عبرة امطرتها عيناه واعشب لها قلبي . وقال اعرابيٌّ وذكر زهّادا : فاز قومٌ ادّبتهم الحكمة واحكمتهم التجارب ولم تغرّهم السلامة المنطوية على الهلكة . ورحل عنهم التسويف الذي قطع به الناس مسافة آجالهم واحسنوا المقال وشفعوه بالفعال تركوا النعيم ليتنعّموا. لهم عبراتٌ متدافعةٌ لا يراهم الّا في وجه عند الله وجيه . ووصف اعرابيٌّ واليا فقال : كان اذا ولي لم يطابق بين جفونه وارسال العيون على عيونه. فهو شاهدٌ معهم غائبٌ عنهم فالمحسن آمنٌ والمسيء خائفٌ . وذكر اعرابيٌّ رجلا فقال : كان الفهم منه ذا اذنين والجواب منه ذا لسانين . لم ارَ احدا كان ارتق لخلل الرأي منه كان بعيد مسافة الرأي يرمي بطرفه حيث اشار الكرم . وما زال يتحسّى مرارة الاخوان ويسيغهم العذب . ووصف اعرابيٌّ قومه فقال : اذا اصطفّوا تحت القتام سفرت بينهم السهام بوفود الحمام . واذا تصافحوا بالسيوف فغرت المنايا بافواهها . فكم من يوم عارم قد احسنوا ادبه وحرب عبوس قد ضاحكتها اسنّتهم وخطب قد ذلّلوا مناكبه. انما كانوا كالبحر الذي لا ينكش غماره ولا ينهنه تياره . وقيل لاعرابيٍّ : لم لا تشرب النبيذ . فقال : لا اشرب ما يشرب عقلي .

وَقَالَ آخَرُ : ٱلْخطُّ مَرْكَبُ ٱلْبَيَانِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : ٱلْقَلَمُ لِسَانُ ٱلْبَيَانِ . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأَطِبَّاءِ يَقُولُ : ٱلْمَاءُ مَطِيَّةُ ٱلطَّعَامِ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِكَاتِبِهِ : لَا تُكَدِّرْ مَاءَ مَعْرُوفِي بِٱلْمَنِّ فَإِنَّ ٱعْتِدَادَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ يَغْلُّ لِسَانَ ٱلشُّكْرِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي مَنْثُورِ ٱلْكَلَامِ وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ . وَأَمَّا ٱلْاِسْتِعَارَةُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى

البحث التاسع

في مراعاة النظير

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٣١ من علم الادب)

يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّنَاسُبَ وَٱلْاِئْتِلَافَ وَٱلتَّوْفِيقَ وَٱلْمُؤَاخَاةَ . وَهُوَ فِي ٱصْطِلَاحِ ٱلْبَدِيعِيِّينَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا عَلَى جِهَةِ ٱلتَّضَادِّ . وَهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . (ٱلْأَوَّلُ) يُذْكَرُ فِيهِ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فَقَطْ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْمُسْتَضِيءِ :

وَرَدَ ٱلْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَٱرْتَوَوْا ... وَوَقَفْتُ دُونَ ٱلْوِرْدِ وَقْفَةَ حَائِمِ
ظَمْآنَ أَطْلُبُ خِفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ ... وَٱلْوِرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

فَٱنْظُرْ حُسْنَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرَيَا كَٱلْمَاءِ فِي طَلَاوَتِهِ . وَوَقَعَا مِنَ ٱلْقُلُوبِ كَٱلشَّهْدِ فِي حَلَاوَتِهِ . مَعَ أَنَّ نَاظِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ ٱلْمَاءِ كَلَامُهُ . وَلَا تَعَدَّى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى نِظَامُهُ . فَأَوْدَعَهُمَا فِي عَشْرِ مَوَاضِعَ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ . فِيهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَظِيرٍ . لٰكِنَّهُ مَا سَلِمَ

مَليحٌ مِنْ عَيبٍ. وَلَاخَلَا مِنْ مَرفُوعِ رَيبٌ. فَمَعَ هٰذِهِ ٱلمَحَاسِنِ ٱلطَّرِيفَةِ مَا سَلِمَ ٱلبَيْتَانِ مِنْ عَيبِ ٱلقَافِيَةِ. فَقَدْ غَيَّرَ ٱلنَّاظِمُ كَسْرَةَ ٱلدَّخِيلِ عَلَى ٱلضَّمَّةِ. وَجَاءَ فِي ذٰلِكَ بِمَا عَابَهُ كُلُّ اَدِيبٍ وَذَمَّهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلسَّلَامِيِّ:

وَٱلنَّقعُ ثَوبٌ بِٱلنُّسُورِ مُطَرَّزٌ وَٱلأَرضُ فَرشٌ بِٱلجِيَادِ مُخَمَّلُ
وَسُطُورُ خَيْلِكَ اِنَّمَا اَلِفَاتُهَا سُمْرٌ تُنَقِّطُ بِٱلدِّمَاءِ وَتُشْكِلُ

نَاسَبَ بَيْنَ ٱلثَّوبِ وَٱلتَّطْرِيزِ وَٱلْخَمْلِ وَبَيْنَ ٱلسُّطُورِ وَٱلاَلِفَاتِ وَٱلنَّقطِ وَٱلشَّكْلِ

(تَنبِيهٌ) وَلَوْ ذُكِرَ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا لَا يُنَاسِبُهُ كَانَ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ عَيبًا. كَقَوْلِ اَبِي نُوَّاس:

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا مَبْرُورَةً لَا تُكَذَّبْ
بِرَبِّ زَمْزَمَ وَٱلْحَوْ ضِ وَٱلصَّفَا وَٱلمُحَصَّبْ

عَابُوا عَلَيهِ ذِكْرَ ٱلْحَوضِ مَعَ زَمْزَمَ وَٱلصَّفَا وَٱلمُحَصَّبِ. وَاَنَّهُ غَيرُ مُنَاسِبٍ ذِكْرُهُ مَعَهَا. وَاِنَّمَا يُنَاسِبُ ذِكْرُ ٱلْحَوضِ مَعَ ٱلمِيزَانِ وَٱلصِّرَاطِ وَشِبْهِهِمَا مِمَّا هُوَ مَنُوطٌ بِيَوْمِ ٱلقِيَامَةِ

(تَنْبِيهٌ ثَانٍ) لَوْ جَاءَ ٱلكَاتِبُ بِمُتَنَاسِبَيْنِ فَاَفْرَدَ اَحَدَهُمَا وَثَنَّى ٱلآخَرَ اَوْ جَمَعَهُ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ كَانَ عَيبًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اَلَا يَاٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَمَاتُوا اَمَا وَٱللّٰهِ مَا مَاتُوا لِتَبْقَى
وَمَا لَكَ فَٱعْلَمَنْ فِيهَا بَقَاءٌ اِذَا ٱسْتَكْمَلْتَ آجَالًا وَرِزْقَا

فَجَمَعَ (ٱلآجَلَ) وَاَفْرَدَ (ٱلرِّزْقَ) مَعَ اَنَّهُمَا مُتَنَاسِبَانِ. (اَلثَّانِي) اَنْ يُذْكَرَ شَيْءٌ اَوْ اَشْيَاءُ كُلٌّ وَاحِدٍ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فِي جُمَلٍ مُسْتَوِيَةٍ

ٱلْمِقْدَارِ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّفْوِيفَ لِشَبَهِهِ بِٱلثَّوْبِ ٱلْمُفَوَّفِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ مُسْتَوِيَةٌ وَتَشْبِيهُ ٱلْجُمَلِ بِٱسْتِوَاءِ تِلْكَ ٱلْخُطُوطِ . وَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْجُمَلُ طِوَالًا كُلُّهَا اَوْ مُتَوَسِّطَةً . وَكُلُّهَا اِمَّا اَنْ يَكُونَ آخِرُهَا فِي بَعْضِ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْمُدْمَجَةُ . وَاِمَّا اَنْ يُوَافِقَ آخِرُهَا آخِرَ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْغَيْرُ ٱلْمُدْمَجَةِ وَهُوَ ٱلْاَحْسَنُ . فَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ :

دَعَتْ فِي اَعَالِي ٱلسُّغْدِ يَوْمًا حَمَامَةٌ ... عَلَى فَنَنٍ مِنْ كُلِّ رَيَّانَ كَٱلْيَمِّ
فَهَاجَتْ مَشُوقًا وَٱسْتَفَزَّتْ مُتَيَّمًا ... وَاَبْكَتْ غَرِيبًا وَٱسْتَخَفَّتْ اَخَا عِلْمِ

(ٱلسُّغْدُ مَوْضِعٌ بِسَمَرْقَنْدَ قَدِ ٱتُّخِذَ لِلنَّزَاهَةِ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحُسْنِ) . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي مَدْحٍ :

وَٱلدَّهْرُ يُقْبِلُ اَنْ تُقْبِلْ وَيُعْرِضُ اَنْ ... تُعْرِضْ وَغَيْرُ ٱلَّذِي قَدَّمْتَ لَمْ يَرُمِ
اِنْ قُلْتَ يَسْمَعْ وَاِنْ تَأْمُرْ يُطِعْ وَمَتَى ... فَعَلْتَ تُسْعَدْ وَاِنْ لَاحَظْتَ تُحْتَرَمِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا ٱلْمُتَنَبِّي اِلَى اَرْبَعَ عَشْرَةَ جُمْلَةً لٰكِنْ بِغَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ فَثَقُلَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ سِلْكِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهِيَ قَوْلُهُ :

اَقِلْ اَنِلْ اَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ اَعِدْ ... زِدْ هَشِّ بَشِّ تَفَضَّلْ اَدْنِ سُرَّ صِلِ

(اَلثَّالِثُ) مِنْ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ اَنْ تَذْكُرَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ وَتُخْتَمَ ٱلْكَلَامُ بِشَيْئَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُلَائِمُ وَاحِدًا مِمَّا تَقَدَّمَ . وَٱلْآخَرُ يُلَائِمُ ٱلْآخَرَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ تَنَاسُبَ ٱلْاَطْرَافِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ ٱلْاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْاَبْصَارَ . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . فَٱللَّطِيفُ يُنَاسِبُ مَا لَا يُدْرَكُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَفَاءِ . وَٱلْخَبِيرُ يُنَاسِبُ مَنْ هُوَ مُدْرِكٌ لِلطَّائِفِ

اَلاَشياء . (اَلرَّابعُ) اَنْ تذكُرَ اَلشَّيْءَ ثُمَّ تذكُرَ معهُ لَفظًا مُشتَرَكاً بَيْنَ اَمرَيْنِ: اَحدُهما يُلائِمُ اَلاَوَّلَ وَاَلآخَرُ لا يُلائِمُهُ فيَتوهَّمُ اَلسامِعُ اَنَّهُ مُرادِفُ اَلمُلائِمِ وليسَ كَذٰلِكَ . وَيُسمَّى هٰذا اَلنَّوعُ اِيهامَ اَلنَّظيرِ. كَقَوْلِ اَلقائِلِ :اَلشَّمسُ وَاَلقمَرُ بِحُسْبانٍ وَاَلنَّجمُ وَاَلشَّجرُ يَسجُدانِ . فَيُتَوَهَّمُ مُراعَاةُ اَلنَّظِيرِ وَلَيسَ كذٰلِكَ لِانَّ اَلمُرادَ بِاَلنَّجمِ اَلنَّباتُ لا اَلكَوْكَبُ لِعَطفِ اَلشَّجرِ عَلَيْهِ

البحث العاشر

في المجاز المرسل

(من السكاكي والدسوقي والتعالي باختصار)

(راجع صفحة ٣٣ من علم الادب)

اِنَّ عَلاقَةَ اَلمَجازِ اَلمُصَحِّحَةَ لَهُ اِمَّا اَنْ تَكُونَ مُشابَهَةَ اَلمَنقُولِ اِلَيهِ بِاَلمَنقُولِ عَنهُ فِي شَيْءٍ فَيُسمَّى اَلمَجازُ اَستِعارةً كَمَا مَرَّ . وَاِمَّا اَنْ تَكُونَ عَلاقَةُ اَلمَجازِ غَيْرَ اَلمُشابَهَةِ فَيُسمَّى مُرْسَلا كَلَفظِ اَليَدِ اِذَا اَستُعمِلَ فِي اَلنِّعمَةِ وَاَلقُدرَةِ كَمَا يُقَالُ : جَلَّتْ اَيادِيه عِندِي . اَيْ كَثُرَتْ نِعمَتُهُ لَدَيَّ.وَاَتَّسعَتِ اَليَدُ فِي اَلبَلَدِ. وَاَليَدُ فِي اَللُّغَةِ اَلعُضوُ اَلمَخصُوصُ وَاَلعَلاقَةُ كَونُ ذٰلِكَ اَلعُضوِ مَصدَرًا لِلنِّعمَةِ فَاِنَّهَا تَصِلُ اِلَى اَلمُنعَمِ عَلَيهِ مِنَ اَليَدِ فَتَكُونُ اَلجَارِحَةُ اَلمَخصُوصَةُ بِمَنزِلَةِ اَلعِلَّةِ اَلفَاعِلِيَّةِ لَهَا. وَاَيضًا بِاَليَدِ تَظهَرُ اَلنِّعمَةُ فَتَكُونُ بِمَنزِلَةِ اَلعِلَّةِ اَلصُّورِيَّةِ لَهَا . وَاِذَا اَستُعمِلَتْ لِلقُدرَةِ فَلِاَنَّ اَكثَرَ مَا يَظهَرُ سُلطَانُ اَلقُدرَةِ فِي اَليَدِ وَبِهَا تَكُونُ اَلاَفعَالُ اَلدَّالَّةُ عَلَى اَلقُدرَةِ مِنَ اَلبَطشِ وَاَلضَّربِ

وَٱلْقطع وَٱلْأَخذِ وَغَيرِ ذٰلِكَ . وَأَنواعُ ٱلعَلَاقَةِ ٱلْمُعتَبَرَة كَثِيرَةٌ مِنهَا عَائدَةٌ إِلَى (ٱلتَّضَمُّنِ) وَهِيَ ٱلَّتِي تدُلُّ عَلَى زِيَادَةٍ أَوْ نُقصانٍ . (فَمِنَ ٱلنُّقصَانِ) تَسمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ جُزئِهِ وَإِطلَاقُ ٱلخَاصِّ لِلعَامِّ . وَهٰذَا مِنْ سُنَنِ ٱلعَرَبِ فَإِنَّهُمْ يَقتَصِرُونَ عَلَى بَعضِ ٱلشَّيْءِ وَهُمْ يُرِيدُون كُلَّهُ فَيقُولُونَ : قَعَدَ عَلَى ظَهرِ رَاحِلَتِهِ . وَكَقَولِ ٱلشَّاعِرِ :

ٱلوَاطِئِينَ عَلَى صُدُورِ نِعَالِهِمْ

وَكقَولِ لَبِيدٍ :

أَوْ يَرتَبِطْ بَعضَ ٱلنُّفُوسِ حِمَامُهَا

وَفِي ٱلقُرآنِ : قُلْ لِلمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبصَارِهِمْ . وَٱلمُرَادُ يَغُضُّوا أَبصَارَهُمْ كُلَّهَا . (وَكَذٰلِكَ) يَصِفُونَ ٱلبَعضَ بِصِفَةِ ٱلكُلِّ كَقَولِهِ : نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ . فَٱلخَطَأُ صِفَةُ ٱلكُلِّ وَصَفَ بِهِ ٱلنَّاصِيَةَ . وَمِثلُ ذٰلِكَ إِطلَاقُهُمْ لَفظَ (بَعضٍ) مُرَادًا بِهِ ٱلكُلُّ كَقَولِهِ : لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعضَ ٱلَّذِي تَختَلِفُونَ فِيهِ أَيْ كُلَّهُ . وَمِنْ سُنَنِ ٱلعَرَبِ أَنْ تُقِيمَ ٱلوَاحِدَ مَقَامَ ٱلجَمعِ فَيقُولُونَ : قَرَرْنَا بِهِ عَينًا . أَيْ أَعيُنًا . وَكقَولِهِ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنهُمْ . وَٱلتَّفرِيقُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَينَ ٱثنَينِ . وَٱلتَّقدِيرُ : لَا نُفَرِّقُ بَينَهُمْ . وَمِنْ هٰذَا ٱلبَابِ سُنَّةُ ٱلعَرَبِ أَنْ يَقُولُوا لِلرَّجُلِ ٱلعَظِيمِ وَٱلمَلِكِ ٱلكَبِيرِ : ٱنظُرُوا فِي أَمرِي . وَلِأَنَّ ٱلسَّادَةَ وَٱلمُلُوكَ يَقُولُونَ : نَحْنُ فَعَلنَا وَإِنَّا أَمَرنَا . فَعَلَى قَضِيَّةِ هٰذَا ٱلِابتِدَاءِ يُخَاطَبُونَ فِي ٱلجَوَابِ .

(وَمِنَ ٱلزِّيَادَةِ) وَهُوَ عَكسُ مَا قَبلَهُ إِطلَاقُ ٱسمِ ٱلعَامِّ لِلخَاصِّ وَمِنهُ بَابُ ٱلتَّخصِيصِ بِأَسرِهِ وَإِطلَاقُ ٱسمِ ٱلكُلِّ عَلَى ٱلجُزءِ نَحوُ : يَجعَلُونَ

اَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ . يُرِيدُ ٱلْأَنْمُلَةَ وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْأَصَابِعِ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْمُبَالَغَةُ كَأَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ ٱلْأَصَابِعِ فِي ٱلْأُذُنِ لِئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنَ ٱلصَّاعِقَةِ . (وَمِنْ سُنَنِهِمْ) اَيْضًا ٱلْإِتْيَانُ بِٱلْجَمْعِ وَيُرِيدُونَ بِهِ ٱلْوَاحِدَ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَهُمْ اَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللّٰهِ . وَإِنَّمَا اَرَادَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ . وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : اَفْعَلَا ذٰلِكَ . وَٱلْمُخَاطَبُ وَاحِدٌ . وَكَقَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . وَهُوَ خِطَابٌ لِخَازِنِ ٱلنَّارِ وَحْدَهُ . وَكَمَا قَالَ ٱلْأَعْشَى :

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ ٱلْعَشِيَّاتِ وَٱلضُّحَى ... وَلَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللّٰهَ فَٱعْبُدَا

وَيُقَالُ إِنَّهُ اَرَادَ : وَٱللّٰهَ فَٱعْبُدَنْ . فَقَلَبَ ٱلنُّونَ ٱلْخَفِيفَةَ اَلِفًا . وَكَذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ . (وَمِنْ انْوَاعِ) ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِي ٱلْمَجَازِ ٱلْمُرْسَلِ مَا يَقُودُ إِلَى (ٱلِاسْتِلْزَامِ) وَهُوَ مَا ٱقْتَضَى مَعْنَاهُ مَعْنًى آخَرَ لِأَجْلِ عَلَاقَتِهِ . (فَمِنْ ذٰلِكَ) إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْمَلْزُومِ عَلَى ٱللَّازِمِ وَٱللَّازِمِ عَلَى ٱلْمَلْزُومِ نَحْوُ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ . اَيْ هَلْ يَفْعَلُ . اَطْلَقَ ٱلِاسْتِطَاعَةَ عَلَى ٱلْفِعْلِ لِأَنَّهَا لَازِمَةٌ لَهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُرْسِلُ ٱلسَّمَاءَ مِدْرَارًا . اَيِ ٱلْمَطَرَ . لِأَنَّهُ مِنْهَا يَنْزِلُ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ سَبَبِهِ . كَقَوْلِهِ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ . اَيِ ٱلْقَبُولَ وَٱلْعَمَلَ بِهِ لِأَنَّهُ يَتَسَبَّبُ عَنِ ٱلسَّمْعِ . وَكَقَوْلِهِ : رَعَيْنَا ٱلْغَيْثَ . اَيِ ٱلنَّبَاتَ ٱلَّذِي سَبَبُهُ ٱلْغَيْثُ . (وَعَكْسُهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مُسَبَّبِهِ نَحْوُ : اَمْطَرَتِ ٱلسَّمَاءُ نَبَاتًا . اَيْ غَيْثًا يَكُونُ ٱلنَّبَاتُ مُسَبَّبًا عَنْهُ . وَكَقَوْلِهِ : يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا . اَيْ مَطَرًا وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا كَانَ

عَلَيهِ نَحْوُ : آتُوا ٱلْيَتَامَى اَمْوَالَهُمْ . اَيِ ٱلَّـذِينَ كَانُوا يَتَامَى لِاَنَّهُمْ لَا يُؤْتَوْنَ اَمْوَالَهُمْ حَتَّى يَبْلُغُوا وَلَا يُتْمَ بَعْدَ ٱلْبُلُوغِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا يَؤُولُ اِلَيهِ نَحْوُ : اِنِّي اَرَانِي اَعْصِرُ خَمْرًا اَيْ عِنَبًا . يُعْصَرُ فَيَؤُولُ اِلَى ٱلْخَمْرِ . وَكَقَوْلِهِ : وَلَا يَلِدُوا اِلَّا كُفَّارًا . اَيْ صَائِرًا اِلَى ٱلْـكُفْرِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَحَلِّهِ نَحْوُ : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ اَيْ اَهْلَ نَادِيهِ . اَيْ مَجْلِسِهِ . وَكَقَوْلِهِ : اَسْاَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا . اَيْ اَهْلَهَا . (وَمِنْهُ عَكْسُهُ) اَيْ اِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْحَالِّ عَلَى ٱلْمَحَلِّ . نَحْوُ : حَلُّوا فِي رَحْمَةِ ٱللهِ اَيْ فِي ٱلْجَنَّةِ لِاَنَّهَا مَحَـلُّ ٱلرَّحْمَةِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ آلَتِهِ نَحْوُ : وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ . اَيِ ٱجْعَلْ لِي ثَنَاءً حَسَنًا وَٱللِّسَانُ آلَةُ ٱلصِّدْقِ وَٱلثَّنَاءِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ ضِدِّهِ نَحْوُ : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ . اَيْ اَنْذِرْهُمْ وَهَدِّدْهُمْ . وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ لِلرَّجُلِ تَسْتَجْهِلُهُ : يَا عَاقِلُ . وَٱلْمَرْاَةِ تَسْتَقْبِحُهَا : يَا قَمَرُ . (وَكَذٰلِكَ) يَقْلِبُونَ ٱلْمَعْنَى نَحْوُ : عَرَضْتُ ٱلنَّاقَةَ عَلَى ٱلْحَوْضِ . يُرِيدُونَ ٱلْحَوْضَ عَلَى ٱلنَّاقَةِ . (وَمِنْهُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ اَوْ يَكُونُ مِنْهُ نَحْوُ : يَوْمٌ عَاصِفٌ . اَيْ عَاصِفُ ٱلرِّيحِ . وَلَيْلٌ نَائِمٌ وَسَاهِرٌ وَصَائِمٌ اَيْ يُنَامُ فِيهِ وَيُسْهَرُ وَيُصَامُ . (وَمِنْهُ) اِضَافَةُ ٱلْفِعْلِ اِلَى مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ تَشْبِيهًا . كَقَوْلِهِ : جِدَارًا يُرِيدُ اَنْ يَنْقَضَّ . وَلَا اِرَادَةَ لِلْجِدَارِ . وَلٰكِنَّهُ تَوَسُّعُ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْمَجَازِ فَعَبَّرُوا عَنِ ٱلْجَمَادِ بِفِعْلِ ٱلْاِنْسَانِ كَمَا قَالَ ٱلرَّاجِزُ :

اِمْتَلَاَ ٱلْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي

اي كَفَانِي وَلَيس لِلحَوض قَولٌ. وَمِثلُهُ قَولُ ٱلرَّاعِي ٱلشَّاعِرِ ٱلنَّصرَانِيّ :

فِي مَهمَهٍ قُلِقَت بِهِ هَامَاتُها   قَلَقَ ٱلفُؤُوسِ إِذَا أَرَدنَ نُصُولَا

وَٱلعربُ تُسمِّي ٱلتهيُّوءَ لِلفِعلِ وَٱلاحتِيَاجَ إِلَيهِ إِرَادَة. وَكَذٰلِكَ يَأتُونَ بِلَفظِ ٱلمَاضِي وَهُوَ مُستَقبَلٌ وَبِلَفظِ ٱلمُستَقبَلِ وَهُوَ مَاضٍ كَقَولِهِ : لِمَ تَقتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّٰهِ اي لِمَ قَتَلتُم . وَكَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

فَأَدرَكتُ مَن قَد كَانَ قَبلِي وَلَم أَدَع   لِمَن كَانَ بَعدِي فِي ٱلقَصَائِدِ مَصنَفَا

اي لِمَن يَكُونُ بَعدِي . وَمِثلُهُ قَولُهُ : وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا . اي كَانَ وَيَكُونُ وَهُوَ كَائِنٌ ٱلآنَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ . وَكَذٰلِكَ يَأتُونَ بِٱلمَفعُولِ بِلَفظِ ٱلفَاعِلِ فَيَقُولُون : سِرٌّ كَاتِمٌ اي مَكتُومٌ . وَمَكَانٌ عَامِرٌ اي مَعمُورٌ. وَمَاءٌ دَافِقٌ اي مَدفُوقٌ . وَعِيشَةٌ رَاضِيَةٌ اي مَرضِيَّةٌ . وَحَرَمٌ آمِنٌ اي مَأمُونٌ . وَقَال جَرِيرٌ :

إِنَّ ٱلبَلِيَّةَ مَن تَمَلُّ كَلَامَهُ   فَأَنقَع فُؤَادَكَ مِن حَدِيثِ ٱلوَامِقِ

اي مِن حَدِيثِ ٱلمَومُوقِ . وَيَعكِسُونَ هٰذَا ٱلعَمَلَ وَيَستَعمِلُونَ ٱلفَاعِلَ بِلَفظِ ٱلمَفعُولِ كَقَولِهِ : كَانَ وَعدُهُ مَأتِيًّا اي آتِيًا . وَكَقَولِهِ : حِجَابٌ مَستُورٌ اي سَاتِرٌ . وَيُقِيمُونَ ٱلإِسمَ وَٱلمَصدَرَ مَقَامَ ٱلفَاعِلِ وَٱلمَفعُولِ . فَتَقُولُ ٱلعَرَبُ : رَجلٌ عَدلٌ اي عَادِلٌ . وَرِضًى اي مَرضِيٌّ . وَبَنُو فُلَانٍ لَنَا سِلمٌ اي مُسَالِمُون . وَحَربٌ اي مُحَارِبُونَ . (وَكَذٰلِكَ) يَحمِلُونَ ٱللَّفظَ عَلَى ٱلمَعنَى فِي تَذكِيرِ ٱلمُؤَنَّثِ وَتَأنِيثِ ٱلمُذَكَّرِ فَيَترُكُونَ حُكمَ ظَاهِرِ ٱللفظِ وَيَحمِلُونَهُ عَلَى مَعنَاهُ كَمَا يَقُولُونَ : ثَلَاثَةُ أَنفُسٍ . وَٱلنَّفسُ مُؤَنَّثَةٌ وَإِنَّمَا حَمَلُوهُ عَلَى مَعنَى ٱلإِنسانِ أَو مَعنَى ٱلشَّخصِ

قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا عِنْـدَنَا اِلَّا ثَلاثَةُ اَنْفُسٍ   بِمِثْلِ ٱلنُّجُومِ تَلأْلَأَتْ فِي ٱلْحِنْدِسِ

وَكَمَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَفَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي قَوْلِهِ :

اَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ اَسِيفًا كَاَنَّمَا   يَضُمُّ اِلَى كَشْحَيْهِ كَفًّا مُخَضَّبَا

فَحَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْعُضْوِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ . وَكَمَا قَالَ ٱلْآخَرُ :

يَا اَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ   سَائِلْ بَنِي اَسَدٍ مَا هٰذِهِ ٱلصَّوْتُ

اَيْ مَا هٰذِهِ ٱلْجَلَبَةُ . وَفِي ٱلْقُرْآنِ : وَاَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا . وَلَمْ يَقُلْ : مَيْتَةً لِاَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ٱلْمَكَانِ . وَقَالَ : ٱلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ . فَذَكَّرَ ٱلسَّمَاءَ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِاَنَّهُ حَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلسَّقْفِ . وَكُلُّ مَا عَلَاكَ وَاَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ

البحث الحادي عشر

في القول عن الكناية

(عن كتاب صناعة الترسل والمثل السائر)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَللَّفْظَةُ اِذَا اُطْلِقَتْ وَكَانَ ٱلْغَرَضُ ٱلْاَصْلِيُّ غَيْرَ مَعْنَاهَا فَلَا يَخْلُو اِمَّا اَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُودًا اَيْضًا لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْغَرَضِ ٱلْاَصْلِيِّ . وَاِمَّا اَنْ لَا يَكُونَ كَذٰلِكَ . فَٱلْاَوَّلُ هُوَ ٱلْكِنَايَةُ وَيُقَالُ لَهُ : ٱلْاِرْدَافُ . وَٱلثَّانِي ٱلْمَجَازُ . فَٱلْكِنَايَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ اَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي ٱللُّغَةِ وَلٰكِنْ يَجِيءُ اِلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ

فَيُومِئُ بِهِ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ ٱلسِّتْرِ . يُقَالُ : كَنَيْتُ ٱلشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتَهُ . وَأُجْرِيَ هٰذَا ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي يُسْتَرُ فِيهَا ٱلْمَجَازُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَتَكُونُ دَالَّةً عَلَى ٱلسَّاتِرِ وَعَلَى ٱلْمَسْتُورِ مَعًا . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَسْتُورَ فِيهَا هُوَ ٱلْمَجَازُ لِأَنَّ ٱلْحَقِيقَةَ تُفْهَمُ أَوَّلًا وَيَتَسَارَعُ ٱلْفَهْمُ إِلَيْهَا قَبْلَ ٱلْمَجَازِ . لِأَنَّ دَلَالَةَ ٱللَّفْظِ عَلَيْهَا دَلَالَةٌ وَضْعِيَّةٌ . وَأَمَّا ٱلْمَجَازُ فَإِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا يُفْهَمُ بِٱلنَّظَرِ وَٱلْفِكْرَةِ وَبِهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفْظِ . فَٱلْحَقِيقَةُ أَظْهَرُ وَٱلْمَجَازُ أَخْفَى وَهُوَ مَسْتُورٌ بِٱلْحَقِيقَةِ . وَقَدْ تَأَوَّلْتُ ٱلْكِنَايَةَ بِغَيْرِ هٰذَا وَهِيَ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ ٱلْكُنْيَةِ ٱلَّتِي يُقَالُ فِيهَا : أَبُو فُلَانٍ . فَإِنَّا إِذَا نَادَيْنَا رَجُلًا ٱسْمُهُ عَبْدُ ٱللّٰهِ وَلَهُ وَلَدٌ ٱسْمُهُ مُحَمَّدٌ فَقُلْنَا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ . كَانَ ذٰلِكَ مِثْلَ قَوْلِنَا : يَا عَبْدَ ٱللّٰهِ . فَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَكِلَاهُمَا وَاقِعٌ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْكِنَايَةِ فَإِنَّا إِذَا شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى جَانِبِ ٱلْمَجَازِ . وَإِنْ شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ . إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ ٱلْوَصْفِ ٱلْجَامِعِ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَلْحَقَ بِٱلْكِنَايَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا وَمِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : هُوَ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ وَكَثِيرُ رَمَادِ ٱلْقِدْرِ . يَعْنُونَ بِهِ أَنَّهُ طَوِيلُ ٱلْقَامَةِ كَثِيرُ ٱلْقِرَى فَلَمْ يَذْكُرِ ٱلْمُرَادَ بِلَفْظِهِ ٱلْخَاصِّ بِهِ وَلٰكِنْ تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ بِذِكْرِ مَعْنًى آخَرَ هُوَ رِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْقَامَةَ إِذَا طَالَتْ طَالَ ٱلنِّجَادُ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْقِرَى كَثُرَ رَمَادُ ٱلْقِدْرِ . وَكَقَوْلِ ٱلْحَضْرَمِيِّ :

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَرَاعَتِي ... حَتَّى رَأَيْنَ تَنَحْنُحِي وَسُعَالِي

كَنَى عَنْ كِبَرِ ٱلسِّنِّ بِتَوَابِعِهِ وَهِيَ ٱلتَّنَحْنُحُ وَٱلسُّعَالُ. وَٱلْكِنَايَةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُثْبَتِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ تَكُونُ فِي ٱلْاِثْبَاتِ. وَهِيَ مَا إِذَا حَاوَلُوا إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي لِشَيْءٍ فَيَتْرُكُونَ ٱلتَّصْرِيحَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُ وَيُثْبِتُونَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ كَقَوْلِهِمْ: ٱلْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَٱلْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ. وَقَوْلِهِ:

إِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ وَٱلسَّمَاحَةَ وَٱلنَّدَى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ٱبْنِ ٱلْحَشْرَجِ

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ ٱلْحَكَمِ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ وَهُوَ فِي حَبْسِ ٱلْحَجَّاجِ:

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ ٱلسَّمَاحَةُ م وَٱلْمَجْدُ وَفَضْلُ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْحَسَبُ

وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ: مَكَانُ ٱلْقَيْدِ هٰهُنَا هُوَ مَكَانُ ٱلْقُبَّةِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْمُتَقَدِّمِ. وَقَدْ يَجْتَمِعُ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ كِنَايَاتَانِ: ٱلْغَرَضُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ بِنَفْسِهَا كَقَوْلِهِ:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي ... جَبَانُ ٱلْكَلْبِ مَهْزُولُ ٱلْفَصِيلِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْاِسْتِعَارَةِ وَلَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى حُكْمِ ٱلْاِسْتِعَارَةِ خَاصَّةً لِأَنَّ ٱلْاِسْتِعَارَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمُسْتَعَارِ لَهُ. وَكَذٰلِكَ ٱلْكِنَايَةُ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمَكْنِيِّ عَنْهُ وَنِسْبَتُهَا إِلَى ٱلْاِسْتِعَارَةِ نِسْبَةُ خَاصٍّ إِلَى عَامٍّ. فَيُقَالُ: كُلُّ كِنَايَةٍ ٱسْتِعَارَةٌ. وَلَيْسَ كُلُّ ٱسْتِعَارَةٍ كِنَايَةً. وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ: أَنَّ ٱلْاِسْتِعَارَةَ لَفْظُهَا صَرِيحٌ. وَٱلصَّرِيحُ

هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفظِهِ وَالْكِنَايَةُ ضِدُّ ٱلصَّرِيحِ لِأَنَّهَا عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفظِ . وَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوق احدُهَا : ٱلْخُصُوصُ وَٱلْعُمُومُ . وَٱلآخَرَ ٱلصَّرِيحُ . وَٱلآخَرُ ٱلْحَمْلُ عَلَى جانِبِ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ فِي بَابِ ٱلِاسْتِعَارَةِ انَّهَا جُزْءٌ مِنَ ٱلْمَجَازِ . وَعَلَى ذٰلِكَ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْكِنَايَةِ إِلَى ٱلْمَجَازِ نِسْبَةَ جُزْءِ ٱلْجُزْءِ وَخَاصَّ ٱلْخَاصِّ وَقَدْ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَجُوزُ انْ يَكُونَ كِنَايَةً وَيَجُوزُ انْ يَكُونَ ٱسْتِعَارَةً . وَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي مُفرَدِهِ وَٱلنَّظَرِ إِلَى مَا بَعْدَهُ كَقَوْلِ نَصرِ بْنِ سَيَّار فِي ابْيَاتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلَّتِي يُحَرِّضُ بِهَا بَنِي أُمَيَّةَ عِنْدَ خُرُوجِ ابِي مُسْلِم :

ارَى خَلَلَ ٱلرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ انْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

البحث الثاني عشر

في التعريض

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٣٧ من علم الادب)

قَدْ تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ فِي ٱلتَّعْرِيضِ فَوَجَدتُّهُمْ قَدْ خَلَطُوا ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْكِنَايَةِ وَلَمْ يُفرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَلَا حَدُّوا كُلًّا مِنْهُمَا بِحَدٍّ يَفصِلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ . بَلْ اوْرَدُوا لَهُمَا امْثِلَةً مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَادْخَلُوا احَدَهُمَا فِي ٱلآخَرِ . فَذَكَرُوا لِلْكِنَايَةِ امْثِلَةً مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ وَلِلتَّعْرِيضِ امْثِلَةً مِنَ ٱلْكِنَايَةِ . فَمِمَّنْ فَعَلَ ذٰلِكَ ٱلغَانِمِيُّ وَٱبْنُ سِنَانٍ وَٱلْخَفَاجِيُّ وَٱلْعَسْكَرِيُّ . وَسَاذْكُرُ مَا عِنْدِي فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَامَيِّزُ احَدَهُمَا

عَنِ ٱلآخَرِ لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى ٱنْفِرَادِهِ . وَذٰلِكَ انَّ ٱلْكِنَايَةَ اذَا وَرَدَتْ تَجَاذَبَهَا جَانِبَا حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ . وَجازَ حَمْلُهَا عَلَى ٱلْجَانِبَيْنِ مَعًا فَيَصِحُّ بِكُلٍّ مِنْهُمَا ٱلْمَعْنَى وَلَا يَخْتَلُّ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ انَّ ٱلْكِنَايَةَ فِي اصْلِ ٱلْوَضْعِ انْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ . يُقَالُ : كَنَيْتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا . فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ وَعَلَى مَا ارَدْتَهُ مِنْ غَيْرِهِ . وَامَّا ٱلتَّعْرِيضُ فَهُوَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ لَا بِٱلْوَضْعِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَلَا ٱلْمَجَازِيِّ . فَإِنَّكَ اِذَا قُلْتَ لِمَنْ تَتَوَقَّعُ صِلَتَهُ وَمَعْرُوفَهُ بِغَيْرِ طَلَبٍ : اِنِّي مُحْتَاجٌ وَلَيْسَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَانَا عُرْيَانٌ وَٱلْبَرْدُ قَدْ آذَانِي . فَاِنَّ هٰذَا وَاشْبَاهَهُ تَعْرِيضٌ بِٱلطَّلَبِ وَلَيْسَ هٰذَا ٱللَّفْظُ مَوْضُوعًا فِي مُقَابَلَةِ ٱلطَّلَبِ لَا حَقِيقَةً بَلْ مَجَازًا . اِنَّمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ بِخِلَافِ دَلَالَةِ ٱلْكِنَايَةِ فَاِنَّهَا لَفْظِيَّةٌ وَضْعِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَجَازِ . وَاِنَّمَا سُمِّيَ ٱلتَّعْرِيضُ تَعْرِيضًا لِاَنَّ ٱلْمَعْنَى فِيهِ يُفْهَمُ مِنْ عُرْضِهِ اَيْ مِنْ جَانِبِهِ . وَمِنْ لَطِيفِ ٱلتَّعْرِيضَاتِ ٱلْادَبِيَّةِ مَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ : انَّهُ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَدَخَلَ عُثْمَانُ ٱبْنُ عَفَّانَ . فَقَالَ عُمَرُ : اَيَّةُ سَاعَةٍ هٰذِهِ . يُرِيدُ ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْاِنْكَارِ عَلَيْهِ لِتَاَخُّرِهِ عَنِ ٱلْمَجِيءِ اِلَى ٱلصَّلَاةِ . وَهُوَ مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ ٱلْمُعْرِبِ عَنِ ٱلْادَبِ . وَمِنْ امْثِلَتِهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ قَوْلُ ٱلْحَجَّاجِ يُعَرِّضُ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْاُمَرَاءِ :

لَسْتُ بِرَاعِي اِبِلٍ وَلَا غَنَمْ ‌ ‌ ‌ وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

البحث الثالث عشر

في ما ورد من الكنايات عن العرب

(عن كتاب الكناية للثعالبي وكتاب الصناعتين للعسكري)

اِعلَمْ اَنَّ ٱلعربَ يَلتَجئونَ اِلَى ٱلكِنايَةِ اِذَا مَا ارادوا ٱلتَّعرِيض عَمّا يُستقبَحُ ذِكرُهُ فيَكنُونَ عَنِ ٱلاَعوَرِ بِٱلمُمتَّعِ . وعَنِ ٱلذي فِي عَينَيهِ نُكتَةُ بَياضٍ بِٱلمُكوكَبِ . وعَمَّنْ فِي وَجهِهِ اثَرُ ضَربَةٍ بِٱلمُشطَّبِ . ولِبَعضِهِمْ فِي ابرَصَ :

لَخُو لَخمٍ اَعارَكَ مِنهُ ثَوبًا هَنِيئًا بِٱلقَميصِ ٱلمُستَجدِ

اَرادَ بِاَخِي لَخمٍ جَذيمَةَ ٱلاَبرَصَ . وللصَّاحِبِ فِي ٱلجَرَبِ :

اَبَا ٱلعَلاءِ هِلالُ ٱلهزلِ وَٱلجِدِ كَيفَ ٱلنُّجُومُ ٱلَّتي يَطلُعنَ فِي ٱلجِلدِ

وَيُكنَّى عَنِ ٱلحَولِ بِٱلتَّاخُّرِ . قالَ ٱلدُّوَلِيُّ :

بِيضُ ٱلمَطَابِخِ لَا تَشكُو اِماؤُهُمُ طَبخَ ٱلقُدورِ وَلَا غَسلَ ٱلمَنَادِيلِ

قَالَ آخرُ :

ثِيَابُ طَبَّاخٍ اِذَا ٱتسخَتْ اَنقَى بَيَاضًا مِنَ ٱلقَرَاطِيسِ

وَقَالَ اَبو بَكرٍ ٱلخُوارَزمِيُّ :

فَتًى مُختَصِرُ ٱلمَأكُو لِ وَٱلمَشرُوبِ وَٱلعِطرِ
نَقِيُّ ٱلكَأسِ وَٱلقَصعَةِ م وَٱلمَندِيلِ وَٱلقِدرِ

وَيَكنُونَ عَنِ ٱلجَاهِلِ بِاَنَّهُ مِنَ ٱلمُستَرِيحِينَ . وَيُروَى اَنَّ خِلافًا وَقَعَ بَينَ بَعضِ ٱلخُلَفَاءِ وَبَينَ نَدِيمٍ لَهُ فِي مَسأَلَةٍ . فَٱتَّفَقَا عَلَى رَأيِ بَعضِ اَهلِ ٱلعِلمِ فَاُحضِرَ . فوَجدَ ٱلخَلِيفَةَ مُخطِئًا فقَال : ٱلقَائِلُونَ

بِقَوْلِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَكْثَرُ (يُرِيدُ ٱلْجُهَّالَ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ اَحْمَقَ قِيلَ : نَعْتُهُ لَا يَنْصَرِفُ . وَكَانَ قَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرَ اِذَا وَصَفَ رَجُلًا بِٱلْبَلَهِ قَالَ : هُوَ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَنَّةِ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ خَفِيفٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ يُرِيدُونَ مَقْلُوبًا وَهُوَ ٱلثَّقِيلُ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْاَطْرُوشُ اِذَا خَاطَبَهُ اَحَدٌ فَلَمْ يَسْمَعْ قَالَ لَهُ : اَرْفَعْ صَوْتَكَ فَاِنَّ بِاُذْنِي بَعْضَ مَا بِرُوحِكَ . وَنَظَرَ ٱلْبَدِيعُ ٱلْهَمَذَانِيُّ اِلَى رَجُلٍ طَوِيلٍ بَارِدٍ فَقَالَ : قَدْ اَقْبَلَ لَيْلُ ٱلشِّتَاءِ . وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ وَقَدِ اَقْشَعَرَّ . فَقَالَ : مَا تَجِدُ فَدَيْتُكَ . قَالَ : اَجِدُكَ (يَعْنِي ٱلْبَرْدَ) . وَاِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ كَذُوبًا قِيلَ : ٱلْفَاخِتَةُ عِنْدَهُ اَبُو ذَرٍّ (يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِٱلْفَاخِتَةِ فِي ٱلْكَذِبِ وَبِاَبِي ذَرٍّ فِي ٱلصِّدْقِ) . وَيَقُولُونَ اَيْضًا : فُلَانٌ يَلْطِمُ عَيْنَ مِيزَانٍ . (وَمِيزَانٌ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْكَذِبِ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ مَلُولًا قِيلَ : هُوَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى . وَاِذَا كَانَ مُلْحِدًا قِيلَ : قَدْ عَبَرَ (يُرِيدُونَ جِسْرَ ٱلْاِيمَانِ) . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : هَلْ عَبَرْتَ . قَالَ : فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وُلِدْتُ . وَاِنْ كَانَ يُسِيءُ ٱلْاَدَبَ فِي ٱلْمُؤَاكَلَةِ قِيلَ : تُسَافِرُ يَدُهُ عَلَى ٱلْخِوَانِ وَيَرْعَى اَرْضَ ٱلْجِيرَانِ . فَاِنْ كَانَ خَفِيفَ ٱلْيَدِ فِي ٱلطَّرِّ وَٱلسَّرِقَةِ . قَالُوا : هُوَ اَحَذُّ يَدِ ٱلْقَمِيصِ (وَيَدُ ٱلْقَمِيصِ ٱلْكُمُّ وَٱلسَّارِقُ يُقَصِّرُهُ لِيَكُونَ اَقْدَرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ سَرِقَةٍ) . فَاِذَا كَانَ قَمِلَ ٱلثَّوْبِ قِيلَ : فُلَانٌ يَعْرِضُ ٱلصَّيْدَ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ :

وُحُوشُهُ تَرْتَعُ فِي جَنْبِهِ   وَظُفْرُهُ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ

وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يَتَشَاعَرُ وَلَيسَ يُجِيدُ قَالُوا: هُوَ نَبِيٌّ فِي ٱلشِّعْرِ. قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا نَبِيَّ ٱللهِ فِي ٱلشِّعْرِ م وَيَا مَنْ فِيهِ يَكْرُمْ
أَنتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ ٱللهِ م مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ

وَيُقَالُ: فُلَانٌ رَابِعُ ٱلشُّعَرَاءِ. إِذَا كَانَ مُتَخَلِّفًا مُنْحَطَّ ٱلطَّبَقَةِ لِقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَصْفَعَهْ

وَسُئِلَ حَائِكٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ فَقَالَ: كُسْوَةُ ٱلْأَحْيَاءِ وَجِهَازُ ٱلْمَوْتَى. وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْقَرَوِيِّ بِأَخْضَرِ ٱلْأَسْنَانِ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلِ ٱلْبَقْلِ. وَسُئِلَ حَجَّامٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ. فَقَالَ: أَكْتُبُ بِٱلْحَدِيدِ وَأَخْتِمُ بِٱلزُّجَاجِ. وَفِيهِ قِيلَ:

يَا ٱبْنَ ٱلَّذِي عَاشَ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ بِرَحْمَةِ ٱللهِ أَيُّمَا رَجُلِ
أَبُوكَ أَوْهَى ٱلنِّجَادُ عَاتِقَهُ كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أَدْمَى وَكَمْ بَطَلِ
لَهُ رِقَابُ ٱلْمُلُوكِ خَاضِعَةٌ مِنْ بَيْنِ حَافٍ وَبَيْنِ مُنْتَعِلِ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَأْرِهِ عَلَى وَجَلِ (١)

وَيُقَالُ عَمَّنْ يُكْثِرُ ٱلْأَسْفَارَ: فُلَانٌ لَا يَضَعُ ٱلْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ. وَجَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ. فَإِنَّهُ

(١) راجع الجزء الثالث من مجاني الادب صفحة ١٥١

كَنَى عَنِ ٱلغِيبَةِ بِأَكْلِ ٱلإِنسَانِ لَحمَ ٱلإِنسَانِ . وَهٰذَا شَدِيدُ ٱلمُنَاسَبَةِ لِأَنَّ ٱلغِيبَةَ إِنَّمَا هِيَ ذِكْرُ مَثَالِبِ ٱلنَّاسِ وَتَمزِيقُ أَعرَاضِهِمْ وَتَمزِيقُ ٱلعِرْضِ مُمَاثِلٌ لِأَكْلِ ٱلإِنسَانِ لَحمَ مَنْ يَغتَابُهُ . وَمِنْ أَمثَالِ ٱلعَرَبِ قَولُهُمْ : لَبِسَ لِفُلَانٍ جِلْدَ ٱلنَّمِرِ وَجِلْدَ ٱلأَرْقَمِ . كِنَايَةً عَنِ ٱلعَدَاوَةِ . وَكَذٰلِكَ قَولُهُمْ : قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ ٱلمِجَنِّ كِنَايَةً عَنْ تَغيِيرِ ٱلمَوَدَّةِ . وَمِنْ ظَرِيفِ ٱلكِنَايَاتِ مَا جَاءَ عَنِ ٱلجَمَّازِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : أَيُّ ٱلبُقُولِ أَحَبُّ إِلَيكَ . فَقَالَ : بَقْلَةُ ٱلذِّئْبِ (يَعْنِي ٱللَّحْمَ) . وَرَأَى رَجُلٌ مَنْ أَضَافُوهُ يُطِيلُونَ ٱلغِنَاءَ وَلَا يَأْتُونَ بِٱلأَكْلِ فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ دَاوَيتُمَا ظَاهِرًا فَمَنْ ذَا يُدَاوِي جَوًى بَاطِنَا

فَعَلِمُوا أَنَّهُ جَائِعٌ . وَأُخبِرَ عَنِ ٱلجَاحِظِ أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ فَالُوذَجَةً فَأَمَرَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ أَنْ يُجعَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلجَاحِظِ مَا رَقَّ مِنَ ٱلجَامِ . فَأَسرَعَ فِي ٱلأَكلِ حَتَّى نَظَّفَ مَا بَيْنَ يَدَيهِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : يَا أَبَا عُثْمَانَ قَدْ تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ . فَقَالَ : أَصْلَحَكَ ٱللّٰهُ لِأَنَّ غَيْمَهَا كَانَ رَقِيقًا . وَكَذٰلِكَ يُقِيمُونَ وَصْفَ ٱلشَّيْءِ مَقَامَ ٱسْمِهِ كَمَا قَالَ : حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . يَعْنِي ٱلسَّفِينَةَ فَوَضَعَ صِفَتَهَا مَوْضِعَ تَسْمِيَتِهَا . وَقَالَ : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلجِيَادُ . يَعْنِي ٱلخَيلَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلمُتَقَدِّمِينَ :

سَأَلَتْ قُتَيْبَةُ عَنْ أَبِيهَا صَحْبَهُ فِي ٱلرَّوْعِ هَلْ رَكِبَ ٱلأَغَرَّ ٱلأَشْقَرَا

يَعْنِي هَلْ قُتِلَ . وَٱلأَغَرُّ ٱلأَشْقَرُ وَصْفُ ٱلدَّمِ فَأَقَامَهُ مَقَامَ ٱسْمِهِ .

وَقَالَ بَعْضُ ٱلمُحْدَثِينَ :

شِمْتُ بَرْقَ ٱلْوَزِيرِ فَٱنْهَلَّ حَتَّى ‏ ‏ لَمْ أَجِدْ مَهْرَبًا إِلَى ٱلْأَقْدَامِ
فَكَأَنِّي وَقَدْ تَقَاصَرَ بَاعِي ‏ ‏ خَابِطٌ فِي عُبَابِ أَخْضَرَ طَامِي

يَعْنِي ٱلْبَحْرَ. وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ لِٱبْنِ ٱلْقَبَعْثَرِيِّ: لَأَحْمِلَنَّكَ عَلَى ٱلْأَدْهَمِ. يَعْنِي ٱلْقَتْلَ. فَتَجَاهَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ: مِثْلُ ٱلْأَمِيرِ يَحْمِلُ عَلَى ٱلْأَدْهَمِ وَٱلْأَشْهَبِ. يُرِيدُ ٱلْخَيْلَ. وَمِنْ ذٰلِكَ: أَنَّ ٱلْمَنْصُورَ كَانَ فِي بُسْتَانٍ لَهُ وَهُوَ فِي أَيَّامِ مُحَارَبَتِهِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْحَسَنِ وَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةِ خِلَافٍ فَقَالَ لِلرَّبِيعِ: مَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. فَقَالَ: طَاعَةٌ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. فَتَفَاءَلَ ٱلْمَنْصُورُ بِهِ وَعَجِبَ مِنْ ذَكَائِهِ. وَمِثْلُ ذٰلِكَ: أَنَّ رَجُلًا مَرَّ فِي صَحْنِ دَارِ ٱلرَّشِيدِ وَمَعَهُ حُزْمَةُ خَيْزُرَانٍ. فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ لِلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ: مَا ذَاكَ. فَقَالَ: عُرُوقُ ٱلرِّمَاحِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ ٱلْخَيْزُرَانَ لِمُوَافَقَتِهِ ٱسْمَ وَالِدَةِ ٱلرَّشِيدِ. وَمِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ نَقِيُّ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ بِهِ أَنَّهُ لَا عَيْبَ فِيهِ وَلَيْسَ بِمَوْضُوعٍ نَقَاءِ ٱلثَّوْبِ ٱلْبَرَاءَةَ مِنَ ٱلْعَيْبِ وَإِنَّمَا ٱسْتُعْمِلَ فِيهِ تَمْثِيلًا. وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ ‏ ‏ وَأَوْجُهُهُمْ عِنْدَ ٱلْمَشَاهِدِ غُرَّاتُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ طَاهِرُ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِخَائِنٍ وَلَا غَادِرٍ. وَفُلَانٌ دَنِسُ ٱلثَّوْبِ إِذَا كَانَ غَادِرًا فَاجِرًا. وَقَوْلُهُمْ: طَيِّبُ ٱلْحُجْزَةِ أَيْ عَفِيفٌ. قَالَ ٱلنَّابِغَةُ يَمْدَحُ بَنِي غَسَّانَ ٱلنَّصَارَى:

رِقَاقُ ٱلنِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ‏ ‏ يُحَيَّوْنَ بِٱلرَّيْحَانِ يَوْمَ ٱلسَّبَاسِبِ

وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: إِذَا قَالَتِ ٱلْعَرَبُ: ٱلثَّوْبَ وَٱلْإِزَارَ. فَإِنَّهُمْ

يُرِيدُونَ ٱلْبَدَنَ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ أَوْسَعُ بَنِي أُمَيَّةَ ثَوْبًا . أَيْ أَكْثَرُهُمْ مَعْرُوفًا . وَفُلَانٌ غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ إِذَا كَانَ كَثِيرَ ٱلْمَعْرُوفِ . قَالَ كُثَيِّرٌ :

غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا   غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ ٱلْمَالِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : فُلَانٌ رَحْبُ ٱلذِّرَاعِ . وَمِنَ ٱلْكِنَايَاتِ ٱللَّطِيفَةِ مَا ذَكَرَهَا ٱلْأُدَبَاءُ فِي ٱلشَّيْبِ وَٱلْكِبَرِ . فَيَقُولُونَ : عَرَضَتْ لِفُلَانٍ فَتْرَةٌ . عَرَضَ لَهُ مَا يَمْحُو ذُنُوبَهُ وَيُكَفِّرُ سَيِّئَاتِهِ . أَقْمَرَ لَيْلُهُ نَوَّرَ غُصْنُ شَبَابِهِ . فَضَّضَ ٱلزَّمَانُ آبْنُوسَهُ . وَجَاءَهُ ٱلنَّذِيرُ . وَقَرَعَ نَاجِذَ ٱلْحِلْمِ . وَٱرْتَاضَ بِلِجَامِ ٱلدَّهْرِ . أَدْرَكَ زَمَانَ ٱلْحُنْكَةِ . رَفَضَ غِرَّةَ ٱلصِّبَى وَلَبَّى دَاعِيَ ٱلْحِجَى . وَمِنْ كِنَايَاتِهِمْ عَنِ ٱلْمَوْتِ : ٱسْتَأْثَرَ ٱللّٰهُ بِهِ . أَسْعَدَهُ ٱللّٰهُ بِجِوَارِهِ . نَقَلَهُ إِلَى دَارِ رِضْوَانِهِ . وَمَحَلِّ غُفْرَانِهِ . إِنْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ وَٱنْقَلَبَ إِلَى مَحَلِّ عَفْوِهِ . إِخْتَارَ لَهُ ٱلنُّقْلَةَ مِنْ دَارِ ٱلْبَوَارِ إِلَى دَارِ ٱلْأَبْرَارِ

البحث الرابع عشر

في المبالغة

(عن بديعية الحموي وكتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الادب)

اَلْمُبَالَغَةُ نَوْعٌ مَعْدُودٌ مِنْ مَحَاسِنِ فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ : أَحْسَنُ ٱلشِّعْرِ أَكْذَبُهُ . وَبِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ : أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ مَنِ ٱسْتُجِيدَ كَذِبُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعُدَّ

ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمَشَى فِي ذٰلِكَ عَلَى مَذْهَبِ حَسَّانِ ٱبْنِ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ قَالَ :

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى ٱلْأَنَامِ فَإِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمُقَا
وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وَعِنْدَ أَهْلِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ غَيْرِ ٱلتَّهْوِيلِ عَلَى ٱلسَّامِعِ وَلَمْ يَفِرَّ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلتَّخْيِيمِ عَلَيْهَا إِلَّا بِعَجْزِهِ وَقُصُورِ هِمَّتِهِ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ . لِأَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ كَٱلْإِسْتِرَاحَةِ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِذَا أَعْيَاهُ إِيرَادُ ٱلْمَعَانِي ٱلْغَرِيبَةِ فَيَشْغَلُ ٱلْأَسْمَاعَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ وَتَهْوِيلٌ . وَقَالُوا : رُبَّمَا أَنَّهَا أَحَالَتِ ٱلْمَعَانِيَ فَأَخْرَجَتْهَا عَنْ حَدِّ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُمْكِنِ إِلَى حَدِّ ٱلْإِمْتِنَاعِ . وَٱلْمُبَالَغَةُ تُعَابُ فِي بَابِهَا إِذَا خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ إِلَى ٱلْإِسْتِحَالَةِ وَأَتَى ٱلْكَلَامُ عَلَى حَدِّهَا فِي مَوْضِعِهِ .
وَٱلَّذِي أَقُولُهُ : إِنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ مَحَاسِنِ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ وَلَمْ يَسْتَطْرِدْ فِي حَلَبَاتِ سَبْقِهَا إِلَّا فُحُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَلَوْ سَلَّمْنَا إِلَى مَنْ يَهْضِمُ جَانِبَهَا وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ بَطَلَتْ بَلَاغَةُ ٱلْإِسْتِعَارَةِ وَٱنْحَطَّتْ رُتْبَةُ ٱلتَّشْبِيهِ . وَتَسْمِيَةُ ٱلْمُبَالَغَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُدَامَةَ . وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلتَّبْلِيغَ . وَسَمَّاهُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْإِفْرَاطَ فِي ٱلصِّفَةِ . وَهٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ طَابَقَتِ ٱلْمُسَمَّى . وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ رَغِبُوا فِي تَسْمِيَةِ قُدَامَةَ لِخِفَّتِهَا . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي ٱلْمُبَالَغَةَ شَرِكَهُ قَوْمٌ مَعَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مِثْلُ ٱلصُّبْحِ ظَاهِرٌ . (وَٱلْمُبَالَغَةُ) فِي ٱلْإِصْطِلَاحِ هِيَ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ

عَادَةً . (وَٱلْاِغْرَاقُ) وَصفُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً .
(وَٱلْغُلُوُّ)وَصْفُهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ.وَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلثَّلَاثَةِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ اَوَّلًا اَنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ نَوْعُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ . وَحَدَّ قُدَامَةُ ٱلْمُبَالَغَةَ فَقَالَ : هِيَ اَنْ يَذْكُرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حَالًا مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لَوْ وَقَفَ عِنْدَهَا لَاَجْزَاتْ فَلَا يَقِفُ حَتَّى يَزِيدَ فِي مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مَا يَكُونُ اَبْلَغَ مِنْ مَعْنَى قَصْدِهِ كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ كَرِيمٍ ٱلتَّغْلِبِيِّ :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ... وَنُتْبِعُهُ ٱلْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

وَقَالَ : اِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ مِنْ اَحْسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ . فَاِنَّ ٱلشَّاعِرَ بَلَغَ فِيهِ اِلَى اَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ وَتَوَصَّلَ اِلَى اَكْثَرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَتَعَطَّاهُ . وَلَخَّصَ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي حَدَّهُ قُدَامَةُ وَقَالَ : ٱلْمَعْنَى اِذَا زَادَ عَلَى ٱلتَّمَامِ سُمِّيَ مُبَالَغَةً . وَقَالَ اَبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلْمُبَالَغَةُ بُلُوغُ ٱلشَّاعِرِ اَقْصَى مَا يُمْكِنُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ . قُلْتُ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ : فَمَحَلُّ ٱلْقَصْدِ فِي ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْاِمْكَانُ وَٱلْخُرُوجُ مِنَ ٱلْمُسْتَحِيلِ . وَٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ فِيهَا اَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِذَا بَعُدَتْ عَنِ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ . وَاِنْ كَانَ ٱلْاِغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ ضَرْبَيْنِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ وَنَوْعَيْنِ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ . فَقَدْ شَرَطَ عُلَمَاؤُهُ اَنَّ ٱلنَّوْعَ لَا يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ بِحَيْثُ يَزُولُ ٱلِٱلْتِبَاسُ وَيُعْجِبُنِي مِنْ اَمْثِلَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

اَضَاءَتْ لَهُمْ اَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ ... دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهْ

فَٱلْمَعْنَى تَمَّ لِلنَّاظِمِ لَمَّا ٱنْتَهَى فِي بَيْتِهِ اِلَى قَوْلِهِ : دُجَى ٱللَّيْلِ وَلٰكِنْ زَادَ بِمَا هُوَ اَبْلَغُ وَاَبْدَعُ وَاَغْرَبُ فِي قَوْلِهِ : حَتَّى تَظَمَّ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ جَوَادٍ :

وَاَصْرَعُ اَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وَاَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ اَرْكَبُ

قَالَ ذَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ اَبِي ٱلاِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ : اَبْلَغُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فِي بَابِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ شَاعِرِ ٱلْحَمَاسَةِ اِذْ بَالَغَ فِي مَدْحِ مَمْدُوحِهِ بِقَوْلِهِ :

رَهَنْتُ يَدِي بِٱلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فَٱنْظُرْ مَا اَحْلَى ٱحْتِرَاسَهُ عَنْ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ . وَٱنْظُرْ كَيْفَ اَظْهَرَ عُذْرَهُ فِي عَجْزِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ بِاَنْ قَالَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ ٱسْتَطَعْتُهُ . ثُمَّ اَخْرَجَ بَقِيَّةَ ٱلْبَيْتِ لِلْمُبَالَغَةِ مُخْرَجَ ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ حَيْثُ قَالَ : وَلٰكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ . وَمِنْ هُنَا قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ اِلَيَّ عَارِفَةً حَتَّى اَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَمِنْ حُسْنِ ٱلْمُبَالَغَةِ قَوْلُ ٱلْحَكَمِ ٱلْخُضَرِيِّ :

وَاَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَاَبْخَلُ بِٱلْقِرَى
مِنَ ٱلْكَلْبِ اَمْسَى وَهُوَ غَرْثَانُ اَعْجَفُ

فَٱلْكَلْبُ بَخِيلٌ عَلَى مَا ظَفِرَ بِهِ وَهُوَ اَشَدُّ بُخْلًا اِذَا كَانَ جَائِعًا اَعْجَفَ اَمَّا (ٱلاِغْرَاقُ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَلٰكِنَّهُ دُونَ ٱلْغُلُوِّ . وَهُوَ

فِي ٱلْاصْطِلَاحِ افْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً وَقَلَّ مَنْ فَرَقَ بَيْنَهُمَا . وَغَالِبُ ٱلنَّاسِ عِنْدَهُمُ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْاغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ نَوْعٌ وَاحِدٌ مَعَ انَّهَا تَخْتَلِفُ كَمَا سَبَقَ . وَكُلٌّ مِنَ ٱلْاغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِلَّا اِذَا ٱقْتَرَنَ بِمَا يُقَرِّبُهُ اِلَى ٱلْقَبُولِ (كَقَدْ) لِلْاحْتِمَالِ . (وَلَوْلَا) لِلْامْتِنَاعِ . (وَكَادَ) لِلْمُقَارَبَةِ . وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلتَّقْرِيبِ . وَمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلْاغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلصَّحِيحِ اِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَابِ ٱلْاسْتِحَالَةِ وَيُدْخِلُهُ فِي بَابِ ٱلْامْكَانِ مِثْلُ : (كَادَ وَلَوْ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا كَقَوْلِهِ : يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ ٱلْابْصَارَ . اِذْ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ٱلْعَقْلِ اَنَّ ٱلْبَرْقَ يَخْطَفُ ٱلْابْصَارَ وَلٰكِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَادَةً . وَمَا زَادَ عَلَى وَجْهِ ٱلْاغْرَاقِ هُنَا جَمَالًا اِلَّا بِتَقْرِيبِهِ (بِكَادَ) . وَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي صَرَفَهُ اِلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَقُلِبَتْ مِنَ ٱلْامْتِنَاعِ اِلَى ٱلْامْكَانِ . وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْرِيبِ نَوْعِ ٱلْاغْرَاقِ (بِلَوْ) قَوْلُ زُهَيْرٍ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِاَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ اَيْضًا بِٱمْتِنَاعِ قُعُودِ ٱلْقَوْمِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُسْتَفَادِ (بِلَوْ) هُوَ ٱلَّذِي اَظْهَرَ بَهْجَةَ شَمْسِهَا فِي بَابِ ٱلْاغْرَاقِ

وَرُبَّمَا جَاءَ دُونَ ذٰلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي رَجُلٍ طَوِيلِ ٱلْانْفِ :

لَكَ اَنْفٌ يَا ٱبْنَ حَرْبٍ اَنِفَتْ مِنْهُ ٱلْاُنُوفُ
اَنْتَ فِي ٱلْبَيْتِ وَعِرْنِينُكَ م فِي ٱلسُّوقِ يَطُوفُ

وَكَقَوْلِ ٱلطِّرِمَّاحِ يَهْجُو تَمِيماً :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا   وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ ٱلْمَكَارِمِ ضَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ بُرْغُوثاً عَلَى ظَهْرِ نَمْلَةٍ   يَكُرُّ عَلَى صَفَّيْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ
وَلَوْ اَنَّ اُمَّ ٱلْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا   مَظَلَّتَهَا يَوْمَ ٱلنَّدَى لَاَسْتَظَلَّتِ
وَلَوْ جُمِعَتْ يَوْماً تَمِيمٌ جُمُوعَهَا   عَلَى ذَرْوَةٍ سِحَالَةٍ لَاَسْتَقَلَّتِ

اَمَّا (ٱلْغُلُوُّ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱلْاِغْرَاقِ فَاِنَّهُ ٱلْاِفْرَاطُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُسْتَحِيلِ وُقُوعُهُ عَقْلاً وَعَادَةً وَهُوَ يَنْقَسِمُ اِلَى قِسْمَيْنِ: مَقْبُولٍ وَغَيْرِ مَقْبُولٍ . فَٱلْمَقْبُولُ لَا بُدَّ اَنْ يُقَرِّبَهُ ٱلنَّاظِمُ اِلَى ٱلْقَبُولِ بِاَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ ٱللَّهُمَّ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْغُلُوُّ فِي مَدِيحِ نَبِيٍّ فَلَا غُلُوَّ . وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ ٱلْغُلُوِّ اَنْ يَسْبِكَهُ فِي قَوَالِبِ ٱلتَّخَيُّلَاتِ ٱلْحَسَنَةِ ٱلَّتِي يَدْعُو ٱلْعَقْلُ اِلَى قَبُولِهَا فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . فَاِنَّ اِضَاءَةَ ٱلزَّيْتِ مِنْ غَيْرِ مَسِّ نَارٍ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلاً وَلٰكِنَّ لَفْظَةَ (يَكَادُ) قَرَّبَتْهُ فَصَارَ مَقْبُولاً . وَمِنْهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ   تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلنِّبَالَا
تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ   تَجِدُّ اِلَى رِقَابِهِمِ ٱنْسِلَالَا

وَيُعْجِبُنِي هُنَا قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصِّقِلِّيِّ فِي وَصْفِ فَرَسٍ :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ   لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ   رُكْنُ ٱلْحَطِيمِ اِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وَمِنَ ٱلْغُلُوِّ ٱلْمَقْبُولِ بِغَيْرِ اَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهِ عِثْيَرًا لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَاَمْكَنَا *

وَٱنْعِقَادُ ٱلْغُبَارِ فِي ٱلْهَوَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَعَادَةً اِلَّا اِنَّهُ تَخَيُّلٌ مَقْبُولٌ

وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُتَوَكِّلِ :

وَلَوَ اَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى اِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وَاَمَّا ٱلَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَكَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ فِي ٱلْخَمْرَةِ :

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا اِلَى مَوْضِعِ ٱلْاَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قِفِي

مَخَافَةَ اَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا فَيَطَّلِعَ نُدْمَانِي عَلَى سِرِّيَ ٱلْخَفِي

قَالُوا : اِنَّ سَطْوَةَ شُعَاعِ ٱلْخَمْرِ بِحَيْثُ يَصِيرُ جِسْمُهُ شَفَافًا يُظْهِرُ لِنَدِيمِهِ مَا فِي بَاطِنِهِ لَا يُمْكِنُ عَقْلًا وَلَا عَادَةً . قُلْتُ : وَمَرَاتِبُ ٱلْغُلُوِّ تَتَفَاوَتُ اِلَى اَنْ تَؤُولَ بِقَائِلِهَا اِلَى ٱلْكُفْرِ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

تَتَقَاصَرُ ٱلْاَفْهَامُ عَنْ اِدْرَاكِهِ مِثْلَ ٱلَّذِي ٱلْاَفْلَاكُ فِيهِ وَٱلدُّنَى

وَكَقَوْلِهِ :

كَاَنِّي دَحَوْتُ ٱلْاَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا كَاَنِّي بَنَى ٱلْاِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فَهٰذَا ٱلْغُلُوُّ يُؤَدِّي اِلَى سَخَافَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قُبْحِ ٱلتَّرْكِيبِ وَلَوْلَا ٱلْاِطَالَةُ لَاَوْرَدْتُ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِ ٱلَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ كَاَبِي

* معنى هذا البيت ان سنابك الخيل وهي اطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيرًا وهو الغبار حتى لو اراد ان يمشي عليه عنقًا لامكن . والعنق هو المشي السريع

نُؤاس وَٱبنِ هانِئٍ الأندلسيّ وَٱلمتنبّي وَابي العَلاء ٱلمعرّيّ وَغيرِهم مِنَ ٱلمتأخّرين كَٱبنِ ٱلنّبيهِ وَمَن جرى مجراهُ . وفي ما قدَّمنا كِفايةٌ

البحث الخامس عشر

في التكرير

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٤٢ من علم الادب)

اِعلَم انّ هذا ٱلنّوعَ مِن مَقاتِلِ عِلمِ ٱلبيانِ وَهُوَ دَقيقُ ٱلمأخذِ وَحدُّهُ هُوَ دَلالةُ ٱللّفظِ على ٱلمعنى مُردَّدًا . وَهُوَ يَنقسِمُ قِسمَينِ : احدُهما يُوجَدُ في اللّفظِ وَٱلمعنى وَٱلآخرُ يُوجَدُ في ٱلمعنى دُونَ ٱللّفظِ . فامّا ٱلّذي يُوجَدُ في ٱللّفظِ وَٱلمعنى فكقولِك لِمَن تَستدعيهِ : اسرِعْ اسرِعْ . وَامّا ٱلّذي يُوجَدُ في ٱلمعنى دُونَ ٱللّفظِ فكقولِك : اطِعني وَلا تَعصِني . فانّ ٱلامرَ بِالطّاعةِ نَهيٌ عنِ ٱلمعصيةِ. وَكُلٌّ مِن هذينِ ٱلقِسمَينِ يَنقسِمُ إلى مُفيدٍ وَغيرِ مُفيدٍ . وَمَقصُودي مِنَ ٱلمُفيدِ ان يأتيَ لِمعنًى . وَغيرِ ٱلمُفيدِ ان يأتيَ لِغيرِ معنًى . وَٱعلَم انَّ ٱلمُفيدَ مِنَ ٱلتّكريرِ يأتي في ٱلكلامِ تأكيدًا وَتشديدًا مِن امرِهِ . وَإنّما يُفعَلُ ذلكَ للدّلالةِ على ٱلعنايةِ بِالشّيءِ ٱلّذي كرّرتَ فيهِ كلامَك إمّا مُبالغةً في مدحِهِ او في ذمِّهِ او غيرِ ذلكَ . وَلا يأتي إلّا في احدِ طرفَيِ ٱلشّيءِ ٱلمقصودِ بِالذِّكرِ . وَٱلوسطُ عارٍ مِنهُ لِانّ احدَ ٱلطّرفينِ هُوَ ٱلمقصودُ بِٱلمبالغةِ إمّا بِمدحٍ او ذمٍّ او غيرِهما وَٱلوسطُ ليسَ مِن شرطِ ٱلمبالغةِ . وَغيرُ ٱلمفيدِ لا يأتي في ٱلكلامِ إلّا عِيًّا وَخَطَلًا مِن غيرِ حاجةٍ إليهِ

(فَأَمَّا ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ضَرْبَيْنِ : مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . (فَٱلْأَوَّلُ ٱلْمُفِيدُ) وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلْأَوَّلُ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمَقْصُودُ بِهِ غَرَضَانِ مُخْتَلِفَانِ . فَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى قَوْلُهُ : بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . فَكَرَّرَ (ٱلرَّحْمَانَ ٱلرَّحِيمَ) مَرَّتَيْنِ . وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَوَّلَ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلدُّنْيَا كَٱلْخَلْقِ وَٱلْعِنَايَةِ . وَٱلثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلْآخِرَةِ إِشَارَةً لِرَحْمَتِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلضَّرْبِ ٱلْأَوَّلِ) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمُرَادُ بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ كَقَوْلِهِ : فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . وَٱلتَّكْرِيرُ دَلَالَةُ ٱلتَّعَجُّبِ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَإِصَابَتِهِ ٱلْغَرَضَ . وَهٰذَا كَمَا يُقَالُ : قَتَلَهُ ٱللهُ مَا أَشْجَعَهُ أَوْ مَا أَشْجَعَهُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

أَلَا يَا ٱسْلَمِي ثُمَّ ٱسْلَمِي ثُمَّتَ ٱسْلَمِي

وَهٰذَا مُبَالَغَةٌ فِي ٱلدُّعَاءِ لَهَا بِٱلسَّلَامَةِ . وَكُلُّ هٰذَا يُجَاءُ بِهِ لِتَقْرِيرِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَإِثْبَاتِهِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قِسْمًا يَكُونُ ٱلْمَعْنَى مُضَافًا إِلَى نَفْسِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱللَّفْظِ . وَذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱسْتُعْمِلَ فِي فَصِيحِ ٱلْكَلَامِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ : وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ . وَٱلرِّجْزُ هُوَ ٱلْعَذَابُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

نَهُوضٌ بِثِقْلِ ٱلْعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ ٱلْخُطُوبُ وَجَلَّتِ

وَالثِّقْلُ هُوَ الْعِبْءُ وَالْعِبْءُ هُوَ الثِّقْلُ. وَرُبَّمَا أَشْكَلَ هٰذَا الْمَوْضِعُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَاطَى هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ وَظَنُّوهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ. وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ الْفَائِدَةُ فِيهِ هِيَ التَّأْكِيدُ لِلْمَعْنَى الْمَقْصُودِ وَالْمُبَالَغَةُ فِيهِ. أَمَّا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: (عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ) أَيْ عَذَابٌ مُضَاعَفٌ مِنْ عَذَابٍ. وَأَمَّا بَيْتُ أَبِي تَمَّامٍ فَإِنَّهُ تَضَمَّنَ الْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ الْمَمْدُوحِ بِجُمْلَةِ الْلَانْفَالِ. وَهٰذَا الْمَوْضِعُ لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَايَ. وَلَرُبَّمَا أُدْخِلَ فِي التَّكْرِيرِ مِنْ هٰذَا النَّوْعِ مَا لَيْسَ مِنْهُ. فَمِنْهُ قَوْلُهُ: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. فَلَمَّا تَكَرَّرَ إِنَّ رَبَّكَ مَرَّتَيْنِ عُلِمَ أَنَّ ذٰلِكَ أَدَلُّ عَلَى الْمَغْفِرَةِ . . . وَهٰذِهِ الْأَقْوَالُ يُظَنُّ أَنَّهَا مِنْ بَابِ التَّكْرِيرِ وَلَيْسَتْ كَذٰلِكَ. وَقَدْ أَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهَا فَرَأَيْتُهَا خَارِجَةً عَنْ حُكْمِ التَّكْرِيرِ وَذَاكَ إِنَّهُ إِذَا طَالَ الْفَصْلُ مِنَ الْكَلَامِ وَكَانَ أَوَّلُهُ يَفْتَقِرُ إِلَى تَمَامٍ وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِهِ فَالْأَوْلَى فِي بَابِ الْفَصَاحَةِ أَنْ يُعَادَ اللَّفْظُ الْأَوَّلُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَكُونَ مُقَارِنًا لِتَمَامِ الْفَصْلِ كَيْ لَا يَجِيءَ الْكَلَامُ مَنْثُورًا لَا سِيَّمَا فِي (إِنَّ وَأَخَوَاتِهَا). فَإِذَا وَرَدَتْ (إِنَّ) وَكَانَ بَيْنَ اسْمِهَا وَخَبَرِهَا فُسْحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الْكَلَامِ فَإِعَادَةُ (إِنَّ) أَحْسَنُ فِي حُكْمِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ مِنْ شُعَرَاءِ الْحَمَاسَةِ:

أَبُعْدًا وَقَيْدًا وَاشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً ... وَنَأْيَ حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَإِنَّ امْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ مَا قَاسَيْتُهُ لَكَرِيمُ

فَإِنَّهُ لَمَّا طَالَ ٱلْكَلَامُ بَيْنَ ٱسْمِ (إِنَّ) وَخَبَرِهَا أُعِيدَتْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لِأَنَّ تَقْدِيرَ ٱلْكَلَامِ : وَإِنَّ ٱمْرَءاً دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ هٰذَا لَكَرِيمٌ . لٰكِنْ بَيْنَ ٱلِٱسْمِ وَٱلْخَبَرِ مَدًى طَوِيلٌ فَإِذَا لَمْ تُعَدْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لَمْ يَأْتِ عَلَى ٱلْكَلَامِ بَهْجَةٌ . وَهٰذَا لَا يَتَنَبَّهُ لِٱسْتِعْمَالِهِ إِلَّا ٱلْفُصَحَاءُ امَّا طَبْعاً وَإِمَّا عِلْماً . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ إِذَا كَانَ خَبَرُ (إِنَّ) عَامِلًا فِي مَعْمُولٍ يَطُولُ ذِكْرُهُ فَإِنَّ إِعَادَةَ ٱلْخَبَرِ ثَانِيَةً هُوَ ٱلْأَحْسَنُ . وَعَلَى هٰذَا جَاءَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ احَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . فَلَمَّا قَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ ثُمَّ طَالَ ٱلْفَصْلُ كَانَ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يُعِيدَ لَفْظَ (ٱلرُّؤْيَةِ) فَيَقُولَ : رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ .

وَمِنْ بَابِ (ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) ٱلدَّالِّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ قَوْلُهُ : وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ . فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَ نِدَاءَ قَوْمِهِ هَا هُنَا لِزِيَادَةِ ٱلتَّنْبِيهِ لَهُمْ وَٱلْإِيقَاظِ عَنْ سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَلِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ فَيَتَحَزَّنُ لَهُمْ وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ فَيَسْتَدْعِي بِذٰلِكَ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى نَصِيحَتِهِ . وَهٰذَا فِي ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ وَأَشَدُّ مَوْقِعاً مِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ شِعْراً قَوْلُ بَعْضِ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

إِلَى مَعْدِنِ ٱلْعِزِّ ٱلْمُؤَثَّلِ وَٱلنَّدَى   هُنَاكَ هُنَاكَ ٱلْفَضْلُ وَٱلْخُلُقُ ٱلْجَزْلُ

فَقَوْلُهُ : هُنَاكَ هُنَاكَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ

لِأَنَّهُ فِي مَعْرِضِ مَدْحٍ فَهُوَ يُقَرِّرُ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ مَا عِنْدَ ٱلْمَمْدُوحِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافِ ٱلْمَذْكُورَةِ مُشِيرًا إِلَيْهَا كَأَنَّهُ قَالَ : أَدُلُّكُمْ عَلَى مَعْدِنِ كَذَا وَكَذَا وَمَقَرِّهِ وَمَفَادِهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْمُسَاوِرِ ٱبْنِ هِنْدٍ :

جَزَى ٱللّٰهُ عَنِّي غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ ... إِذَا حَدَثَانُ ٱلدَّهْرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ
فَكَمْ دَفَعُوا مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ ... عَلَيَّ وَمَوْجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ

فَصَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَعَجُزُهُ يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لِأَنَّ تَلَاحُمَ ٱلْكُرَبِ عَلَيْهِ كَتَعَالِي ٱلْمَوْجِ مِنْ فَوْقِهِ . وَإِنَّمَا نَوَّعَ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ مَقَامُ مَدْحٍ وَإِطْرَاءٍ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَصِفُ إِحْسَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ حِدْثَانِ دَهْرِهِ فِي ٱلتَّكْرِيرِ . وَفِي قُبَالَتِهِ لَوْ كَانَ ٱلْقَائِلُ هَاجِيًا فَإِنَّ ٱلْهِجَاءَ فِي هٰذَا كَٱلْمَدْحِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مَرْوَانَ ٱلْأَصْغَرِ :

سَقَى ٱللّٰهُ نَجْدًا وَٱلسَّلَامُ عَلَى نَجْدِ ... وَيَا حَبَّذَا نَجْدٌ عَلَى ٱلْقُرْبِ وَٱلْبُعْدِ
نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا ... لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا وَهَيْهَاتَ مِنْ نَجْدِ

وَهٰذَا مِنَ ٱلْعِيِّ ٱلضَّعِيفِ فَإِنَّهُ كَرَّرَ ذِكْرَ نَجْدٍ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ ثَلَاثًا . وَفِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي ثَلَاثًا . وَمُرَادُهُ فِي ٱلْأَوَّلِ ٱلثَّنَاءُ عَلَى نَجْدٍ . وَفِي ٱلثَّانِي أَنَّهُ تَلَفَّتَ إِلَيْهِ نَاظِرًا مِنْ بَغْدَادَ وَذٰلِكَ مَرْمًى بَعِيدٌ . ٱلْمَعْنَى لَا يَحْتَاجُ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلتَّكْرِيرِ . أَمَّا ٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ فَيُحْمَلُ عَلَى ٱلْجَائِزِ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِأَنَّهُ مَقَامُ تَشَوُّقٍ وَتَحَرُّقٍ وَمَوْجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجْدٍ . وَلَمَّا كَانَ كَذٰلِكَ أُجِيزَ فِيهِ ٱلتَّكْرِيرُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ

يُسوِّغ هذا المعنى الوارد في البيتين معاً من غير ان يأتي بهذا التكرير المتتابع ست مرات . وعلى هذا الأسلوب ورد قول ابي نواس :

اقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامس

ومراده من ذلك انهم اقاموا بها اربعة ايام . ويا عجبا له بمثل هذا البيت السخيف الدال على العي الفاحش في ضمن ابيات عجيبة الحسن تتقدم هذا البيت . ومن هذا الباب ايضا قول ابي الطيب المتنبي :

ولم ار مثل جيراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مقام

فهذا هو التكرير الفاحش الذي يؤثر في الكلام نقصاً . الا ترى انه يقول : لم ار مثل جيراني في سوء الجوار ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي عندهم . الا انه قد كرر هذا المعنى في البيت مرتين . وعلى نحو من ذلك جاء قوله :

وقلقلت بالهم الذي قلقل الحشى قلاقل عيس كلهن قلاقل

(واما القسم الثاني من التكرير وهو الذي يوجد في المعنى دون اللفظ) فذلك ضربان : مفيد وغير مفيد . (الضرب الاول) المفيد وهو فرعان : (الاول) اذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين مختلفين وهو موضع من التكرير مشكل لانه يسبق الى الوهم انه تكرير يدل على معنى واحد وهو ليس كذلك . . . بل يقصد به التأكيد والتقرير والتنصل عما يرمى به المتكلم . وبما

يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا خَاصٌّ وَٱلْآخَرُ عَامٌّ كَقَوْلِهِ: وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱللهِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ دَاخِلٌ تَحْتَ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ. لِأَنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ خَاصٌّ وَٱلْخَيْرَ عَامٌّ فَكُلُّ أَمْرٍ بِٱلْمَعْرُوفِ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ خَيْرٍ أَمْرًا بِٱلْمَعْرُوفِ. وَذَاكَ أَنَّ ٱلْخَيْرَ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلْأَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ. فَفَائِدَةُ ٱلتَّكْرِيرِ هٰهُنَا أَنَّهُ ذَكَرَ ٱلْخَاصَّ بَعْدَ ٱلْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ. وَكَقَوْلِهِ: حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى. وَكَقَوْلِهِ: فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ. وَكَقَوْلِهِ: إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا. فَإِنَّ ٱلْجِبَالَ دَاخِلَةٌ فِي جُمْلَةِ ٱلْأَرْضِ. لٰكِنَّ لَفْظَ ٱلْأَرْضِ عَامٌّ وَٱلْجِبَالِ خَاصٌّ. وَفَائِدَتُهُ هٰهُنَا تَعْظِيمُ شَأْنِ ٱلْأَمَانَةِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهَا وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا... وَهُوَ مَوْضِعٌ يَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْبَلِيغِ وَيُظَنُّ أَنْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ. (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) إِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ. وَقَدْ سَبَقَ مِثَالُ ذٰلِكَ فِي أَوَّلِ هٰذَا ٱلْبَابِ كَقَوْلِكَ: أَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي. فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ تَثْبِيتُ ٱلطَّاعَةِ فِي نَفْسِ ٱلْمُخَاطَبِ. وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ كَٱلْكَلَامِ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ مِنْ تَكْرِيرِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ ٱلْغَرَضُ بِهِ شَيْئًا وَاحِدًا. وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِتَأْكِيدِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ كَقَوْلِهِ: إِنَّ مِنْ أَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَ

ٱلْعَفْوَ وَٱلصَّفْحَ وَٱلْمَغْفِرَةَ وَٱلْجَمِيعُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ لِلزِّيَادَةِ فِي تَحْسِينِ عَفْوِ ٱلْوَالِدِ عَنْ وَلَدِهِ . وَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ يُنْظَرُ فِي ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَكُونُ ٱلتَّكْرِيرُ فِيهِ أَوْجَزَ مِنْ لَمْحَةِ ٱلْإِيجَازِ وَأَوْلَى بِٱلْاسْتِعْمَالِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي أَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ :

نَزَلْتُ عَلَى آلِ ٱلْمُهَلَّبِ شَاتِيًا   بَعِيدًا عَنِ ٱلْأَوْطَانِ فِي زَمَنِ ٱلْمَحْلِ
فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَٱفْتِقَادُهُمْ   وَإِحْسَانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِي

فَإِنَّ ٱلْإِكْرَامَ وَٱلْافْتِقَادَ دَاخِلَانِ تَحْتَ ٱلْإِحْسَانِ وَإِنَّمَا كَرَّرَ ذٰلِكَ لِلتَّنْوِيهِ بِذِكْرِ ٱلصَّنِيعِ وَٱلْإِيجَابِ لِحَقِّهِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي) فِي تَكْرِيرِ ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ وَهُوَ غَيْرُ ٱلْمُفِيدِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

قَسَمَ ٱلزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ ٱلصَّبَا   وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا أَثْلَاثَا

فَانَّ رِيحَ ٱلصَّبَا هِيَ رِيحُ ٱلْقَبُولِ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ قَدْ خَبَطَ فِيهِ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ خَبْطًا كَثِيرًا وَٱلْأَكْثَرُ مِنْهُمْ أَجَازَهُ . فَقَالُوا : إِذَا كَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُتَغَايِرَةً وَٱلْمَعْنَى ٱلْمُعَبَّرُ عَنْهُ وَاحِدًا فَلَيْسَ ٱسْتِعْمَالُ ذٰلِكَ بِمَعِيبٍ . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ وَٱلَّذِي عِنْدِي فِيهِ أَنَّ ٱلنَّاثِرَ يُعَابُ عَلَى ٱسْتِعْمَالِهِ مُطْلَقًا إِذَا أَتَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَأَمَّا ٱلنَّاظِمُ فَإِنَّهُ يُعَابُ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ . أَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ صُدُورُ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا . وَأَمَّا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي لَا يُعَابُ ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ ٱلْأَعْجَازُ مِنَ ٱلْأَبْيَاتِ لِمَكَانِ ٱلْقَافِيَةِ . وَإِنَّمَا جَازَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَكُنْ عَيْبًا لِأَنَّهُ قَافِيَةٌ

وَٱلشَّاعِرُ مُضطَرٌّ إِلَيهَا وَٱلْمُضطَرُّ يَحِلُّ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ كَقَوْلِ ٱمرِئِ ٱلقَيس فِي قَصِيدَتِهِ ٱللاَّمِيَّةِ ٱلَّتِي مَطلَعُهَا :

اَلَا ٱنْعِمْ صَبَاحًا اَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلبَالِي

فَقَالَ :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ اِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ   قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِاَوْجَالِ

وَاِذَا كَانَ قَلِيلَ ٱلْهُمُومِ فَاِنَّهُ لَا يَبِيتُ بِاَوْجَالِ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلْمَعْنَى اِلَّا اَنَّهُ لَيسَ بِعَيبٍ لِاَنَّهُ قَافِيَةٌ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَولُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

قَالَتْ اِمَامَةُ لَا تَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا   اِنَّ ٱلعَزَاءَ وَاِنَّ ٱلصَّبْرَ قَدْ غُلِبَا

هَلَّا ٱلْتَمَسْتِ لَنَا اِنْ كُنْتِ صَادِقَةً   مَالًا نَعِيشُ بِهِ فِي ٱلنَّاسِ اَوْ نَشَبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلاَوَّلُ مَعِيبٌ لِاَنَّهُ كَرَّرَ ٱلعَزَاءَ وَٱلصَّبْرَ اِذْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَلَمْ يَرِدَا قَافِيَةً لِاَنَّ ٱلقَافِيَةَ هِيَ ٱلبَاءُ . وَاَمَّا ٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي فَلَيسَ بِعَيبٍ لِاَنَّ ٱلتَّكْرِيرَ جَاءَ فِي ٱلنَّشَبِ وَهُوَ قَافِيَةٌ

البحث السادس عشر

في حقيقة التشبيه وتحديده

(عن خزانة الادب للحموي وعن كتاب الصناعتين)

(راجع صفحة ٤٨ من علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ اَصْحَابَ ٱلمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ اَطْلَقُوا اَعِنَّةَ ٱلْكَلَامِ فِي مَيَادِينِ حُدُودِ ٱلتَّشْبِيهِ وَتَقَادِيرِهَا وَهُوَ عِنْدَهُمْ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ اَمرٍ لِاَمرٍ فِي مَعْنًى . وَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلعَقْدُ عَلَى اَحَدِ ٱلشَّيْئَيْنِ

يَسُدُّ اَحدُهُما مَسَدَّ ٱلآخَرِ فِي حالٍ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّشبِيهُ ٱلعَامُّ ٱلَّذِي يَدخُلُ تَحتَهُ ٱلتَّشبِيهُ ٱلبلِيغُ وَغَيرُهُ . وَٱلتَّشبِيهُ ٱلبلِيغُ هُوَ اِخرَاجُ ٱلأَغمَضِ اِلى ٱلأَوضَحِ مَعَ حُسنِ ٱلتَّأليفِ . وَمِنهُم مَن قَالَ : ٱلتَّشبِيهُ هُوَ ٱلدَّلاَلَةُ عَلَى ٱشتِرَاكِ شَيئَينِ فِي وَصفٍ هُوَ مِن اَوصَافِ ٱلشَّيءِ ٱلوَاحِدِ . وقَالَ ٱبنُ رَشِيقٍ فِي ٱلعُمدَةِ : ٱلتَّشبِيهُ صِفَةُ ٱلشَّيءِ بِمَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ مِن جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لاَنَّهُ لَو نَاسَبَهُ مُنَاسَبَةً كُلِّيَّةً كَانَ اِيَّاهُ . اَلاَ تَرَى اِلى قَولِهِم : خَدٌّ كَٱلوَردِ اِنَّمَا مُرَادُهُم اَحمِرَارُ اَورَاقِهِ وَطَرَاوَتُها لا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِن صُفرَةِ وَسَطِهِ وَخُضرَةِ كَمَائِمِهِ (اه) . وَقِيلَ : ٱلتَّشبِيهُ اِلحَاقُ اَدنَى ٱلشَّيئَينِ بِاَعلاَهُمَا فِي صِفَةٍ اَشتَرَكَا فِي اَصلِها وَٱختَلَفَا فِي كَيفِيَّتِها قُوَّةً وَضُعفًا . قُلتُ : وَهٰذَا حَدٌّ مُفِيدٌ . وَاَورَدَ ٱبنُ اَبِي ٱلاِصبَعِ فِي كِتَابِهِ تَحرِيرِ ٱلتَّحبِيرِ حَدًّا زَادَ فِي حُسنِهِ عَلَى ٱلحَدِّ وَهُوَ : اَنَّ ٱلتَّشبِيهَ تَشبِيهَانِ (ٱلاَوَّلُ) مِنهُمَا تَشبِيهُ شَيئَينِ مُتَّفِقَينِ بِاَنفُسِهِمَا كَتَشبِيهِ ٱلجَوهَرِ بِٱلجَوهَرِ مِثلُ قَولِكَ : مَاءُ ٱلنِّيلِ كَمَاءِ ٱلفُرَاتِ . وَتَشبِيهِ ٱلعَرَضِ بِٱلعَرَضِ كَقَولِكَ : حُمرَةُ ٱلخَدِّ كَحُمرَةِ ٱلوَردِ . وَتَشبِيهِ ٱلجِسمِ بِٱلجِسمِ كَقَولِكَ : ٱلزَّبَرجَدُ مِثلُ ٱلزُّمُرُّدِ . (وَٱلثَّانِي) تَشبِيهُ شَيئَينِ مُختَلِفَينِ بِٱلذَّاتِ يَجمَعُهُمَا مَعنًى وَاحِدٌ مُشتَرِكٌ . كَقَولِكَ : حَاتِمٌ كَٱلغَمَامِ وَعَنتَرَةُ كَٱلضِّرغَامِ . وَتَشبِيهُ ٱلاِتِّفَاقِ وَهُوَ ٱلاَوَّلُ تَشبِيهٌ حَقِيقِيٌّ . وَتَشبِيهُ ٱلاِختِلاَفِ وَهُوَ ٱلثَّانِي تَشبِيهٌ مَجَازِيٌّ وَٱلمُرَادُ ٱلمُبَالَغَةُ. وَٱلتَّشبِيهُ رُكنٌ مِن اَركَانِ ٱلبَلاَغَةِ لِاِخرَاجِهِ ٱلخَفِيَّ اِلى ٱلجَلِيِّ وَاِدنَائِهِ ٱلبَعِيدَ مِنَ ٱلقَرِيبِ . وَهُوَ حُكمٌ اِضَافِيٌّ لَا يُوجَدُ اِلَّا بَينَ ٱلشَّيئَينِ بِخِلاَفِ ٱلاِستِعَارَةِ وَلَيسَ ٱلحُكمُ

أَنَّهُ إِذَا صَحَّتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حَسُنَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلْمُشَابَهَةَ إِذَا قُرِنَتْ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِٱلِاسْتِعَارَةِ قَبُحَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَا تَقُولُ: كَأَنَّكَ أَوْقَعْتَنِي فِي ظُلْمَةٍ إِذَا أَوْقَعَكَ فِي شُبْهَةٍ . وَفَهِمْتُ ٱلْمَسْأَلَةَ فَكَأَنَّهُ ٱنْشَرَحَ صَدْرِي أَوْ كَانَ نُورًا حَصَلَ فِي قَلْبِي. لِتَمَكُّنِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا صَارَتْ حَقِيقِيَّةً

البحث السابع عشر

في اركان التشبيه ومحاسنهِ وفوائدهِ

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

وَٱعْلَمْ أَنَّ لِلتَّشْبِيهِ أَدَوَاتٍ كَنَحْوِ وَكَأَنَّ وَشِبْهٍ وَمِثْلٍ . فَرُبَّمَا ظَهَرَتْ وَرُبَّمَا أُضْمِرَتْ . (وَمِنَ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْأَدَاةُ) مَا قِيلَ فِي وَصْفِ حَالِ ٱلْمُنَافِقِينَ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ ... وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ
كَٱلْحُسَامِ ٱلْجُرَازِ يَبْقَى عَلَى ٱلدَّهْـرِ ... م وَيَفْنَى فِي كُلِّ حِينٍ قِرَابُهْ

وَمِنَ ٱللَّطِيفِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

لَا جَزَى ٱللهُ دَمْعَ عَيْنَيَّ خَيْرًا ... وَجَزَى ٱللهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا ... وَوَجَدْتُ ٱللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ
كُنْتُ مِثْلَ ٱلْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيٌّ ... فَٱسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِٱلْعُنْوَانِ

(وَمِنَ ٱلْمُضمَرِ ٱلأَدَاةِ) قَوْلُهُ : وَجَعَلْنَا ٱللَّيلَ لِبَاسًا. فَشَبَّهَ ٱللَّيلَ بِٱللِّبَاسِ . وَذَاكَ أَنَّهُ يَستُرُ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَنْ أَرَادَ هَرَبًا مِنْ عَدُوٍّ أَوْ ثَبَاتًا لِعَدُوٍّ أَوْ إِخْفَاءً لِمَا لَا يُحِبُّ ٱلْاِطِّلَاعَ عَلَيهِ مِنْ أَمْرِهِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْأَمْثَالِ مِثْلُهُ : ٱللَّيلُ جُنَّةُ ٱلهَارِبِ . وَمِمَّا وَرَدَ شِعْرًا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْرًا   وَإِذَا ٱهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلَا
وَإِذَا ٱلْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا   وَإِذَا ٱلْأَرْضُ أَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلَا

وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلْمُضمَرِ ٱلْأَدَاةِ . وَإِنَّ هٰذَا ٱلتَّشبِيهَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلأَدَاةِ وَأَوْجَزُ . أَمَّا كَوْنُهُ أَبْلَغَ فَلِجَعْلِ ٱلْمُشَبَّهِ مُشَبَّهًا بِهِ مِنْ غَيرِ وَاسِطَةِ أَدَاةٍ فَيَكُونُ هُوَ إِيَّاهُ . فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : زَيدٌ أَسَدٌ . كُنْتَ قَدْ جَعَلْتَهُ أَسَدًا مِنْ غَيرِ إِظْهَارِ أَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَأَمَّا كَوْنُهُ أَوْجَزَ فَلِحَذْفِ أَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ مِنْهُ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ ٱلْقِسْمَيْنِ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ وَٱلْمُضمَرِ كِلَيْهِمَا فِي فَضِيلَةِ ٱلْبَيَانِ سَوَاءٌ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ ٱلْمَقْصُود مِنْ قَوْلِنَا : زَيدٌ أَسَدٌ . أَنْ يَتَبَيَّنَ حَالُ زَيدٍ فِي ٱتِّصَافِهِ بِشَهَامَةِ ٱلنَّفْسِ وَقُوَّةِ ٱلْبَطْشِ وَجَرَاءَةِ ٱلْإِقْدَامِ وَغَيرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُ . إِلَّا أَنَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا نَدُلُّ بِهِ عَلَيهِ سِوَى أَنْ جَعَلْنَاهُ شَبِيهًا بِٱلْأَسَدِ حَيثُ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ مُختَصَّةً بِهِ . فَصَارَ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ هٰذَا ٱلقَولِ أَكْشَفَ وَأَبْيَنَ مِنْ أَنْ لَوْ قُلْنَا : زَيدٌ شَهْمٌ شُجَاعٌ قَوِيُّ ٱلْبَطْشِ جَرِيءُ ٱلْجَنَانِ وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ . لِمَا قَدْ عُرِفَ وَعُهِدَ مِنِ ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ فِي ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَعْنِي ٱلْأَسَدَ . وَأَمَّا زَيدٌ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ فَلَيسَ مَعْرُوفًا بِهَا

وَإِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ أَيضاً يَخْتَصُّ بِفَضِيلَةِ ٱلْإِيجَازِ وَإِنْ كَانَ ٱلْمُضْمَرُ أَوْجَزَ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ لِأَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ أَوْ كَٱلْأَسَدِ. يَسُدُّ مَسَدَّ قَوْلِنَا: زَيْدٌ مِنْ حَالِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ. وَهُوَ مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلشِّدَّةِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. فَٱلتَّشْبِيهُ إِذاً يَجْمَعُ صِفَاتٍ ثَلَاثَةً هِيَ : ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلْبَيَانُ. وَٱلْإِيجَازُ كَمَا أَرَيْتُكَ. إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ بَيْنِ أَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مُسْتَوْعَرُ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ مِنْ مَقَاتِلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ حَمْلَ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمَاثَلَةِ إِمَّا صُورَةً وَإِمَّا مَعْنًى يَعِزُّ صَوَابُهُ وَتَعْسُرُ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ. وَقَلَّمَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا عَثَرَ كَمَا فَعَلَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ مِنْ أُدَبَاءِ ٱلْعِرَاقِ وَٱبْنُ وَكِيعٍ مِنْ أُدَبَاءِ مِصْرَ. فَإِنَّهُمَا أَكْثَرَا مِنْ ذٰلِكَ لَاسِيَّمَا فِي وَصْفِ ٱلرِّيَاضِ وَٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَزْهَارِ وَٱلثِّمَارِ. لَاجَرَمَ أَنَّهُمَا أَتَيَا بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ ٱلَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى مِحَكِّ ٱلصَّوَابِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَأَمَّا فَائِدَةُ ٱلتَّشْبِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهِيَ: أَنَّكَ إِذَا أَمْثَلْتَ ٱلشَّيْءَ بِٱلشَّيْءِ فَإِنَّمَا تَقْصِدُ فِيهِ إِثْبَاتَ ٱلْخَالِ فِي ٱلنَّفْسِ بِصُورَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ وَذٰلِكَ أَوْكَدُ فِي طَرَفَيِ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ أَوِ ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهُ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَشْبَهْتَ صُورَةً بِصُورَةٍ هِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتاً فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا حَسَناً يَدْعُو إِلَى ٱلتَّرْغِيبِ فِيهَا. وَكَذٰلِكَ إِذَا أَشْبَهْتَهَا بِصُورَةِ شَيْءٍ أَقْبَحَ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتاً فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا قَبِيحاً يَدْعُو إِلَى ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَهٰذَا لَانِزَاعَ فِيهِ. وَلْنَضْرِبْ لَهُ مِثَالًا يُوضِحُهُ فَنَقُولُ : قَدْ وَرَدَ عَنِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْعَسَلِ وَذَمِّهِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ:

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ ٱلنَّحْلِ تَمْدَحُهُ وَانْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ ٱلزَّنَابِيرِ

أَلَا تَرَى كَيْفَ مَدَحَ وَذَمَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِتَصْرِيفِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمَجَازِيِّ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ ٱلَّذِي خَيَّلَ بِهِ اِلَى ٱلسَّامِعِ خَيَالًا يُحَسِّنُ ٱلشَّيْءَ عِنْدَهُ تَارَةً وَيُقَبِّحُهُ اُخْرَى . وَلَوْلَا ٱلتَّوَصُّلُ بِطَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ لَمَا اَمْكَنَهُ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ كَافٍ فِيمَا اَرَدْنَاهُ . وَٱعْلَمْ اَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلتَّشْبِيهِ اَنْ يَجِيءَ مَصْدَرِيًّا كَقَوْلِنَا : اَقْدَمَ اِقْدَامَ ٱلْاَسَدِ وَفَاضَ فَيْضَ ٱلْبَحْرِ . وَهُوَ اَحْسَنُ مَا ٱسْتُعْمِلَ فِي بَابِ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ اَبِي نُوَاس فِي وَصْفِ ٱلْخَمْرِ :

وَاِذَا مَا مَزَجُوهَا وَثَبَتْ وَثْبَ ٱلْجَرَادْ

وَاِذَا مَا شَرِبُوهَا اَخَذَتْ اَخْذَ ٱلرُّقَادْ

وَقِيلَ : اِنَّ مِنْ شَرْطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ اَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِمَا هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ وَاَعْظَمُ . وَٱلْقَوْلُ ٱلسَّدِيدُ فِي ذٰلِكَ هُوَ مَا اَذْكُرُهُ : وَهُوَ اَنَّ اِطْلَاقَ مَنْ اَطْلَقَ قَوْلَهُ فِي اَنَّ مِنْ شُرُوطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ اَنْ يُشَبَّهَ ٱلْاَصْغَرُ بِٱلْاَكْبَرِ قَوْلٌ غَيْرُ حَاصِرٍ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ . لِاَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ يَأْتِي تَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ وَتَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ . وَتَارَةً فِي غَيْرِ مَعْرِضِ مَدْحٍ وَلَا ذَمٍّ . وَاِنَّمَا يَأْتِي قَصْدًا لِلْاِبَانَةِ وَٱلْاِيضَاحِ . وَلَا يَكُونُ تَشْبِيهُ اَصْغَرَ بِاَكْبَرَ كَمَا ذَهَبَ اِلَيْهِ مَنْ ذَهَبَ . بَلِ ٱلْقَوْلُ ٱلْجَامِعُ فِي ذٰلِكَ اَنْ يُقَالَ : اِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ لَا يُعْمَدُ اِلَيْهِ اِلَّا لِضَرْبٍ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ فَاِمَّا اَنْ يَكُونَ مَدْحًا اَوْ ذَمًّا اَوْ بَيَانًا اَوْ اِيضَاحًا وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلثَّلَاثَةِ . وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ

كَذٰلِكَ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تَقْدِيرِ لَفْظَةِ افْعَلَ (يُرِيدُ افْعَلَ ٱلتَّفْضِيلِ) . فَاِنْ لَمْ تُقَدَّرْ فِيهِ لَفْظَةُ (اَفْعَلَ) فَلَيْسَ بِتَشْبِيهٍ بَلِيغٍ . اَلَا تَرَى اَنَّا نَقُولُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ : زَيْدٌ اَسَدٌ . فَقَدْ شَبَّهْنَا زَيْدًا بِٱلْاَسَدِ ٱلَّذِي هُوَ اَشْجَعُ مِنْهُ . فَاِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ اَشْجَعَ مِنْ زَيْدٍ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا اِذْ لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْاَدَاةِ كَقَوْلِهِ : وَلَهُ ٱلْجَوَارِي ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْاَعْلَامِ . وَهٰذَا تَشْبِيهُ كَبِيرٍ بِمَا هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ . لِاَنَّ خَلْقَ ٱلسُّفُنِ ٱلْبَحْرِيَّةِ كَبِيرٌ وَخَلْقَ ٱلْجِبَالِ اَكْبَرُ مِنْهُ . وَمِثْلُهُ : اِذَا شُبِّهَ شَيْءٌ حَسَنٌ بِشَيْءٍ حَسَنٍ فَاِنَّهُ اِذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِمَا هُوَ اَحْسَنُ مِنْهُ فَلَيْسَ هُوَ بِوَارِدٍ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهٰكَذَا : اِنْ شُبِّهَ قَبِيحٌ بِقَبِيحٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَقْبَحَ وَاِنْ قُصِدَ ٱلْبَيَانُ وَٱلْاِيضَاحُ فَيَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَبْيَنَ وَاَوْضَحَ . فَتَقْدِيرُ لَفْظَةِ (اَفْعَلَ) لَا بُدَّ مِنْهُ فِيمَا يُقْصَدُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلتَّشْبِيهِ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ نَاقِصًا فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن العاشر

في اقسام التشبيه

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

(اَلتَّشْبِيهُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَقْسَامٍ) : اَلْاَوَّلُ تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ لِاشْتِرَاكِهِمَا اِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْاُولَى وَهِيَ مُدْرَكَاتُ ٱلسَّمْعِ

وَٱلْبَصَرِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلشَّمِّ وَٱللَّمْسِ . كَتَشْبِيهِ ٱلْخَدِّ بِٱلْوَرْدِ . وَٱلْوَجْهِ بِٱلنَّهَارِ . وَٱلْفَوَاكِهِ ٱلْحُلْوَةِ بِٱلسُّكَّرِ وَٱلْعَسَلِ . وَرَائِحَةِ بَعْضِ ٱلرَّيَاحِينِ بِٱلْكَافُورِ وَٱلْمِسْكِ . وَٱللَّيِّنِ ٱلنَّاعِمِ بِٱلْخَزِّ . وَٱلْخَشِنِ بِٱلْمِسْحِ . اَوْ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلثَّانِيَةِ وَهِيَ : ٱلْاَشْكَالُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ وَٱلْمُسْتَدِيرَةُ وَٱلْمَقَادِيرُ وَٱلْحَرَكَاتُ كَتَشْبِيهِ ٱلْمُسْتَوِي ٱلْمُنْتَصِبِ بِٱلرُّمْحِ . وَٱلْقَدِّ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغُصْنِ . وَٱلشَّيْءِ ٱلْمُسْتَدِيرِ بِٱلْكُرَةِ وَٱلْحَلْقَةِ . وَعِظَمِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْجَبَلِ . وَٱلذَّاهِبِ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ بِنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ . اَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ كَٱلصَّلَابَةِ وَٱلرَّخَاوَةِ . اَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ كَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْاَخْلَاقِ . اَوْ فِي حَالَةٍ اِضَافِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : هٰذِهِ حُجَّةٌ كَٱلشَّمْسِ . وَٱلْجَامِعُ اَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُزِيلٌ لِلْحِجَابِ وَكَقَوْلِكَ : ٱلْفَاظُهُ كَٱلْمَاءِ فِي ٱلسَّلَاسَةِ . وَكَٱلنَّسِيمِ فِي ٱلرِّقَّةِ . وَكَٱلْعَسَلِ فِي ٱلْحَلَاوَةِ . وَٱلْجَامِعُ سُرْعَةُ وُصُولِهِ اِلَى ٱلنَّفْسِ وَٱهْتِزَازُهَا بِهِ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ كَقَوْلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ ٱلْخُرْشُبِ ٱلْاَنْمَارِيَّةِ حِينَ وَصَفَتْ بَنِيهَا : هُمْ كَٱلْحَلْقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لَا يُدْرَى اَيْنَ طَرَفَاهَا . فَاِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ٱلْمَقْصُودَ اِلَّا مَنْ لَهُ ذِهْنٌ يَتَرَفَّعُ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْعَامَّةِ بِخِلَافِ مَا سَبَقَ . وَمِنَ ٱلْفَرْقِ ٱلظَّاهِرِ بَيْنَهُمَا اَنَّ جَعْلَ ٱلْفَرْعِ اَصْلًا وَٱلْاَصْلِ فَرْعًا يَجِيءُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَجِيئًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِمْ فِي ٱلنُّجُومِ : كَاَنَّهُمْ مَصَابِيحُ . وَفِي ٱلْمَصَابِيحِ : كَاَنَّهَا نُجُومٌ . وَاِنْ حَاوَلْتَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَادُ ٱنْقِيَادَ ٱلْاَوَّلِ . (ٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَعْقُولِ كَتَشْبِيهِ ٱلْوُجُودِ ٱلْعَارِي عَنِ ٱلْفَوَائِدِ بِٱلْعَدَمِ وَتَشْبِيهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي تَبْقَى بَعْدَ عَدَمِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْوُجُودِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رُبَّ حَيٍّ كَمَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ   أَمَلٌ يُرْتَجَى لِنَفْعٍ وَضُرِّ
وَعِظَامٍ تَحْتَ ٱلتُّرَابِ وَفَوْقَ ٱلْأَ   رْضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

(ٱلثَّالِثُ) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَحْسُوسِ كَقَوْلِهِ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ. وَكَقَوْلِهِ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. (ٱلرَّابِعُ) تَشْبِيهُ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ ٱلْعُلُومَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ ٱلْحَوَاسِّ وَمُنْتَهِيَةٌ إِلَيْهَا وَلِذٰلِكَ قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا. فَإِذَا كَانَ ٱلْمَحْسُوسُ أَصْلًا لِلْمَعْقُولِ فَتَشْبِيهُهُ بِهِ يَكُونُ جَعْلًا لِلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا. وَلِذٰلِكَ لَوْ حَاوَلَ مُحَاوِلٌ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ ٱلشَّمْسِ بِٱلظُّهُورِ وَٱلْمِسْكِ بِٱلثَّنَاءِ فَقَالَ: ٱلشَّمْسُ كَٱلْحُجَّةِ فِي ٱلظُّهُورِ. وَٱلْمِسْكُ كَٱلثَّنَاءِ فِي ٱلطِّيبِ. كَانَ سَخِيفًا مِنَ ٱلْقَوْلِ. فَأَمَّا مَا جَاءَ فِي ٱلْأَشْعَارِ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْمَحْسُوسِ بِٱلْمَعْقُولِ فَوَجْهُهُ أَنْ يُقَدَّرَ ٱلْمَعْقُولُ مَحْسُوسًا وَيُجْعَلَ كَٱلْأَصْلِ ٱلْمَحْسُوسِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَيَصِحُّ ٱلتَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ. وَذٰلِكَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

وَكَأَنَّ ٱلنُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا   سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ٱبْتِدَاعُ

فَإِنَّهُ لَمَّا شَاعَ وَصْفُ ٱلسُّنَّةِ بِٱلْبَيَاضِ وَٱلْإِشْرَاقِ عَلَى مَا قِيلَ: أَتَيْتُكُمْ بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا. وَٱشْتَهَرَتِ ٱلْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ بِٱلظُّلْمَةِ تَخَيَّلَ ٱلشَّاعِرُ أَنَّ ٱلسُّنَنَ كَأَنَّهَا مِنَ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلَّتِي لَهَا إِشْرَاقٌ وَنُورٌ وَأَنَّ ٱلْبِدَعَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلَّتِي لَهَا ٱخْتِصَاصٌ بِٱلسَّوَادِ وَٱلظُّلْمَةِ. فَصَارَ ذٰلِكَ عِنْدَهُ كَتَشْبِيهِ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فَجَازَ لَهُ ٱلتَّشْبِيهُ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَخَيُّلِ مَا لَيْسَ بِمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا. ثُمَّ

يتخيّلُ اصلًا فيُشبَّهُ بهِ. وهذا هو التأويلُ في قولِ ابي طالبِ الرَّقيِّ :

وَلقد ذكرتُك والظلامُ كأنّهُ يومُ النَّوى وفؤادُ مَن لم يَرْفقِ

فإنّهُ لمّا كانت الاوقاتُ التي تحدثُ فيها المكارهُ توصفُ بالسَّوادِ (يقالُ: اسودَّت الدُّنيا في عينيهِ). جعلَ يومَ النوى كأنّهُ اشهرُ واعرفُ بالسَّوادِ من الظلام فعرَّفهُ بهِ وشبَّههُ . ثمَّ عطفَ عليـهِ فؤادَ مَن لا يرفقُ تظرُّفًا. والقلبُ القاسي يوصفُ بشدَّةِ السَّوادِ . فصار هذا القلبُ اصلا عندهُ في السَّوادِ قِيس عليهِ . وكذلكَ قولُ الصاحبِ بن عبَّادٍ حينَ اهدى للقاضي ابي الحسن عليّ بنِ عبدِ العزيزِ الجرجانيّ عطرًا :

يا ايُّها القاضي الذي نفسي لهُ في قُربِ عهـدِ لقائهِ مشتاقهْ

اهديتُ عطرًا مثلَ طيبِ ثنائهِ فـكأنَّما اهـدي لهُ اخلاقَهْ

والعادةُ تشبيهُ الثناء بالعطرِ وهو عـكسُ الامرِ على جهةِ المبالغةِ كما بيّنا . وقلتُ في تشبيهِ حِصْنٍ :

كأنَّهُ وكأنَّ الجوَّ يكنفُهُ وَهْمٌ تمثّلهُ في طيِّها الفِكَرُ

لانَّهُ لمّا ارتفعَ الحِصنُ في الجوّ حتى صار كالوَهم فيكونُ من تشبيهِ المحسوسِ بما تُخيِّلَ انَّهُ محسوسٌ لاظلامهِ في العينِ او فُرِض لهُ الخفاء حتَّى صارَ يُشبهُ معقولًا بمعقول . ويقرُبُ مِن هذا النوعِ تشبيهُ الوجودِ بالتخيُّلِ الذي لا وجودَ لهُ في الاعيانِ كتشبيهِ الجمرِ بينَ الرَّمادِ ببحرٍ مِنَ المِسْكِ موجُهُ الذهبُ. وذلكَ انَّما يتمُّ اذا فرضَ المتخيِّلُ امورا كلُّ واحدٍ منها موجودٌ في الاعيانِ. فحينئذٍ يكونُ التشبيـهُ حسنًا لطيفًا كقولِ الشاعرِ في النَّرجسِ :

كَأَنَّ عُيونَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلغَضِّ بَيْنَنَا   مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وَكَقَوْلِ آخَرَ فِي تَشْبِيهِ ٱلشَّقَائِقِ:

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيـقِ م   إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ
أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ   نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي   وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا أَنْيَابَ ٱلْأَغْوَالِ بَلِ ٱعْتَقَـدُوا أَنَّهَا فِي غَايَةِ ٱلْحِدَّةِ فَحَسُنَ ٱلتَّشْبِيهُ. وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ: طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ. لِتَنَاهِي رُؤُوسِ ٱلشَّيَاطِـينِ فِي ٱلْـكَرَاهَةِ وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي قُبْحِ ٱلشَّيْطَانِ وَكَرَاهِيَتِهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلْوَجْهَ ٱلْقَبِيحَ. وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي خَيْرِ ٱلْمَلَكِ وَأَنَّهُ لَا شَرَّ فِيهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلصُّوَرَ ٱلْحَسَنَـةَ كَمَا قَالَ: مَا هٰذَا بَشَرًا إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ. وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ قَدْ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِٱلْإِنْتِسَابِ إِلَى ٱلشَّيْءِ. وَذٰلِكَ إِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَهُوَ ٱلْجَارُّ وَٱلْمَجْرُورُ كَقَوْلِهِمْ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يُفِيدُ: كَٱلرَّاقِمِ عَلَى ٱلْمَاءِ. وَإِمَّا إِلَى ٱلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ: كَٱلْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ (ٱلْوَاوُ لِلْحَالِ). وَإِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ: هُوَ كَمَنْ يَجْمَعُ ٱلسَّيْفَيْنِ فِي غِمْدٍ وَكَمُبْتَغِي ٱلصَّيْدَ فِي عِرِّيسَةِ ٱلْأَسَدِ. وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ:

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَٱلدِّيَارِ وَأَهْلِهَا   بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدْوًا بَـلَاقِعُ

فَإِنَّهُ لَمْ يُشَبِّهِ ٱلنَّاسَ بِٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ بِحُلُولِهِمِ ٱلدِّيَارَ وَوَشْكِ رَحِيلِهِمْ مِنْهَا. وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَاتُ

اكثر كانَ التشبيهُ اوغلَ في كونهِ عقليًّا كقولهِ : إِنَّما مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ انزلناهُ مِنَ السَّماءِ فاختلطَ بهِ نباتُ الارضِ مِمَّا يأكلُ النَّاسُ والانعامُ حتَّى اذا اخذتِ الارضُ زخرفها وازَّينت وظنَّ اهلها انَّهم قادرونَ عليها اتاها امرنا ليلًا او نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغنَ بالامسِ . فانَّ التشبيهَ منتزعٌ من مجموعِ هذهِ الجملِ مِن غيرِ ان يمكنَ فصلُ بعضِها مِن بعضٍ . فانَّكَ لو حذفتَ منها جملةً واحدةً مِن ايِّ موضعٍ كانَ اخلَّ ذلكَ بالمقصودِ من التشبيهِ . ثُمَّ ما بهِ المشابهةُ إِن كانَ مركَّبًا فانَّهُ على قسمينِ : (الاوَّلُ) ما لا يمكنُ إِفرادُ احدِ اجزائهِ بالذِّكرِ كقولهِ :

كأنَّ سُهيلًا والنُّجومُ وراءهُ   صفوفُ صلاةٍ قامَ فيها إِمامُها

فانَّهُ لا يمكنُ إِفرادُ اجزاءِ هذا التشبيهِ اذ لو قلتَ : كأنَّ سُهيلًا إِمامٌ وكأنَّ النُّجومَ صفوفُ صلاةٍ . ذهبت فائدةُ هذا التشبيهِ . (الثَّاني) ما يمكنُ إِفرادهُ بالذِّكرِ ويكونُ اذا أُزيلَ منهُ التركيبُ صحَّ التشبيهُ في طرفيهِ إِلَّا انَّ المعنى مُغيَّرٌ كقولِ ابي طالبٍ الرَّقِّيِّ :

وكأنَّ اجرامَ النُّجومِ لوامعًا   دُرَرٌ نُثِرنَ على بساطٍ ازرقِ

فلو قلتَ : كأنَّ النُّجومَ دُرَرٌ وكأنَّ السَّماءَ بساطٌ ازرقُ وجدتَ التشبيهَ مقبولًا . ولكنَّ المقصودَ مِنَ الهيئةِ المشبَّهِ بها قد زالَ . وربَّما كانَ التشبيهُ في امورٍ كثيرةٍ ولا يتقيَّدُ بعضُها ببعضٍ . وانَّما يكونُ بعضُها مضمومًا الى البعضِ وكلُّ واحدٍ منها منفردٌ بنفسهِ

كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَالأَسَدِ بَأْساً وَٱلْبَحْرِ جُوداً وَٱلسَّيْفِ مَضَاءً وَٱلْبَدْرِ بَهَاءً. وَكَقَوْلِكَ: هُوَ يَصْفُو وَيَكْدُرُ وَيَحْلُو وَيَمُرُّ. وَلَهُ خَاصَّتَانِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ ٱلتَّرْتِيبُ. (وَٱلثَّانِيَةُ) إِذَا أُسْقِطَ ٱلْبَعْضُ لَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُ ٱلْبَاقِي. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً ... لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَفِيهِ نَظَرٌ

البحث التاسع عشر

في التشابيه المستعملة عند العرب

(من كتاب الصناعتين للعسكري وعن البديعيات)

أَمَا ٱلطَّرِيقَةُ ٱلْمَسْلُوكَةُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلنَّهْجُ ٱلْقَاصِدُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فَتَشْبِيهُ ٱلْجَوَادِ بِٱلْبَحْرِ وَٱلْمَطَرِ. وَٱلشُّجَاعِ بِٱلْأَسَدِ. وَٱلْحَسَنِ بِٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ. وَٱلْفَهِمِ ٱلْمَاضِي بِٱلسَّيْفِ. وَٱلْعَالِي ٱلرُّتْبَةِ بِٱلنَّجْمِ. وَٱلْحَلِيمِ ٱلرَّزِينِ بِٱلْجَبَلِ. وَٱلْحَيِيِّ بِٱلْبِكْرِ. ثُمَّ يُشَبِّهُونَ ٱللَّئِيمَ بِٱلْكَلْبِ. وَٱلْجَبَانَ بِٱلصِّفْرِدِ. وَٱلطَّائِشَ بِٱلْفَرَاشِ. وَٱلذَّلِيلَ بِٱلنَّقَدِ وَٱلنَّعْلِ. وَٱلنَّفِعَ بِٱلْوَتَدِ. وَٱلْقَاسِيَ بِٱلْحَدِيدِ وَٱلصَّخْرِ. وَٱلْبَلِيدَ بِٱلْجَمَادِ. وَشُهِرَ قَوْمٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فَصَارُوا فِيهَا أَعْلَاماً فَجَرَوْا مَجْرَى مَا قَدَّمْنَاهُ كَٱلسَّمَوْءَلِ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَحَاتِمٍ فِي ٱلسَّخَاءِ. وَٱلْأَحْنَفِ فِي ٱلْحِلْمِ. وَسَحْبَانَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ. وَقُسٍّ فِي ٱلْخَطَابَةِ. وَلُقْمَانَ فِي ٱلْحِكْمَةِ. وَشُهِرَ آخَرُونَ بِأَضْدَادِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالِ فَشُبِّهَ بِهِمْ فِي حَالِ ٱلذَّمِّ كَبَاقِلٍ فِي ٱلْعِيِّ. وَهَبَنَّقَةَ فِي ٱلْحُمْقِ. وَٱلْكُسَعِيِّ فِي ٱلنَّدَامَةِ. وَمَادِرٍ فِي ٱلْبُخْلِ

وَٱلتَّشْبِيهُ يَزِيدُ ٱلْمَعْنَى وُضُوحًا وَيُكْسِبُهُ تَأْكِيدًا . وَقَدْ يَأْتِي تَارَةً لِبَيَانِ إِمْكَانِ وُجُودِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱدِّعَاءِ مَا لَا يَكُونُ إِمْكَانُهُ بَيِّنًا . كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَإِنْ تَفُقِ ٱلْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... فَإِنَّ ٱلْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ ٱلْغَزَالِ

وَيَكُونُ لِبَيَانِ مِقْدَارِ ٱلشَّيْءِ كَمَا إِذَا حَاوَلْتَ نَفْيَ ٱلْفَائِدَةِ مِنْ فِعْلِ ٱلْإِنْسَانِ قُلْتَ : هُوَ كَٱلْقَابِضِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَقَدْ أَطْبَقَ جَمِيعُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ عَلَى فَوَائِدِ ٱلتَّشْبِيهِ . وَلَمْ يَسْتَغْنِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْهُ . وَقَدْ جَاءَ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَأَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَمَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِكُلِّ لِسَانٍ . فَمِنْ ذٰلِكَ مَا قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : ٱلدُّنْيَا كَٱلْمَاءِ كُلَّمَا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ شُرْبًا ٱزْدَدْتَ مِنْهُ عَطَشًا . وَقَالَ : صُحْبَةُ ٱلْأَشْرَارِ تُورِثُ ٱلشَّرَّ كَٱلرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلْمُنْتِنِ حَمَلَتْ نَتْنًا . وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلطَّيِّبِ حَمَلَتْ طِيبًا . وَقَالَ : مَنْ أَنْعَمَ لِمَنْ لَا يَشْكُرُ كَانَ كَمَنْ نَثَرَ بَذْرَهُ فِي ٱلسِّبَاخِ . وَقَدْ نَظَمْتُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى :

أَلَا إِنَّمَا ٱلنُّعْمَى تُجَازَى بِمِثْلِهَا ... إِذَا كَانَ مُسْدَاهَا إِلَى مَاجِدٍ حَرِي

فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ إِلَى غَيْرِ مَاجِدٍ ... فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا شُكْرِ

إِذَا ٱلْمَرْءُ أَلْقَى فِي ٱلسِّبَاخِ بُذُورَهُ ... أَضَاعَ فَلَمْ يَرْجِعْ بِزَرْعٍ وَلَا بَذْرِ

وَقَالَ أَيْضًا : لَا يَخْفَى فَضْلُ ذِي ٱلْعِلْمِ وَإِنْ أَخْفَاهُ كَٱلْمِسْكِ يُخْبَأُ وَيُسْتَرُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذٰلِكَ رَائِحَتَهُ أَنْ تَفُوحَ . أَخَذَهُ ٱلصَّاحِبُ فَكَتَبَ : أَنْتَ أَدَامَ ٱللهُ عِزَّكَ . وَإِنْ طَوَيْتَ عَنَّا خَبَرَكَ . وَجَعَلْتَ وَطَنَكَ وَطَرَكَ .

فأنباؤك تأتينا كما وشي بالمسك رياه . ونم على الصباح محياه .
وقال : الرجل ذو المروءة يكرم على غير مال . كالأسد يهاب وإن كان رابضاً . والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كان غنياً . كالكلب يهون على الناس وإن طوق . وقال : لا يجب للمذنب ان يفحص عن أمره لقبح ما ينكشف منه كالشيء المنتن كلما اثير ازداد نتناً . وقال ايضاً : من يصنع المعروف لعاجل الجزاء فهو كملقي الحب للطير لا لينفعها بل ليصيدها به . وقال ايضاً : المال اذا اجتمع ولم يصرف في الحقوق اسرع اليه الهلاك من كل وجه كالماء اذا اجتمع في موضع ولم يكن له طريق الى النفوذ تفجر من جوانبه فضاع . وقال ايضاً : يبقى الصالح من الرجال صالحاً حتى يصاحب فاسداً فاذا صاحبه فسد مثل مياه الانهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر فاذا خالطته ملحت . ومن التشابيه الحسنة قول جعفر بن محمد : الادب عند الاحمق كالماء العذب في اصول الحنظل كلما ازداد رياً ازداد مرارة . ومن التشابيه الشعرية البديعة قول لبيد :

وما المرء الا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد اذ هو ساطع
وما المال والاهلون الا وديعة ... ولا بد يوماً ان ترد الودائع

ثم قال :

وأصبحت مثل السيف اخلق جفنه ... تقادم عهد القين والنصل قاطع

وكقول صالح بن جناح العبسي :

الا انما الانسان غمد لقلبه ... ولا خير في غمد اذا لم يكن نصل

وَقَالَ مُتَمِّمٌ :

وَبَعْضُ ٱلرِّجَالِ نَخْلَةٌ لَاجَنَى لَهَا … وَلَاظِلَّ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلنَّخْلِ

وَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ ٱلنَّصْرَانِيُّ :

وَإِذَا ٱفْتَقَرْتَ إِلَى ٱلذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ … ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي ٱلنُّعْمَانِ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْأَنَامُ كَوَاكِبٌ … إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَمِنْ بَدِيعِ تَشَابِيهِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلَ يَوْمَ وَدَاعِهِ … فَكَٱلْغِمْدِ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ فَارَقَهُ ٱلنَّصْلُ

وَكَقَوْلِ بَدِيعِ ٱلزَّمَانِ ٱلْهَمَذَانِيِّ :

قَدْ كَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِبًا
لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا
وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ
وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يَصِدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وَلِلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ ظَبْيٍ :

أَغْنَاهُ حُسْنُ ٱلْجِيدِ عَنْ لُبْسِ ٱلْحُلِي … وَعَادَةُ ٱلْعُرْيِ عَنِ ٱلتَّفَضُّلِ
كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ

وَكَقَوْلِهِ فِي سُرْعَةِ ٱلْأَوْبَةِ وَتَقْلِيلِ ٱللُّبْثِ :

وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ … يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ ٱمْتِسَاكَا

وَلَهُ قَوْلُهُ :

وَأَنْتَ حُسَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱللهُ ضَارِبٌ … وَأَنْتَ لِوَاءُ ٱلدِّينِ وَٱللهُ عَاقِدُ

وَلَهُ أَيضًا وَهُوَ مِنْ جِنْسِ ٱلْإِبْدَاعِ :

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُهُ   يَتَبَارَيَانِ دَمًا وَعُرْفًا سَاكِبَا
كَٱلْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ ٱلْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ   يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبَا
كَٱلشَّمْسِ فِي كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْءُهَا   يَغْشَى ٱلْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا
كَٱلْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا   جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا

وَكَثِيرًا مَا يَتَلَطَّفُ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَيُشَبِّهُونَ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةٍ . وَرُبَّمَا شَبَّهُوا شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةً بِثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعَةً بِأَرْبَعَةٍ . وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ :

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ   وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وَكَقَوْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

كَأَنَّ مُثَارَ ٱلنَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا   وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وَلِٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فِي تَشْبِيهِ حُبَابِ ٱلرَّاحِ :

يَجُولُ حُبَابُ ٱلرَّاحِ فِي جَنَبَاتِهَا   كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وَلِآخَرَ قَدْ شَبَّهَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِأَرْبَعَةٍ :

لِلّٰهِ طِرْسٌ عَنْ سُطُورٍ جَادَهَا م   ٱلْفِكْرُ ٱلسَّلِيمُ بِصَوْبِ مِسْكٍ أَذْفَرِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ رَوْضَةٌ أَوْ جَدْوَلٌ   أَوْ سِمْطُ دُرٍّ أَوْ قِلَادَةُ عَنْبَرِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلتَّمْثِيلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ تَشْبِيهًا وَاحِدًا مُقَيَّدًا بِقُيُودٍ وَيُظَنُّ أَنَّهَا تَشْبِيهَاتٌ مَجْمُوعَةٌ كَقَوْلِهِ :

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ   فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فَإِنَّ مُجَرَّدَ قَوْلِهِ : أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ لَيْسَ تَشْبِيهًا مُسْتَقِلًّا

بِذَاتِهِ.لِأَنَّ مَقْصُودَ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَصِفَ ٱبْتِدَاءَ مُطْمِعٍ أَدَّى إِلَى ٱنْتِهَاءِ مُؤْيِسٍ . وَذٰلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِجُمْلَةٍ فَإِنَّ تَأْدِيَةَ ٱلشَّيْءِ إِلَى غَيْرِهِ حُكْمٌ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ضَرْبًا يُسَمَّى ٱلطَّرْدَ وَٱلْعَكْسَ.وَهُوَ أَنْ تَجْعَلَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ مُشَبَّهًا وَٱلْمُشَبَّهُ مُشَبَّهًا بِهِ.وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ: غَلَبَةَ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ.وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا وَٱلْغَرَضُ بِهِ ٱلْمُبَالَغَةُ.كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَبَدَا ٱلصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهُ ٱلْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فَجَعَلَ ٱلْأَصْلَ فَرْعًا وَٱلْفَرْعَ أَصْلًا . وَهٰذَا أَبْلَغُ وَأَحْسَنُ وَأَمْدَحُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ . لِأَنَّ تَشْبِيهَ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ أَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُسْتَنْكَرُ . وَإِنَّمَا ٱلَّذِي يُسْتَنْكَرُ تَشْبِيهُ ٱلصَّبَاحِ بِٱلْوَجْهِ

البحث العشرون

في معايب التشبيه

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

وَإِذْ ذَكَرْنَا أَقْسَامَ ٱلتَّشْبِيهِ وَبَيَّنَّا ٱلْمَحْمُودَ مِنْهَا ٱلَّذِي يَنْبَغِي ٱقْتِفَاءُ أَثَرِهِ وَٱتِّبَاعُ مَنْهَجِهِ فَلْنُتْبِعْهُ بِضِدِّهِ مِمَّا يَنْبَغِي ٱجْتِنَابُهُ وَٱلْإِضْرَابُ عَنْهُ. عَلَى أَنَّهُ قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ بِأَنَّ حَدَّ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ أَنْ يُثْبَتَ لِلْمُشَبَّهِ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ . فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ أَوْ كَانَ بَيْنَ ٱلْمُشَبَّهِ وَٱلْمُشَبَّهِ بِهِ بُعْدٌ فَذٰلِكَ ٱلَّذِي يُطْرَحُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ . وَٱلَّذِي يَرِدُ مِنْهُ مُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلتَّوَسُّعِ . كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

مَا لِرِجلِ ٱلْمَالِ أَمسَتْ تَشتَكِي مِنْكَ ٱلكَلَالَا

فَجعَلَ لِلمَالِ رِجلًا وَذٰلِكَ تَشبِيهٌ بَعِيدٌ. وَمِنْ أَقبَحِ مَا سَمِعتُهُ مِنْ ذٰلِكَ قَولُ أَبِي تَمَّامٍ :

وَتَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلسَّخَاءَ مُجَزَّأً وَذَهَبتَ أَنتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ

وَتَرَكتَ لِلنَّاسِ ٱلإِهَابَ وَمَا بَقِي مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

وَٱلقُبحُ ٱلفَاحِشُ فِي ٱلبَيتِ ٱلثَّانِي وَكُلُّ هٰذَا ٱلتَّعَسُّفُ فِي ٱلتَّشبِيهِ ٱلبَعِيدِ دَندَنَةٌ حَولَ مَعنًى لَيسَ بِطَائِلٍ. فَإِنَّ غَرَضَهُ أَنْ يَقُولَ: ذَهَبتَ بِٱلأَعلَى وَتَرَكتَ لِلنَّاسِ ٱلأَدنَى. أَوْ: ذَهَبتَ بِٱلجَيِّدِ وَتَرَكتَ لِلنَّاسِ ٱلرَّدِيءَ. وَأَمَّا (ٱلتَّشبِيهُ ٱلمُظهَرُ ٱلأَدَاة) فَهٰذِهِ أَمثَالٌ أَورَدتُهَا لِتَستَدِلَّ بِهَا عَلَى أَشبَاهِهِ فَإِنَّ لِذِكرِ ٱلمِثَالِ فَائِدَةً لَا تَكُونُ لِذِكرِ ٱلحَدِّ وَحدَهُ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَولُ بَعضِهِمْ :

عَلَا حَاجِبَيكَ ٱلشَّيبُ حَتَّى كَأَنَّهُ ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وَكَذٰلِكَ قَولُ ٱلآخَرِ يَصِفُ ٱلسِّهَامَ فَشَبَّهَهَا بِأَعنَاقِ ٱلظِّبَاءِ. وَذٰلِكَ مِنْ أَبعَدِ ٱلتَّشبِيهَاتِ :

كَسَاهَا رَطِيبُ ٱلرِّيشِ فَٱعتَدَلَتْ لَهُ قِدَاحٌ كَأَعنَاقِ ٱلظِّبَاءِ ٱلفَوَارِقِ

وَعَلَى نَحوٍ مِنْ ذٰلِكَ قَولُ ٱلفَرَزدَقِ :

يَمشُونَ فِي حَلَقِ ٱلحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جُرْبُ ٱلجِمَالِ بِهَا ٱلكُحَيلُ ٱلمُشعَلُ

فَشَبَّهَ ٱلرِّجَالَ فِي دُرُوعِ ٱلزَّرَدِ بِٱلجِمَالِ ٱلجُربِ. وَهٰذَا مِنَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلبَعِيدِ ٱلسَّخِيفِ فَضلًا عَنْ أَنْ لَا مُقَارَبَةَ بَينَهُمَا فِي ٱللَّونِ. وَمِنَ ٱلتَّشبِيهَاتِ ٱلبَارِدَةِ قَولُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلمُتَنَبِّي :

وَجَرَى عَلَى ٱلْوَرَقِ ٱلنَّجِيعُ ٱلْقَانِي فَكَأَنَّهُ ٱلنَّارَنْجُ فِي ٱلْأَغْصَانِ

وَهٰذَا تَشْبِيهٌ يُنْكِرُهُ اَهْلُ ٱلتَّجْسِيمِ . وَقَدْ عَدُّوا مِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ بَلِيغَةٍ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ فِي وَصْفِ ٱلرَّوْضِ :

كَأَنَّ شَقَائِقَ ٱلنُّعْمَانِ فِيهِ ثِيَابٌ قَدْ رُوِينَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ

فَهٰذَا وَإِنْ كَانَ تَشْبِيهًا مُصِيبًا فَإِنَّ فِيهِ بَشَاعَةَ كَثْرَةِ ٱلدِّمَاءِ ٱلَّتِي تَعَافُ ٱلْأَنْفُسُ ٱللَّطِيفَةُ رُؤْيَتَهَا . وَفِي اَقْوَالِ ٱلْعَرَبِ تَشَابِيهُ تَمُجُّهَا ٱلْأَذْوَاقُ ٱلصَّحِيحَةُ وَتَنْفِرُ مِنْهَا ٱلطِّبَاعُ ٱلسَّلِيمَةُ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ وَقَدْ عَابَهُ ٱلْأَصْمَعِيُّ بَيْنَ يَدَيِ ٱلرَّشِيدِ :

نَظَرَتْ اِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا نَظَرَ ٱلْمَرِيضِ اِلَى وُجُوهِ ٱلْعُوَّدِ

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : قَدْ يُكْرَهُ تَشْبِيهُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْمَرِيضِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اَبِي مِحْجَنٍ ٱلثَّقَفِيِّ فِي قَيْنَةٍ :

وَتُرْجِعُ ٱلْعُودَ اَحْيَانًا وَتَخْفِضُهُ كَمَا يَطِيرُ ذُبَابُ ٱلرَّوْضَةِ ٱلْغَرِدُ

فَإِنَّ ٱلْقَيْنَةَ لَمْ تَرْضَ اَنْ تُشَبَّهَ نَفْسُهَا بِٱلذُّبَابِ . وَلِذٰلِكَ رَغِبَ ٱلْمُوَلَّدُونَ عَنْ تَشَابِيهِ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهَا مَعَ عَقَادَةِ ٱلتَّرْكِيبِ لَمْ تَسْفِرْ عَنْ كَبِيرِ اَمْرٍ فَخَالَفُوهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ اِلَى مَا هُوَ اَلْيَقُ بِٱلْوَقْتِ وَاَمَسُّ بِاَهْلِهِ



البحث الحادي والعشرون

في المذهب الكلامي

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَلْمَذْهَبُ ٱلْكَلَامِيُّ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْبَيَانِ هُوَ اِيرَادُ حُجَّةٍ لِلْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ اَهْلِ ٱلْكَلَامِ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَسْلِيمِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ مُقَدِّمَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْمَطْلُوبِ . وَقِيلَ : هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْبَلِيغُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ وَاِبْطَالِ دَعْوَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَصِحُّ نِسْبَتُهَا اِلَى عِلْمِ ٱلْكَلَامِ . اِذْ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ اِثْبَاتِ اُصُولِ ٱلدِّينِ بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلْقَاطِعَةِ . وَمِنْ اَوْضَحِ ٱلشَّوَاهِدِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ فِي ٱلْاَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ آلِهَةٌ اِلَّا ٱللهُ لَفَسَدَتَا . فَهٰذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ تَقُولَ لٰكِنَّهُمَا لَمْ تَفْسُدَا فَلَيْسَ اِذًا فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُ ٱللهِ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَعْرَابِيٍّ لِرَجُلٍ : اِنِّي لَمْ اَرُدَّ وَجْهِي عَنِ ٱلطَّلَبِ اِلَيْكَ فَصُنْ نَفْسَكَ عَنْ رَدِّي وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ يَعْتَذِرُ اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ اَمْرءًا لِيَ جَانِبٌ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا مَدَحْتُهُمْ   أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ   فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

يَقُولُ لِهَذَا ٱلْمَلِكِ: أَنْتَ أَحْسَنْتَ إِلَى قَوْمٍ فَمَدَحُوكَ. وَأَنَا أَحْسَنَ إِلَيَّ قَوْمٌ فَمَدَحْتُهُمْ. فَكَمَا أَنَّ مَدْحَ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ لَكَ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا فَكَذَا مَدْحِي لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا. قَالَ ٱبْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ: وَمِنْ شَوَاهِدِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ   وَنَفْسٌ يُعَاصِيهَا ٱلْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى   إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

يَقُولُ: لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ تَأْمُرُ بِٱلْخَيْرِ. وَنَفْسٌ أَمَّارَةٌ تَأْمُرُ بِٱلسُّوءِ. وَٱلْإِنْسَانُ يُعَاصِي ٱلْأَمَّارَةَ مَرَّةً وَيُطِيعُهَا أُخْرَى. وَأَنْتَ إِذَا أَمَرَتْكَ ٱلْأَمَّارَةُ بِتَرْكِ ٱلنَّدَى شَفَعَتِ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ إِلَيْهَا فِي ٱلنَّدَى فِي ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا ٱلشَّفِيعُ فِي ٱلنَّدَى مِنَ ٱلنُّفُوسِ. فَأَنْتَ أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ قِيَاسَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْكَلَامِيِّ إِمَّا حَمْلِيٌّ. وَإِمَّا شَرْطِيٌّ. فَٱلْأَقْيِسَةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ قَدِ ٱسْتَنْبَطُوهَا عَلَى صُوَرٍ: مِنْهَا مَا يُرْوَى أَنَّ أَبَا دُلَفَ قَصَدَهُ شَاعِرٌ تَمِيمِيٌّ. فَقَالَ لَهُ: مِمَّنْ أَنْتَ. فَقَالَ مِنْ تَمِيمٍ. فَقَالَ أَبُو دُلَفَ:

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا   وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ ٱلْهِدَايَةِ ضَلَّتِ

فَقَالَ لَهُ ٱلتَّمِيمِيُّ: نَعَمْ بِتِلْكَ ٱلْهِدَايَةِ جِئْتُ إِلَيْكَ. فَأَفْحَمَهُ بِدَلِيلٍ حَمْلِيٍّ أَلْزَمَهُ فِيهِ أَنَّ ٱلْمَجِيءَ إِلَيْهِ ضَلَالٌ. وَلَعَمْرِي إِنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلشَّرْطِيَّ

اوضح دلالة في هذا الباب من غيره واعذب في الذوق واسهل في التركيب. فانه جملة واقعة بعد (لو) وجوابها. وهذه الجملة على اصطلاحهم مقدمة شرطية متصلة يستدل بها على ما تقدم من الحكم كما جاء: لو تعلمون ما اعلم (يريد امور الآخرة) لضحكتم قليلًا وبكيتم كثيرًا. وتمام الدليل ان يقال: لكنكم ضحكتم كثيرًا وبكيتم قليلًا فلم تعلموا ما اعلم

ولقد زادوا على هذين القياسين القياس الفقهي وذلك ان يقاس فرع على اصل لجامع بينهما فيلزم للتساوي في الحكم. كما يحكى ان الوليد قال لبعضهم: انشد من قولك في الخمر. فانشده:

كميت اذا شجت وفي الكأس وردها
لها في عظام الشاربين دبيب
تريك القذى من دونها وهي دونه
لوجه اخيها في الاناء قطوب

فقال له الوليد: شربتها ورب الكعبة. فقال: لئن كان وصفي لها رابك لقد رابني معرفتك بها. (يقول): كما ان معرفتي بوصفها رابتك كذلك معرفتك بها رابتني



الفصل الخامس

في محاسن الانشاء ومعايبه

البحث الاوّل

في تمييز الكلام جيّدهِ من رديئهِ ونادرهِ من باردهِ

(عن كتاب الصناعتين للعسكري باختصار)

(راجع صفحة ٥١ من علم الادب)

اَلْكَلَامُ اَيَّدكَ ٱللّٰهُ يَحْسُنُ بِسَلَاسَتِهِ وَسُهُولَتِهِ وَنَصَاعَتِهِ وَتَحْسِينِ لَفظِهِ وَاِصَابَةِ مَعْنَاهُ وَجُودَةِ مَقَاطِعِهِ وَلِينِ مَعَاطِفِهِ وَٱستِوَاءِ تَقَاسِيمِهِ وَتَعَادُلِ اَطرَافِهِ وَتَشَبُّهِ اَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ وَمُوَافَقَةِ مَآخِيرِهِ لِمَبَادِئِهِ مَعَ قِلَّةِ ضَرُورَاتِهِ بَلْ عَدَمِهَا اَصلًا حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا فِي ٱلْاَلْفَاظِ اَثَرٌ . فَتَجِدُ ٱلْمَنظُومَ مِثْلَ ٱلْمَنْثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ وَحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ . فَاذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ كَذَالِكَ كَانَ بِٱلْقَبُولِ حَقِيقًا وَبِٱلتَّحَفُّظِ خَلِيقًا كَقَوْلِ ٱلْاَوَّلِ :

هُمُ ٱلْاُولَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ اَنْفُسَهُمْ   فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا اِذَا حُمِدُوا

وَقَوْلِ مَعْنِ بْنِ اَوْسٍ :

لَعَمْرُكَ مَا اَهْدَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ   وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي
وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا   وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي
وَاَعْلَمُ اَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ   مِنَ ٱلدَّهْرِ اِلَّا قَدْ اَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مُؤْثِرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ وَأُوثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ ٱلْغِنَى إِذَا كَانَتِ ٱلْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

وَقَالَ ٱلْآخَرُ :

ذَرِينِي أَسِيرُ فِي ٱلْبِلَادِ لَعَلَّنِي أُصِيبُ غِنًى فِيهِ لِذِي ٱلْحَقِّ مَحْمَلُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِعْ دِفَاعًا لِحَادِثٍ تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَيَّامُ فَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ
أَلَيْسَ كَثِيرًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

وَمِمَّا هُوَ فَصِيحٌ فِي لَفْظِهِ جَيِّدٌ فِي وَصْفِهِ قَوْلُ ٱلشَّنْفَرَى :

أُطِيلُ مِطَالَ ٱلْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ وَأَضْرِبُ عَنْهُ ٱلْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ
وَلَوْلَا ٱجْتِنَابُ ٱلْعَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلٰكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُنِي عَلَى ٱلضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وَقَوْلُ آخَرَ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمَا إِنْ قَتَلْنَاهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْهُمُ وَلٰكِنْ بِأَوْفَى لِلطِّعَانِ وَأَكْرَمَا

وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ : نَظِيرُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَلَستُ بِجَائِي، ابدًا طَعامًا   حِذارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعامُ

وَهٰذا وَإِنْ كانَ نَظِيرَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ فَإِنَّهُ دُونَهُ لِمَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ لَفظِ غَدٍ. فَإِنْ كانَ ٱلْكَلامُ قَدْ جَمَعَ ٱلْعُذُوبَةَ وَٱلْجَزالَةَ وَٱلسُّهُولَةَ وَٱلرَّصانَةَ مَعَ ٱلسَّلاسَةِ وَٱلنَّصاعَةِ. وَٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلرَّوْنَقِ وَٱلطُّلاوَةِ. وَسَلِمَ مِنْ سُخْفِ ٱلتَّأْلِيفِ. وَبَعُدَ مِنْ سَماجَةِ ٱلتَّرْكِيبِ. وَرَدَ عَلَى ٱلْفَهْمِ ٱلثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ. وَعَلَى ٱلسَّمْعِ ٱلْمُصِيبِ ٱسْتَوْعَبَهُ وَلَمْ يَمُجَّهُ. وَٱلنَّفْسُ تَقْبَلُ ٱللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ ٱلْغَلِيظِ وَتَقْلَقُ مِنَ ٱلْجَاسِي ٱلْبَشِعِ. وَجَمِيعُ جَوارِحِ ٱلْبَدَنِ وَحَواسِّهِ يَسْكُنُ إِلَى مَا يُوافِقُهُ وَيَنْفِرُ عَمَّا يُضادُّهُ وَيُخالِفُهُ. وَٱلْعَيْنُ تَأْلَفُ ٱلْحَسَنَ وَتَقْذَى بِٱلْقَبِيحِ. وَٱلْأَنْفُ يَرْتاحُ لِلطَّيِّبِ وَيَنْفِرُ لِلْمُنْتِنِ. وَٱلْفَمُ يَلْتَذُّ بِٱلْحُلْوِ وَيَمُجُّ ٱلْمُرَّ. وَٱلسَّمْعُ يَتَشَوَّقُ لِلصَّوابِ ٱلرَّائِعِ وَيَنْزَوِي عَنِ ٱلْجَهِيرِ ٱلْهائِلِ. وَٱلْيَدُ تَنْعَمُ بِٱللَّيِّنِ وَتَتَأَذَّى بِٱلْخَشِنِ. وَٱلْفَهْمُ يَأْنَسُ مِنَ ٱلْكَلامِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ إِلَى ٱلْمَأْلُوفِ وَيُصْغِي إِلَى ٱلصَّوابِ وَيَهْرُبُ مِنَ ٱلْمُحالِ وَيَنْقَبِضُ عَنِ ٱلْوَخِمِ وَيَتَأَخَّرُ عَنِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ. وَلا يَقْبَلُ ٱلْكَلامَ ٱلْمُضْطَرِبَ إِلَّا ٱلْفَهْمُ ٱلْمُضْطَرِبُ وَٱلرَّوِيَّةُ ٱلْفاسِدَةُ. وَلَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي إِيرادِ ٱلْمَعانِي لِأَنَّ ٱلْمَعانِيَ يَعْرِفُها ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ وَٱلْقَرَوِيُّ وَٱلْبَدَوِيُّ وَإِنَّما هُوَ فِي جُودَةِ ٱللَّفْظِ وَصَفائِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهائِهِ وَنَزاهَتِهِ وَنَقائِهِ وَكَثْرَةِ طُلاوَتِهِ وَمائِهِ مَعَ صِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْخُلُوِّ مِنْ أَوَدِ ٱلنَّظْمِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَوابًا. وَلا يُقْنَعُ مِنَ ٱللَّفْظِ بِذٰلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفْناهُ مِنْ نُعُوتِهِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ. أَلا تَرَى

اِلَى قَوْلِ حَبِيبٍ :

مُسْتَسْلِمٌ لِلّٰهِ سَائِسُ اُمَّةٍ   بِذَوِي تَجَهْضُمِهَا لَهُ ٱسْتِسْلَامُ

فِيهِ صَوَابُ ٱللَّفْظِ وَلَيْسَ هُوَ بِحَسَنٍ وَلَا مَقْبُولٍ . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى اَنَّ مَدَارَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ اَنَّ ٱلْخُطَبَ ٱلرَّائِعَةَ وَٱلْاَشْعَارَ ٱلرَّائِقَةَ مَا عُمِلَتْ لِاِفْهَامِ ٱلْمَعَانِي فَقَطْ لِاَنَّ ٱلرَّدِيءَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ جَيِّدِهَا فِي ٱلْاِفْهَامِ وَاِنَّمَا يَدُلُّ حُسْنُ ٱلْكَلَامِ وَاِحْكَامُ صَنْعَتِهِ وَرَوْنَقُ اَلْفَاظِهِ وَجَوْدَةُ مَطَالِعِهِ وَحُسْنُ مَقَاطِعِهِ وَبَدِيعُ مَبَادِئِهِ وَغَرِيبُ مَبَانِيهِ عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَفَهْمِ مُنْشِئِهِ . وَاَكْثَرُ هٰذِهِ ٱلْاَوْصَافِ تَرْجِعُ اِلَى ٱلْاَلْفَاظِ دُونَ ٱلْمَعَانِي . وَتَوَخِّي صَوَابِ ٱلْمَعْنَى اَحْسَنُ مِنْ تَوَخِّي هٰذِهِ ٱلْاُمُورِ فِي ٱلْاَلْفَاظِ . فَلِهٰذَا تَاَنَّقَ ٱلْكَاتِبُ فِي ٱلرِّسَالَةِ وَٱلْخَطِيبُ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَٱلشَّاعِرُ فِي ٱلْقَصِيدَةِ وَهُمْ يُبَالِغُونَ فِي تَجْوِيدِهَا . وَيَغْلُونَ فِي تَرْتِيبِهَا لِيَدُلُّوا عَلَى بَرَاعَتِهِمْ وَحِذْقِهِمْ بِصِنَاعَتِهِمْ . وَلَوْ كَانَ ٱلْاَمْرُ فِي ٱلْمَعَانِي لَطَرَحُوا اَكْثَرَ ذٰلِكَ فَرَبِحُوا كَدًّا كَثِيرًا وَاَسْقَطُوا عَنْ اَنْفُسِهِمْ تَعَبًا طَوِيلًا . وَلِهٰذَا دَلِيلٌ آخَرُ : اَنَّ ٱلْكَلَامَ اِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلْوًا عَذْبًا وَسَلِسًا سَهْلًا وَمَعْنَاهُ وَسَطًا دَخَلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْجَيِّدِ وَجَرَى مَعَ ٱلرَّائِعِ ٱلنَّادِرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ   وَمَسَّحَ بِٱلْاَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ ٱلْمَهَارِي رِحَالُنَا   وَلَمْ يَنْظُرِ ٱلْغَادِي ٱلَّذِي هُوَ رَائِحُ

اَخَذْنَا بِاَطْرَافِ ٱلْاَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَتْ بِاَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْاَبَاطِحُ

وَلَيْسَ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظِ كَبِيرُ مَعْنًى وَهِيَ رَائِقَةٌ مُعْجِبَةٌ . وَاِنَّمَا

هيَ : وَلَمَّا قَضَيْنَا ٱلْحَجَّ وَمَسَّحْنَا ٱلْأَرْكَانَ وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ ٱلْإِبِلِ وَلَمْ يَنْتَظِرْ بَعْضُنَا بَعْضًا جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُ بِنَا ٱلْإِبِلُ فِي بُطُونِ ٱلْأَوْدِيَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَعْنَى صَوَابًا وَٱللَّفْظُ بَارِدًا وَفَاتِرًا وَٱلْفَاتِرُ شَرٌّ مِنَ ٱلْبَارِدِ كَانَ مُسْتَهْجَنًا مَلْفُوظًا وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا . وَٱلْبَارِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَقَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا   مَا قَطَّرَ ٱلْفَارِسُ إِلَّا أَنَا
شَكَكْتُ بِٱلرُّمْحِ سَرَابِيلَهُ   وَٱلْخَيْلُ تَعْدُو زِيَمًا حَوْلَنَا

وَقَوْلِ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَاتَ وَٱللهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبِ   رَحِمَ ٱللهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبِ
يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي   يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمَعَانِي إِذَا ٱسْتُكْرِهَتْ قَهْرًا وَفِي ٱلْأَلْفَاظِ إِذَا جَرَتْ قَسْرًا . وَلَا خَيْرَ فِيمَا أُجِيدَ لَفْظُهُ إِذَا سَخُفَ مَعْنَاهُ . وَلَا فِي غَرَابَةِ ٱلْمَعْنَى إِلَّا إِذَا شَرُفَ لَفْظُهُ مَعَ وُضُوحِ ٱلْمَغْزَى وَظُهُورِ ٱلْمَقْصِدِ . وَقَدْ غَلَبَ ٱلْجَهْلُ عَلَى قَوْمٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ بِكَدٍّ وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِيَةً غَرِيبَةً . وَيَسْتَحْقِرُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱلسَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا وَلِهٰذَا قِيلَ : أَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّهْلُ ٱلْمُمْتَنِعُ . وَصَفَ ٱلْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَمْرَو ٱبْنَ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ بَلَاغَتِهِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَ كُتُبِهِ فَإِذَا رَامَهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ . حَدَّثَنَا ٱلْحَسَنُ بْنُ

مُخْلِدٍ قَالَ: أَنْشَدَنَا إِبرَاهِيمُ بنُ العَبَّاسِ لِخَالِهِ العَبَّاسِ بنِ الأَحْنَفِ:

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سُئِلَ لَمْ م يَبْذُلْ وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبِ
صَبٌّ بِعِصْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ البَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ: هٰذَا الشِّعْرُ الحَسَنُ المَعْنَى السَّهْلُ اللَّفْظِ العَذْبُ المُسْتَمَعِ القَلِيلُ النَّظِيرِ العَزِيزُ التَّشْبِيهِ المُطْمِعُ المُمْتَنِعُ البَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ الصَّعْبُ فِي سُهُولَتِهِ. (قَالَ) فَجَعَلْنَا نَقُولُ: هٰذَا الكَلَامُ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ. وَمِنَ الكَلَامِ المَطْبُوعِ السَّهْلِ مَا وَقَّعَ بِهِ عَلِيُّ بنُ عِيسَى: قَدْ بَلَّغْتُكَ أَقْصَى طَلِبَتِكَ وَأَنَلْتُكَ غَايَةَ بُغْيَتِكَ وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَسْتَقِلُّ كَثِيرِي لَكَ وَتَسْتَقْبِحُ حَسَنِي فِيكَ. فَأَنْتَ كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ:

كَالْحُوتِ لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي البَحْرِ فَمُهْ

وَمِنَ المَنْظُومِ المُطْمِعِ قَوْلُ البُحْتُرِيِّ:

أَيُّهَا الرَّاغِبُ الَّذِي طَلَبَ الجُو دَ فَأَبْلَى كُومَ المَطَايَا وَأَنْضَى
رِدْ حِيَاضَ الإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا يَسَعُ الرَّاغِبِينَ طُولًا وَعَرْضَا
هُوَ أَنْدَى مِنَ الغَمَامِ وَأَوْحَى وَقَعَاتٍ مِنَ الحُسَامِ وَأَمْضَى
يَتَوَخَّى الإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيعُ الإِلٰهَ بَسْطًا وَقَبْضَا
فَضَّلَ اللّٰهُ جَعْفَرًا بِخِلَالٍ جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى النَّاسِ فَرْضَا
وَأَرَى المَجْدَ بَيْنَ عَارِفَةٍ مِنْكَ م تُرَجَّى وَعَزْمَةٍ مِنْكَ تُمْضَى

وَقَوْلُهُ:

خَلَقَ اللّٰهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ الدُّنْيَا م سَدَادًا وَقَيِّمَ الدِّينِ رُشْدَا
أَكْرَمُ النَّاسِ شِيمَةً وَأَتَمُّ م النَّاسِ حِلْمًا وَأَكْثَرُ النَّاسِ رِفْدَا

هُوَ بَحْرُ ٱلسَّمَاحِ وَٱلْجُودِ فَٱزْدَدْ   مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ ٱلْفَقْرِ بُعْدَا
يَا ثِمَالَ ٱلدُّنْيَا عَطَاءً وَبَذْلًا   وَكَمَالَ ٱلدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدَا
إِبْقَ عُمْرَ ٱلزَّمَانِ حَتَّى نُؤَدِّي   شُكْرَ إِحْسَانِكَ ٱلَّذِي لَا يُؤَدَّى

وَأَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلْمُخْتَارُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهُوَ ٱلَّذِي تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ إِذَا سَمِعَتْهُ وَلَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهَا. فَمِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْمُخْتَارِ قَوْلُ مُسْلِمٍ:

وَرَدْنَا رِوَاقَ ٱلْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفَرٍ   فَحَطَّ إِلَيْنَا ٱلْجَزْلَ نَائِلُهُ ٱلْجَزْلُ
بِكَفَّيْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ ٱلْغِنَى   وَيُسْتَنْزَلُ ٱلنُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ ٱلنَّصْلُ
وَيُسْتَعْطَفُ ٱلْأَمْرُ ٱلْأَبِيُّ بِحَزْمِهِ   إِذَا ٱلْأَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْضٌ وَلَا فَتْلُ

وَمِمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلْمَرَّارِ ٱلْفَقْعَسِيِّ:

لَا تَسْأَلِي ٱلْقَوْمَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ   قَدْ يُقْتِرُ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا وَهُوَ مَحْمُودُ
أَمْضِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدِي سَلَفَتْ   وَفِي أَرُومَتِهِ مَا يُنْبِتُ ٱلْعُودُ

فَهٰذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَامَّةِ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ ٱلْغَرَضَ وَيَقِفُونَ عَلَى أَكْثَرِ مَعَانِيهِ لِحُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ

وَمِنَ ٱلنَّثْرِ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ: أَعْطَانَا ٱلدَّهْرُ فَأَسْرَفَ. ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسَفَ. وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ: وَأَنَا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ. وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ. وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ. وَلَا يَسْتَدْعِي بِرَّكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ. وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ إِلَّا بِٱلْإِقْرَارِ بِٱلذَّنْبِ. وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَّا بِٱلْاعْتِرَافِ. نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ ٱلْحَدَاثَةِ. وَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلْحُنْكَةُ. وَبَاعَدَتْنِي مِنْكَ ٱلثِّقَةُ بِٱلْأَيَّامِ فَأَدَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلضَّرُورَةُ. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ ٱلْعُذْرِ

وَتُجدِدَ ٱلنِّعمَةَ بِاَطِرَاحِ ٱلحِقدِ فَاِنَّ قَدِيمَ ٱلحُرمَةِ وَحدِيثَ ٱلتَّوبَةِ يَمحَقَانِ مَا بَينَهُمَا مِنَ ٱلاِسَاءةِ . فَاِنَّ اَيَّامَ ٱلقُدرَةِ وَاِنْ طَالَتْ قَصِيرَةٌ وَٱلمُتعَةَ بِهَا وَاِنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةٌ فَعَلَتَ . وَفِي هٰذَا ٱلكَلَامِ وَمَا قَبلَهُ قُوَّةٌ فِي سُهُولَةٍ . وَمِمَّا هُوَ اَجزَلُ مِنْ هٰذَا قَولُ ٱلشَّعبِيِّ لِلحَجَّاجِ وَاَرَادَ قَتلَهُ لِخُرُوجِهِ عَلَيهِ مَعَ ٱبنِ ٱلاَشعَثِ : اَجدَبَ بِنَا ٱلجَنَابُ وَاَحزَنَ بِنَا ٱلمَنزِلُ وَٱستَحلَسنَا ٱلحَذَرَ وَٱكتَحَلنَا ٱلسَّهرَ . وَاَصَابَتنَا فِتنَةٌ وَلَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَرَةً اَتقِيَاء وَلَا فَجَرَةً اَقوِيَاء . فَعَفَا عَنهُ . وَاَجوَدُ ٱلكَلَامِ مَا يَكُونُ جَزلًا سَهلًا لَا يَنغَلِقُ مَعنَاهُ وَلَا يُستَبهَمُ مَغزَاهُ . وَلَا يَكُونُ مَكدُودًا مُستَكرَهًا وَمُتَوَعِّرًا مُتَقَعِّرًا . وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلغَثَاثَةِ عَارِيًا مِنَ ٱلرَّثَاثَةِ . وَٱلكَلَامُ اِذَا كَانَ لَفظُهُ غَثًّا وَمَعرِضُهُ رَثًّا كَانَ مَردُودًا وَلَو ٱحتَوَى عَلَى اَجَلِّ مَعنًى وَاَنبَلِهِ وَاَرفَعِهِ وَاَفضَلِهِ كَقَولِهِ :

لَمَّا اَطعنَاكُمُ فِي سُخطِ خَالِقِنَا ... لَاشَكَّ سُلَّ عَلَينَا سَيفُ نِقمَتِهِ

وَقَولِ ٱلآخَرِ :

اَرَى رِجَالًا بِاَدنَى ٱلدِّينِ قَدْ قَنِعُوا ... وَلَا اَرَاهُمْ رَضُوا فِي ٱلعَيشِ بِٱلدُّونِ
فَٱستَغنِ بِٱلدِّينِ عَنْ دُنيَا ٱلمُلُوكِ كَمَا م ... ٱستَغنَى ٱلمُلُوكُ بِدُنيَاهُمْ عَنِ ٱلدِّينِ

وَلَا يَدخُلُ هٰذَا فِي جُملَةِ ٱلمُختَارِ وَمَعنَاهُ كَمَا تَرَى نَبِيلٌ فَاضِلٌ جَلِيلٌ . وَاَمَّا ٱلجَزلُ ٱلرَّدِيءُ ٱلفَجُّ ٱلَّذِي يَنبَغِي تَركُ ٱستِعمَالِهِ فَمِثلُ قَولِ تَأَبَّطَ شَرًّا وَكَانَ خَرَجَ مَعَ صَاحِبَينِ لَهُ فَقُتِلَا فِي ٱلغَزوِ وَرَجَعَ هُوَ سَالِمًا :

اِذَا مَا تَرَكتُ صَاحِبَيَّ لِثَلَاثَةٍ ... اَو ٱثنَينِ مِثلَينَا فَلَا اُبتُ آمِنَا
وَلَمَّا سَمِعتُ ٱلعُوصَ تَدعُو تَنَفَّرَتْ ... عَصَافِيرُ رَأسِي مِنْ غُوَاةٍ فُرَاتِنَا

وَتَحْثَتُ مَشْغُوفَ ٱلنِّجَاءِ كَأَنَّنِي   هِجَفٌّ رَأَى قَصْرًا سِمَاكًا وَدَاجِنَا
مِنَ ٱلْحُصِّ هُزْرُوفٌ كَأَنَّ عِفَاءَهُ   إِذَا ٱسْتَدْرَجَ ٱلْفَيْفَا وَمَدَّ ٱلْمَغَابِنَا
أَزَجُّ زَلُوجٌ هِزْرَفِيٌّ زَفَازِفٌ   هِزَفٌّ يَبِذُّ ٱلنَّاجِيَاتِ ٱلصَّوَافِنَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْبَغِيضِ ٱلْجِلْفِ ٱلْفَاسِدِ ٱلنَّسْجِ ٱلْقَبِيحِ ٱلرَّصْفِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُجْتَنَبَ مِثْلُهُ وَتَمْيِيزُ ٱلْأَلْفَاظِ شَدِيدٌ . وَلَوْلَا كَرَاهَةُ ٱلْإِطَالَةِ وَتَخَوُّفُ ٱلْإِمْلَالِ لَزِدْتُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَلٰكِنْ يَكْفِي مِنَ ٱلْبَحْرِ جَرْعَةٌ . قَالُوا : وَجِيزُ ٱلْكَلَامِ مَا قَلَّ وَجَلَّ وَدَلَّ وَلَمْ يُمَلَّ

البحث الثاني

في التنبيه على خطاء المعاني وصوابها

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

إِنَّ ٱلْكَلَامَ أَلْفَاظٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَتُعَبِّرُ عَنْهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى كَحَاجَتِهِ إِلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ . لِأَنَّ ٱلْمَدَارَ بَعْدَ ٱللَّفْظِ عَلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى. وَٱلْمَعَانِي تَحُلُّ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحَلَّ ٱلْأَبْدَانِ وَٱلْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى ٱلْكُسْوَةِ . وَمَرْتَبَةُ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ عَرَفَ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى وُجُوهِهَا بِلُغَةٍ مِنَ ٱللُّغَاتِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى تَهَيَّأَ لَهُ فِيهَا مِنْ صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ ٱلْأُولَى . أَلَا تَرَى أَنَّ عَبْدَ ٱلْحَمِيدِ ٱلْكَاتِبَ ٱسْتَخْرَجَ أَمْثِلَةَ ٱلْكِتَابَةِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ فَحَوَّلَهَا إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . فَلَا يَكْمُلُ لِصِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ إِلَّا مَنْ يَكْمُلُ لِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَتَصْحِيحِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ .

وَٱلْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ يَبْتَدِعُهُ صَاحِبُ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ أَوْ رُسُومٌ قَائِمَةٌ فِي أَمْثِلَةٍ مَاثِلَةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْحَادِثَةِ وَيَتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ ٱلْأُمُورِ ٱلطَّارِئَةِ .وَٱلْآخَرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالٍ تَقَدَّمَ وَرَسْمٍ فُرِضَ. وَيَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ ٱلْإِصَابَةُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَتُتَوَخَّى فِيهِ ٱلصُّورَةُ ٱلْمَقْبُولَةُ وَٱلْعِبَارَةُ ٱلْمُسْتَحْسَنَةُ وَلَا يَتَّكِلَ فِيمَا ٱبْتَكَرَهُ عَلَى فَضِيلَةِ ٱبْتِكَارِهِ إِيَّاهُ . وَلَا يَغُرُّهُ ٱبْتِدَاعُهُ لَهُ فَيُسَاهِلَ نَفْسَهُ فِي تَهْجِينِ صُورَتِهِ فَيَذْهَبَ حُسْنُهُ وَيُطْمَسَ نُورُهُ وَيَكُونُ فِيهِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلذَّمِّ مِنْهُ إِلَى ٱلْحَمْدِ . وَٱلْمَعَانِي بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى وُجُوهٍ : مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : رَأَيْتُ زَيْدًا . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : قَدْ زَيْدًا رَأَيْتُ. وَإِنَّمَا قَبُحَ لِأَنَّكَ أَفْسَدتَّ ٱلنِّظَامَ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمُ ٱلنَّظْمِ وَهُوَ كَذِبٌ مِثْلُ قَوْلِكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَشَرِبْتُ مَاءَ ٱلْبَحْرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَالٌ كَقَوْلِكَ : آتِيكَ أَمْسِ وَأَتَيْتُكَ غَدًا . وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ فَاسِدٌ . وَلَيْسَ كُلُّ فَاسِدٍ مُحَالًا. أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ : قَامَ زَيْدٍ. فَاسِدٌ وَلَيْسَ بِمُحَالٍ . وَٱلْمُحَالُ مَا لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ ٱلْبَتَّةَ كَقَوْلِكَ : ٱلدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ . وَأَمَّا قَوْلُكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَأَشْبَاهُهُ وَأَمْثَالُهُ فَكَذِبٌ . وَلَيْسَ بِمُحَالٍ إِنْ جَازَ أَنْ يَزِيدَ ٱللّٰهُ فِي قُدْرَتِكَ فَتَحْمِلَهُ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ كَذِبًا مُحَالًا وَهُوَ قَوْلُكَ : رَأَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا وَمَرَرْتُ بِيَقْظَانَ نَائِمٍ . فَتَصِلُ كَذِبًا بِمُحَالٍ فَصَارَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَذِبُ هُوَ ٱلْمُحَالَ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ

مِنْهُمَا مَعْنًى عَلَى حِيَالِهِ . وَذٰلِكَ لِأَنَّ بَعْضَهَا عُقِدَ بِبَعْضٍ حَتَّى صَارَا كَلَامًا وَاحِدًا. وَمِنْهَا الْغَلَطُ وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: ضَرَبَنِي زَيْدٌ . وَأَنْتَ تُرِيدُ: ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَغَلِطْتَ . فَإِنْ تَعَمَّدْتَ ذٰلِكَ كَانَ كَذِبًا . وَلِلْخَطَإِ صُوَرٌ مُخْتَلِفَةٌ نَبَّهْتُ عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهَا فِي هٰذَا الْفَصْلِ وَبَيَّنْتُ وُجُوهَهَا وَشَرَحْتُ أَبْوَابَهَا لِتَقِفَ عَلَيْهَا فَتَجْتَنِبَهَا كَمَا عَرَّفْتُكَ بِمَوَاضِعِ الصَّوَابِ لِتَعْتَمِدَهَا. وَلِيَكُونَ فِيمَا أَوْرَدْتُ دَلَالَةٌ عَلَى أَمْثَالِهِ مِمَّا تَرَكْتُ . وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الْخَطَأَ كَانَ جَدِيرًا بِالْوُقُوعِ فِيهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقَدِيمَ بِعَسْعَسَا ... كَأَنِّي أُنَادِي أَوْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

هٰذَا مِنَ التَّشْبِيهِ الْفَاسِدِ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ : كَلَّمْتُ حَجَرًا فَلَمْ يُجِبْ فَكَأَنَّهُ كَانَ حَجَرًا . وَالَّذِي جَاءَ بِهِ امْرُؤُ الْقَيْسِ مَقْلُوبٌ . وَالْجَيِّدُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ فِي امْرَأَةٍ :

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ ... إِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتِ

كَأَنِّي أُنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ ... مِنَ الصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا الْعُصْمُ زَلَّتِ

فَشَبَّهَ الْمَرْأَةَ عِنْدَ السُّكُوتِ وَالتَّغَافُلِ بِالصَّخْرَةِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ أَحْمَرَ :

لَمْ يَدْرِ مَا نَسْجُ الْيَرَنْدَجِ قَبْلَهَا ... وَدِرَاسَ أَعْوَصَ دَارِسٍ مُتَجَدِّدِ

ظَنَّ أَنَّ الْيَرَنْدَجَ يُنْسَجُ . وَالْيَرَنْدَجُ جِلْدٌ أَسْوَدُ يُعْمَلُ مِنْهَا الْخِفَافُ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ وَأَصْلُهُ : رَنْدَه . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَمِنْ أَنَابِيبِ تُفَّاحٍ وَرُمَّانِ

ظَنَّ أَنَّ الرُّمَّانَ وَالتُّفَّاحَ أَنَابِيبُ . وَقِيلَ : إِنَّ الْأَنَابِيبَ الطَّرَائِقُ الَّتِي فِي الرُّمَّانِ . وَإِذَا حُمِلَ عَلَى هٰذَا الْوَجْهِ صَحَّ الْمَعْنَى . وَمِمَّا أُخِذَ عَلَى

امرئ القيس قوله في الفرس :

فللسوط ألهوب وللساق درة ... وللزجر منه وقع أخرج مهذب

فلو وصف اخس حمار واضعفه ما زاد على ذلك . والجيد قوله :

على سابح يعطيك قبل سؤاله ... أفانين جري غير كز ولا واني

وما سمعنا اجود ولا ابلغ من قوله : افانين جري. وقول علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه ... يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك طريدته وهو ثان من عنانه لم يضربه بسوط ولم يمره بساق ولم يزجره بصوت ومما يعاب قول الاخطل :

وقد جعل الله الخلافة منهم ... لأبلج لا عاري الخوان ولا جدب

يقوله في عبد الملك . ومثل هذا لا يمدح به الملوك . وانما تمدح الملوك بمثل قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى اجل من الدهر

له راحة لو ان معشار جودها ... على البر كان البر اندى من البحر

ومن الخطإ قول جنادة :

من حبه اتمنى ان يلاقيني ... من نحو بلدته ناع فينعاه

لكي يكون فراق لا لقاء له ... وتضمر النفس يأسا ثم تسلاه

فاذا تمنى المحب لحبيبه الموت فما عسى ان يتمنى المبغض لبغيضه . وشتان ما بين هذا وبين من يقول :

ألا ليتنا عشنا جميعا وكان بي ... من الداء ما لا يعرف الناس ما بيا

فهذا اقرب الى الصواب ولو ان جنادة كان يتمنى وصله ولقاءه

لَكَانَ قَدْ قَضَى وَطَرًا مِنَ ٱلْمُنَى وَلَمْ تَلْزَمْهُ ٱلْهُجْنَةُ. كَمَا قَالَ ٱلعَبَّاسُ ٱبْنُ ٱلْأَحْنَفِ :

فَإِنْ تَبْخَلُوا عَنِّي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ ... وَبِٱلْوَصْلِ مِنْكُمْ كَيْ أُصَبَّ وَأَحْزَنَا

فَإِنِّي بِلَذَّاتِ ٱلْمُنَى وَنَعِيمِهَا ... أَعِيشُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ ٱللهُ بَيْنَنَا

وَمِنْ وَضْعِ ٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

يَمْشِي بِهَا كُلُّ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ ... مَشْيَ ٱلْهَرَابِذِ حَجُّوا بِيعَةَ ٱلزُّورِ

فَٱلْغَلَطُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا أَنَّ ٱلْهَرَابِذَ ٱلْمَجُوسُ لَا ٱلنَّصَارَى. وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْبِيعَةَ لِلنَّصَارَى لَا لِلْمَجُوسِ. وَٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ ٱلْأَصْنَامَ وَلَا ٱلْمَجُوسُ. وَمِنَ ٱلْمُحَالِ ٱلَّذِي لَا وَجْهَ لَهُ قَوْلُ ٱلْقَسِّ :

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا ... يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأُقْبَرُ

وَهٰذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ قَائِلٍ لَوْ قَالَ : إِذَا دَخَلَ زَيْدٌ ٱلدَّارَ دَخَلَ عَمْرٌو قَبْلَهُ وَهٰذَا عَيْنُ ٱلْمُحَالِ ٱلْمُمْتَنِعِ ٱلَّذِي لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى مُخَالَفَةُ ٱلْعُرْفِ وَذِكْرُ مَا لَيْسَ فِي ٱلْعَادَةِ كَقَوْلِ ٱلْمَرَّارِ :

وَخَالٍ عَلَى خَدَّيْهِ يَبْدُو كَأَنَّهُ ... سَنَا ٱلْبَدْرِ فِي دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

وَٱلْمَعْرُوفُ أَنَّ ٱلْخِيلَانَ سُودٌ أَوْ سُمْرٌ وَٱلْخُدُودَ ٱلْحَسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْبِيضُ. فَأَتَى هٰذَا ٱلشَّاعِرُ بِقَلْبِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنَ ٱلْمَعَانِي مَا يَكُونُ مُقَصِّرًا غَيْرَ بَالِغٍ مَبْلَغَ غَيْرِهِ فِي ٱلْإِحْسَانِ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَدِيحِ عُدُولُ ٱلْمَادِحِ عَنِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلزِّينَةِ. كَمَا قَالَ

ٱبْنُ قَيسِ ٱلرُّقَيَّاتِ فِي عَبدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَأْتَلِقُ ٱلتَّاجُ فَوقَ مَفرِقِهِ   عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ ٱلذَّهَبُ

فَغَضِبَ عَبدُ ٱلْمَلِكِ وَقَالَ : قَدْ قُلْتَ فِي مُصْعَبٍ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللهِ   تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فَأَعطَيْتَهُ ٱلْمَدحَ بِكَشْفِ ٱلْغُمَمِ وَجَلَاءِ ٱلظُّلَمِ وَأَعطَيْتَنِي مَا لَا فَخْرَ فِيهِ وَهُوَ ٱعْتِدَالُ ٱلتَّاجِ فَوْقَ جَبِينِي ٱلَّذِي هُوَ كَالذَّهَبِ فِي ٱلنَّضَارَةِ .

وَمِثْلُ ذٰلِكَ قَوْلُ أَيْمَنَ بْنِ خُرَيْمٍ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَا ٱبْنَ ٱلْمَكَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا   وَٱبْنَ ٱلْخَلَائِفِ وَٱبْنَ كُلِّ قَلَمَّسِ

مِنْ فَرْعِ آدَمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ   حَتَّى ٱنْتَهَيْتَ إِلَى أَبِيكَ ٱلْعَنْبَسِ

مَرْوَانَ إِنَّ قَنَاتَهُ خَطِّيَّةٌ   غُرِسَتْ أَرُومَتُهَا أَعَزَّ ٱلْمَغْرِسِ

وَبَنَيْتَ عِنْدَ مَقَامِ رَبِّكَ قُبَّةً   خَضْرَاءَ كُلِّلَ تَاجُهَا بِٱلْفُسْفُسِ

فَسَمَاؤُهَا ذَهَبٌ وَأَسْفَلُ أَرْضِهَا   وَرِقٌ يُلَأْلَأُ فِي صَمِيمِ ٱلْحِنْدِسِ

فَمَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَدْحِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ سُؤْدَدَ ٱلْآبَاءِ وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْأَبْنَاءِ . وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلْعِصَامِيُّ كَٱلْعِظَامِيِّ . وَرُبَّمَا كَانَ سُؤْدَدُ ٱلْوَالِدِ وَفَضِيلَتُهُ نَقِيصَةً لِلْوَلَدِ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْوَالِدِ . وَيَكُونُ ذِكْرُ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَاضِلِ تَقْرِيعًا لِلْوَلَدِ ٱلنَّاقِصِ .

وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تَكُونُ كَأَبِيكَ . فَقَالَ : لَيْتَ أَبِي لَمْ يَكُنْ ذَا فَضْلٍ فَإِنَّ فَضْلَهُ صَارَ نَقْصًا لِي . وَقَدْ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَى وَالِدُ ٱلصِّدْ   قِ وَأَحْيَا فَعَالَهُ ٱلْمَوْلُودُ

وَقَالَ غَيْرُهُ فِي خِلَافِهِ :

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي شَرَفٍ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلٰكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَتْ مَقَابِحُ أَخْلَاقٍ خُصِصْتَ بِهَا عَلَى مَحَاسِنَ أَبْقَاهَا أَبُوكَ لَكَا
لَئِنْ تَقَدَّمَ أَبْنَاءُ ٱلْكِرَامِ بِهِ لَقَدْ تَقَدَّمَ آبَاءُ ٱللِّئَامِ بِكَا

ثُمَّ ذَكَرَ أَيْنَ بِنَاءُ قُبَّةٍ حَسَنَةٍ وَلَيْسَ بِنَاءُ ٱلْقِبَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جُودٍ وَكَرَمٍ . بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَبْنِيَ ٱللَّئِيمُ ٱلْبَخِيلُ ٱلْأَبْنِيَةَ ٱلنَّفِيسَةَ وَيَتَوَسَّعَ فِي ٱلنَّفَقَةِ عَلَى ٱلدُّورِ ٱلْحَسَنَةِ مَعَ مَنْعِ ٱلْحَقِّ وَرَدِّ ٱلسَّائِلِ وَلَيْسَ ٱلْيَسَارُ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مَدْحًا حَقِيقِيًّا . أَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ أَشْجَعُ ٱلسُّلَمِيُّ :

يُرِيدُ ٱلْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي ٱلْغِنَى وَلٰكِنَّ مَعْرُوفَهُ أَوْسَعُ

وَٱلْجَيِّدُ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

هُنَالِكَ إِنْ يَسْتَخْوِلُوا ٱلْمَالَ يُخْوِلُوا وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا
وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

فَلَمَّا ٱسْتَتَمَّ وَصْفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْمَقَالِ وَتَصْدِيقِ ٱلْقَوْلِ بِٱلْفِعْلِ وَصَفَهُمْ بِحُسْنِ ٱلْوُجُوهِ ثُمَّ قَالَ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

فَلَمْ يُخْلِ مُكْثِرًا مِنْهُمْ وَلَا مُقِلًّا مِنْ بِرٍّ وَفَضْلٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

فَوَصَفَهُمْ بِٱلْحِلْمِ ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَاعِدٌ رَشَدْتَ فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

فَوَصَفَهُمْ أَيْضًا بِٱلتَّضَافُرِ وَٱلتَّعَاوُنِ فَلَمَّا أَتَى بِهٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ ٱلنَّفِيسَةِ ذَكَرَ فَضْلَ آبَائِهِمْ فَقَالَ :

وَمَا يَكُ مِنْ فَضْلٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُ مَرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودٌ لَهُمْ فِي غِيلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ
هُمُ ٱلْمَانِعُونَ ٱلْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا ... لِجَارِهِمِ فَوْقَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أُعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا
وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ ... وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا
ثَلَاثٌ بِأَمْثَالِ ٱلْجِبَالِ حِبَاهُمْ ... وَأَحْلَامُهُمْ مِنْهَا لَدَى ٱلْوَزْنِ أَثْقَلُ

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

عَلَّمَ ٱلْغَيْثَ ٱلنَّدَى حَتَّى إِذَا ... مَا حَكَاهُ عَلَّمَ ٱلْبَأْسَ ٱلْأَسَدْ
فَلَهُ ٱلْغَيْثُ مُقِرٌّ بِٱلنَّدَى ... وَلَهُ ٱللَّيْثُ مُقِرٌّ بِٱلْجَلَدْ

وَمَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْلُوَ ٱلْمَدْحُ مِنْ مَنَاقِبِ آبَاءِ ٱلْمَمْدُوحِ وَتَقْرِيظِ مَنْ يُعْرَفُ بِهِ وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ . وَأَنْشَدَ مَرْوَانُ أَبْنُ أَبِي حَفْصَةَ :

نَقَرْتَ فَلَا شُلَّتْ يَدٌ خَالِدِيَّةٌ ... رَتَقْتَ بِهَا ٱلْفَتْقَ ٱلَّذِي بَيْنَ هَاشِمِ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ قُلْ : بَرْمَكِيَّةٌ . فَقَدْ يَشْرَكُنَا فِي خَالِدٍ بَشَرٌ كَثِيرٌ وَلَا يَشْرَكُنَا فِي بَرْمَكَ أَحَدٌ

وَٱلْهِجَاءُ أَيضًا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِسَلْبِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ٱلنَّفْسُ وَإِثْبَاتِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَهْجَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا أَيضًا لَمْ يَكُنْ مُخْتَارًا . وَٱلِاخْتِيَارُ أَنْ تَنْسُبَ ٱلْمَهْجُوَّ إِلَى ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلشَّرَهِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَلَيْسَ بِٱلْمُخْتَارِ فِي ٱلْهِجَاءِ أَنْ يَنْسُبَهُ إِلَى قُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَصِغَرِ ٱلْحَجْمِ وَضُؤُولَةِ ٱلْجِسْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْقَائِلُ :

قَتُلْتُ لَهَا لَيْسَ ٱلشُّحُوبُ عَلَى ٱلْفَتَى بِعَارٍ وَلَا خَيْرُ ٱلرِّجَالِ سَمِينُهَا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

تَنَالُ ٱلْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّرِيرُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

رَأَوْهُ فَٱزْدَرَوْهُ وَهُوَ حِذْقٌ وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ

وَذَكَرَ ٱلسَّمَوْأَلُ أَنَّ قِلَّةَ ٱلْعَدَدِ لَيْسَ بِعَيْبٍ فَقَالَ :

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ ٱلْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلْجَيِّدِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

ٱللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ وَٱللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قَوْمٌ إِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمِ أَمِنُوا مِنْ لُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَوْلُ أَعْشَى بَاهِلَةَ :

بَنُو تَيْمٍ قَرَارَةُ كُلِّ لُؤْمٍ كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمٰنِ خَافِيَةٌ مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو أَسَدِ

وَمِنْ خَبِيثِ ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

إِنْ يَغْدِرُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَبْخَلُوا لَا يَحْفِلُوا
يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوِ ٱطَّلَعَ ٱلْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّوْءَاتِ شَابَا

وَمِنْ خَطَإِ ٱللَّفْظِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ لِأَنَّ ٱلصُّدَاعَ لَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجْلِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ . وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلْعَيْبِ : وَهُوَ أَنَّ ٱلذَّاكِرَ لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِأَلَمِ ٱلْقَلْبِ وَٱحْتِرَاقِهِ لَا بِٱلصُّدَاعِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱللَّفْظِ ٱرْتِكَابُ ٱلضَّرُورَاتِ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ :

إِنْ تَسْلُكِي سُبُلَ ٱلْمَنْجَاةِ مُنْجِدَةً مَا عَاشَ عَمْرٌو وَمَا عُمِّرْتَ قَابُوسُ

أَرَادَ (وَمَا عُمِّرَ قَابُوسُ) . وَقَوْلُ ٱلْأَعْشَى حَكَاهُ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ وَعَابَهُ

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ سُجُوفُ ٱلْحِجَالِ فَلَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرَا

قَالَ : لَا تُوضَعُ ٱلشَّمْسُ مَعَ ٱلزَّمْهَرِيرِ (قَالَ :) وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ : لَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَمْ يُصِبْهَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ وَقَدْ أَخْطَأَ .

وَكَقَوْلِ عَلْقَمَةَ :

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضْحُ ٱلْعَبِيرِ بِهَا كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي ٱلْأَنْفِ مَشْمُومُ

وَٱلتَّطْيَابُ هَا هُنَا عَلَى غَايَةِ ٱلسَّمَاجَةِ وَٱلطِّيبُ أَيْضًا مَشْمُومٌ لَا مَحَالَةَ

فَقَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ مَشْمُومٌ) هُجْنَةٌ وَقَوْلُهُ: (فِي ٱلْأَنْفِ أَهْجَنُ). لِأَنَّ ٱلشَّمَّ لَا يَكُونُ بِٱلْعَيْنِ. وَمِنَ ٱلْمُتَنَاقِضِ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ:

تَزَلُوا ثَلَاثَ مِنًى بِمَنْزِلِ غِبْطَةٍ وَهُمُ عَلَى غَرَضٍ لَعَمْرُكَ مَا هُمُ
مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ لَوْ قَدْ أَجَدَّ رَحِيلُهُمْ لَمْ يَنْدَمُوا

(فَقَالَ) لَبِثُوا فِي دَارِ غِبْطَةٍ ثُمَّ قَالَ: لَوْ رَحَلُوا لَمْ يَنْدَمُوا. وَمِمَّا جَاءَ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارٍ:

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا غَلَبَ ٱلْمِسْكُ عَلَى رِيحِ ٱلْبَصَلْ

وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَشِعَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

يَا أَحْمَدَ ٱلْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ قُمْ سَيِّدِي نَعْصِ جَبَّارَ ٱلسَّمَاوَاتِ

فَهٰذَا مَعَ كُفْرِهِ مَمْقُوتٌ. وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ:

غَنِيتَ عَلَى ٱلْوَصْلِ ٱلْقَدِيمِ غَنِيتَا وَضَيَّعْتَ وُدًّا كَانَ لِي وَنَسِيتَا
وَمِنْ أَعْجَبِ ٱلْأَشْيَاءِ أَنْ مَاتَ مَأْلَفِي وَمَا كُنْتَ تَرْعَانِي لَهُ وَبَقِيتَا
تَجَاهَلْتَ عَمَّا كُنْتَ تُحْسِنُ وَصْفَهُ وَمُتَّ عَنِ ٱلْإِحْسَانِ حِينَ حَيِيتَا

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَيَبْقَى بَعْدَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ. بَلْ هٰذِهِ عَادَةُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمَعْهُودُ مِنْ أَمْرِهَا وَلَوْ قَالَ: (مِنْ ظُلْمِ ٱلْأَيَّامِ) كَانَ ٱلْمَعْنَى مُسْتَوِيًا. وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأُدَبَاءِ يَقُولُ: وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ ٱلْبَازِي:

فِي هَامَةٍ عَلْيَاءَ تُهْدِي مِنْسَرَا كَعَطْفَةِ ٱلْجِيمِ بِكَفٍّ أَعْسَرَا

ثُمَّ قَالَ:

يَقُولُ مَنْ فِيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا لَوْ زَادَهَا عَيْنًا إِلَى فَاءٍ وَرَا

فَاتَّصلَتْ بِالْجِيمِ صَارَ جَعْفَرَا

فَمَنْ يَجْهَلُ اَنَّ الْجِيمَ إِذَا اُضِيفَ إِلَيْهَا الْعَيْنُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ يَصِيرُ (جَعْفَرَا) وَمَا يَدْخُلُ فِي صِفَةِ الْبَازِي مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ شَيْءٌ . وَتَبِعَهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

هُنَّ الْحَمَامُ فَاِنْ كُسِرَتْ عِيَافَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَاِنَّهُنَّ حِمَامُ

فَمَنْ ذَا الَّذِي جَهِلَ اَنَّ الْحَمَامَ إِذَا كُسِرَتْ حَاؤُهَا صَارَ حِمَامًا . وَإِنَّمَا اَرَادَ اَبُو نُوَاسٍ اَنَّهُ يُشَبِّهُ الْجِيمَ لَا يُغَادِرُ مِنْ شَبَهِهَا شَيْئًا حَتَّى لَوْ زِدتَّ عَلَيْهَا هٰذِهِ الْاَحْرُفَ صَارَتْ جَعْفَرًا لِشِدَّةِ شَبَهِهَا بِهِ وَهُوَ عِنْدِي صَوَابٌ . إِلَّا اَنَّهُ لَوِ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ : (كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفِّ اَعْسَرَا) وَلَمْ يَزِدِ الزِّيَادَةَ الَّتِي بَعْدَهَا كَانَ اَجْوَدَ وَاَرْشَقَ وَاَدْخَلَ فِي مَذَاهِبِ الْفُصَحَاءِ وَاَشْبَهَ بِالشِّعْرِ الْقَدِيمِ . وَاَمَّا قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ : فَلَهُ مَعْنًى خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اَرَادَ اَنَّكَ إِذَا اَرَدتَّ الزَّجْرَ وَالْعِيَافَةَ اَدَّاكَ الْحَمَامُ إِلَى الْحِمَامِ كَمَا اَنَّ صَوْتَهَا الَّذِي تَظُنُّ اَنَّهُ بُكَاءٌ إِنَّمَا هُوَ طَرَبٌ وَيُؤَدِّيكَ إِلَى الْبُكَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَهٰذَا مَعْنًى صَحِيحٌ . إِلَّا اَنَّ الْمَعْنَى إِذَا صَارَ بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الدِّقَّةِ كَانَ كَالْمُعَمَّى وَالتَّعْمِيَةُ حَيْثُ يُرَادُ الْبَيَانُ عِيٌّ . وَمِنْ عُيُوبِ الْمَعْنَى قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْاَسَدِ :

كَأَنَّمَا عَيْنُهُ إِذَا نَظَرَتْ بَارِزَةَ الْجَفْنِ عَيْنُ مَخْنُوقِ

فَوَصَفَ عَيْنَ الْاَسَدِ بِالْجُحُوظِ وَهِيَ تُوصَفُ بِالْغُؤُورِ كَقَوْلِ اَبِي زُبَيْدٍ :

وَعَيْنَانِ كَالْوَقْبَيْنِ فِي قَلْبِ صَخْرَةٍ تَرَى فِيهِمَا كَالْجَمْرَتَيْنِ تَسَعُّرَا

وَمِنَ الْغَلَطِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

رَقِيقُ حَوَاشِي الْحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بُرْدُ

وَمَا وَصَفَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا أَهْلِ الْإِسْلَامِ الْحِلْمَ بِالرِّقَّةِ وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِالرُّجْحَانِ وَالرَّزَانَةِ كَمَا قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ :

وَصَبْرٌ عَلَى حَدَثِ النَّائِبَاتِ وَحِلْمٌ رَزِينٌ وَعَقْلٌ ذَكِي

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَإِذَا ذَمُّوا الرَّجُلَ قَالُوا : خَفَّ حِلْمُهُ وَطَاشَ .

وَمِنَ الْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ ثُمَّ ارْعَوَيْتُ وَذَاكَ حِلْمُ لَبِيدِ

أَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا بِالدَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

هٰذَا خِلَافُ مَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ لِأَنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا أَنَّ الْبُكَاءَ يُطْفِئُ الْغَلِيلَ وَيُبَرِّدُ حَرَارَةَ الْحُزْنِ وَيُزِيلُ شِدَّةَ الْوَجْدِ . وَقَدْ شَهِدَ أَبُو تَمَّامٍ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَخَالَفَ قَوْلَهُ الْأَوَّلَ فَقَالَ :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ يُنْظَمِ وَالدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ الْمُغْرَمِ

وَمِنَ الْخَطَإِ قَوْلُ الْبُحْتُرِيِّ :

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ إِنَّ حَمْدَهُمْ مِنَ الدُّرِّ مَا اصْفَرَّتْ حَوَاشِيهِ فِي الْعِقْدِ

وَإِنَّمَا يُوصَفُ الدُّرُّ بِشِدَّةِ الْبَيَاضِ وَإِذَا أُرِيدَ الْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ وُصِفَ بِالنُّصُوعِ . وَمِنْ أَعْيَبِ عُيُوبِهِ الصُّفْرَةُ . وَقَالُوا : كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِبَيَاضِهِ . وَإِذَا اصْفَرَّ احْتِيلَ فِي إِزَالَةِ صُفْرَتِهِ لِيَتَضَوَّأَ وَاسْتِعْمَالُ الْحَوَاشِي فِي الدُّرِّ أَيْضاً خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ : (نَوَاحِيهِ) لَكَانَ أَجْوَدَ . وَالْحَاشِيَةُ لِلْبُرْدِ وَالثَّوْبِ . فَأَمَّا حَاشِيَةُ الدُّرِّ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ . وَفِيهَا :

وَحَرَّتْ عَلَى الْأَيْدِي مُجَسَّةُ جِسْمِهِ كَذٰلِكَ مَوْجُ الْبَحْرِ مُلْتَهِبُ الْوَقْدِ

وَهٰذَا غَلَطٌ لِاَنَّ ٱلْبَحْرَ غَيْرُ مُلْتَهِبِ ٱلْمَوْجِ وَلَا مُتَّقِدِ ٱلْمَاءِ . وَلَوْ كَانَ مُتَّقِدًا لَمَّا اَمْكَنَ رُكُوبُهُ.وَاِنَّمَا اَرَادَ اَنْ يُعَظِّمَ اَمْرَ ٱلْمَمْدُوحِ فَجَاءَ بِمَا لَا يُعْرَفُ . وَفِيهَا :

وَلَسْتَ تَرَى شَوْكَ ٱلْقَتَادَةِ خَائِفًا   سَمُومَ رِيَاحِ ٱلْقَادِحَاتِ مِنَ ٱلزَّنْدِ

وَهٰذَا خَطَأٌ لِاَنَّهُ شَبَّهَ ٱلْعَلِيلَ بِشَوْكِ ٱلْقَتَادِ لَا يَخَافُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُقْدَحُ بِٱلزِّنَادِ . وَقَدْ عَلِمْنَا اَنَّ ٱلنَّارَ تَفْلِقُ ٱلصَّخْرَ وَتُلِينُ ٱلْحَدِيدَ فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهَا ٱلْقَتَادُ . وَلَيْسَ لِذِكْرِ ٱلسَّمُومِ وَٱلرِّيَاحِ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَائِدَةٌ وَلَا مَوْقِعٌ . وَنُورِدُ هٰهُنَا جُمْلَةً تَتِمُّ بِهَا مَعَانِي هٰذَا ٱلْبَابِ : يَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَنَّ اَجْوَدَ ٱلْوَصْفِ مَا يَسْتَوْعِبُ اَكْثَرَ مَعَانِي ٱلْمَوْصُوفِ حَتَّى كَاَنَّهُ يُصَوِّرُ ٱلْمَوْصُوفَ لَكَ فَتَرَاهُ نُصْبَ عَيْنِكَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو ٱلطَّائِيِّ :

اَلَا مَنْ رَاَى قَوْمِي كَاَنَّ رِجَالَهُمْ   نَخِيلٌ اَتَاهَا عَاضِدٌ فَاَمَالَهَا

فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ كَاَنَّهُ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلْقَتْلَى مُصَرَّعِينَ . وَقَوْلِ ٱلْعَتَّابِيِّ فِي ٱلسَّحَابِ :

وَٱلْغَيْمُ كَٱلثَّوْبِ فِي ٱلْآفَاقِ مُنْتَشِرٌ   مِنْ فَوْقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحْتِهِ طَبَقُ
اِنْ مَعْمَعَ ٱلرَّعْدُ فِيهِ قُلْتَ مُنْخَرِقٌ   اَوْ لَأْلَأَ ٱلْبَرْقُ فِيهِ قُلْتَ مُحْتَرِقُ

وَلَمَّا كَانَتْ اَغْرَاضُ ٱلشُّعَرَاءِ كَثِيرَةً وَمَعَانِيهَا مُتَشَعِّبَةً جَمَّةً لَا يَبْلُغُهَا ٱلْاِحْصَاءُ. كَانَ مِنَ ٱلْوَجْهِ اَنْ نَذْكُرَ مَا هُوَ اَكْثَرُ ٱسْتِعْمَالًا وَاَطْوَلُ مُدَاوَمَةً وَهُوَ ٱلْمَدْحُ . وَٱلْهِجَاءُ . وَٱلْوَصْفُ . وَٱلْمَرَاثِي. وَٱلْفَخْرُ . وَقَدْ ذَكَرْتُ قَبْلَ هٰذَا ٱلْمَدِيحَ وَٱلْهِجَاءَ وَمَا يَنْبَغِي ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا . ثُمَّ

ذكرت الآن الوصف وتركت المراثي والفخر . لانهما داخلان في المديح وذلك ان الفخر مدحك نفسك بالطهارة والعفاف والحلم والعلم والحسب وما يجري مجرى ذلك . والمرثية مدح الميت والفرق بينهما وبين المديح ان تقول : كان كذا وكذا . وتقول في المديح : هو كذا وانت كذا . فينبغي ان يتوخى في المرثية ما يتوخى في المديح . الا انك اذا اردت ان تذكر الميت بالجود والشجاعة تقول : مات الجود وهلكت الشجاعة . ولا تقول : كان فلان جوادا وشجاعا فان ذلك بارد غير مستحسن . وكذلك ما كان الميت يركبه في حياته . فينبغي انه لا يذكر انه يبكي عليه مثل الخيل والابل وما يجري مجراهما وانما يذكر اغتباطهما بموته . وقد احسنت الخنساء حيث تقول :

فقد فقدتك طلقة واستراحت   فليت الخيل فارسها يراها

بل يوصف بالبكاء عليه من كان يحسن اليه في حياته . كما قال الغنوي :

ليبكك شيخ لم يجد من يعينه   وطاوي الحشى نائي المزار غريب

فهذه جملة اذا تدبرها صانع الكلام استغنى بها عن غيرها . وبالله التوفيق



البحث الثالث

في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعماله في تأليفه

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

إِذَا أَردتَ أَنْ تصنعَ كلامًا فَأَخطِرْ معانِيَهُ بِبالكَ وَتنوَّقْ لَهُ كرائِمَ ٱللفظِ وٱجعلْها على ذِكْرٍ مِنكَ لِيقرُبَ علَيكَ تناوُلُها ولا يُتعِبكَ تطلُّبها . وٱعمَلْهُ ما دُمتَ فِي شبابِ نشاطِكَ فإِذا غشِيَكَ ٱلفتُورُ وتخوَّنكَ ٱلمَلالُ فأَمسِكْ . فانَّ ٱلكثيرَ معَ ٱلمَلالِ قليلٌ وٱلنفيسَ معَ ٱلضجَرِ خسيسٌ وٱلخواطِرَ كٱلينابيعِ يُسقَى مِنها شيءٌ بعدَ شيءٍ فتجِدُ حاجَتَكَ منَ ٱلرِّيِّ وتنالُ أربكَ مِنَ ٱلمنفعةِ.فإِذا أكثرتَ علَيها نضَبَ ماؤُها وقلَّ عنكَ غناؤُها.وينبغي أنْ تجرِيَ معَ ٱلكلامِ مُعارَضَةً فإذا مرَرْتَ بلفظٍ حسنٍ أخذْتَ برقبتِهِ أوْ بمعنًى بديعٍ تعلَّقتَ بذَيلِهِ . وتحذَّرْ أنْ يَسبقَكَ فإِنَّهُ إِنْ سبقَكَ تعِبتَ في تتبُّعِهِ ونصِبتَ فِي طلَبِهِ ولعلَّكَ لا تلحقُهُ على طولِ ٱلطلَبِ ومُواصلَةِ ٱلدأْبِ وقَدْ قالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ضَيَّعتَ أوَّلَ كُلِّ أمرٍ   أبتْ أعجازُهُ إِلَّا ٱلتِواءَ

وقالُوا : ينبغي لِصانِعِ ٱلكلامِ أنْ لا يتقدَّمَ ٱلكلامَ تقدُّمًا ولا يتَّبِعَ ذُنابَاهُ تتبُّعًا ولا يحمِلَهُ علَى لِسانِهِ حملًا فإِنَّهُ إِنْ تقدَّمَ ٱلكلامَ لمْ تتبَعْهُ حقيقتُهُ وهزِيلُهُ وٱعجفُهُ وٱلشَّارِدُ مِنهُ.وإِنْ تتبَّعهُ فاتتْهُ سوابِقُهُ ولواحِقُهُ وتباعدتْ عنهُ جِيادُهُ وغُرَرُهُ . وإِنْ حمَلَهُ علَى لِسانِهِ ثقُلتْ علَيهِ أوساقُهُ وأعباؤُهُ ودخلتْ مساوِيهِ فِي محاسِنِهِ ولكِنَّهُ يجرِي معَهُ

فلا تند عنه نادة مخبة سهماء الا كبحها ولا تتخلف عنه مثقلة هزيلة الا ارهقها فطورا تفرقه ليختار احسنه وطورا تجمعه لتقرب عليك خطوة الفكر ويتناول اللفظ من تحت لسانه ولا يسلط الملل على قلبه والاكثار على نفكره فيأخذ عفوه ولا يستغزر دره ولا يكره آبيا ولا يدفع آتيا . وقال بشر بن المعتمر : خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها لك . فان تلك الساعة اكرم جوهرا واشرف حسنا واحسن في الاسماع واحلى في الصدور واسلم من فاحش الخطإ واجلب لكل عين وغرة من لفظ كريم ومعنى بديع . واعلم ان ذلك اجدى عليك مما يعطيك يومك الاطول بالكد والمطالبة والمجاهدة والتكلف والمعاودة . ومهما اخطاك لم يخطئك ان يكون مقبولا قصدا او خفيفا على اللسان سهلا وكما خرج من ينبوعه ونجم عن معدنه . واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك . ومن اراد معنى كريما فليلتمس لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما ان يصونهما عما يدنسهما ويفسدهما ويهجنهما فيصير بهما الى حد يكون فيه اسوأ حالا منك قبل ان تلتمس البلاغة وترتهن نفسك في ملابسها . فكن في ثلاث منازل . فاول الثلاث : ان يكون لفظك شريفا عذبا وفخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا . فان كانت هذه لا تواتيك ولا تسنح لك عند اول خاطر وتجد اللفظة لم تقع موقعها

ولَمْ تَصِلْ إِلَى مَرْكَزِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِسِلْكِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فلا تُكْرِهْهَا عَلَى اغْتِصَابِ الْأَمَاكِنِ وَالنُّزُولِ فِي غَيْرِ اَوْطَانِهَا . فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ الشِّعْرِ الْمَنْظُومِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ اخْتِيَارَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِذَلِكَ اَحَدٌ . وَإِنْ تَكَلَّفْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا عَابَكَ مَنْ اَنْتَ اَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَزَرَى عَلَيْكَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَإِنِ ابْتُلِيتَ بِتَكَلُّفِ الْقَوْلِ وَتَعَاطِي الصِّنَاعَةِ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ الطَّبِيعَةُ فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ وتَعْصَى عَلَيْكَ بَعْدَ إِجَالَةِ الْفِكْرَةِ فَلَا تَعْجَلْ وَدَعْهُ سَحَابَةَ يَوْمِكَ وَلَا تَضْجَرْ وَاَمْهِلْهُ سَوادَ لَيْلَتِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ فَإِنَّكَ لَا تَعْدَمُ الْإِجَابَةَ وَالْمُؤَاتَاةَ . وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ وَاُجْرِيتَ مِنَ الصِّنَاعَةِ عَلَى عِرْقٍ فَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الثَّانِيَةُ . فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ تَرْوِيحِ الْخَاطِرِ وَطُولِ الْإِمْهَالِ فَالْمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةُ . اَيْ اَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ إِلَى اَشْهَى الصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَاَخَفِّهَا عَلَيْكَ فَإِنَّكَ لَمْ تَشْتَهِهَا إِلَا وَبَيْنَكُمَا نَسَبٌ . وَالشَّيْءُ لَا يَحِنُّ إِلَّا إِلَى مَا شَاكَلَهُ وَإِنْ كَانَتِ الْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ فَإِنَّ النُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا مَعَ الرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ مَعَ الرَّغْبَةِ وَالْمَحَبَّةِ . وَيَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَقْدَارَ الْمَعَانِي فَتُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اَوْزَانِ الْمُسْتَمِعِينَ وَبَيْنَ اَقْدَارِ الْحَالَاتِ فَتَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ كَلَامًا وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَامًا حَتَّى تَقْسِمَ اَقْدَارَ الْمَعَانِي عَلَى اَقْدَارِ الْمَقَامَاتِ وَاَقْدَارَ الْمُسْتَمِعِينَ عَلَى اَقْدَارِ الْحَالَاتِ . وَاعْلَمْ اَنَّ الْمَنْفَعَةَ مَعَ مُوَافَقَةِ الْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ .

مِنَ ٱلمقَالِ . فَإِنْ كُنتَ مُتَكَلِّمًا اوِ ٱحْتَجْتَ إِلَى عَمَلِ خُطْبَةٍ لِبَعْضِ مَنْ تَصْلُحُ لَهُ ٱلْخُطَبُ اوْ قَصِيدَةً لِبَعْضِ مَا يُرَادُ لَهُ ٱلْقَصْدُ فَتَخَطَّ ٱلْفَاظَ ٱلمتَكَلِّمِينَ مِثْلَ ٱلْجِسْمِ وَٱلْعَرَضِ وَٱلْكَوْنِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْجَوْهَرِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُجْنَةٌ ...

البحث الرابع

في خواص الكلام الحرّ

(عن ابن المعتز والرمّاني)

قِيلَ إِنَّ احسنَ ٱلكَلَامِ مَا كَانَ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ وَصَيْقَلًا لِلْعُقُولِ وَمُجَلِّيًا لِلشُّبْهَةِ وَمُوجِبًا لِلْحُجَّةِ . وَٱلْحَاكِمَ عِنْدَ ٱخْتِصَاصِ ٱلظُّنُونِ وَٱلْمُفَرِّقَ بَيْنَ ٱلشَّكِّ وَٱلْيَقِينِ . يَنْقَادُ بِهِ ٱلْمُسْتَصْعَبُ وَيَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلْاَصْيَدُ . وَخَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقِّيهِ . وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللَّفْظِ تَعَاطِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُبْلِغُ ٱلَّذِي لَا يُمَلُّ وَٱلْجَدِيدُ ٱلَّذِي لَا يَخْلَقُ . وَٱلْحَقُّ ٱلسَّاطِعُ . وَٱلْمَاحِي لِظُلَمِ ٱلضَّلَالِ . وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ ٱلنَّافِي لِلْكَذِبِ . إِنْ اوْجَزَ كَانَ كَافِيًا وَإِنْ اكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا . وَإِنْ اوْمَا كَانَ مُقْنِعًا . وَإِنْ اطَالَ كَانَ مُفْهِمًا . وَإِنْ امَرَ فَنَاصِحًا . وَإِنْ حَكَمَ فَعَادِلًا . وَإِنْ اخْبَرَ فَصَادِقًا . وَإِنْ بَيَّنَ فَشَافِيًا . سَهْلٌ عَلَى ٱلْفَهْمِ . صَعْبٌ عَلَى ٱلْمُتَعَاطِي . قَرِيبُ ٱلْمَأْخَذِ بَعِيدُ ٱلْمَرَامِ . سِرَاجٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ٱلْقُلُوبُ حُلْوٌ إِذَا تَذَوَّقَتْهُ ٱلْعُقُولُ . وَقَدْ قِيلَ : ابْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَطَّ ٱلتَّكَلُّفَ عَنْهُ وَبُنِيَ عَلَى ٱلتَّبْيِينِ وَكَانَتِ ٱلْفَائِدَةُ اغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقَافِيَةِ بِأَنْ جَمَعَ مَعَ ذٰلِكَ سُهُولَةَ ٱلْمَخْرَجِ

مَعَ قُرْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ . وَعُذُوبَةَ ٱللَّفظِ مَعَ رَشَاقَةِ ٱلْمَعْنَى . وَانْ يَكُونَ حُسْنُ ٱلِٱبْتِدَاءِ كَحُسْنِ ٱلِٱنْتِهَاءِ . وَحُسْنُ ٱلْوَصْلِ كَحُسْنِ ٱلْقَطْعِ فِي ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّمْعِ . وَكَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي حَقِّهَا وَالَى جَنْبِ أُخْتِهَا حَتَّى لَا يُقَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا لَكَانَ اوْلَى حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ لَفظٌ مُخْتَلِفٌ وَلَا مَعْنًى مُسْتَكْرَهٌ . ثُمَّ ٱلْبِسَ بَهَاءَ ٱلْحِكْمَةِ وَنُورَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَشَرَفَ ٱلْمَعْنَى وَجَزَالَةَ ٱللَّفظِ وَكَانَتْ حَلَاوَتُهُ فِي ٱلصَّدْرِ وَجَلَالَتُهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَفْتُقُ ٱلْفَهْمَ وَتَنْثُرُ دَقَائِقَ ٱلْحِكَمِ وَكَانَ ظَاهِرَ ٱلنَّفْعِ شَرِيفَ ٱلْقَصْدِ مُعْتَدِلَ ٱلْوَزْنِ جَمِيلَ ٱلْمَذْهَبِ كَرِيمَ ٱلْمَطْلَبِ . فَصِيحًا فِي مَعْنَاهُ بَيِّنًا فِي فَحْوَاهُ . . . وَجَاءَ ايْضًا فِي كُتُبِ ٱلْادَبِ: انَّ لَحْظَةَ ٱلْقَلْبِ اسْرَعُ خَطْرَةً مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَابْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي اعْمَاقِ اوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ . وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ . وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ اذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ اذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِيَ وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِالْفَاظٍ كَتِيسَةٍ بِاحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِاظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ : بِمَ فُقْتَ اهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ الْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِانِّي لَمْ اقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ الَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ الَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَاحْكَمْتُ سَيْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا

وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ عَنْ مُتَكَلِّفِهَا . وَمَا مَلَكَ قَطُّ قِيَادِي ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ ٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ شَرِيفًا وَكَانَ ٱللَّفْظُ بَلِيغًا وَكَانَ صَحِيحَ ٱلطَّبْعِ بَعِيدًا مِنَ ٱلْإِسْتِكْرَاهِ مُنَزَّهًا عَنِ ٱلْإِخْتِلَالِ مَصُونًا عَنِ ٱلتَّكَلُّفِ صَنَعَ فِي ٱلْقَلْبِ صَنِيعَ ٱلْغَيْثِ فِي ٱلتُّرْبَةِ ٱلْكَرِيمَةِ . وَمَتَى فُصِّلَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَى هٰذِهِ ٱلشَّرِيطَةِ وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَسَاهَا ٱللهُ مِنَ ٱلتَّوْفِيقِ وَمَنَحَهَا مِنَ ٱلتَّأْيِيدِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا بِهِ صُدُورُ ٱلْجَبَابِرَةِ وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا مَعَهُ عُقُولُ ٱلْجَهَلَةِ

البحث الخامس

في تهذيب الكلام وتنقيحه

(عن خزانة الادب للحموي وزهر الآداب للحصري)

وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْدَادِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَلَامِ بَعْدَ عَمَلِهِ وَٱلشُّرُوعِ فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا وَتَغْيِيرِ مَا يَجِبُ تَغْيِيرُهُ وَحَذْفِ مَا يَنْبَغِي حَذْفُهُ وَإِصْلَاحِ مَا يَتَعَيَّنُ إِصْلَاحُهُ وَكَشْفِ مَا يُشْكِلُ عَنْ غَرِيبِهِ وَإِعْرَابِهِ . وَتَحْرِيرِ مَا يَدِقُّ مِنْ مَعَانِيهِ . وَٱطِّرَاحِ مَا يَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِ ٱلرِّقَّةِ مِنْ غَلِيظِ أَلْفَاظِهِ لِتُشْرِقَ شُمُوسُ ٱلتَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بَلَاغَتِهِ وَتَرْشُفَ ٱلْأَسْمَاعُ عَلَى ٱلطَّرَبِ رَقِيقَ سُلَافَتِهِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِٱلْمُهَذَّبِ مَنْعُوتًا بِٱلْمُنَقَّحِ عَلَتْ رُتْبَتُهُ . وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مُبْتَكَرَةٍ . وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعَ هٰذِهِ

ٱلْكَلِمَةِ غَيْرُهَا . وَلَوْ تَقَدَّمَ هٰذَا ٱلْمُتَأَخِّرُ وَتَأَخَّرَ هٰذَا ٱلْمُتَقَدِّمُ . أَوْ لَوْ تُمِّمَ هٰذَا ٱلنَّقْصُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ تَكَمَّلَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ حُذِفَتْ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ . أَوْ لَوِ ٱتَّضَحَ هٰذَا ٱلْمَقْصِدُ وَسَهُلَ هٰذَا ٱلْمَطْلَبُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ أَحْسَنَ وَٱلْمَعْنَى أَبْيَنَ . كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ فِي سِلْكِ نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ . وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى مَعْرُوفًا بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ . وَلَهُ قَصَائِدُ تُعْرَفُ بِٱلْحَوْلِيَّاتِ . قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيُهَذِّبُهَا وَيُنَقِّحُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيَعْرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . وَيُرْوَى : أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ وَيُنَقِّحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ قَلَّمَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْإِمَامُ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ مَعَ جَلَالَتِهِ فِي ٱلْعِلْمِ وَتَقَدُّمِهِ فِي ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْفُحُولِ مِنْ طَبَقَتِهِ . وَمَا أَحْسَنَ مَا أَشَارَ أَبُو ٱلتَّمَّامِ إِلَى ٱلتَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :

خُذْهَا ٱبْنَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُهَذَّبِ فِي ٱلدُّجَى ... وَٱللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ ٱلْجِلْبَابِ

فَإِنَّهُ خَصَّ تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى لِكَوْنِ ٱللَّيْلِ تَهْدَأُ فِيهِ ٱلْأَصْوَاتُ وَتَسْكُنُ ٱلْحَرَكَاتُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ مُجْتَمِعًا وَمِرْآةُ ٱلتَّهْذِيبِ فِيهِ صَقِيلَةً لِخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ وَصَفَاءِ ٱلْقَرِيحَةِ . لَا سِيَّمَا وَسَطَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّفْسُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ نَيْلِ قِسْطِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَلَيْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ . وَصَحَّ ذِهْنُهَا وَصَارَ صَدْرُهَا مُنْشَرِحًا وَقَلْبُهَا بِٱلتَّأْلِيفِ مُنْبَسِطًا . وَمَا قَدَّمُوا وَسَطَ ٱللَّيْلِ فِي ٱلتَّأْلِيفِ عَلَى ٱلسَّحَرِ مَعَ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْتِبَاهِ أَكْثَرِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلنَّاطِقِ وَٱرْتِفَاعِ ٱلْأَصْوَاتِ وَجَرْشِ ٱلْحَرَكَاتِ وَتَقَشُّعِ

الظَلْمَاءِ بِطلائعِ الاضْوَاءِ . وَبِدُونِ ذٰلِكَ يَنْقسمُ الفِكْرُ وَيشْتَغِلُ القلبُ وَوَسَطُ الليْل خَالٍ مِمَّا ذكرْنَاهُ . وَلِهٰذا خَصَّ ابُو تمَّام تهْذِيبَ الفكْرِ بِالدُّجى عَادلًا عَنِ الطَّرَفَيْنِ لِمَا فيهِمَا مِنَ الشَواغِلِ المَذْكُورَةِ. وحَكَت الثقاتُ عَنْ ابِي عبادَةَ البُحْتري قَالَ: كُنْتُ فِي حَدَاثَتِي ارُومُ الشِّعْرَ وَكُنْتُ ارجعُ فِيهِ إِلَى طَبْعٍ سَلِيمٍ وَلَمْ اكُنْ وَقفتُ لَهُ عَلَى تسْهيل مَأْخَذِ وَوُجُوهِ اقْتِضَاب حَتَّى قَصَدتُ ابَا تمَّام وانْقطَعْتُ اِلَيْهِ وَاتَّكلْتُ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَيْهِ فَكَانَ اوَّلُ مَا قَالَ لِي: يَا ابَا عِبَادَةَ تَخَيَّرِ الاَوْقاتَ وانتَ قَلِيلُ الهُمُومِ صِفْرٌ مِنَ الغُمُومِ . واعْلَمْ انَّ العادَةَ فِي الاَوْقَاتِ اذَا قصَدَ الانْسانُ تأليفَ شيْءٍ اوْ حفْظَهُ انْ يَخْتَارَ وَقْتَ السحرِ . وذلكَ انَّ النفسَ تكُونُ قَدْ اخذَتْ حظَّها من الرَّاحة وَقِسْطَهَا مِنَ النوْم وَخفَّ عَنْهَا ثِقَلُ الغذاءِ . وصَفَا من اكْثرِ الابْخرَةِ وَالادْخِنَة جِسْمُ الهَوَاءِ . وَسَكَنتِ الغمائِمُ . ورقتِ النسائِمُ . وَتَغنَّتِ الحمائِمُ. وَاِذا شرَعتَ فِي التأْليفِ تغَنَّ بِالشِعْرِ فإنَّ الغنَاءَ مِضْمَارُهُ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ . واجْتَهِدْ فِي اِيضاحِ مَعَانِيهِ . فانْ ارَدْتَ ذِكْرَ الاَحْبَابِ فَاجْعلِ اللفظَ رَقِيقًا وَالمَعْنَى رَشِيقًا وَاكْثِرْ فِيهِ مِنْ بَيانِ الكَآبَةِ . وَقَلَقِ الاَشْوَاق . وَلوْعَةِ الفِرَاقِ وَالتعلُّلِ بِاسْتِنْشَاقِ النسائِمِ . وَغِنَاءِ الحَمائِمِ . وَالبُرُوقِ اللَّامِعَةِ . وَالنُّجُومِ الطَّالِعَةِ . وَالتبرُّمِ مِنَ العُذَّالِ . وَالوُقُوف عَلَى الاَطْلَالِ . وَاذَا اخَذْتَ فِي مَدْحِ سَيِّدٍ فَاشْهرْ مَنَاقِبَهُ وَاظْهِرْ مَنَاسِبَهُ وارْهِبْ مِنْ عَزَائِمِهِ وَارْغَبْ فِي مَكَارِمِهِ . وَاحْذَرِ المَجْهُولَ مِنَ المَعَانِي وَاِيَّاكَ انْ تَشِينَ شِعْرَكَ بِالعِبَارةِ وَالاَلفَاظِ

ٱلْوَحْشِيَّةِ وَنَاسِبْ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ وَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَّاطٌ تُقَدِّرُ ٱلثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ ٱلْأَجْسَامِ . وَإِذَا عَارَضَكَ ٱلضَّجَرُ فَأَرِحْ نَفْسَكَ وَلَا تَعْمَلْ إِلَّا وَأَنْتَ فَارِغُ ٱلْقَلْبِ وَلَا تَنْظِمْ إِلَّا بِشَهْوَةٍ فَإِنَّ ٱلشَّهْوَةَ نِعْمَ ٱلْمُعِينُ عَلَى حُسْنِ ٱلنَّظْمِ . وَجُمْلَةُ ٱلْحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمَاضِينَ فَمَا ٱسْتَحْسَنَ ٱلْعُلَمَاءُ فَٱقْصِدْهُ وَمَا ٱسْتَقْبَحُوهُ فَٱجْتَنِبْهُ

وَأَوْرَدَ ٱلْعَلَّامَةُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ وَصِيَّةً لِنَفْسِهِ أَوْرَدَهَا أَيْضًا عَلَى نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ فَٱخْتَرْتُ مِنْهَا مَا هُوَ ٱللَّائِقُ بِٱلْحَالِ وَأَوَّلُهَا : يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلسَّائِلُ عَنْ أَوْضَحِ ٱلسُّبُلِ أَنْ تُحَصِّلَ ٱلْمَعْنَى قَبْلَ ٱلشُّرُوعِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلْقَوَافِيَ قَبْلَ ٱلْأَبْيَاتِ (قُلْتُ وَهٰذَا مَذْهَبُنَا) . ثُمَّ قَالَ أَيْضًا : وَلَا تُكْرِهِ ٱلْخَاطِرَ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ وَرَوِيٍّ مَقْصُودٍ وَتَوَخَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْجَزْلَ دُونَ ٱلرَّذْلِ وَٱلسَّهْلَ دُونَ ٱلصَّعْبِ وَٱلْعَذْبَ دُونَ ٱلْمُسْتَكْرَهِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَ دُونَ ٱلْمُسْتَهْجَنِ . وَلَا تَعْمَلْ نَظْمًا وَلَا نَثْرًا عِنْدَ ٱلْمَلَلِ فَإِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَهُ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَهُ خَسِيسٌ . وَٱلْخَوَاطِرُ يَنَابِيعُ إِذَا رُفِقَ بِهَا جَمَّتْ وَإِذَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهَا نُزِحَتْ . وَٱكْتُبْ كُلَّ مَعْنًى يَسْنَحْ وَقَيِّدْ كُلَّ فَائِدَةٍ تَعْرِضُ فَإِنَّ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ كَلَمْعَةِ ٱلْبَرْقِ وَلَمْحَةِ ٱلطَّرْفِ إِنْ لَمْ تُقَيِّدْهَا شَرَدَتْ وَنَدَّتْ وَإِنْ لَمْ تَسْتَعْطِفْ بِٱلتَّكْرَارِ عَلَيْهَا صَدَّتْ وَٱلتَّرَنُّمُ بِٱلشِّعْرِ مِمَّا يُعِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ ... إِنَّ ٱلْغِنَاءَ لِقَوْلِ ٱلشِّعْرِ مِضْمَارُ

البحث السادس

في شروط الكلام

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

اِعلَمْ اَنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطًا لَا يَسْلمُ ٱلْمتكَلِّمُ مِنَ ٱلزَّلل اِلَّا بها وَلَا يعرَى مِنَ ٱلنَّقْصِ اِلَّا بعْدَ اَنْ يَسْتَوْفِيَهَا وَهِيَ اَرْبَعَةٌ : (فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يكُونَ ٱلْكَلَامُ لِداعٍ يَدعُو اِلَيْهِ اِمَّا فِي اْجتِلَابِ نَفْعٍ اوْ فِي دَفْعِ ضَرَرٍ.(وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَيَتَوخَّى بِهِ اِصَابَةَ فُرْصَتِهِ .(وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) اَنْ يَقْتَصرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱللَّفْظَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ.فَهٰذِهِ اَرْبعَةُ شُرُوط مَتَى اَخَلَّ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِشَرْط مِنْهَا فَقَدْ اَوهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا .وَسَنَذْكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا بِمَا يُنْبِئُ عَنْ لُزُومِهِ.فَامَّا ٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ وَهُوَ ٱلدَّاعِي اِلَى ٱلْكَلَامِ فَلِاَنَّ مَا لَا دَاعِيَ لَهُ هَذَيَانٌ وَمَا لَاسَبَبَ لَهُ هُجْرٌ وَمَنْ سَامَحَ نَفْسهُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا عَنَّ وَلَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيهِ وَاِصَابَةَ مَعَانِيهِ كَانَ قَوْلُهُ مَرذُولًا وَرَأْيُهُ مَعْلُولًا. كَٱلَّذِي حَكَى ٱبْنُ عَائِشَةَ : اِنَّ شَابًا كَانَ يُجَالِسُ ٱلْاَحْنَفَ وَيُطِيلُ ٱلصمْتَ فَاَعْجَبَ ذٰلِكَ ٱلْاَحْنَفَ فَخَلَتِ ٱلْحَلْقَةُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ ٱلْاَحْنَفُ : تَكَلَّمْ يَاٱبْنَ اَخِي . فَقَالَ : يَاعَمُّ لَوْ اَنَّ رَجُلًا سَقَطَ مِنْ شَرَفِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ هَلْ كَانَ يَضُرُّهُ شَيْءٌ . فَقَالَ : يَاٱبْنَ اَخِي لَيْتَنَا تَرَكْنَاكَ مَسْتُورًا . ثُمَّ تَمَثَّلَ ٱلْاَحْنَفُ بِقَوْلِ ٱلْاَعْوَرِ ٱلشَّنِّيِّ :

كَأَيِّنْ تَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ   زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي ٱلتَّكَلُّمِ
لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ   فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

وَكَالَّذِي حُكِيَ عَنْ أَبِي ٱلْفَقِيهِ : إِنَّ رَجُلًا كَانَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوسُفَ : أَلَا تَسْأَلُ . قَالَ : بَلَى مَتَى يُفْطِرُ ٱلصَّائِمُ . قَالَ : إِذَا غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ . قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَغْرُبْ إِلَى نِصْفِ ٱللَّيْلِ . (قَالَ) فَتَبَسَّمَ أَبُو يُوسُفَ وَتَمَثَّلَ بِبَيْتَيِ ٱلْخَطَفِيِّ جَدِّ جَرِيرٍ :

عَجِبْتُ لِإِزْرَاءِ ٱلْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ   وَصَمْتِ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ بِٱلْعِلْمِ أَعْلَمَا
وَفِي ٱلصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْعَيِيِّ وَإِنَّمَا   صَحِيفَةُ لُبِّ ٱلْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

فَٱنْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ كَيْفَ أَبَانُوا بِٱلْكَلَامِ عَنْ جَهْلِهِمْ وَأَعْرَبُوا بِٱلسُّؤَالِ عَنْ نَقْصِهِمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ إِلَيْهِ وَلَا رَوِيَّةٌ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ وَلَوْ صَدَرَ عَنْ رَوِيَّةٍ دَعَا إِلَيْهَا دَاعٍ لَسَلِمُوا مِنْ شَيْنِهِ وَبَرِئُوا مِنْ عَيْبِهِ . وَلِذَلِكَ قِيلَ : لِسَانُ ٱلْعَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ فَإِذَا أَرَادَ ٱلْكَلَامَ رَجَعَ إِلَى قَلْبِهِ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَكَلَّمَ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ أَمْسَكَ . وَقَلْبُ ٱلْجَاهِلِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ : مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : عَقْلُ ٱلْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱحْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ أَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ أَوْ يُتْلِفَ نَفْسَكَ فَلَا شَيْءَ أَوْلَى بِطُولِ حَبْسٍ مِنْ لِسَانٍ يُقَصِّرُ عَنِ ٱلصَّوَابِ وَيُسْرِعُ إِلَى ٱلْجَوَابِ . وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ :

وَمِمَّا كَانَتِ ٱلْحُكَمَاءُ قَالَتْ   لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ تَبَعِ ٱلْفُؤَادِ

وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَحْسِمُ ٱلرُّخْصَةَ فِي ٱلْكَلَامِ وَيَقُولُ: اذَا جَالَسْتَ ٱلْجُهَّالَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ وَإِذَا جَالَسْتَ ٱلْعُلَمَاءَ فَانْصِتْ لَهُمْ. فَإِنَّ فِي إِنْصَاتِكَ لِلْجُهَّالِ زِيَادَةً فِي ٱلْحِلْمِ وَفِي إِنْصَاتِكَ لِلْعُلَمَاءِ زِيَادَةً فِي ٱلْعِلْمِ. وَامَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ انْ يَأْتِيَ بِٱلْكَلَامِ فِي مَوْضِعِهِ لِانَّ ٱلْكَلَامَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَا يَقَعُ مَوْقِعَ ٱلِٱنْتِفَاعِ بِهِ وَمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّهُ هَذَيَانٌ وَهُجْرٌ. فَإِنْ قَدَّمَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّأْخِيرَ كَانَ عَجَلَةً وَخُرْقًا. وَإِنْ اخَّرَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّقْدِيمَ كَانَ تَوَانِيًا وَعَجْزًا لِانَّ لِكُلِّ مَقَامٍ قَوْلًا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ عَمَلًا. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

يَضَعُ ٱلْحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ   وَكَلَامُهُ مِنْ بَعْدِهَا نَزْرُ

وَامَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ انْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. فَانَّ ٱلْكَلَامَ انْ لَمْ يَنْحَصِرْ بِٱلْحَاجَةِ وَلَمْ يُقَدَّرْ بِٱلْكِفَايَةِ لَمْ يَكُنْ لِحَدِّهِ غَايَةٌ وَلَا لِقَدْرِهِ نِهَايَةٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُورًا كَانَ حَصَرًا وَإِنْ قَصُرَ وَهَذَرًا وَإِنْ كَثُرَ. وَرُوِيَ: انَّ اعْرَابِيًّا تَكَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَطَوَّلَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ. قَالَ: شَفَتَايَ وَلِسَانِي. قَالَ: فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ ٱلِٱنْبِعَاقَ فِي ٱلْكَلَامِ فَنَضَّرَ ٱللّٰهُ وَجْهَ امْرِئٍ اوْجَزَ فِي كَلَامِهِ فَٱقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ. وَحُكِيَ انَّ بَعْضَ ٱلْحُكَمَاءِ رَاى رَجُلًا يُكْثِرُ ٱلْكَلَامَ وَيُقِلُّ ٱلسُّكُوتَ فَقَالَ: انَّ ٱللّٰهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ لَكَ اذُنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا لِيَكُونَ مَا تَسْمَعُهُ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ

كَثُرَتْ آثَامُهُ . وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أُنذِرُكُمْ فُضُولَ ٱلْمَنْطِقِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : كَلَامُ ٱلْمَرْءِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَتَرْجُمَانُ عَقْلِهِ فَٱقْصِرْهُ عَلَى ٱلْجَمِيلِ وَٱقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُ سُلْطَانَكَ وَيُوحِشُ إِخْوَانَكَ. فَمَنْ اسْخَطَ سُلْطَانَهُ تَعَرَّضَ لِلْمَنِيَّةِ . وَمَنْ اوْحَشَ إِخْوَانَهُ تَبَرَّأَ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ... يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنْطِقُ

وَلِمُخَالَفَةِ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ حَالَتَانِ : تَقْصِيرٌ يَكُونُ حَصَرًا وَتَكْثِيرٌ يَكُونُ هَذَرًا . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَشَيْنُ ٱلْهَذَرِ اشْنَعُ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ اخْوَفَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَقْتَلُ ٱلرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْحَصَرُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْهَذَرِ لِأَنَّ ٱلْحَصَرَ يُضْعِفُ ٱلْحُجَّةَ وَٱلْهَذَرَ يُتْلِفُ ٱلْمُهْجَةَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱللِّسَانَ عَلَى اهْلِهِ ... إِذَا سَاسَهُ ٱلْجَهْلُ لَيْثًا مُغِيرًا

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : يَا رُبَّ ٱلْسِنَةٍ كَٱلسُّيُوفِ تَقْطَعُ اعْنَاقَ اصْحَابِهَا وَمَا يَنْقُصُ مِنْ هَيْئَاتِ ٱلرِّجَالِ يَزِيدُ فِي بَهَائِهَا وَٱلْبَابِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى انَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَعَوَّدُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ. وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ ذُمَّ ٱلْكَلَامُ فِي مَجْلِسِهِ : كَلَّا إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَاحْسَنَ قَدَرَ عَلَى انْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَاحْسَنَ قَدَرَ عَلَى انْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَاتِبَ فَقَالَ : مَنْ إِذَا اخَذَ شِبْرًا كَفَاهُ وَإِذَا وَجَدَ طُومَارًا

اَمْلَاهُ . وَاَنْشَدَ بَعْضُهُمْ فِي خُطَبَاءِ إِيَاد :

يَرْمُونَ بِالْخُطَبِ الطِّوَالِ وَتَارَةً وَحْيَ الْمَلَاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

وَقَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ صَالِحٍ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ إِذَا اَقْلَلْتَ مِنَ الْكَلَامِ اَكْثَرْتَ مِنَ الصَّوَابِ . فَقَالَ : يَا اَبَتِ فَإِنْ اَنَا اَكْثَرْتُ وَاَكْثَرْتُ (يَعْنِي كَلَامًا وَصَوَابًا) . فَقَالَ : يَا بُنَيَّ مَا رَاَيْتُ مَوْعُوظًا اَحَقَّ بِاَنْ يَكُونَ وَاعِظًا مِنْكَ . وَاَنْشَدْتُ لِاَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِيِّ :

تَكَلَّمْ وَسَدِّدْ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا كَلَامُكَ حَيٌّ وَالسُّكُوتُ جَمَادُ

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ قَوْلًا سَدِيدًا تَقُولُهُ فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدَادِ سَدَادُ

وَقِيلَ لِإِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ : مَا فِيكَ عَيْبٌ اِلَّا كَثْرَةُ الْكَلَامِ . فَقَالَ : اَفَتَسْمَعُونَ صَوَابًا اَوْ خَطَأً . قَالُوا : لَا بَلْ صَوَابًا . قَالَ : فَالزِّيَادَةُ مِنَ الْخَيْرِ خَيْرٌ . وَقَالَ اَبُو عُثْمَانَ الْجَاحِظُ : لِلْكَلَامِ غَايَةٌ وَلِنَشَاطِ السَّامِعِينَ نِهَايَةٌ وَمَا فَضَلَ عَنْ مِقْدَارِ الْاِحْتِمَالِ وَدَعَا اِلَى الْاِسْتِثْقَالِ وَالْمَلَالِ فَذَاكَ الْفَاضِلُ هُوَ الْهَذَرُ . وَصَدَقَ اَبُو عُثْمَانَ لِاَنَّ الْاِكْثَارَ مِنْهُ وَاِنْ كَانَ صَوَابًا يُمِلُّ السَّامِعَ وَيُكِلُّ الْخَاطِرَ وَهُوَ صَادِرٌ عَنْ اِعْجَابٍ بِهِ لَوْلَاهُ قَصَّرَ عَنْهُ . وَمَنْ اُعْجِبَ بِكَلَامِهِ اسْتَرْسَلَ فِيهِ وَالْمُسْتَرْسِلُ فِي الْكَلَامِ كَثِيرُ الزَّلَلِ دَائِمُ الْعِثَارِ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَنْ اُعْجِبَ بِقَوْلِهِ اُصِيبَ بِعَقْلِهِ وَلَيْسَ لِكَثْرَةِ الْهَذَرِ رَجَاءٌ يُقَابِلُ خَوْفَهُ وَلَا نَفْعٌ يُوَازِي ضَرَّهُ لِاَنَّهُ يَخَافُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّلَلَ وَمِنْ سَامِعِيهِ الْمَلَلَ وَلَيْسَ فِي مُقَابَلَةِ هٰذَيْنِ حَاجَةٌ دَاعِيَةٌ وَلَا نَفْعٌ مَرْجُوٌّ . قَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى : إِذَا كَانَ الْاِيجَازُ كَافِيًا كَانَ الْاِكْثَارُ عِيًّا وَاِنْ

كَانَ ٱلإِكْثَارُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: إِذَا تَمَّ ٱلعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلأُدَبَاءِ : مَنْ أَطَالَ صَمْتَهُ ٱجْتَلَبَ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمِنَ ٱلْوَحْشَةِ مَا لَا يَضُرُّهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : عِيٌّ تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ فَٱقْتَصِرْ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ حُجَّتَكَ وَيُبْلِغُ حَاجَتَكَ وَإِيَّاكَ وَفُضُولَهُ فَإِنَّهُ يُزِلُّ ٱلْقَدَمَ وَيُورِثُ ٱلنَّدَمَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُصَحَاءِ : فَمُ ٱلْعَاقِلِ مُلْجَمٌ إِذَا هَمَّ بِٱلْكَلَامِ أَحْجَمَ وَفَمُ ٱلْجَاهِلِ مُطْلَقٌ كُلَّمَا شَاءَ أَطْلَقَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّ ٱلْكَلَامَ يُعِدُّ ٱلْقَوْمَ جِلْوَتَهُ حَتَّى يَلِجَّ بِهِ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) وَهُوَ ٱخْتِيَارُ ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَلِأَنَّ ٱللِّسَانَ عُنْوَانُ ٱلإِنْسَانِ يُتَرْجِمُ عَنْ مَجْهُولِهِ وَيُبَرْهِنُ عَنْ مَحْصُولِهِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بِتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ حَرِيًّا وَتَقْوِيمِ لِسَانِهِ مَلِيًّا . وَقَالَ خَالِدُ ٱبْنُ صَفْوَانَ : مَا ٱلإِنْسَانُ لَوْلَا ٱللِّسَانُ هَلْ إِلَّا بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ أَوْ صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱللِّسَانُ وَزِيرُ ٱلإِنْسَانِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ ٱلرَّجُلِ بِقَوْلِهِ وَعَلَى أَصْلِهِ بِفِعْلِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وَلَيْسَ يَصِحُّ ٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِيَ بِكَلَامٍ مُسْتَكْرَهِ ٱللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلِّ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ

مفردةٍ ولا لالفاظها غايةٌ . وإنما البلاغة ان تكون بالمعاني الصحيحة مستودعة في الفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة

البحث السابع

في عيوب الكلام

(عن الجاحظ والعسكري)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

قال بعض الاوائل : لا تكمل آلة البليغ إلّا اذا خلا كلامه من التكلّف وسوء الصنعة وكان غنيًّا عن التأمل متباعدًا عن الحشو. فقوله : (يكون سالمًا من التكلّف) فالتكلّف طلب الشيء بصعوبة للجهل بطرائق طلبه بالسهولة . فالكلام اذا جُمع بتعب وجهد وتُنوولت الفاظه من بُعدٍ فهو متكلّفٌ . وقالوا : ليس الفقه بالتفقُّه ولا الفصاحة بالتفصّح لانّه لا يزيد متزيّدٌ في كلامه الّا لنقصٍ يجده في نفسه . وممّا اتّفقت عليه العرب والعجم قولهم : الطبع املك . قال العرجيُّ :

يا ايها المتحلّي غير شيمته ... ومن شمائله التبديل والملقُ

ارجع الى خُلقك المعروف ديدنُهُ ... انّ التخلّق يأتي دونه الخُلُقُ

وقال آخر :

ومن يبتدع ما ليس من سوس نفسه ... يدعه ويغلبه على النفس خيمها

وَقَالَ آخرُ :

كُلُّ امْرِئٍ رَاجعٌ يوماً لشيمتِهِ   وَإِنْ تخلقَ أخلاقاً الى حِينِ

وَمِثالُ التكلفِ قَوْلُ بعضِهِمْ فِي دُعائِهِ : اللهمَّ رَبنا وَإِلهنا مَنْ أرادَ بنا سوءاً فَأحِطْ ذلكَ السُّوءَ بِهِ وأرسِخْهُ فِيهِ كرُسُوخِ السِّجِّيلِ فِي أصحابِ الفيلِ. وَانْصُرْنا عَلَى كُلِّ بَاغٍ وَحسودٍ كما انتصرْتَ لناقةِ ثمودٍ. ثُمَّ قَالَ : (بَرِيئاً مِنْ سُوءِ الصنعَةِ) فسوءُ الصَّنعَةِ يتصرفُ عَلَى وُجُوهٍ مِنْها : سُوءُ التقسيمِ وفسادُ التفسيرِ وَقُبْحُ الاستِعارةِ وَالتطبيقِ وَفسادُ النسجِ وَالسَّبكِ . فإذا أخلَّ الكاتبُ بِذلكَ فاتتْهُ فضيلَتُهُ وعلقتْ بِهِ رذيلَةُ فَوْتِهِ فعفى عَلَى جَميعِ محاسِنِهِ وعمى سائرَ فَضَائِلِهِ . لِأَنَّهُ اذا لَمْ يفرقْ بَيْنَ كلامٍ جَيِّدٍ وَآخرَ رَدِيءٍ وَلفظٍ حَسَنٍ وآخرَ قبيحٍ وشعرٍ نادِرٍ وَآخرَ باردٍ بَانَ جَهلُهُ وظَهرَ نَقْصُهُ. وَهُوَ أيضاً اذا ارادَ أنْ يَصنعَ قَصِيدَةً اوْ يُنشئَ رسالةً وَقدْ فاتَهُ هـذا العِلْمُ مَزَجَ الصفوَ بالكدرِ وَخلطَ الغُرَرَ بالعُرَرِ وَاستعملَ الوحشيَّ العكرَ فجعلَ نفسَهُ مَهزَأةً لِلجاهلِ وَعبرَةً للعاقلِ . وَإذَا ارادَ أيضاً تصنيفَ كلامٍ مَنْثُورٍ اوْ تأليفَ شِعْرٍ مَنظُومٍ وتخطى حُسْنَ الصنعَةِ ساءَ اختيارُهُ لهُ وقبحتْ آثارُهُ فيهِ فاخذَ الرديءَ المرذُولَ وَتركَ الجيدَ المقبُولَ فَدلَّ عَلَى قُصُورِ فَهمِهِ وَتأخرِ مَعرفتِهِ وَعلمِهِ . وَقدْ قِيلَ : اختيارُ الرَّجلِ قطعَةٌ مِنْ عِلْمِهِ . وَمَا اكْثَرَ مَا وَقعَ منْ عُلماءِ العَرَبيَّةِ فِي هذِهِ الرَّذِيلةِ .

وَقولُهُ : (بَرِيئاً مِنَ التعقيدِ) فَالتعقيدُ وَالاغلاقُ سواءٌ وهُوَ استعمالُ الوَحشِيِّ وَشِدَّةُ تعليقِ الكلامِ بعضِهِ بِبعضٍ حتى يَستبهِمَ المعنَى .

قَال حَبيبُ ٱلطّائيْ :

فما لك بِٱلغَرِيب يَدٌ وَلٰكِنْ　　تعاطِيك ٱلغرِيبَ مِنَ ٱلغرِيبِ
أَمَا لوْ ان جهلكَ عادَ علماً　　اذا لَرَسَخْتَ فِي عِلم ٱلغيُوبِ

قال آخرُ يمدحُ رجُلا بٱستِسهالِ ٱللفظ :

قولٌ كأنَّ فرِنـده　　سَيفٌ على ذهنِ ٱللبيب
لمْ يَشمئزَّ على ٱللسا　　نِ ولا يَشذُّ على ٱلقلوب
لم يَغلُ في شنعِ ٱللغا　　تِ ولا يُوحِّشْ بِٱلغرِيبِ

وقولُه : (غنيًا عن ٱلتأمُّل) اي هُوَ مُستغنٍ لِوُضوحِهِ عَنْ تأمُّلِ مَعانيهِ وتردِيد ٱلنظر فيه . قالَ ٱلجاحِظ : انَّ مَنْ اعارَهُ ٱللّٰهُ مِنْ معونتِه نَصيبا وافرغَ عليهِ مِنْ محبتِهِ ذَنُوبًا حَبَّبَ اِليهِ ٱلمعاني وسَلَّسَ له نظامَ ٱللفظِ وكانَ قَبلُ قد اعفى ٱلمستمِعَ مِنْ كدِّ ٱلتلطُّف وارَاحَ قارِىءَ ٱلكتابِ مِن كدّ ٱلتفهُّم . وقد قيلَ : اِنَّ ٱلبلاغةَ ٱلتقرُّبُ مِنَ ٱلمعنَى ٱلبعيدِ وٱلتبَاعُدُ مِنْ حَشوِ ٱلكلامِ وقُربُ ٱلمأخذ وايجازٌ في صَوَاب وقصدٌ اِلى ٱلحجّةِ وحُسنُ ٱلاستِعارةِ . ومِثلُهُ قولُ ٱلآخرِ : ٱلبلاغَةُ تقرِيبُ مَا بَعُدَ مِنَ ٱلحِكمَةِ بأيسرِ ٱلخِطَاب وٱلتقرُّبُ مِنَ ٱلمعنى ٱلبعيدِ . وهُوَ انْ يَعمِدَ اِلى ٱلمعنَى ٱللطيفِ فيكشِفَهُ وينفيَ ٱلشواغِلَ عَنهُ فيُفهِمَهُ ٱلسَّامِعَ مِنْ غيرِ فِكرٍ فيه وتدبُّرٍ لهُ . وقولُهُ : (مُتباعِدا مِن ٱلحشوِ) فٱلحشوُ عَلى ثلاثةِ اضرب : اثنانِ مِنها مذمومَانِ وواحِدٌ محمُودٌ . فاحدُ ٱلمذمومَينِ هُوَ : اِدخالُكَ فِي ٱلكلامِ لفظًا لَوْ اسقطتَهُ لكانَ ٱلكلامُ تاما . مِثلُ قولِ ٱلشاعِرِ :

اَعني دَّتى لَمْ تَذُرَ اَلشَّمْس طَالِعَةً   يَوْمًا مِنَ الدَّهرِ اِلَّا ضرَّ اَوْ نَفعا

فَقَوْلُهُ : (يَوْما من اَلدَّهر) حَشوٌ لَا يُحْتَاجْ اِلَيْهِ لِاَنَّ اَلشَّمْسَ لَا تَطْلَعْ لَيــلًا . وَالضَّرْبُ اَلْآخَرْ اَلعبارَةُ عَنِ اَلمعْنَى بِكَلَام طَويل لا فَائدَةَ فِي طُولِهِ ويُمـكِنُ اَنْ يُعبَّر بِاَقْصَرَ مِنْهُ كَقَولِ اَلنَّابِغة :

تَبينتْ آيَاتٍ لَهَا فَعرَفْتُهَــا   لِسِتَةِ اعْوام وَذَا اَلْعَامُ سَابِعُ

فَــكَانَ يَنْبغي اَنْ يَقُولَ : اسبْعَةِ اعْوَام . وَيُتِمَّ اَلْبَيْتَ بِكَلَامٍ آخَرَ يكُون فِيهِ فَائدَةٌ فعجزَ عَنْ ذَلِكَ فَحَشا اَلْبيْت بِمَا لَا وجهَ لهُ . وَامَا اَلضَّربْ اَلمحْمُودْ فَــكَقَولِ كُثيّر :

لَوَ اَنَّ اَلْباخِلِين وَاَنْتَ مِنْهُمْ   رَاوْكَ تَعَلَّمُــوا مِنْكَ اَلْمِطالا

قَوْلُهُ : (وَاَنْتَ مِنْهُمْ) حَشوٌ اِلَّا اَنَّهُ مَليحٌ وَيُسمّي اهْلُ اَلصنعَةِ هٰذَا اَلْجِنْسَ اَعتِراضَ كَلام فِي كَلَام . ومنْهُ قَولُ اَلْآخَرِ :

اِنَّ اَلثّمانِــين وَبُلِّغْتَهَــا   قَدْ اَحوَجتْ سَمْعي اِلَى تَرْجُمانْ

البحث الثامن

في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني

(عن الماوَردي باختصار)

اِنْ لَمْ يَفْهَمِ اَلْعاقِلُ مَعَانِي مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ اَلسَّبَبِ اَلْمانِعِ مِنْهَا لِيعْلمَ اَلعلةَ فِي تَعَذّرِ فهْمِهَا فَاِنَّ بِمَعْرِفَةِ اَسْبابِ اَلْاَشْيَاء وَعِلَلِها يَصِلُ الى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلاح مَا فسدَ وَلَيْسَ يَخْــلُو اَلسَّببُ اَلْمانِعُ مِنْ ذَلِــكَ مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسامٍ : اِما اَنْ يَكُونَ بِعلّةٍ فِي اَلْـكَلام

ٱلْمترجم عنها. وَاما ان يكُونَ لعلةٍ فِي ٱلْمستودعِ فيها. واما ان يَكُونَ لعلّةٍ فِي ٱلسَّامِعِ ٱلْمُستخرج . فَانْ كَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمانعُ من فَهمِها لعلةٍ فِي ٱلكَلَامِ ٱلْمترجمِ عنها لمْ يَخلُ ذٰلك مِنْ ثلاثةِ احوالٍ:
(احدَهَا) انْ يَكُون لتقصِيرِ ٱللفظِ عَنِ ٱلْمعنَى فيصير تقصيرُ ٱللفظِ عَنْ ذٰلك ٱلْمعنى سَببًا مانِعًا مِنْ فَهمِ ذٰلِكَ ٱلمعنى . وَهٰذا يكُونُ مِن احد وجهينِ: اما مِنْ حصر ٱلْمتكلّمِ وعيِهِ. واما مِنْ بلادتِهِ وقِلةِ فَهمِه . (ٱلحالُ ٱلثاني) انْ يكُونَ لِزِيادةِ ٱللفظِ عَلى ٱلْمعنَى فتصيرَ ٱلزِيادةُ علّةً مانعةً مِنْ فَهمِ ٱلْمقصُودِ مِنهُ وَهٰذا قَدْ يكُونُ مِنْ احدِ وَجهينِ : امَّا مِنْ هذَرِ ٱلْمتكلّمِ وَاكثارِهِ . وَاما لسُوءِ ظنّه بِفَهمِ سامعِهِ . (وَٱلحالُ ٱلثالثُ) انْ يكُونَ لِمواضعةٍ يَقصِدُهَا ٱلْمتكلّمُ بكلامهِ فاذا لمْ يَعرِفها ٱلسامِعُ لمْ يَفهمْ معانِيهَا . وَامَّا تقصِيرُ ٱللفظِ وَزِيادَتهُ فَمِنَ ٱلأَسبابِ ٱلخاصةِ دُون ٱلعامَّةِ لِأَنَّكَ لستَ تجدُ ذالكَ عامًا في كُلِّ ٱلكلام وَإِنَّمَا تَجدُهُ فِي بعْضهِ فَإِذا عدلتَ عنِ ٱلكلامِ ٱلْمقَصر الى ٱلكَلَامِ ٱلْمستوفِي وعَنِ ٱلزَّائدِ إِلى ٱلكَافِي ارحتَ نَفسك مِنْ تكلُّفِ مَا يَكُدُّ خاطِرَكَ وَانْ اقمتَ عَلى استخرَاجهِ إِمَّا لِضَرُورةٍ دعتْكَ إِليهِ عِندَ إِعوازِ غَيرِهِ اوْ لِحميَّةٍ دَاخلتْكَ عِندَ تعذُّرِ فهمِهِ فانظُرْ فِي سَبَبِ ٱلزِيادةِ وَٱلتقصِيرِ . فَانْ كَانَ ٱلتقصِيرُ لِحصر وَٱلزِيادةُ لِهذَرٍ سَهُلَ عَلَيكَ اسْتخرَاجُ ٱلمعنَى لِأَنَّ مَا لهُ مِنَ ٱلكَلَامِ محْصُولٌ لايجُوزُ انْ يَكُونَ ٱلْمُختلُّ مِنهُ اكثرَ مِنَ ٱلصَحِيحِ وَفِي ٱلأَكثرِ عَلَى ٱلأَقلِّ دَليلٌ . وَإِنْ كَانتْ زِيادةُ ٱللفظِ عَلى ٱلْمعنَى

دَليلًا بِسُوءِ ظَنِّ ٱلمتكلِّم بِفَهمِ ٱلسَّامِعِ كَانَ ٱسْتِخْرَاجُهُ اسهلَ . وَإنْ كانَ تَقْصِيرُ ٱللفظِ عَنِ ٱلمعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ اصعبُ ٱلأُمورِ حَالًا وَابعدُهَا ٱسْتِخْرَاجًا لِأَنَّ مَا لَمْ يَفْهمهُ مُكلِّمُكَ فَانتَ من فَهمِهِ ابعدُ إلَّا انْ يَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِاشَارَتِهِ عَلَى ٱسْتِنْبَاطِ مَا عَجِزَ عَنْهُ وَٱسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فيهِ فَتَكُونُ فَضِيلَةُ ٱلِاسْتِيفَاءِ لَكَ وحَقُّ ٱلتَّقَدُّمِ لَهُ . وَامَّا ٱلْمُوَاضَعَةُ فَضَرْبَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ . (امَّا ٱلعامَّةُ) فهي مُوَاضَعَةُ ٱلعُلَمَاءِ فيما جَعلوهُ ٱلقابًا لِمعانٍ لَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُتعلِّمُ عَنها وَلَا يَقِفُ عَلَى مَعْنَى كَلَامِهِم إلَّا بها كَمَا جَعَلَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلجواهر وَٱلأَعْرَاض وَٱلأجسامَ ٱلقابًا تواضعوهَا لِمَعَانٍ ٱتَّفقُوا عَلَيْهَا . وَلَسْتَ تَجِدُ مِنَ ٱلعُلومِ عِلْمًا يَخْلُو مِنْ هٰذا . وَهٰذه ٱلْمُوَاضَعَةُ ٱلعَامَّةُ تُسمَّى عُرْفًا . (وَامَّا ٱلخاصَّةُ) فمُوَاضَعَةُ ٱلوَاحِدِ يَقْصِدُ بِبَاطِنِ كَلَامِهِ غيرَ ظَاهِرِهِ . فاذَا كَانَتْ فِي ٱلكَلام كَانَتْ رَمْزًا . وَإنْ كَانَتْ فِي ٱلشِّعْرِ كانتْ لُغْزًا . فامَّا ٱلرَّمْزُ فَلَسْتَ تَجِدُهُ في عِلْمٍ مَعْنَوِيٍّ . وَلَا فِي كَلَامٍ لُغَوِيٍّ . وَإنَّمَا يَخْتَصُّ غَالِبًا باحَدِ شَيْئَيْنِ : إمَّا بِمَذْهَبٍ شَنِيعٍ يُخْفِيهِ مُعْتَقِدُهُ وَيَجْعَلُ ٱلرَّمْزَ سَبَبًا لِتَطَلُّعِ ٱلنُّفُوسِ اليهِ وَٱحْتِمَالِ ٱلتَّأْوِيلِ فِيهِ سَبَبًا لِدفعِ ٱلتُّهْمَةِ عَنْهُ . وَإمَّا لِمَا يَدَّعِي ارْبَابُهُ انَّهُ عِلْمٌ مُعْوِزٌ . وَانَّ ادرَاكَهُ بَدِيعٌ مُعْجِزٌ كَٱلصَّنعَةِ ٱلَّتِي وضعها ارْبَابُهَا اسمًا لِعِلْمِ ٱلكِيمِيَاءِ فَرَمَزُوا بِاوْصَافِهِ وَاخْفَوا مَعَانِيَهُ لِيُوهِمُوا ٱلشُّحَّ بِهِ وَٱلأَسَفَ عَلَيْهِ خديعةً لِلْعُقُولِ ٱلوَاهِيَةِ وَٱلآرَاءِ ٱلفَاسِدَة . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

أحبُّ شيءٍ الى الانسان ما منعا ... مُنِعتُ شيئاً فأكثرتُ الولوعَ بهِ

ثمَّ ليكونوا براء من عهدة ما قالوه اذا جُرِّبَ ولو كان ما تضمَّن هذين النوعين واشباههما من الرموز معنًى صحيحاً وعلماً مستفاداً لخرج من الرمز الخفيِّ الى العلم الجليِّ. فانَّ اغراض الناس مع اختلاف اهوائهم لا تتفق على سترٍ سائرٍ واخفاءِ مفيدٍ. وقد قال زهيرٌ:

السترُ دون الفاحشات ولا ... يلقاك دون الخير من سترِ

وربَّما استُعمِل الرمز من الكلام فيما يُراد تفخيمهُ من المعاني وتعظيمهُ من الالفاظ ليكون احلى في القلب موقعاً. واجلَّ في النفوس موضعاً. فيصير بالرمز سائراً وفي الصحف مخلَّداً. كالذي حُكِي عن فيثاغورس في وصاياه المرموزة انَّهُ قال: احفظ ميزانك من البذى واوزانك من الصدى. يريد بحفظ الميزان من البذى حفظ اللسان من الخنا وبحفظ الاوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى. فصار بهذا الرمز مستحسناً ومدوَّناً ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى الصحيح لما سار عنهُ ولا استُحسِن منهُ. وعلَّة ذلك انَّ المحجوب عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل لهُ في النفوس من التعظيم. وفي القلوب من التفخيم. وما ظهر منها ولم يحتجب هان واسترذل. وهذا انما يصحُّ استحلاؤه فيما قلَّ وهو باللفظ الصريح مستثقلٌ. فامَّا العلوم المنتشرة التي تتطلَّع النفوس اليها فقد استغنت بقوَّة الباعث عليها. وشدَّة الداعي اليها. عن الاستدعاء اليها برمزٍ مستحلى ولفظٍ مستغرَبٍ. بل ذلك منفِّرٌ لما في التشاغل باستخراج

رموزها من الابطاء عن دركها فهذا حال الرمز . واما اللغز فهو تحري اهل الفراغ وشغل ذوي البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاخروا في سرعة خواطرهم فيستكدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدي نفعاً ولا يفيد علماً كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة اجسامهم الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد اجسامهم ولا يكسبهم حمداً ولا يجدي عليهم نفعا . انظر الى قول الشاعر :

رجل مات وخلف رجلا ابن ام ابن ابي اخت ابيه
معه ام بني اولاده وابا اخت بني عم اخيه

اخبرني عن هذين البيتين وقد روعك صعوبة ما تضمنهما من السؤال اذا استكديت الفكر في استخراجه فعلمت انه اراد ميتا خلف ابا وزوجة وعما . ما الذي افادك من العلم ونفى عنك من جهل . ألست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو ان السائل قلب لك السؤال فاخر ما قدم وقدم ما اخر لكنت في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل الاول وقد كددت نفسك واتعبت خاطرك . ثم لا تعدم ان يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله . فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى وتكلف البطالين . ثم اجعل ما من الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الى علم ما يكون انفاق خاطرك فيه مذخوراً وكد فكرك فيه مشكوراً. وقال بعض البلغاء : من امضى يومه بغير حق قضاه . او فرض اداه . او مجد اثله .

اَوْ حمدٍ حصّلَهُ . اَوْ خيرٍ اسسهُ اَوْ عِلمٍ اقتبسهُ . فقد عقَّ يومَهُ وظلمَ نفسهُ . وقال بعضُ الشعراء :

لقدْ هاجَ الفراغُ عليكَ شُغلا وَاسبابُ البلاء مِنَ الفراغِ

فهذا تعليلُ ما في الكلام من الاسبابِ المانعة من فهمِ معانيه حتى خرجَ بنا الاستيفاء والكشفُ الى الاغماض . (واما القسمُ الثاني) وهوَ ان يكونَ السببُ المانعُ من فهمِ السامعِ لعلّة في المعنى المستودَع فلا يخلو حالُ المعنى من ثلاثة اقسام : اِما انْ يكونَ مستقلاً بنفسهِ اوْ يكونَ مقدمة لغيره اَوْ يكونَ نتيجةً مِنْ غيرهِ . فاَمَّا المستقلُّ بنفسه فضربانِ : جليٌّ وخفيٌّ . فاما الجلي فهوَ يسبقُ الى فهمِ متصوّرِه مِنْ اوّلِ وهلةٍ . وليسَ هوَ مِنْ اقسامِ ما يُشكِلُ على مَنْ تصوّرَهُ . واما الخفيُّ فيحتاجُ في اِدراكهِ اِلى زِيادة تاَمُّلٍ وفضلِ معاناةٍ لينجلي عما اخفى وينكشفَ عمّا اغمضَ . وباستعمالِ الفكرِ فيهِ يكونُ الارتياضُ بهِ وبالارتياضِ بهِ يسهلُ منهُ ما استصعبَ ويقربُ منهُ ما بعدَ . فاِنَّ للرياضةِ جراءةً وللدرايةِ تأثيرا . واما ما كانَ مقدّمةً لغيرِهِ فضربانِ : احدهُما ان تقومَ المقدّمةُ بنفسها وانْ تعدّتْ اِلى غيرها فتكونَ كالمستقلّ بنفسهِ في تصوره وفهمِهِ مستدعيًا لنتيجته . والثاني انْ يكونَ مفتقرا اِلى نتيجةٍ فيتعذّرَ فهمُ المقدّمة الاَّ بما يتبعها مِن النتيجةِ لاَنّها تكونُ بعضا . وتبعيضُ المعنى اشكلُ لهُ وبعضهُ لا يُغني عنْ كُلهِ . واما ما كانَ نتيجةً لغيرهِ فهوَ لا يُدرَكُ اِلاَّ باوَّلهِ ولا يُتصوَّرُ على حقيقتهِ

إلا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عناء . واتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته اذى . فهذا يوضح تعليل ما في المعاني من الاسباب المانعة من فهمها . (واما القسم الثالث) وهو ان يكون السبب المانع لعلة في المستمع فذلك ضربان : احدهما من ذاته . والثاني من طار عليه . (فاما ما كان من ذاته) فيتنوع نوعين : احدهما ما كان مانعا من تصور المعنى . والثاني ما كان مانعا من حفظه بعد تصوره وفهمه . فاما ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء . وقد قال بعض الحكماء : اذا فقد العالم الذهن قل على الاضداد احتجاجه . وكثر الى الكتب احتياجه . وليس لمن بلي به الا الصبر والاقلال . لانه على القليل اقدر . وبالصبر احرى ان ينال ويظفر . واما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير واهمال التواني فينبغي لمن بلي به ان يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر . فقد قيل : لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكد نفسه . وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه الا من يرى العلم مغنما والجهالة مغرما . فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرة الجهل . فان نيل العظيم بامر عظيم . وعلى قدر الرغبة تكون المطالب وبحسب الراحة يكون التعب . وقد قيل : طلب الراحة قلة الاستراحة . وقال بعض الحكماء : اكمل الراحة ما كانت عن كد التعب واعز العلم ما كان عن ذل الطلب . . .

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلْآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ أَهْلِ ٱلْأَذْهَانِ فَاجْعَلُوا ٱلْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاةً . وَٱلْأَقْلَامَ لَهَا رُعَاةً . (وَأَمَّا ٱلطَّوَارِئُ) فَنَوْعَانِ : (أَحَدُهُمَا) شُبْهَةٌ تَعْتَرِضُ ٱلْمَعْنَى فَتَمْنَعُ عَنْ نَفْسِ تَصَوُّرِهِ وَتَدْفَعُ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . فَيَنْبَغِي أَنْ يُزِيلَ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِٱلسُّؤَالِ أَوِ ٱلنَّظَرِ لِيَصِلَ إِلَى تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لَا تُخْلِ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ فَتَعُودَ عَقِيمًا . وَلَا تُعْفِ طَبْعَكَ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَيَعُودَ سَقِيمًا . وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

شِفَاءُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّؤَالِ وَإِنَّمَا
دَوَامُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّكُوتِ عَلَى ٱلْجَهْلِ
فَكُنْ سَائِلًا عَمَّا عَنَاكَ فَإِنَّمَا
دُعِيتَ أَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِٱلْعَقْلِ

(وَٱلثَّانِي) أَفْكَارٌ تُعَارِضُ ٱلْخَاطِرَ فَيَذْهَلُ عَنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا سَبَبٌ قَلَّ مَا يَعْرَى مِنْهُ أَحَدٌ لَا سِيَّمَا فِيمَنِ ٱنْبَسَطَتْ آمَالُهُ وَٱتَّسَعَتْ أَمَانِيُّهُ . وَقَدْ يَقِلُّ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ أَرَبٌ وَلَا فِيمَا سِوَاهُ هِمَّةٌ فَإِنْ طَرَأَتْ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُكَابَرَةِ نَفْسِهِ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَغَلَبَةِ قَلْبِهِ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ ٱلْقَلْبَ مَعَ ٱلْإِكْرَاهِ أَشَدُّ نُفُورًا وَأَبْعَدُ قَبُولًا . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْأَثَرِ : بِأَنَّ ٱلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ . وَلٰكِنْ يُعْمِلُ فِي دَفْعِ مَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ هَمٍّ مُذْهِلٍ أَوْ فِكْرٍ قَاطِعٍ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ ٱلْقَلْبُ مُطِيعًا . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي ٱلْمَوَدَّةِ شَافِعٌ
إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ شَفِيعُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : إِنَّ لِهٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ ٱلْوَحْشِ

فتألفوها بالاقتصاد في التعليم والتوسط في التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها . فهذا تعليل ما في المستمع من الاسباب المانعة من فهم المعاني

البحث التاسع

في المعاظلة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

إنَّ المعاظلة مأخوذة من قولهم: تعاظلت الجرادتان إذا ركبت احداهما الأخرى . فسمّي الكلام المتراكب في ألفاظه وفي معانيه المعاظلة مأخوذا من ذلك وهو اسم لائق بمسماه . ووصف عمر بن الخطاب زهير بن ابي سلمى فقال : كان لا يعاظل بين الكلام . وقد اختلف علماء البيان في حقيقة المعاظلة فقال قدامة ابن جعفر الكاتب : التعاظل في الكلام هو ان يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ولا اعرف ذلك الا فاحش الاستعارة . كقول اوس بن حجر :

وذاتِ هِدمٍ عارٍ نواشرها   تُصمِتُ بالماء تولبا جدعا

فسمّى الظبي تولبا والتولب ولد الحمار . وهذا ما ذكره قدامة ابن جعفر وهو خطأ اذ لو كان ما ذهب اليه صوابا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه . وليست حقيقتها هذه بل حقيقتها ما تقدم وهو التراكب من قولهم : تعاظلت الجرادتان

اِذَا رَكِبَتْ اِحداهما ٱلاخرى . وهٰذا ٱلمِثالُ ٱلَّذِي مَثلَ بِهِ قُدامةُ لَا تَرَاكُبَ فِي ٱلفَاظِهِ وَلَا فِي مَعَانِيهِ . وَاما غيرُ قُدامة فَانَّهُ خالفهُ فِيما ذَهَبَ اِلَيهِ اِلَّا انَّهُ لَمْ يَقْسِمِ ٱلمُعَاظَلَة اِلى لفظِيةٍ ومعنويَّةٍ ولٰكنهُ ضَرَبَ لَهَا مثلًا . كَقولِ ٱلفرزدقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ اِلَّا مُمَلَّكًا ... اَبو اُمِّهِ حَيٌّ اَبوهُ يُقارِبُهْ

وَهٰذَا مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلمعنوِيّ لَا مِن ٱلقِسْمِ ٱللفظِيّ . أَلَا تَرَى اِلَى تَرَاكُبِ معانيهِ بِتقدِيمِ مَا كَانَ يَجِبُ تأخِيرُهُ وَتأخِيرِ ما كَانَ يَجِبُ تَقدِيمُهُ لِانَّ ٱلاَصلَ فِي مَعناهُ : وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلناسِ حَيٌّ يُقارِبُهُ اِلَّا مُمَلَّكًا اَبو اُمِّهِ اَبوهُ . وَاِذْ حَقَّقتُ ٱلقَوْلَ فِي بَيَانِ ٱلمُعَاظَلَةِ وَٱلكَشفِ عَنْ حَقِيقتها فَاقولُ : اِنَّ ٱلمُعَاظَلَة مُعَاظَلَتَانِ لَفظِيَّةٌ وَمَعنوِيَّةٌ (فَٱلمعنوِيَّة) اَنْ يُقَدَّمَ مَا ٱلاَولَى بِهِ ٱلتأخِيرُ وَهُوَ مِنْ عُيُوبِ ٱلكَلامِ لِانَّ ٱلمعنَى مُختَلٌّ بذلكَ ومُضطَرِبٌ وَذٰلِكَ كَتَقدِيمِ ٱلصِّفَةِ اَوْ مَا يَتَعلَّقُ بِهَا عَلَى ٱلموصُوفِ وَتَقدِيمِ ٱلصِّلَةِ عَلَى ٱلموصُولِ وَغَيرِ ذٰلِكَ . كَقولِ بَعضِهِمْ :

فَقدْ وَٱلشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَناءٌ ... بِوَشْكِ فِراقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

فَاِنَّهُ قدمَ قَولَهُ (بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ) . وَهوَ مَعمُولُ يَصِيحُ وَيَصِيحُ صِفَةٌ لِصُرَد عَلَى صُرَد وَذٰلِكَ قَبِيحٌ . اَلَا تَرَى اَنَّهُ لَا يَجُوزُ اَنْ يُقَالَ : هٰذَا مِنْ مَوضِعِ كَذَا رَجُلٌ وَرَدَ ٱليومَ . وَانَّمَا يَجُوزُ وُقُوعُ ٱلمَعمُولِ بِحَيثُ يَجُوزُ وُقُوعُ ٱلعَامِلِ فَكَمَا لَا يَجُوزُ تَقدِيمُ ٱلصِّفَةِ عَلَى مَوصُوفِهَا فَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ تَقدِيمُ مَا اتَّصَلَ بِهَا عَلَى مَوصُوفِهَا . وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحوِ

قَولُ ٱلآخرِ :

فَاَصْبحتْ بَعْدَ خطَّ بهجتهَا   كَانَّ قفْرًا رُسُومَها قلما

فَاِنهُ قدمَ خبرَ كانَّ عليها وهوَ قولهُ : خط . وَهٰذا وَامثالهُ مما لا يجوزُ قِيَاسٌ عليهِ وَٱلاَصلُ فِي هٰذا ٱلبيتِ (فَاَصبحتْ بَعْدَ بهجتها قفرا كَانَّ قلما خَطَّ رُسومَهَا) اِلا انهُ عَلَى تِلكَ ٱلحالةِ ٱلاُولَى فِي ٱلشِعْرِ مُختلٌ مُضْطرِبٌ .وَٱلمعاظلَةُ فِي هٰذَا ٱلبَابِ نتفاوتُ درجاتها فِي ٱلقبحِ وهٰذَا ٱلبيتُ ٱلمُشَارُ اِلَيهِ مِنْ اقبحها لِاَنَّ معانِيَهُ قَدْ تداخلت وركبَ بعضُهَا بَعضا . وَمِما يَجرِي هذا ٱلمجرَى قولُ ٱلفرزدقِ :

اِلى مَلكٍ مَا اَمهُ مِنْ مُحاربٍ   ابوهُ وَلا كانتْ كُليبٌ تُصاهِرُهْ

(وهوَ يزيدُ الى مَالكٍ ابوهُ مَا امهُ مِنْ مُحارب) . وَهٰذا اقبحُ مِنَ ٱلاَولِ وَاكثرُ ٱختلالا . . . وَقدِ ٱستَعمَلَ ٱلفرزدقُ مِنَ ٱلتعاظُلِ كثيرًا كانهُ كانَ يقصِدُ ذلك ويتعمَّدهُ .لِاَنَّ مِثلهُ لا يجيُّ اِلَّا متكلفًا مقصُودًا وَاِلا فَاِذَا تَركَ مُؤَلفُ ٱلكلَامِ نفسهُ تَجرِي عَلَى سجيتهَا وطَبْعها فِي ٱلاِستِرسَالِ لم يعرِضْ لَهُ شيءٌ مِنْ هٰذَا ٱلتعقيدِ . اَلا تَرَى اَنَّ ٱلمقصُودَ مِنَ ٱلكلَامِ مَعدومٌ فِي هٰذَا ٱلضربِ ٱلمشارِ اِليهِ اذِ ٱلمقصودُ مِنَ ٱلكلامِ انمَا هُوَ ٱلايضَاحُ وَٱلاِبَانةُ وافهامُ ٱلمعنَى . فَاِذَا ذهبَ هٰذَا ٱلوَصفُ ٱلمقصُودُ مِنَ ٱلكلامِ ذهبَ ٱلمرادُ بِهِ وَلَا فرقَ عندَ ذٰلكَ بَينَهُ وبَينَ غيرِهِ منَ ٱللُّغاتِ كَٱلفارِسيةِ وَٱلهنديَّةِ وَغيرِهِمَا . وَٱعلمْ انَّ هٰذَا ٱلضربَ مِنَ ٱلكلامِ هُوَ ضِدُّ ٱلفَصاحةِ لِاَنَّ ٱلفصاحةَ هِيَ ٱلظُّهورُ وَٱلبيانُ وَهٰذَا عارٍ عَنْ هٰذَا ٱلوَصفِ.وَ اماَّ ٱلقِسمُ

ٱللفظيُّ من ٱلمعاظلةِ) فاني تاملته بالاستقراء من الاشعار قديمها ومحدثها ومن النظر في حقيقتها نسبا فوجدتها تنقسم الى خمسة اقسام : (الاول) منها يختص بادوات الكلام . من والى وعن وعلى واشباهها . فانَّ منها ما يسهل النطق به اذا ورد مع اخواته . ومنها ما لا يسهل بل يرد ثقيلا على اللسان ولكل موضع يخصه من السبك . فمما جاء منه قول ابي تمام :

اِلى خالدٍ راحت بنا ارحبيةٌ مرافقها مِن عن كراكرِها نُكْبُ

فقوله : (من عن كراكرها) من الكلام المتعاظل الذي يثقل النطق به على انه قد وردت هاتان اللفظتان وهما : من وعن في موضع آخر فلم يثقل النطق بهما كقول القائل : مِن عن يمين الطريق . والسبب في ذلك انهما وردتا في بيت ابي تمام مضافتين الى لفظة الكراكر فثقلت منهما وجعلتهما مكروهتين كما ترى والا فقد وردتا في شعر قطريّ بن الفجاءة فكانتا خفيفتين كقوله :

ولقد اراني للرماح دريئةً مِن عن يميني مرةً وامامي

والاصل في ذلك راجعٌ الى السبك فاذا سبكت هاتان اللفظتان او ما يجري مجراهما مع الفاظ تسهل منهما لم يكن بهما من ثقل كما جاءتا في بيت قطريّ . واذا سبكتا مع الفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا في بيت ابي تمام . ومن هذا القسم قول ابي تمام ايضا :

كأنَّه لاجتماع الروح فيه لهُ في كل جارحةٍ من جسمه روحُ

فَقَوْلُهُ (فِي) بَعْدَ قَوْلِهِ (فِيهِ لَهُ) مِمَا لَا يَحْسُنُ وُرُودُهُ. وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ابِي الطَّيبِ الْمُتَنَبِي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فَقَوْلُهُ : (لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا) مِنَ الثَّقِيلِ الثَّقِيلِ الثَّقِيلِ . . . .

(الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ الْمُعَاظَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ) تَخْتَصُّ بِتَكْرِيرِ الْحُرُوفِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَا يَتَعَلَّقُ بِتَكْرِيرِ الْأَلْفَاظِ وَلَا بِتَكْرِيرِ الْمَعَانِي مِمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي بَابِ التَّكْرِيرِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ. وَإِنَّمَا هُوَ تَكْرِيرُ حَرْفٍ وَاحِدٍ اوْ حَرْفَيْنِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ الْفَاظِ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ او الْمَنْظُومِ فَيَثْقُلُ حِينَئِذٍ النُّطْقُ بِهِ . فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ فِي مَكَانٍ قَفْرٌ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فَهَذِهِ الْقَافَاتُ وَالرَّاآتُ كَأَنَّهَا فِي تَتَابُعِهَا سِلْسِلَةٌ وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الثِّقَلِ . وَكَذَا وَرَدَ قَوْلُ الْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ :

وَازْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عُرْفَانَهُ

فَقَوْلُهُ :(وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عُرْفَانَهُ) مِنَ التَّكْرِيرِ الْمُشَارِ الَيْهِ. وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ ايْضًا فِي رِسَالَتَيْهِ اللَّتَيْنِ صَاغَهُمَا عَلَى حَرْفَيِ السِّينِ وَالشِّينِ : فَانَّهُ اتَى فِي احْدَاهُمَا بِالسِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ الْفَاظِهَا . وَاتَى بِالْأُخْرَى بِالشِّينِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ الْفَاظِهَا فَجَاءَتَا كَأَنَّهُمَا رُقَى الْعَقَارِبِ اوْ خُذْرُوفَةُ الْعَزَائِمِ . وَمَا اعْلَمُ كَيْفَ خَفِيَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْقُبْحِ عَلَى مِثْلِ الْحَرِيرِيِّ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِالْجَيِّدِ وَالرَّدِيِّ مِنَ الْكَلَامِ . . وَاعْلَمْ انَّ الْعَرَبَ الَّذِينَ هُمُ الْاصْلُ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ قَدْ عَدَلُوا عَنْ

تَكرِيرِ ٱلحُرُوفِ في كثيرٍ من كلامهمْ. وَذاكَ أنَّهُ اذا تكرَّرَ ٱلحَرْفُ عِنْدَهُمْ ادغَمُوهُ ٱستحساناً فقالُوا في : (جَعَلَ لكَ) جعلكَ . وَفي : (تَضرِبُونَني) تَضرِبوني . وكذلِكَ قالوا : ٱستَعَدَّ فُلانٌ للأمرِ اذا تأهَّبَ لهُ وَٱلأصلُ فيهِ ٱستَعْدَدَ . وَٱستَتَبَّ ٱلأمرُ اذا تهيَّأَ . وٱلأصلُ فِيهِ ٱستَتْبَبَ . وَاشباهُ ذلِكَ فِي كَلامهمْ حتَّى انهُمْ لشدَّةِ كَرَاهَتِهِمْ لتَكرِيرِ ٱلحُرُوفِ ابدَلُوا احَدَ ٱلحَرْفَيْنِ ٱلمُكَرَّرَيْنِ حرفاً آخرَ غيْرَهُ فقالُوا : امليتُ ٱلكتابَ . وَٱلأصلُ فيه امْلَلْتُ . فابدَلُوا اللامَ ياءً طَلَباً للخفَّةِ وَفِراراً مِنَ ٱلثقلِ . وَإِذا كانَ قدْ فَعَلُوا ذلكَ في ٱللفظةِ ٱلواحدةِ فما ظَنُّكَ بِٱلألفاظِ ٱلكثيرةِ ٱلَّتي يَتْبعُ بَعْضُها بعضاً

(ٱلقسمُ ٱلثالثُ مِن ٱلمُعاظَلَةِ) انْ تَرِدَ ٱلفاظٌ عَلَى صِيغةِ ٱلفعلِ يَتبعُ بعضُها بَعضاً فمنها مَا يَختلفُ بَيْنَ مَاضٍ ومُسْتَقْبلٍ . وَمِنها مَا لا يَختلِفُ . فَٱلأوَلُ كقولِ ٱلقاضِي ٱلأرَّجانِيِّ فِي ابياتٍ يَصِفُ فِيها ٱلشَّمعَةَ فقالَ :

بِٱلنَّارِ فَرَّقَتِ ٱلحَوادِثُ بَيْنَنا وَبِها نَذَرتُ اعودُ اقْتُلُ رُوحِي

فقولُهُ : (نَذَرتُ اعودُ) مِنَ ٱلمُعاظَلَةِ ٱلمشارِ إِلَيها . وَامَّا مَا يَرِدُ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلصِيغَةِ ٱلفِعلِيَةِ . فكقَولِ ابي ٱلطَيبِ ٱلمتَنَبي :

اقِلْ انِلْ اقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ اعِدْ زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ ادْنِ سُرَّ صِلِ

فهذِهِ ٱلفاظٌ جاءَتْ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِيغةُ ٱلأمرِ كَأنَّهُ قالَ : (ٱفعلِ ٱفعلْ) هكذا إِلَى آخرِ ٱلبَيتِ . وَهذَا تَكرِيرٌ للصِيغَةِ

وإنْ لَمْ يَكُنْ تَكريرًا للحُروفِ إلّا أنّهُ أخوه ولا أقولُ : ابنُ عمّه. وَهذِهِ ألفاظٌ مُتراكِبةٌ مُتداخلةٌ ولو عطفها بالواو لكانَتْ أقربَ حالًا . كما قالَ عبدُ السّلامِ بنُ رَغبانَ :

فسدَ النّاسُ فاطْلبِ الرِزقَ بالسّيفِ م وَإلّا فَمُتْ شَديدَ الهُزالِ
حِلَّ وَأمِرْ وَضُرَّ وانفعْ ولِنْ وَاخْشُنْ م وَابرِزْ ثُمَّ انتدِبْ للمَعالي

ألا تَرى أنّهُ لما عطفَ هٰهنا بالواو لَمْ تتراكبِ الألفاظُ كتَراكُبِها في بَيتِ ابي الطيبِ المتقدّمِ ذِكرُهُ

(القسمُ الرابعُ مِنَ المعاظَلة) وهُوَ الّذي يَتضَمّنُ مُضافاتٍ كثيرةً كقولِهِمْ : سَرْجُ فرسِ غلامِ زيد . وَإنْ زِيدَ على ذلكَ قِيلَ : لبدُ سرجِ فرسِ غُلامِ زَيد. وهٰذا أشدُّ قُبحًا وأثقلُ عَلى اللّسانِ. وَعليْهِ وَرَدَ قَوْلُ ابنِ نَاباتَ الشاعرِ في مُفتتحِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

حمامةَ جرعا حومَةِ الجندلِ اسجعي فأنتِ بمرأى من سُعادَ ومَسْمعِ

(القسمُ الخامِسُ مِنَ المعاظَلةِ) أنْ تَرِدَ صِفاتٌ مُتعَدّدَةٌ عَلَى نحوٍ وَاحِدٍ . كقَوْلِ ابي تمّام مِنْ قصيدَةٍ يَصِفُ رُمحًا :

وَمُرَّ تهفُو ذؤابتاهُ عَلى أسمَرٍ مَتْنٍ يومَ الوَغى جَسدِهْ
مارِنُهُ لَدْنُهُ مُثقّفُهُ عِراضُهُ في الأكفِّ مُطّرِدهْ

وَهٰذا كالأوّلِ في قُبحِهِ وثِقلِه فقاتلهُ اللهُ ما امْتَنَ شِعرَهُ وما أسخفَهُ في بعضِ الأحوالِ . . . وعَلَى هٰذا وردَ قولُ ابي الطيّبِ المتنبّي :

دانٍ بعيدٍ مُحبٍّ مُبغِضٍ بَهجٍ أغرَّ حُلوٍ مُمِرٍّ ليّنٍ شَرِسِ

نَدٍ اَبِيّ غَرٍ وَافٍ لَخِي ثِقَةٍ ... جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رِضٍ نَدُسِ

وَهٰذَا كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ بِلَا شَكٍّ وَقَلِيلًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلشُّعَرَاءِ. وَلَمْ اَجِدْهُ كَثِيرًا اِلَّا فِي شِعْرِ ٱلْفَرَزْدَقِ وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهٰذِهِ مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ تُوجَدُ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ كَثِيرًا

البحث العاشر

في المنافرة بين الالفاظ في السبك

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَمْ يُحَقِّقْ احَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ ٱلْقَوْلَ فِيهِ. وَغَايَةُ مَا يُقَالُ: اِنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ لَا تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا ثُمَّ يُكْتَفَى بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَلَا تَفْصِيلٍ حَتَّى اِنَّهُ قَدْ خَلَطَ هٰذَا ٱلنَّوْعَ بِٱلْمُعَاظَلَةِ وَكُلٌّ مِنْهَا نَوْعٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ تَخُصُّهُ. اِلَّا اَنَّهُمَا قَدِ ٱشْتَبَهَا عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ فَكَيْفَ عَلَى جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ. وَقَدْ بَيَّنْتُ هٰذَا ٱلنَّوْعَ وَفَصَّلْتُهُ فِي فَصْلِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَضَرَبْتُ لَهُ اَمْثِلَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى اَخَوَاتِهَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا. وَجُمْلَةُ ٱلْاَمْرِ اَنَّ مَدَارَ سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْمَذْكُورَةِ. لِاَنَّ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ اَصْلَا سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَا عَدَاهُمَا فَرْعٌ عَلَيْهِمَا. وَاِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلنَّاثِرُ اوِ ٱلنَّاظِمُ عَارِفًا بِهِمَا فَاِنَّ مَقَاتِلَهُ كَثِيرَةٌ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُنَافَرَةُ اَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ اَوْ اَلْفَاظٌ يَكُونُ غَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا اَوْلَى بِٱلذِّكْرِ. وَعَلَى هٰذَا

فَإِنَّ ٱلْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ أَنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ هِيَ ٱلتَّرَاكُبُ وَٱلتَّدَاخُلُ إِمَّا فِي ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي ٱلْمَعَانِي عَلَى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا تَرَاكُبَ فِيهِ وَإِنَّمَا هُوَ إِيرَادُ أَلْفَاظٍ غَيْرِ لَائِقَةٍ بِمَوْضِعِهَا ٱلَّذِي تَرِدُ فِيهِ. وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْآخَرُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ. (فَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ فِي ٱلْكَلَامِ أَمْكَنَ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ سَوَاءٌ كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ نَثْرًا أَوْ نَظْمًا. وَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلشِّعْرِ بَلْ يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّثْرِ خَاصَّةً لِأَنَّهُ يَعْسُرُ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ أَجْلِ ٱلْوَزْنِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي:

فَلَا يُبْرِمُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ ... وَلَا يَحْلُلُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ يُبْرِمُ

فَلَفْظَةُ حَالِلٌ نَافِرَةٌ عَنْ مَوْضِعِهَا وَكَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهُ لَوِ ٱسْتَعْمَلَ عِوَضًا عَنْهَا لَفْظَةَ (نَاقِضٌ) لَجَاءَتِ ٱللَّفْظَةُ قَارَّةً فِي مَكَانِهَا غَيْرَ قَلِقَةٍ وَلَا نَافِرَةٍ. وَبَلَغَنِي عَنْ أَبِي ٱلْعَلَاءِ: أَنَّهُ كَانَ يَتَعَصَّبُ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ ٱلشَّاعِرَ وَيُسَمِّي غَيْرَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بِٱسْمِهِ وَكَانَ يَقُولُ: لَيْسَ فِي شِعْرِهِ لَفْظَةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ عَنْهَا مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا فَيَجِيءُ حَسَنًا مِثْلَهَا. فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَمَا وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ لٰكِنَّ ٱلْهَوَى كَمَا يُقَالُ أَعْمَى. وَكَانَ أَبُو ٱلْعَلَاءِ أَعْمَى ٱلْعَيْنِ خِلْقَةً وَأَعْمَاهَا عَصَبِيَّةً فَٱجْتَمَعَ لَهُ ٱلْعَمَى مِنْ جِهَتَيْنِ. وَهٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ ٱلَّتِي هِيَ (حَالِلٌ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا قَبِيحَةُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ وَهِيَ فَكُّ

اَلْادِغَامِ فِي اَلْفِعْلِ اَلثُّلَاثِيِّ وَنَقْلُهُ اِلَى اَسْمِ اَلْفَاعِلِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يَحْسُنُ اَنْ يُقَالَ : بَلَّ اَلثَّوْبَ فَهُوَ بَالِلٌ . وَلَا : سَلَّ اَلسَّيْفَ فَهُوَ سَالِلٌ . وَهٰذَا لَوْ عُرِضَ عَلَى مَنْ لَا ذَوْقَ لَهُ لَأَدْرَكَهُ وَفَهِمَهُ فَكَيْفَ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ صَحِيحٌ كَأَبِي اَلطَّيِّبِ . لٰكِنْ لَا بُدَّ لِكُلِّ جَوَادٍ مِنْ كَبْوَةٍ .

وَاَنْشَدَ بَعْضُ اَلْاُدَبَاءِ بَيْتًا لِدِعْبِلٍ وَهُوَ :

شَفِيعُكَ فَاشْكُرْ فِي اَلْحَوَائِجِ اِنَّهُ   يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فَقُلْتُ لَهُ : عَجُزُ هٰذَا اَلْبَيْتِ حَسَنٌ وَاَمَّا صَدْرُهُ فَقَبِيحٌ . لِاَنَّ سَبْكَهُ قَلِقٌ نَافِرٌ . وَتِلْكَ اَلْفَاءُ اَلَّتِي فِي قَوْلِهِ : شَفِيعُكَ فَاشْكُرْ كَأَنَّهَا رُكْبَةُ اَلْبَعِيرِ وَهِيَ فِي زِيَادَتِهَا كَزِيَادَةِ اَلْكَرِشِ . . . وَمِثْلُ هٰذِهِ اَلدَّقَائِقِ اَلَّتِي تَرِدُ فِي اَلْكَلَامِ نَظْمًا كَانَ اَوْ نَثْرًا لَا يَتَفَطَّنُ لَهَا اِلَّا اَلرَّاسِخُ فِي عِلْمِ اَلْفَصَاحَةِ وَاَلْبَلَاغَةِ . وَمِنْ هٰذَا اَلْقِسْمِ وَصْلُ هَمْزَةِ اَلْقَطْعِ وَهِيَ مَحْسُوبَةٌ مِنْ جَائِزَاتِ اَلشِّعْرِ اَلَّتِي لَا تَجُوزُ فِي اَلْكَلَامِ اَلْمَنْثُورِ . وَكَذٰلِكَ قَطْعُ هَمْزَةِ اَلْوَصْلِ لٰكِنَّ وَصْلَ هَمْزَةِ اَلْقَطْعِ اَقْبَحُ لِاَنَّهُ اَثْقَلُ عَلَى اَللِّسَانِ . فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي اَلطَّيِّبِ اَلْمُتَنَبِّي :

يُوَسِّطُهُ اَلْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ   طِلَابُ اَلطَّالِبِينَ لَا اَلْاِنْتِظَارُ

فَقَوْلُهُ : (لَا اَلْاِنْتِظَارُ) كَلَامٌ نَافِرٌ مِنْ مَوْضِعِهِ . وَمِنْ هٰذَا اَلْقِسْمِ اَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ اَلْمَوْصُوفِ وَاَلصِّفَةِ بِضَمِيرِ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . كَقَوْلِ اَلْبُحْتُرِيِّ :

حَلَفْتُ لَهُ بِاللّٰهِ يَوْمَ اَلتَّفَرُّقِ   وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهِ اَلْمُتَعَلِّقِ

تَقْدِيرُهُ (مِنْ قَلْبِي ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ) فَلَمَّا فَصَلَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ ٱلَّذِي هُوَ (قَلْبِي) وَٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْمُتَعَلِّقُ) بِٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي هُوَ (بِهِ) قَبُحَ ذٰلِكَ . وَلَوْ كَانَ قَالَ مِنْ قَلْبٍ بِهِ مُتَعَلِّقٍ لَزَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْهُجْنَةُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَيْضًا أَنْ تُرَادَ ٱلْأَلِفُ وَٱللَّامُ فِي ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ وَيُقَامَ ٱلضَّمِيرُ فِيهِ مُقَامَ ٱلْمَفْعُولِ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَٱلزَّائِرِيهِمْ ‏ ‏ ‏ ‏ لَمَا مِزْتَ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

فَقَوْلُهُ : (ٱلزَّائِرِي) ٱسْمُ فَاعِلٍ . وَقَوْلُهُ : (وَٱلزَّائِرِيهِمْ) هُوَ ٱلضَّمِيرُ فِي مَوْضِعِ ٱلْمَفْعُولِ . تَقْدِيرُهُ :(ٱلزَّائِرِينَ أَرْضَهُمْ أَوْ دَارَهُمْ أَوِ ٱلزَّائِرِينَ إِيَّاهُمْ) فَٱسْتِعْمَالُ هٰذَا مَعَ ٱلْأَلِفِ وَٱللَّامِ قَبِيحٌ جِدًّا . وَإِذَا حَذَفْنَا زَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ كَثِيرًا

(وَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي)ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَيْضًا :

لَا خَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ ‏ ‏ ‏ ‏ بِكَ رَاءٍ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

فَإِنَّ عَجُزَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا فِي ٱلْأَشْعَارِ كَثِيرٌ



الفصل السادس

في وجوه الكلام

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

البحث الاوَّل

في وجوه البلاغة وطبقات الكلام

(من العقد الفريد لابن عبد ربه)

اَلْبَلَاغَةُ تَكُونُ عَلَى اَرْبَعَـةِ اَوْجُهٍ : تَكُونُ بِاَللَّفْظِ وَاَلْخَطِّ وَاَلْاشَارَةِ وَاَلدَّلَالَةِ . وَكُلٌّ مِنْهَا لَهُ حَظٌّ مِنَ اَلْبَلَاغَةِ واَلْبَيَانِ وَمَوْضِعٌ لَايَجُوزُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ كَلَامٍ جَوَابٌ . وَرُبَّ اِشَارَةٍ ابلغ مِنْ لَفْظٍ . فَاَمَّا اَلْخَطُّ وَاَلْاِشَارَةُ فَمَفْهُومَانِ عِنْدَ اَلْخَاصَّةِ وَاَكْثَرِ اَلْعَامَّةِ . وَاَمَّا اَلدَّلَالَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ دَلَّكَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ اَخْبَرَكَ بِهِ . . . . وَقَالَ اَبْرَوِيزُ لِكَاتِبِهِ : اَعْلَمْ اَنَّ دَعَائِمَ اَلْمَقَالَاتِ اَرْبَعٌ : اِنِ اَلْتُمِسَ لَهَا خَامِسٌ لَمْ يُوجَدْ فَاِنْ نَقَصَ مِنْهَا وَاحِدٌ لَمْ تَتِمَّ وَهِيَ : سُؤَالُكَ اَلشَّيْءَ وَاَمْرُكَ بِاَلشَّيْءِ وَاِخْبَارُكَ عَنِ اَلشَّيْءِ وَسُؤَالُكَ عَنِ اَلشَّيْءِ . فَاِذَا طَلَبْتَ فَاَسْجِحْ . وَاِذَا سَاَلْتَ فَاَوْضِحْ وَاِذَا اَمَرْتَ فَاَحْكُمْ . وَاِذَا اَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ . وَاَجْمَعِ اَلْكَثِيرَ مِمَّا تُرِيدُ فِي اَلْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ (يُرِيدُ اَلْكَلَامَ اَلَّذِي تَقِلُّ حُرُوفُهُ وَتَكْثُرُ مَعَانِيهِ) . وَقَالَ رَبِيعَةُ : اَلرَّأْيُ اَنْ لَا اَسْمَعَ اَلْحَدِيثَ عُطْلًا فَاُشَنِّفَهُ وَاُقَرِّطَهُ فَيَحْسُنُ وَمَا زِدتُّ فِيهِ شَيْئًا وَلَا غَيَّرْتُ

لهُ معنًى . وقالوا : خيرُ الكلامِ ما لم يُحتجْ بعدهُ الى كلامٍ وللعربِ من مُوجزِ اللفظِ ولطيفِ المعنى فُصولٌ عجيبةٌ وبدائعُ غريبةٌ . قالَ ابراهيمُ بنُ محمّدٍ الشيبانيُّ : إذا احتجتَ الى مخاطبةِ الملوكِ والوزراءِ والعلماءِ والكتّابِ والخطباءِ والأدباءِ والشعراءِ واوساطِ الناسِ وسُوقتِهم فخاطِبْ كلاً على قدرِ ابّهتِهِ وجلالتِهِ وعلوّهِ وارتفاعِهِ وفطنتِهِ وانتباهِهِ واجعلْ طبقاتِ الكلامِ على ثمانيةِ اقسامٍ : منها الطبقاتُ العليّةُ اربعٌ والطبقاتُ الأخرُ وهيَ دونها اربعٌ لكلِّ طبقةٍ منها درجةٌ ولكلٍّ قسمةٌ . لا ينبغي الكاتبِ البليغِ انْ يقصرَ باهلِها عنها ويقلبَ معناها الى غيرِها . (فالحدُّ الاوّلُ) الطبقاتُ العُليا وغايتُها القصوى الخلافةُ التي اجلَّ اللهُ قدرَها واعلى شأنَها عن مساواتِها باحدٍ من ابناءِ الدُّنيا في التعظيمِ والتوقيرِ . (والطبقةُ الثانيةُ) لوزرائِها وكتّابِها الذين يخاطِبونَ الخلفاءَ بعقولِهم والسنتِهم ويرتقونَ الفتوقَ بآرائِهم . (والطبقةُ الثالثةُ) أمراءُ ثغورِهم وقوّادُ جنودِهم فانّهُ يجبُ مخاطبةُ كلِّ احدٍ منهم على قدرِهِ وموضعِهِ وحظّهِ وغنائِهِ وجزائِهِ واضطلاعِهِ بما حملَ من اعباءِ أمورِهم وجلائلِ اعمالِهم . (والرابعةُ) القضاةُ فانّهم وانْ كانَ لهم تواضعُ العلماءِ وحِليةُ الفضلاءِ فمعهم ابّهةُ السلطنةِ وهيبةُ الأمراءِ . واما الطبقاتُ الاربعُ الأخرُ فهمُ الملوكُ الذينَ اوجبتْ نِعمُهم تعظيمَهم في الكتبِ اليهم وافضالُهم تفضيلَهم فيها . (والثانيةُ) وزراؤُهم وكتّابُهم واتباعُهم الذينَ تُقرعُ ابوابُهم وبعِنايتِهم تُستَباحُ اموالُهم . (والثالثةُ) هُمُ العلماءُ

يَجِبُ تَوقيرهم في الكُتُبِ بِشرفِ العلمِ وَعلوِّ درجة اهلهِ .
(وَالطبقة الرابعة) لأهل القدرِ وَالجلالةِ وَالحلاوةِ والطلاوةِ وَالظرفِ وَالأدبِ فَانَّهم يضطرّونك بجدةِ اذهانِهم وشدةِ تمييزِهم وانتقادِهم وادبِهم وتصفحِهم الى الاستقصاءِ على نفسك في مكاتبتِهم واستغنينا عن الترتيبِ للسوقةِ والعوامِّ والتجار باستغنائِهم بمهانتِهم من هذهِ الآلاتِ واشتغالِهم بمهانتِهم عن هذهِ الادواتِ . ولِكلِّ طبقةٍ من هذهِ الطبقاتِ معانٍ ومذاهبُ يجبُ عليكَ ان ترعاها في مراسلتِكَ اياهم في كتبِكَ فتزنَ كلامَكَ في مخاطبتِهم بميزانِهِ وتعطيهِ قسمهُ وتوفيهِ نصيبَهُ . فانَّكَ متى اهملتَ ذلكَ واضعتهُ لم آمن عليكَ ان تعدلَ بهم عن كلامِكَ في غيرِ مسلكِه فلا تعتدّ بالمعنى الجزلِ ما لم تلبسهُ لفظاً لائقاً بمن كاتبتهُ وملبساً بمن راسلتهُ . فانَّ الباسكَ المعنى وانْ صحَّ وصرفَ لفظاً مختلفاً على قدرِ المكتوبِ اليهِ لم تجرِ بهِ عادتُهم تهجينٌ للمعنى واخلالٌ بقدرِه وظلمٌ بحقِّ المكتوبِ اليهِ ونقصٌ مما يجبُ لهُ كما انَّ في اتباعِ تعارفِهم وما انتشرتْ بهِ عاداتُهم وجرتْ بهِ ألسنتُهم قطعاً لعذرِهم وخروجاً من حقوقِهم وبلوغاً الى غايةِ مرادِهم واسقاطاً لحجةِ ادبِهم . فمن الالفاظِ المرغوبِ عنها والصدورِ المستوحشِ منها في كتبِ الساداتِ والملوكِ والامراءِ على اتفاقِ المعاني مثلُ : ابقاكَ اللهُ طويلا وعمّركَ مليًّا . وانْ كنّا نعلمُ انْ لا فرقَ بينَ قولِهم : اطالَ اللهُ بقاءكَ . وبينَ قولِهم : ابقاكَ اللهُ طويلا . ولكنّهم جعلوا هذا

ارجح وزنا وانبه قدرا في المخاطبة كما انهم جعلوا : اكرمك الله وابقاك . احسن منزلا في كتب الفضلاء والادباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال ان يكون فداه من الخير كما يحتمل ان يكون فداه من الشر. على ان كتاب العسكر وعوامهم قد ولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها مجيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . ولذلك قال محمود الوراق :

كل من حل سر من را من النا س ومن قد يداخل الاملاكا
لو راى الكلب مائلا بطريق قال للكلب ياجعلت فداكا

وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثل ابقاك الله وامتع بك الا في الابن والخادم المنقطع اليك . واما في كتب الاخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه . . . ولكل مكتوب اليه قدر ووزن ينبغي للكاتب ان لا يجاوزه عنه ولا يقصر به دونه . وقد رايتهم عابوا الاحوص حين خاطب الملوك خطاب العوام في قوله :

واراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق الحديث يقول ما لا يفعل

وهذا معنى صحيح في المدح ولكنهم اجلوا قدر الملوك ان يمدح بما تمدح به العوام لان صدق الحديث وانجاز الوعد وان كان من المدح فهو واجب على العامة . والملوك لا يمدحون بالفرائض الواجبة . انما يحسن مدحهم بالنوافل لان المادح لو قال لبعض الملوك : انك لا تخون ما استودعت وانك لتصدق في وعدك وتفي

بِعَهْدِكَ . فَكَأَنَّهُ قَدْ أَثْنَى بِمَا يَجِبُ وَلَوْ قَصَدَ بِثَنَائِهِ إِلَى مَقْصَدِهِ كَانَ أَشْبَهَ بِٱلْمُلُوكِ . وَنَحْنُ نَعْلَمُ انَ كُلَّ أَمِيرٍ يَتَوَلَّى مِنْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا فَهُوَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُطْلِقُوا هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ إِلَّا فِي ٱلْخُلَفَاءِ خَاصَّةً . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ ٱلْكَيْسَ هُوَ ٱلْعَقْلُ . وَلٰكِنْ إِنْ وَصَفْتَ رَجُلًا فَقُلْتَ : إِنَّهُ لَعَاقِلٌ . كُنْتَ مَدَحْتَهُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهُ لَكَيِّسٌ كُنْتَ قَدْ قَصَّرْتَ بِهِ عَنْ وَصْفِهِ وَصَغَّرْتَ مِنْ قَدْرِهِ . إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ بِٱللُّغَةِ لِأَنَّ ٱلْعَامَّةَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى مَعْنَى ٱلْكَلِمَةِ وَلٰكِنْ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ ٱلْعَادَةُ مِنِ ٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلظَّاهِرِ إِذْ كَانَ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْعَامَّةِ لِهٰذِهِ ٱلْكَلِمَةِ مَعَ ٱلْحَدَاثَةِ وَٱلْغِرَّةِ وَخَسَاسَةِ ٱلْقَدْرِ وَصِغَرِ ٱلسِّنِّ . . . فَٱمْتَثِلْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ وَٱجْرِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْقِوَامِ وَتَحَفَّظْ فِي صُدُورِ كُتُبِكَ وَفُصُولِهَا وَخَوَاتِمِهَا وَضَعْ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعٍ يَلِيقُ بِهِ وَتَخَيَّرْ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَعْنًى يُشَاكِلُهَا وَلْيَكُنْ مَا تَخْتِمُ بِهِ فُصُولَكَ فِي مَوْضِعِ ذِكْرِ ٱلْبَلْوَى بِمِثْلِ : (نَسْأَلُ ٱللّٰهَ دَفْعَ ٱلْمَحْذُورِ وَصَرْفَ ٱلْمَكْرُوهِ) وَأَشْبَاهِ هٰذَا . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ ٱلْمُصِيبَةِ : إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ ٱلنِّعْمَةِ : (ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ خَالِصًا وَٱلشُّكْرُ لِلّٰهِ وَاجِبًا) . فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعَ يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ أَنْ يَتَفَقَّدَهَا وَيَحْتَفِظَ بِهَا . فَإِنَّ ٱلْكَاتِبَ إِنَّمَا يَصِيرُ كَاتِبًا بِأَنْ يَضَعَ كُلَّ مَعْنًى فِي مَوْضِعِهِ فَيُعَلِّقَ كُلَّ لَفْظَةٍ عَلَى طَبَقِهَا مِنَ ٱلْمَعْنَى . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي ٱلرَّسَائِلِ ٱسْتِعْمَالُ ٱلِاقْتِصَارِ وَٱلْحَذْفِ وَمُخَاطَبَةُ ٱلْخَاصِّ بِٱلْعَامِّ وَٱلْعَامِّ بِٱلْخَاصِّ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ

أنْ يَجْتَنِبَ ٱللَّفظَ ٱلْمُشْتَرَكَ وَٱلمعنَى ٱلْمُلْتَبِسَ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ أيضاً فِي ٱلرَّسَائلِ وَٱلْبَلَاغَاتِ ٱلْمَشْهورَةِ مَا يَجُوزُ فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلْموْزُونَةِ لِأَنَّ ٱلشَّاعِرَ مُضْطَرٌّ وَٱلشِّعْرَ مَقْصودٌ مُقَيدٌ بِٱلوَزْنِ وَٱلقَوَافي . فَلِذٰلِكَ أَجَازُوا لَهُمْ صَرْفَ مَا لَا يَنْصَرِفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ وَحَذْفَ مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهَا وَٱغْتُفِرَ فِيهِ سُوءُ ٱلتَّظَلُّمِ وَأَجَازُوا فيهِ ٱلتَّقْدِيمَ وَٱلتَّأْخِيرَ وَٱلْإِضْمَارَ فِي مَوْضِعِ ٱلْإِظْهَارِ وَذٰلِكَ كُلُّهُ غَيْرُ سَائِغٍ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَلَا جَائِزٌ فِي ٱلْبَلَاغَاتِ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي فِي ٱلرَّسَائِلِ أَنْ يُصَغَّرَ ٱلْاسْمُ فِي مَوْضِعِ ٱلتَّعْظِيمِ وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ جَائِزًا مِثْلَ قَوْلِهِمْ : دُوَيْهِيَةٌ تَصْغِيرُ دَاهِيَةٍ . وَجُذَيْلٌ تَصْغِيرُ جِذْلٍ . وَعُذَيْقٌ تَصْغِيرُ عِذْقٍ . وَقَالَ لَبِيدٌ :

وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ ... دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا ٱلْأَنَامِلُ

وَقَالَ ٱلْحُبَابُ بْنُ ٱلْمُنْذِرِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ : أَنَا عُذَيْقُهَا ٱلْمُرَجَّبُ وَجُذَيْلُهَا ٱلْمُحَكَّكُ . وَقَالَ سَرحَةُ أَبو عُبَيْدَةَ : وَمِمَّا لَا يَجُوزُ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَكَرِهُوهُ فِي ٱلْكَلَامِ أَيضاً مِثْلُ قَوْلِهِمْ : كَلَّمْتُ إِيَّاكَ وَأَعْنِي إِيَّاكَ وَهُوَ جَائِزٌ فِي ٱلشِّعْرِ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَأَجْمِلْ وَأَحْسِنْ فِي أَسِيرِكَ إِنَّهُ ... ضَعِيفٌ وَلَمْ يَأْسِرْ كَإِيَّاكَ آسِرْ

فَتَخَيَّرْ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ أَرْجَحَهَا لَفْظاً وَأَجْزَلَهَا وَأَشْرَفَهَا جَوْهَرًا وَأَكْرَمَهَا حَسَباً وَأَلْيَقَهَا فِي مَكَانِهَا وَأَشْكَلَهَا فِي مَوْضِعِهَا فَإِنْ حَاوَلْتَ صَنْعَةَ رِسَالَةٍ فَزِنِ ٱللَّفْظَةَ قَبْلَ أَنْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ ٱلتَّصْرِيفِ إِذَا عَرَضَتْ . وَعَايِرِ ٱلْكَلِمَةَ بِمِعْيَارٍ إِذَا سَنَحَتْ . فَإِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوْضِعٌ يَكُونُ مَخْرَجُ ٱلْكَلَامِ إِذَا كَتَبْتَ : أَنَا فَاعِلٌ . أَحْسَنَ مِنْ أَنْ

تَكتُبَ : انا افعلُ . وَموضِعٌ آخرُ يَكونُ فِيهِ (اَستفعلتُ) اَحلى مِنْ (فَعَلتُ) فادرِ الكَلامَ عَلَى اعكَانِهِ وَقَلِّبْهُ عَلَى جَميعِ وجُوهِهِ فَايُّ لَفظَة رَايتها فِي المَكَانِ الَّذي نَدَبْتَها اِلَيهِ فَانْزِعها اِلى المَكَانِ الَّذي اَورَدْتَها عَلَيهِ وَاَوقِعها فِيهِ . وَلَا تجعلِ اللفظَةَ قَلِقَةً فِي مَوضِعِها نَافِرَةً عَنْ مَكَانِها فَاِنَّكَ مَتى فَعلتَ هَجَّنْتَ المَوضِعَ الَّذي حَاوَلْتَ تَحسِينَهُ وَافسدتَ المَكَانَ الَّذي اَردتَ اِصْلَاحَهُ فَاِنَّ وضعَ الاَلفاظِ فِي غَيرِ اَمَاكِنِها وَقَصدكَ بِها اِلى غَيرِ مُصابِها اِنما هُوَ كَتَرقيعِ الثَّوبِ الَّذي لَمْ يُشَابِهْهُ رِقَاعُهُ وَلَمْ تَتقَارَبْ اَجزاؤُهُ وَخَرَجَ مِنْ حَدِّ الجِدَّةِ وَتَغيَّرَ حُسْنُهُ . كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

اِنَّ الجَدِيدَ اِذَا مَا زِيدَ فِي خَلَقٍ يَبِينُ لِلناسِ اَنَّ الثَّوبَ مَرقُوعُ

كَذٰلِكَ كُلَّمَا احْلَولَى الكَلَامُ وَعَذُبَ وَرَاقَ وَسَهُلَتْ مَخَارِجُهُ كَانَ اَسهلَ وَاَرجى فِي الاَسماعِ وَاَشدَّ اتِّصالًا بِالقُلوبِ وَاَخفَّ عَلَى الاَفواهِ لَا سِيَّمَا اِنْ كَانَ المَعنَى البَدِيعُ مُترجَمًا بِلفظٍ مُؤْنِقٍ شَرِيفٍ وَمُعَايَرًا بِكَلَامٍ عَذبٍ لَمْ يَسِمْهُ التَّكلِيفُ بِمِيسَمِهِ وَلَمْ يُفسِدْهُ التَّعقِيدُ بِاَستِهلَاكِهِ . . . وَقَدْ رَايتهم شَبَّهُوا المَعنَى الخَفِيَّ بِالرُّوحِ الخَفِيِّ . وَاللَفظَ الظَّاهِرَ بِالجُثمَانِ الظَّاهِرِ . وَاِذَا لَمْ يَنهَضْ بِالمَعنَى الشَّرِيفِ الجَزلِ لَفظٌ شَرِيفٌ جَزلٌ لَمْ تَكُنِ العِبَارَةُ وَاضِحَةً وَلَا النِظَامُ مُتَّسِقًا . وَتَضَاؤُلُ المَعنَى الحَسَنِ تَحتَ اللَفظِ القَبِيحِ كَتَضَاؤُلِ الحَسنَاءِ فِي الاَطمَارِ الرَّثَّةِ . وَاِنمَا يَدلُّ عَلَى المَعنَى اَربعَةُ اَصنَافٍ : لَفظٌ وَاِشَارَةٌ وَعَقدٌ وَخَطٌّ . وَقَدْ ذَكَرَ لَهُ اَرسطَاطَالِيسُ صَنفًا خَامِسًا فِي كِتَابِ

ٱلْمَنطِقِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلنِّصْبَةَ . وَٱلنِّصْبَةُ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلنَّاطِقَةُ بِغَيْرِ لَفْظٍ وَمُشِيرَةٌ إِلَيْكَ بِغَيْرِ يَدٍ وَذٰلِكَ ظَاهِرٌ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكُلِّ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ. وَجَمِيعُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْخَمْسَةِ كَاشِفَةٌ عَنْ أَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي وَسَافِرَةٌ عَنْ وُجُوهِهَا وَأَوْضَحُ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ وَأَفْصَحُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ صِنْفَانِ : هُمَا ٱلْقَلَمُ وَٱللِّسَانُ وَكِلَاهُمَا تَرْجُمَانٌ . فَأَمَّا ٱللِّسَانُ فَهُوَ ٱلْآلَةُ ٱلَّتِي يَخْرُجُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا عَنْ حَدِّ ٱلْاِسْتِبْهَامِ إِلَى حَدِّ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِٱلْكَلَامِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ صَاحِبُ ٱلْمَنطِقِ : حَدُّ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْحَيُّ ٱلنَّاطِقُ

البحث الثاني

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع (١)

(من مقدمة ابن خلدون باختصار)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعِبَارَةُ وَٱلْخِطَابُ إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ فِي إِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَٱلْمَوَاتِ ٱلَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ وَكَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَمَعْرِفَةُ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْأَحْكَامِ ٱلَّتِي بِهَا تُطَابِقُ ٱلتَّرَاكِيبُ ٱللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ فَنُّ ٱلْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ ٱلشُّرُوطُ وَٱلْأَحْكَامُ تُؤْخَذُ مِنْ عِلْمِي

(١) ان هذا الفصل لايوجد في نسخة مقدمة ابن خلدون المطبوعة في مصر وبيروت بل في طبعة باريز

اَلْمَعَانِي وَالْبَيَانِ فَعِلْمُ الْمَعَانِي وَعِلْمُ الْبَيَانِ هُمَا جُزْءَا الْبَلَاغَةِ وَبِهِمَا كَمَالُ الْاِفَادَةِ وَالْمُطَابَقَةِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ. فَالْبَلَاغَةُ عَلَى هٰذَا هِيَ اَصْلُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ . ثُمَّ اعْلَمْ اَنَّهُمْ اِذَا قَالُوا الْكَلَامَ الْمَطْبُوعَ فَاِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ الْكَلَامَ الَّذِي كَمُلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ اِفَادَةِ مَدْلُولِهِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ لِاَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخِطَابٌ لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ النُّطْقُ فَقَطْ . بَلِ الْمُتَكَلِّمُ يَقْصِدُ بِهِ اَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ اِفَادَةً تَامَّةً وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةً وَثِيقَةً. ثُمَّ يَتْبَعُ تَرَاكِيبَ الْكَلَامِ فِي هٰذِهِ السَّجِيَّةِ الَّتِي لَهُ بِالْاَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ التَّحْسِينِ وَالتَّزْيِينِ بَعْدَ كَمَالِ الْاِفَادَةِ وَكَاَنَّهَا تُعْطِيهَا رَوْنَقَ الْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْمِيقِ الْاَسْجَاعِ وَالْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِ الْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ بِالْاَقْسَامِ الْمُخْتَلِفَةِ الْاَحْكَامِ وَالتَّوْرِيَةِ بِاللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ عَنِ الْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ وَالْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْمُتَضَادَّاتِ لِيَقَعَ التَّجَانُسُ بَيْنَ الْاَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي فَيَحْصُلَ لِلْكَلَامِ رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي الْاَسْمَاعِ وَحَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى الْاِفَادَةِ . وَهٰذِهِ الصَّنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي الْكَلَامِ الْمُعْجِزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلِ : وَاللَّيْلِ اِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ اِذَا تَجَلَّى . وَمِثْلِ : فَاَمَّا مَنْ اَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى اِلَى آخِرِ التَّقْسِيمِ . وَكَذَا : فَاَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا اِلَى آخِرِهِ. وَكَذَا : وَهُمْ يَحْسَبُونَ اَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. وَاَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذٰلِكَ بَعْدَ كَمَالِ الْاِفَادَةِ فِي اَصْلِ هٰذِهِ التَّرَاكِيبِ قَبْلَ وُقُوعِ هٰذَا الْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ لٰكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ

إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرٍ . وَأَمَّا ٱلْإِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا وَأَتَوْا مِنْهُ بِٱلْعَجَائِبِ . وَأَوَّلُ مَنْ أَحْكَمَ طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ فَقَدْ كَانُوا مُولَعِينَ بِٱلصَّنْعَةِ وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِٱلْعَجَبِ . وَقِيلَ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى مُعَانَاتِهَا بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَٱبْنُ هَرْمَةَ وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ ٱتَّبَعَهُمَا كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو وَٱلْعَتَّابِيُّ وَمَنْصُورٌ ٱلنَّمَرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ . وَجَاءَ عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى ٱلْبَدِيعِ وَٱلصِّنَاعَةِ أَجْمَعَ

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُمُ ٱلْمَطْبُوعَ ٱلْفَقِيدَ ٱلصَّنْعَةِ فِي إِحْكَامِ تَأْلِيفِهِ وَثَقَافَةِ تَرْكِيبِهِ فَلَوْ جَاءَتْ فِيهِ ٱلصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْأَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا . وَأَمَّا ٱلْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنْ بَشَّارٍ ثُمَّ حَبِيبٍ وَطَبَقَتِهِمَا ثُمَّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ خَاتِمِ ٱلصَّنْعَةِ ٱلَّذِينَ جَرَى ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَيْدَانِهِمْ وَنَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ . وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَصْنَافُ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ عِنْدَ أَهْلِهَا وَٱخْتَلَفَتِ ٱصْطِلَاحَاتُهُمْ فِي أَلْقَابِهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي ٱلْإِفَادَةِ وَإِنَّمَا هِيَ تُعْطِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلرَّوْنَقَ . وَأَمَّا ٱلْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدِيعِ فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ وَلِذٰلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي ٱلْفُنُونِ ٱلْأَدَبِيَّةِ ٱلَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهِيَ رَأْيُ ٱبْنِ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ لَهُ وَأُدَبَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ شُرُوطًا مِنْهَا أَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ فِيمَا يُقْصَدُ مِنْهَا . وَأَمَّا ٱلْعَفْوُ فَلَا كَلَامَ فِيهِ

لِأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ سَلِمَ ٱلْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ ٱلِاسْتِهْجَانِ لِأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ فَتُخِلُّ بِٱلْإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا وَتَذْهَبُ بِٱلْبَلَاغَةِ رَأْسًا وَلَا يَبْقَى فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ ٱلتَّحْسِينَاتُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْغَالِبُ ٱلْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَصْحَابِ ٱلْأَذْوَاقِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلْفُنُونِ وَيَعُدُّونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ. ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ ٱسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمْ ٱلْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ ٱلْقَصِيدِ فَتَكْفِي فِي زِينَةِ ٱلشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ. قَالَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو ٱلْقَسِمِ ٱلشَّرِيفُ ٱلسَّبْتِيُّ مُنْفِقُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ يَقُولُ: هٰذِهِ ٱلْفُنُونُ ٱلْبَدِيعَةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبُحُ أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِهِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ ٱلْخِيلَانِ فِي ٱلْوَجْهِ يَحْسُنُ بِٱلْوَاحِدِ وَٱلِاثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْظُومِ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَنْثُورُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرَ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ. مُشَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ. حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ ٱلصَّابِئُ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهِ فَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَٱلتَّقْفِيَةَ وَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِٱلْعَجَبِ وَعَابَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذٰلِكَ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ صَوْلَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمُنْفِقَةِ لِسُوقِ ٱلْبَلَاغَةِ. ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي مَنْثُورِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلتَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ ٱلسُّلْطَانِيَّاتُ

وَٱلْإِخْوَانِيَّاتُ وَٱلْعَرَبِيَّاتُ بِٱلسُّوقِيَّاتِ وَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ . وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْمَصْنُوعَ بِٱلْمُعَانَاةِ وَٱلتَّكْلِيفِ قَاصِرٌ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ لِقِلَّةِ ٱلِٱكْتِرَاثِ فِيهِ بِاَصْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ذٰلِكَ ٱلذَّوْقُ

البحث الثالث

في السجع وانواعهِ

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٧٢ من علم الادب)

كَلِمَاتُ ٱلْاَسْجَاعِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى اَنْ تَكُونَ سَاكِنَةَ ٱلْاَعْجَازِ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا لِاَنَّ ٱلْغَرَضَ اَنْ يُجَانِسَ بَيْنَ ٱلْقَرَائِنِ وَيُزَاوِجَ بَيْنَهَا وَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ اِلَّا بِٱلْوَقْفِ . اَلَا تَرَى اَنَّ قَوْلَهُمْ: مَا اَبْعَدَ مَا فَاتْ . وَمَا اَقْرَبَ مَا هُوَ آتْ. لَوْ اُعْطِيَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ مَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ ٱلْاِعْرَابِ لَٱخْتَلَفَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ وفَاتَ ٱلسَّاجِعَ غَرَضُهُ. وَاِذَا رَاَيْنَاهُمْ يُخْرِجُونَ ٱلْكَلِمَةَ عَنْ اَوْضَاعِهَا لِلِٱزْدِوَاجِ فَيَقُولُونَ آتِيكَ بِٱلْغَدَوَاءِ اَوْ بِٱلْعَشَاءِ . وَهَنَاَنِي ٱلطَّعَامُ وَمَرَانِي . وَٱنْصَرِفْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ يُرِيدُونَ : ٱلْغَدَوَاتِ وَاَمْرَاَنِي وَمَوْزُورَات . مَعَ اَنَّ فِيهِ ٱرْتِكَابًا لِمُخَالَفَةِ ٱللُّغَةِ . وَكَذٰلِكَ : اَعْطِ ٱلْقَوْسَ بَارِيهَا . وَفِيهِ تَرْكُ ٱلْاِعْرَابِ مِنْ اَثْنَاءِ ٱلْكَلِمَةِ فَمَا ٱلظَّنُّ بِاَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ ٱلْمُشَبَّهَةِ بِٱلْقَوَافِي . وَٱلْاَوْلَى اَنْ يُقَالَ فِي اَوَاخِرِ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْفَوَاصِلُ اِذَا عُرِفَ هٰذَا

فَالأسجاعُ اربعةُ انواع : اَلتَّرصِيعُ والمتَوازِي والمطَرَّف والمتاوزِن.
اما (اَلتَّرصِيعُ) فَهوَ انْ تَكُونَ الالفاظُ مُستوِيَةَ الاوزان مُتَّفِقَةَ الاعجاز كَقولِه : اِنَّ اِلينا اِيابهُمْ . ثُمَّ اِنَّ عَلَينا حِسابَهُمْ . وقولِه : اِنَّ الابرارَ لَفي نَعيم . وَاِنَّ الفُجَّارَ لفي جَحيمٍ . وقولِه: اَللهُمَّ اقبلْ تَوبَتِي واغسِلْ حَوْبَتِي . وقولِهمْ : فُلانٌ يَفتخرُ بِالهِمَمِ العالِيَةِ . لا بِالرِّمَمِ البالِيَة. وقولِهمْ: حَتّى عادَ تَعرِيضُكَ وتَعرِيضُكَ تَصْحِيحًا . وَمِن النظْمِ قولُ الخنساء :

حامِي الحقيقَةِ مَحْمود الخَليقةِ ... مَهدِيّ الطَّرِيقةِ نَفَّاع وَضَرَّارِ
جَوَّابِ قاصِيَةٍ جَزَّازِ ناصِيَةٍ ... عَقَّادِ الوِيَةٍ لِلخَيلِ جَرَّارِ

وكقولِ ابي فِراسٍ :

وَافعالُنا للراغِبِينِ كَرِيمَةٌ ... وَاموالُنا لِلطَّالِبِينَ نِهابُ

وقولِ الابيورَدِيّ :

يروحُ اليهمْ عازِبُ الحمدِ وافِيًا ... وَيَغدُو عَلَيهِمْ طالِبُ الرِّفدِ عافِيًا

وقدْ يَجِيءُ مَعَ التجنيسِ كَقَولِهمْ : اِذا قلَّتِ الانصارُ كَلَّتِ الابصارُ. وَما وراءَ الخَلْقِ الدَّمِيمِ اِلَّا الخُلُقُ الذَّميمُ . وَمِنَ النظْمِ قَولُ المطَرِّزِيّ :

وَدَرُّ جلالِهِ ابدًا ثَمِينٌ ... وَدَرُّ نَوالِهِ ابدًا غَزيرُ

(وَالمتَوازِي) وَهوَ انْ يُراعَى فِي الكَلِمَتَيْنِ الاخِيرَتَيْنِ مِنَ القرِينتَيْنِ وَالوزن مَعَ اتِّفاقِ الحَرفِ الاخِرِ مِنهُما كَقولِهِ: فِيها سُرُرٌ مَرفُوعَةٌ. وَاكوابٌ مَوضُوعَةٌ . وَقولِه : اَللهُمَّ اعطِ مُنفِقًا خَلَفًا .

وَأَعطِ مُمسِكًا تلفًا. وقولِ ٱلحريريّ: ٱلجاني حُكمُ دهرٍ قاسطٍ. إلى أن أنتجِعَ أرضَ واسطٍ. وقولِهِ: وَأودى ٱلناطِقُ وَٱلصامِتُ. وَرثى لنا ٱلحاسِدُ وَٱلشامِتُ. (وَٱلمطرَّفُ) وَهُوَ أن يُراعى ٱلحرفُ ٱلأخيرُ في كلتا قرينتَيهِ مِن غيرِ مُراعاةِ ٱلوزنِ. كقولِهِ: مالكُم لا ترجُونَ للهِ وقارًا. وَقد خلقكُم أطوارًا. وقولِهم: جِنابُهُ محطُّ الرِّحالِ. ومُخيّمُ ٱلآمالِ. (وَٱلمتوازنُ) وَهُوَ أن يُراعى في ٱلكلمتَينِ ٱلأخيرتَينِ مِنَ ٱلقرينتَينِ ٱلوزنُ مع ٱختلافِ ٱلحرفِ ٱلآخِرِ منهُما. كقولِهِ: وَنمارِقُ مصفوفةٌ. وزرابِيُّ مبثوثةٌ. وقولِهم: ٱصبِرْ على حرِّ ٱلقتالِ. ومضَضِ ٱلنِّزالِ. وشِدَّةِ ٱلمصاعِ ومُداومةِ ٱلمراسِ. فإن راعى ٱلوزنَ في جميعِ كلماتِ ٱلقرائنِ أو أكثرِها وقابلَ ٱلكلمةَ منها بما تُعادِلُها وزنًا كانَ أحسنَ. كقولِهِ: وَآتيناهُما ٱلكتابَ ٱلمستبينَ. وهديناهُما ٱلصراطَ ٱلمستقيمَ. وقولِ ٱلحريريّ: أسودَّ يومي ٱلأبيضُ وٱبيضَّ يومي ٱلأسودُ. ويُسمَّى هذا في ٱلشعرِ ٱلموازنةَ. كقولِ ٱلبحتريّ:

فقِفْ مُسعِدًا فيهنَّ إن كنتَ عاذِرًا
وَسِرْ مُبعِدًا عنهنَّ إن كنتَ عاذِلَا

وممّا هوَ شرطُ ٱلحسنِ في هذا ٱلمحافظةُ على تناسُبِهِ وهو ٱسمٌ جامعٌ للملاءمةِ وٱلتناسُبِ. فٱلملاءمةُ تأليفُ ٱلألفاظِ ٱلموافِقةِ بعضُها لبعضٍ في ضربِ ٱلاعتدالِ. كقولِ لبيدٍ:

وما ٱلمرءُ إلّا كٱلشِّهابِ وضوئِهِ　　يعودُ رمادًا بعدَ إذ هوَ ساطِعُ

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْأَهلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ وَلَا بُـدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ ٱلتَّأْفِيقَ مِنْ بَابِ ٱلْمُلَاءَمَـةِ وَهُوَ أَنْ يَضُمَّ إِلَى ذِكْرِ ٱلشَّيْءِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ وَأَنْ يَجْمَعَ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ وَيُقَالُ لَهُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ أَيضًا. وَٱلتَّنَاسُبُ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَآخِيَةِ ٱلَّتِي تَتَلَاءَمُ وَلَا تَتَنَافَرُ. كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَٱلرِّفْقُ يُمْنٌ وَٱلْأَنَاةُ سَعَادَةٌ فَتَأَنَّ فِي رِفْقٍ تَنَالَ نَجَاحَا

وَٱلْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً وَلَرُبَّ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا

وَيُسَمَّى ٱلتَّشَابُهَ أَيضًا. وَقِيلَ ٱلتَّشَابُهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ بَلْ مُتَقَارِبَةً فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلْمَتَانَةِ وَٱلسَّلَاسَةِ وَتَكُونَ ٱلْمَعَانِي مُنَاسِبَةً لِأَلْفَاظِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْسَى ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّخِيفَ أَوْ عَلَى ٱلضِّدِّ بَلْ يُصَاغَانِ مَعًا صِيَاغَةَ تَنَاسُبٍ وَتَلَاؤُمٍ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱلْكَلَامُ كَمَا قِيلَ:

وَبَعْضُ قَرِيضِ ٱلْمَرْءِ أَوْلَادُ عِلَّةٍ يَكُدُّ لِسَانَ ٱلنَّاطِقِ ٱلْمُتَحَفِّظِ

البحث الرابع

في اقسام السجع وضروبه

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٧٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلسَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: ٱلْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ كَقَوْلِهِ:

وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَٱلْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَا بِهِ جَمْعًا . أَلَا تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ مُتَسَاوِيَةَ ٱلْأَجْزَاءِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ ٱلسَّجْعِ مَنْزِلَةً لِلِاعْتِدَالِ ٱلَّذِي فِيهِ

ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ لَا طُولًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ ٱلِاعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ وَيُعَدُّ عَيْبًا . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْفَصْلَ ٱلْأَوَّلَ ثَمَانِي لَفَظَاتٍ وَٱلْفَصْلَ ٱلثَّانِيَ وَٱلثَّالِثَ تِسْعٌ تِسْعٌ . وَيُسْتَثْنَى مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ ٱلسَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ فِقَرٍ فَإِنَّ ٱلْفِقْرَتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ تُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ تَأْتِي ٱلثَّالِثَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولًا يَزِيدُ عَلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ ٱلثَّالِثَةُ عَشَرَ لَفَظَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَ ذٰلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْجَوَازَ يَعُمُّ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلتَّسَاوِي فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ ٱلسَّجْعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ كَقَوْلِهِ : وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . فَهٰذِهِ ٱلسَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ

ٱلثَالِثَةُ مِنهَا خمس لَفظَاتٍ اَوْ ستا لمَا كَانَ ذٰلك عيبًا

اَلقِسمُ ٱلثَالِثُ اَنْ يكُونَ ٱلفَصلُ ٱلآخَرُ اَقصَرَ من ٱلاوَّلِ وَهُوَ عِندِي عَيبٌ فاحِشٌ . وَسَببُ ذٰلكَ : اَنَّ ٱلسَجعَ يَكُونُ قـدِ ٱستَوفَى اَمدَهُ مِنَ ٱلفَصلِ ٱلاوَّلِ بحُكمِ طُولِهِ . ثُمَّ يجيءُ ٱلفَصـلُ ٱلثَانِي قَصِيرًا عَنِ ٱلاوَّلِ فيكُونُ كَٱلشَيءِ ٱلمَبتُورِ فَيبقَى ٱلاِنسانُ عِندَ سَماعهِ كمَنْ يُرِيدُ ٱلاِنتِهَاءِ اِلَى غايَةٍ فيعثُرُ دُونهَا

وَاِذَا ٱنتَهَينَا اِلَى هٰهنَا وَبَينا اَقسامَ ٱلسَجعِ وَلُبَهُ وقشورَهُ فَسنقُولُ فِيهِ قَولًا كُلِيا وَهُوَ اَنَّ ٱلسَجعَ عَلَى ٱختِلَافِ اَقسامِهِ ضَربَانِ : اَحدُهُمَا يُسمَّى ٱلسَجعَ ٱلقَصِيرَ وَهُوَ اَنْ تَكُونَ كُلُّ واحِدة مِنَ ٱلسَجعَتَيـنِ مُؤَلَفَةً مِنَ ٱلفاظٍ قليلَةٍ وَكُلمَا قَلتِ ٱلالفَاظُ كَانَ اَحسَنَ لقُربِ ٱلفَواصِلِ ٱلمَسجُوعَةِ مِنْ مَسمعِ ٱلسَامِعِ . وَهٰذَا ٱلضَربُ اوعَرُ ٱلسَجعِ مَذهَبًا واَبعدُهُ مُتَناوَلًا وَلا يـكَادُ ٱستِعمَالُهُ يَقعُ اِلَّا نادِرًا . وَٱلضَربُ ٱلآخَرُ يُسمَّى ٱلسَجعَ ٱلطَوِيلَ وهُوَ ضِدُّ ٱلاَولِ لِاَنهُ اَسهَلُ مُتَناوَلًا . وَاِنَمَا كَانَ ٱلقَصِيرُ مِنَ ٱلسَجعِ اَوعَرَ مَسلَكًا مِنَ ٱلطَوِيلِ لِانَّ ٱلمعنَى اِذا صِيغَ بِاَلفَاظ قَصيرَةٍ عَزَّ مُؤَاتَاةُ ٱلسَجعِ فِيهِ لقصرِ تِلكَ ٱلالفَاظِ وَضِيقِ ٱلمَجَالِ فِي ٱستِجلَابِهِ . وَاَمَا ٱلطَوِيلُ فَاِنَّ ٱلاَلفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُستَجلَبُ لَهُ ٱلسَجعُ مِن حَيثُ لَيسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذٰلِكَ سَهلًا . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَينِ ٱلضَربَينِ تتَفَاوتُ دَرجَاتُهُ فِي عِدَّةِ ٱلالفاظ . اَمَّا ٱلسَجعُ ٱلقَصِيرُ فَاَحسَنُهُ مَا كَان مُؤَلَفًا مِنْ لَفظَتَينِ لَفظَتَينِ كَقَولِهِ : وَٱلمُرسَـلَاتِ عُرفًا . فَٱلعَاصِفاتِ عَصفًا . وَقَولِهِ : يَا اَيُّها ٱلمُدثِرُ . قُمْ

فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفاً مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذٰلِكَ إِلَى ٱلْعَشَرَةِ . وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ فَهُوَ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَأَمَّا ٱلسَّجْعُ ٱلطَّوِيلُ فَإِنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتُ فِي ٱلطُّولِ أَيْضاً فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلْقَصِيرِ . وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةَ إِلَى ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . فَٱلْأُولَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَٱلثَّانِيَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيفُهُ مِنَ ٱلْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ : إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلٰكِنَّ ٱللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللّٰهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ أَيْضاً مَا يَزِيدُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْعِدَّةِ ٱلْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ



البحث الخامس

في الايجاز

(عن المثل السائر وكتاب الصناعتين وغيرهما)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْايجازُ حذفُ زِيادات ٱلْاَلفاظِ وَهٰذا نوعٌ من ٱلْكَلام شَرِيفٌ لَا يَتعَلَّقُ بِهِ اِلَّا فُرسانُ ٱلبَلاغةِ مَنْ سَبقَ اِلَى غايتها وَما صَلَّى. وَضَربَ فِي اَعلَى دَرجاتها بِٱلقِدحِ ٱلْمُعلى. وَذٰلكَ لعُلوّ مَكانِهِ. وَتَعذُّرِ اِمكانِهِ وَٱلنَّظرُ فِيهِ اِنما هُوَ اِلَى ٱلمعانِي لا اِلَى ٱلْاَلفاظِ. وَلستُ اَعنِي بِذٰلكَ اَنْ تُهمِلَ ٱلْاَلفاظَ بحيثُ تعرَى عَنْ اَوصافِها ٱلْحسنَةِ بَل اَعني اَنَّ مَدارَ ٱلنظَرِ فِي هٰذا ٱلنَّوعِ اِنما يَختصُّ بِٱلمعانِي. فَربَّ لَفظٍ قَليلٍ يَدُلُّ عَلَى مَعنًى كَثيرٍ. وَرُبَّ لَفظٍ كَثيرٍ يَدُلُّ عَلَى مَعنًى قَلِيلٍ. وَمِثالُ هٰذا كَٱلْجوهرَةِ ٱلْواحِدَةِ بِٱلنِّسبَةِ اِلَى ٱلدَّراهِمِ. فَمَنْ يَنظُرُ اِلَى طُولِ ٱلْاَلفاظِ يُؤْثِرُ ٱلدَّراهِمَ لِكَثرَتِها. وَمَنْ يَنظُرُ اِلَى شَرَفِ ٱلْمعانِي يُؤْثِرُ ٱلْجوهَرَةَ ٱلْواحِدَةَ لِنَفاسَتِها. قالَ اَصحابُ ٱلْايجازِ: ٱلْايجازُ قُصُورُ ٱلبَلاغةِ عَلَى ٱلْحقيقةِ وَما تجاوزَ مِقدارَ ٱلحاجةِ فَهوَ فَضلٌ داخِلٌ فِي بابِ ٱلْهذَرِ وَٱلْخطَلِ وهُما مِنْ اَعظَمِ اَدواءِ ٱلْكَلامِ وَفِيهِما دَلالَةٌ عَلَى بَلادَةِ صاحِبِ ٱلصِّناعَةِ. وَفِي تَفضِيلِ ٱلْايجازِ يَقُولُ جَعفَرُ بنُ يَحيَى لِكُتَّابِهِ: اِنْ قَدَرتُم اَنْ تجعلُوا كُتُبَكُمْ تَوقِيعاتٍ فَٱفعلُوا. وَقالَ

بَعضُهم : اَلزِيادةُ فِي اَلحدِّ نُقصانٌ . وَقَالَ مُحَمَّدٌ اَلاَمِينُ : عَلَيْكُمْ بِالْاِيجَازِ فَاِنَّ لَهُ اِفهامًا وَلِلاِطَالةِ اَسْتِبهامًا. وَقَالَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ : اَلقَليلُ اَلكَافِ. خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ غَيْرِ شَافٍ. وَقَالَ آخَرُ : اِذَا طَالَ اَلكَلَامُ عَرَضَتْ لَهُ اَسْبَابُ اَلتَكَلُّفِ وَلَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ يَأْتِي بِهِ اَلتَكَلُّفُ. وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا اَلبَلَاغَة . فَقَالَ : اَلاِيجَازُ. قِيلَ : وَمَا اَلاِيجَازُ . قَالَ : حَذْفُ اَلفُضُولِ وَتَقْرِيبُ اَلبعيدِ . وَقِيلَ لبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تُطِيلُ اَلشِعْرَ . فَقَالَ : حَسْبُكَ مِنَ اَلقلَادَةِ مَا اَحَاطَ بِالْعُنُقِ . وَقِيلَ ذٰلِكَ لِآخرَ . فَقَالَ : لَسْتُ اَبِيعُهُ مُذَارَعَةً . وَقِيلَ لِلفَرَزدَق : مَا صَيَّرَكَ اِلَى اَلقِصَارِ بَعْدَ اَلطِوَالِ . قَالَ : لِاَنِّي رَاَيْتُهَا فِي اَلصُّدُورِ اَوْقَعَ وَفِي اَلمَحَافِلِ اَجْوَلَ . وَقَالَتْ بِنْتُ اَلحُطَيْئَةِ لِاَبِيهَا : مَا بَالُ قِصَارِكَ اَكْثَرُ مِنْ طِوَالِكَ . قَالَ : لِاَنَّهَا بِالْآذَانِ اَوْلَجُ وَبِالْاَفْوَاهِ اَعْلَقُ. وَقَالَ اَبُو سُفْيَانَ لِاَبْنِ اَلزِّبَعرِيِّ : قَصَّرْتَ فِي شِعْرِكَ . قَالَ : حَسْبُكَ مِنَ اَلشِعْرِ غُرَّةٌ لَائِحَةٌ وَسِمَةٌ وَاضِحَةٌ . وَقِيلَ لِلنَابِغَةِ اَلذُّبْيَانِيِّ : اَلَا تُطِيلُ اَلقَصَائِدَ كَمَا اَطَالَ صَاحِبُكَ اَبْنُ حُجْرٍ. قَالَ : مَنِ اَنْتَحَلَ اَنْتَقَرَ. وَقِيلَ لبَعْضِ اَلمُحَدِّثِينَ : مَالَكَ لَا تَزِيدُ عَلَى اَرْبَعَةٍ وَاَثْنَيْنِ . قَالَ : هِيَ بِالقُلُوبِ اَوْقَعُ وَاِلَى اَلحِفْظِ اَسْرَعُ وَبِالْاَلْسُنِ اَعْلَقُ وَلِلمَعَانِي اَجْمَعُ وَصَاحِبُهَا اَبْلَغُ وَاَوْجَزُ . وَقِيلَ لِاَبْنِ حَازِمٍ : اَلَا تُطِيلُ اَلقَصَائِدَ. فَقَالَ :

اَبَى لِي اَنْ اُطِيلَ اَلشِعْرَ قَصْدِي ... اِلَى اَلمَعْنَى وَعِلْمِي بِالصَّوَابِ
وَاِيجَازِي بِمُخْتَصَرٍ قَرِيبٍ ... حَذَفْتُ بِهِ اَلفُضُولَ مِنَ اَلجَوَابِ

فَأَبعثهن أربعة وستا مثقفة بألفاظ عذاب
وهن إذا وسمت بهن قوما كأطواق الحمائم في الرقاب

وقال عليّ : ما رأيت بليغا قط إلّا وله في القول إيجاز وفي المعاني إطالة . وقيل لاياس بن معاوية : ما فيك عيب غير أنك كثير الكلام . قال : أفتسمعون صوابا أم خطأ . قالوا بل صوابا . قال : فالزيادة من الخير خير . وليس كما قال لأنّ للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية . وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال وصار سببا للملال فذلك الهذر والإسهاب والخطل وهو معيب عند كل لبيب. وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز أنجع من البيان بالإطناب . وقالوا : المكثار كحاطب الليل . ومثل الإيجاز الحسن كقوله: وخذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فجمع جميع مكارم الأخلاق بأسرها . لأن في العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين . وفي الأمر بالعرف تقوى الله وصلة الرحم وصون اللسان عن الكذب وغض الطرف عن المحرمات والتبرؤ من كل قبيح لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو يلابس شيئا من المنكر . وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه مما يوتغ الدين ويسقط القدرة . وقوله : حبك الشيء يعمي ويصم . وقوله إن من البيان لسحرا . وقوله : نية المؤمن خير من عمله . وقوله : ترك الشر صدقة . فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه . وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك

مُحَلِّهَا وَٱبْنِهَا بِنَاء آخر فَإِنَّكَ تَجِدُهَا تَجِيءُ فِي اَضْعَافِ هٰذِهِ ٱلْاَلفَاظِ .
وَقَوْلُهُ : اِذَا اَعطَاكَ ٱللّٰهُ خَيْرًا فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلفَضْلِ وَلَا تَلُمْ عَلَى ٱلْكَفَافِ وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ . فَقَوْلُهُ : (فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ) اَيْ فَلْيَظْهَرْ اَثَرُهُ عَلَيْكَ بِٱلصَّدَقَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ وَدَلَّ عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ) اَيْ اَكْسِرْ مِنْ مَالِكَ وَاَعْطِهِ) وَٱسْمُ ٱلشَّيْءِ ٱلرَّضِيخَةُ (وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ) اَيْ لَا تَجْمَعْ لِغَيْرِكَ وَتَبْخَلُ عَنْ نَفْسِكَ فَلَا تُقَدِّمْ خَيْرًا .
وَقَوْلُ اَعْرَابِيٍّ : اُولٰئِكَ قَوْمٌ جَعَلُوا اَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ لِاَعْرَاضِهِمْ فَٱلْخَيْرُ بِهِمْ زَائِدٌ وَٱلْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ . اَيْ يَقُونَ اَعْرَاضَهُمْ بِاَمْوَالِهِمْ .
وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ يَسُوقُ مَالًا كَثِيرًا : لِمَنْ هٰذَا ٱلْمَالُ . فَقَالَ : لِلّٰهِ فِي يَدِي . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ يَمْدَحُهُ : اِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ اَنَّ ٱللّٰهَ مَادَّتُهُ . وَقَوْلُ آخَرَ : اَمَا بَعْدُ فَعِظِ ٱلنَّاسَ بِفِعْلِكَ وَلَا تَعِظْهُمْ بِقَوْلِكَ وَٱسْتَحْيِ مِنَ ٱللّٰهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ . وَخَفْهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ .
وَقَالَ آخَرُ : اِنْ شَكَكْتَ فِيَّ فَٱسْاَلْ قَلْبَكَ عَنِّي

وَٱعْلَمْ اَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُدَّعِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ ذَهَبُوا اِلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : فَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلْاِيجَازُ كَٱلْاَشْعَارِ وَٱلْمُكَاتَبَاتِ . وَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلتَّطْوِيلُ كَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّقْلِيدَاتِ وَكُتُبِ ٱلْفُتُوحِ ٱلَّتِي تُقْرَاُ فِي مَلَاٍ مِنْ عَوَامِّ ٱلنَّاسِ . فَاِنَّ ٱلْكَلَامَ اذَا طَالَ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ اَثَّرَ عِنْدَهُمْ وَاَفْهَمَهُمْ وَلَوِ ٱقْتُصِرَ فِيهِ عَلَى ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِشَارَةِ لَمْ يَقَعْ لِاَكْثَرِهِمْ حَتَّى يُقَالَ فِي ذِكْرِ ٱلْحَرْبِ : ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَتَطَاعَنَ

اَلْفَرِيقَانِ وَاَشْتَدَّ اَلْقِتَالُ وَحَمِيَ اَلنِّصَالُ وَمَا جَرَى هٰذَا اَلْمَجْرَى. وَاَلْمَذْهَبُ عِنْدِي فِي ذٰلِكَ مَا اَذْكُرُهُ : وَهُوَ اَنَّ فَهْمَ اَلْعَامَّةِ لَيْسَ شَرْطًا مُعْتَبَرًا فِي اَخْتِيَارِ اَلْكَلَامِ. لِاَنَّهُ لَوْ كَانَ شَرْطًا لَوَجَبَ عَلَى قِيَاسِهِ اَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي اَلْكَلَامِ اَلْاَلْفَاظَ اَلْعَامِيَّةَ اَلْمُبْتَذَلَةَ عِنْدَهُمْ لِيَكُونَ ذٰلِكَ اَقْرَبَ اِلَى فَهْمِهِمْ. لِاَنَّ اَلْعِلَّةَ فِي اَخْتِيَارِ تَطْوِيلِ اَلْكَلَامِ اِذَا كَانَتْ فَهْمَ اَلْعَامَّةِ اِيَّاهُ فَكَذٰلِكَ تُجْعَلُ تِلْكَ اَلْعِلَّةُ بِعَيْنِهَا فِي اَخْتِيَارِ اَلْمُبْتَذَلِ مِنَ اَلْكَلَامِ فَاِنَّهُ لَاخِلَافَ فِي اَنَّ اَلْعَامَّةَ اِلَى فَهْمِهِ اَقْرَبُ مِنْ فَهْمِ مَا يَقِلُّ اَبْتِذَالُهُمْ اِيَّاهُ . وَهٰذَا شَيْءٌ مَدْفُوعٌ وَاَمَّا اَلَّذِي يَجِبُ تَوَخِّيهِ وَاَعْتِمَادُهُ فَهُوَ اَنْ يُسْلَكَ اَلْمَذْهَبُ اَلْقَوِيمُ فِي تَرْكِيبِ اَلْاَلْفَاظِ عَلَى اَلْمَعَانِي بِحَيْثُ لَا تَزِيدُ هٰذِهِ عَلَى هٰذِهِ مَعَ اَلْاِيضَاحِ وَاَلْاِبَانَةِ وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَعْمِلِ ذٰلِكَ اَنْ يَفْهَمَ اَلْعَامَّةُ كَلَامَهُ فَاِنَّ نُورَ اَلشَّمْسِ اِذَا لَمْ يَرَهُ اَلْاَعْمَى لَا يَكُونُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي اَسْتِنَارَتِهِ وَ اِنَّمَا اَلنَّقْصُ فِي بَصَرِ اَلْاَعْمَى حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعِ اَلنَّظَرَ اِلَيْهِ :

عَلَيَّ نَحْتُ اَلْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَيَّ بِاَنْ لَا تَفْهَمَ اَلْبَقَرُ

وَحَيْثُ اَنْتَهَى بِنَا اَلْقَوْلُ اِلَى هٰذَا اَلْمَوْضِعِ فَلْنَرْجِعْ اِلَى مَا هُوَ غَرَضُنَا وَمُهِمُّنَا مِنَ اَلْكَلَامِ عَلَى اَلْاِيجَازِ وَحَدِّهِ وَاَقْسَامِهِ وَنُوضِحُ ذٰلِكَ اِيضَاحًا جَلِيًّا وَاَللّٰهُ اَلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ فَنَقُولُ: حَدُّ اَلْاِيجَازِ هُوَ دَلَالَةُ اَللَّفْظِ عَلَى اَلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ اَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَاَلتَّطْوِيلُ هُوَ ضِدُّ ذٰلِكَ وَهُوَ اَنْ يُدَلَّ عَلَى اَلْمَعْنَى بِلَفْظٍ يَكْفِيكَ بَعْضُهُ فِي اَلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ . كَقَوْلِ اَلْعُجَيْرِ اَلسَّلُولِيِّ مِنْ اَبْيَاتِ اَلْحَمَاسَةِ :

طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ ... إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجُزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصِفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْمُجِيزُ بِقَوْلِهِ :(طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَا صَاحِبِي وَيَا خَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

اَقَرُّوا لَعَمْرِي لِحُكْمِ ٱلسُّيُوفِ   وَكَانَتْ احقَّ بِفَصْلِ ٱلقضاء

فَإِنْ قَوْلَهُ : (لَعَمْرِي) زِيَادةٌ لَاحَاجَةَ لِلمَعْنَى اِلَيْها وَهِيَ حَشْوٌ فِي هٰذَا ٱلبيْتِ لافَائدةَ فِيه الّا اِصْلاحُ ٱلوَزْنِ لاغَيْرُ . اَلَا تَرَى اَنها مِنْ بَاب ٱلقسمِ وانمَا يَرِدُ ٱلقسمُ فِي مَوْضِع يُؤَكَّدُ بِهِ ٱلمعْنَى ٱلمَرادُ اماَ لانّهُ يُشكُّ فيه اَوْ مِما يَعِزُّ وُجودُهُ اَوْ مما جرى هٰذَا ٱلمَجْرى . وهٰذَا ٱلبيْتُ ٱلشِّعْرِيُّ لا يفْتَقِرُ مَعْناهُ الَى تَوْكِيد قسمِيّ اِذ لا شَكَ اَنّ ٱلسُّيُوف حَاكِمَةٌ وانّ كُلَ احَدٍ يقِرُّ لِحُكْمِها وَيُذْعِنُ لِطاعَتها. وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ ايضًا :

اذا انَا لَمْ اَلُمْ عَثَرَاتِ دَهْر   بُليتُ بهِ ٱلغَدَاة فَمَنْ اَلُومُ

فَقوْلُهُ : (ٱلغداة) زيَادَةٌ لَا حَاجَةَ للمَعنَى اليها لِاَنّهُ يَتِمُّ بدونها لانَّ عَثَرَاتِ ٱلدهرِ لَمْ تنلْهُ ٱلغداة وَلا ٱلعَشِيَ وَانمَا نَالَتْهُ وَنَيْلُها اِيّاهُ لا بدَ اَنْ يَقعَ في زَمَن مِنَ ٱلاَزْمنَةِ كَائنًا ما كَانَ وَلا حَاجَةَ الَى تقييده بِالذِكر . وعَلَى هٰذا ورد قَوْلُ ٱلبُحْتُرِيِّ :

ما احْسن ٱلايام اِلّا اَنها   يَاصَاحِبَيَّ اذا مضتْ لَمْ تَرْجع

فقوْلُهُ : (يَاصَاحِبَيّ) زِيَادةٌ لَاحاجَةَ بِٱلمَعْنَى اِليهـا اِلّا انها وَرَدتْ لتَصْحيحِ ٱلوَزْنِ لَا غَيْرَ . وَهٰذِهِ ٱلاَلفَاظُ ٱلتى تَرِدُ فِي ٱلاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيّة لتصْحيحِ ٱلوَزْنِ لَاعيبَ فِيهَا . لِاَنّا لَوْ عِبْناهَا عَلَى ٱلشُّعرَاء لتحَجّرْنَا عَلَيهِمْ وَضَيّقْنَا ٱلوَزْنَ وَيُضطَرُّ فِي بَعْضِ ٱلاَحوَالِ اِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ لٰكِنْ اِذا وردَتْ فِي ٱلكلَام ٱلمَنْثُور فَانهَا اِنْ وَرَدَتْ حَشوا وَلَمْ تَرِدْ لِفَائدَة كَانَتْ عَيبا . وَقَدْ تَرِدُ فِي ٱلاَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَةِ وَيَكُونُ

وُرُودُهَا لِفَائِدَةٍ . . . فَٱعْلَمْ اَيُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي هٰـذَا اَنَّ ٱلتَّطْوِيلَ هُوَ زِيَادَاتُ ٱلْاَلْفَاظِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَمَهْمَا اَمْكَنَكَ حَذْفُ شَيْءٍ مِنَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَاِنَّ ذٰلِكَ ٱللَّفْظَ هُوَ ٱلتَّطْوِيلُ بِعَيْنِهِ . وَاَمَّا ٱلْاِيجَازُ فَقَدْ عَرَّفْتُكَ اَنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ اَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ وَهُوَ مَا يُحْذَفُ مِنْهُ ٱلْمُفْرَدُ وَٱلْجُمْلَةُ لِدَلَالَةِ فَحْوَى ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ وَلَا يَكُونُ اِلَّا فِيمَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ . (وَٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ) مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ ضَرْبَانِ : (اَحَدُهُمَا) مَا سَاوَى لَفْظُهُ مَعْنَاهُ وَيُسَمَّى ٱلتَّقْدِيرَ . (وَٱلْآخَرُ) مَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ وَيُسَمَّى ٱلْقَصْرَ . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْقِسْمَ ٱلْاَوَّلَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ يُتَنَبَّهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كُلْفَةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ لِمَكَانِ ٱلْمَحْذُوفِ مِنْهُ . وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي فَاِنَّ ٱلتَّنَبُّهَ لَهُ عَسِرٌ لِاَنَّهُ يَحْتَاجُ اِلَى فَضْلِ تَاَمُّلٍ وَطُولِ فِكْرَةٍ لِخَفَاءِ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذٰلِكَ اِلَّا مَنْ رَسَتْ قَدَمُهُ فِي مُمَارَسَةِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَصَارَ لَهُ خَلِيقَةً وَمَلَكَةً . وَلَمْ اَجِدْ اَحَدًا عَلَّمَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ بِعَلَامَةٍ وَلَا قَيَّدَهُمَا بِقَيْدٍ . . . فَنَقُولُ اَمَّا ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ فَاِنَّهُ عَجِيبُ ٱلْاَمْرِ شَبِيهٌ بِٱلسِّحْرِ وَذَاكَ اَنَّكَ تَرَى فِيهِ تَرْكَ ٱلذِّكْرِ اَفْصَحَ مِنَ ٱلذِّكْرِ وَٱلصَّمْتَ عَنِ ٱلْاِفَادَةِ اَزْيَدَ لِلْاِفَادَةِ وَتَجِدُكَ اَنْطَقَ مَا تَكُونُ اِذَا لَمْ تَنْطِقْ وَاَتَمَّ مَا تَكُونُ مُبَيِّنًا اِذَا لَمْ تُبَيِّنْ وَهٰذِهِ جُمْلَةٌ تُنْكِرُهَا حَتَّى تُخْبَرَ وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ . وَٱلْاَصْلُ فِي ٱلْمَحْذُوفَاتِ جَمِيعِهَا عَلَى ٱخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا

اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ فَإِنَّهُ لَغْوٌ مِنَ ٱلْحَدِيثِ لَا يَجُوزُ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ . وَمِنْ شَرْطِ ٱلْمَحْذُوفِ فِي حُكْمِ ٱلْبَلَاغَةِ اَنَّهُ مَتَى اُظْهِرَ صَارَ ٱلْكَلَامُ اِلَى شَيْءٍ غَثٍّ لَا يُنَاسِبُ مَا كَانَ عَلَيْهِ اَوَّلًا مِنَ ٱلطُّلَاوَةِ وَٱلْحُسْنِ وَقَدْ يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلْاِعْرَابِ كَقَوْلِنَا : اَهْلًا وَسَهْلًا . فَإِنَّ نَصْبَ ٱلْاَهْلِ وَٱلسَّهْلِ يَدُلُّ عَلَى نَاصِبٍ مَحْذُوفٍ وَلَيْسَ لِهٰذَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لِلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْاِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ اِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى كَقَوْلِنَا : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَظْهَرُ ٱلْمَحْذُوفُ بِهِ بِٱلْاِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِٱلنَّظَرِ اِلَى تَمَامِ ٱلْمَعْنَى اَيْ اِنَّهُ يَحُلُّ ٱلْاُمُورَ وَيَعْقِدُهَا . وَٱلَّذِي يَظْهَرُ فِي ٱلْاِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا وَٱلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِٱلْاِعْرَابِ يَقَعُ فِي ٱلْجُمَلِ مِنَ ٱلْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرٌ

البحث السادس

في المساواة

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْمُسَاوَاةُ هِيَ اَنْ تَكُونَ ٱلْمَعَانِي بِقَدْرِ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْاَلْفَاظُ بِقَدْرِ ٱلْمَعَانِي لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَإِلَيْهِ اَشَارَ ٱلْقَائِلُ بِقَوْلِهِ : كَأَنَّ اَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ

أيْ لا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْض . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ : لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَرَ ٱلْأَمَانَةَ مَغْنَماً وَٱلزَّكَاةَ مَغْرَماً . وَقَوْلُهُ : إِيَّاكَ وَٱلْمُشَاوَرَةَ فَإِنَّهَا تُمِيتُ ٱلْغِرَّةَ وَتُحْيِي ٱلْعِزَّةَ . وَمِنْ أَلْفَاظِ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَاظِهِ وَإِنَّمَا يُكْرَهُ تَمْيِيزُهَا كَرَاهَةَ ٱلْإِطَالَةِ . وَمِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : سَأَلْتَ عَنْ خَبَرِي وَأَنَا فِي عَافِيَةٍ لَا عَيْبَ فِيهَا إِلَّا فَقْدُكَ وَنِعْمَةٍ لَا مَزِيدَ فِيهَا إِلَّا بِكَ . وَقَوْلُهُ : عَلَّمَتْنِي نَبْوَتُكَ سَلْوَتَكَ وَأَسْلَمَنِي يَأْسِي مِنْكَ إِلَى ٱلصَّبْرِ عَنْكَ . وَقَوْلُهُ : فَحَفِظَ ٱللهُ ٱلنِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَفِيكَ وَتَوَلَّى إِصْلَاحَكَ وَٱلْإِصْلَاحَ إِلَيْكَ وَأَجْزَلَ مِنَ ٱلْخَيْرِ حَظَّكَ وَٱلْحَظَّ مِنْكَ وَمَنَّ عَلَيْكَ وَعَلَيْنَا بِكَ . وَقَالَ آخَرُ يَئِسْتُ مِنْ صَلَاحِكَ بِي وَأَخَافُ فَسَادِي بِكَ وَقَدْ أَطْنَبَ فِي ذَمِّ ٱلْحِمَارِ مَنْ شَبَّهَكَ بِهِ . وَمِنَ ٱلْمَنْظُومِ قَوْلُ طَرَفَةَ :

سَتُبْدِي لَكَ ٱلْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا   وَيَأْتِيكَ بِٱلْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

تُهْدَى ٱلْأُمُورُ بِأَهْلِ ٱلرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ   فَإِنْ تَأَبَّتْ فَبِٱلْأَشْرَارِ تَنْقَادُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

أَمَّا ٱلَّذِي يُحْصِيهِمْ فَمُكَثِّرٌ   أَمَّا ٱلَّذِي يُطْرِيهِمْ فَمُقَلِّلُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

أَهَابُكِ إِجْلَالًا وَمَا بِكِ قُدْرَةٌ   عَلَيَّ وَلٰكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا
وَمَا هَجَرَتْكِ ٱلنَّفْسُ أَنَّكِ عِنْدَهَا   قَلِيلٌ وَلٰكِنْ قَلَّ مِنْكِ نَصِيبُهَا

البحث السابع

في الاطناب

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٧٦ من علم الادب)

قَالَ اَصْحَابُ ٱلْاِطْنَابِ: اَلْمَنْطِقُ اِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ وَٱلْبَيَانُ لَا يَكُونُ اِلَّا بِاِشْبَاعٍ وَٱلشِّفَاء لَا يَقَعُ اِلَّا بِٱلْاِقْنَاعِ. وَاَفْضَلُ ٱلْكَلَامِ اَبْيَنُهُ وَاَبْيَنُهُ اشَدُّهُ اِحَاطَةً بِٱلْمَعَانِي وَلَا يُحَاطُ بِٱلْمَعَانِي اِحَاطَةً تَامَّةً اِلَّا بِٱلْاَسْتِقْصَاء. وَٱلْاِيجَازُ لِلْخَوَاصِّ وَٱلْاِطْنَابُ مُشْتَرِكٌ فِيهِ ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْعَامَّةُ وَٱلْغَبِيُّ وَٱلْفَطِنُ وَٱلرَّيِّضُ وَٱلْمُرْتَاضُ وَلِمَعْنًى مَا اُطِيلَتِ ٱلْكُتُبُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ فِي اِفْهَامِ ٱلرَّعَايَا. وَٱلْقَوْلُ ٱلْقَصْدُ اَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ يُحْتَاجُ اِلَيْهِمَا فِي جَمِيعِ ٱلْكَلَامِ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ فَٱلْحَاجَةُ اِلَى ٱلْاِيجَازِ فِي مَوْضِعِهِ كَٱلْحَاجَةِ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ فِي مَكَانِهِ. فَمَنْ اَزَالَ ٱلتَّدْبِيرَ فِي ذٰلِكَ عَنْ وَجْهِهِ فَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِيجَازَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِطْنَابِ اَخْطَاَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى اَنَّهُ قَالَ مَعَ عَجَبِهِ بِٱلْاِيجَازِ: مَتَى كَانَ ٱلْاِيجَازُ اَبْلَغَ كَانَ ٱلْاِكْثَارُ عِيًّا وَمَتَى كَانَتِ ٱلْكِتَابَةُ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِكْثَارِ كَانَ ٱلْاِيجَازُ تَقْصِيرًا. وَامَرَ خَالِدُ بْنُ يَحْيَى ٱثْنَيْنِ اَنْ يَكْتُبَا كِتَابًا وَاحِدًا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ فَاَطَالَ اَحَدُهُمَا وَٱخْتَصَرَ ٱلْآخَرُ. فَقَالَ لِلْمُخْتَصِرِ وَقَدْ نَظَرَ فِي كِتَابِهِ: مَا اَرَى مَوْضِعَ مَزِيدٍ. وَقَالَ لِلْمُطِيلِ: مَا

اَرَى مَوْضِعَ نُقْصَانٍ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْبَلَاغَةُ اَلايجَازُ فِي غَيْرِ عَجْزٍ وَٱلْاِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَلَا شَكَّ فِي انَّ اَلْكُتُبَ اَلصَّادِرَةَ عَنِ اَلسَّلَاطِينِ فِي اَلْاُمُورِ اَلْجَسِيمَةِ وَاَلْفُتُوحِ اَلْجَلِيلَةِ وَتَفْخِيمِ اَلنِّعَمِ اَلْحَادِثَةِ اوِ اَلتَّرْغِيبِ فِي اَلطَّاعَةِ وَاَلنَّهْيِ عَنِ اَلْمَعْصِيَةِ . سَبِيلُهَا اَنْ تَكُونَ مُشْبَعَةً مُسْتَقْصَاةً تَمْلَأُ اَلصُّدُورَ وَتَأْخُذُ بِمَجَامِعِ اَلْقُلُوبِ . فَاَلْاِطْنَابُ بَلَاغَةٌ وَاَلتَّطْوِيلُ عِيٌّ . لِاَنَّ اَلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ مَا يَبْعُدُ جَهْلًا بِمَا يَقْرُبُ . وَاَلْاِطْنَابُ بِمَنْزِلَةِ سُلُوكِ طَرِيقٍ بَعِيدٍ نَزِهٍ يَحْتَوِي عَلَى زِيَادَةِ فَائِدَةٍ . وَقَالَ اَلْخَلِيلُ : يُخْتَصَرُ اَلْكِتَابُ لِيُحْفَظَ وَيُبْسَطُ لِيُفْهَمَ . وَقِيلَ لِاَبِي عَمْرِو اَبْنِ اَلْعَلَاءِ هَلْ كَانَتِ اَلْعَرَبُ تُطِيلُ . قَالَ : نَعَمْ كَانَتْ تُطِيلُ لِيُسْمَعَ مِنْهَا وَتُوجِزُ لِيُحْفَظَ عَنْهَا. وَاَلْاِطْنَابُ اِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ اِيجَازٌ وَهُوَ فِي اَلْمَوَاعِظِ خَاصَّةً مَحْمُودٌ كَمَا انَّ اَلْايجَازَ فِي اَلْافْهَامِ مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ . وَاَلْمَوْعِظَةُ كَقَوْلِهِ: اَفَاَمِنَ اَهْلُ اَلْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . اَوَ اَمِنَ اَهْلُ اَلْقُرَى اَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ اَفَاَمِنُوا مَكْرَ اَللّٰهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اَللّٰهِ اِلَّا اَلْقَوْمُ اَلْخَاسِرُونَ. فَتَكْرِيرُ مَا كُرِّرَ مِنَ اَلْاَلْفَاظِ هَاهُنَا فِي غَايَةِ حُسْنِ اَلْمَوْقِعِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَتَى يُحْتَاجُ اِلَى اَلْاِكْثَارِ . قَالَ: اِذَا عَظُمَ اَلْخَطْبُ وَاَنْشَدَ :

صَمُوتٌ اِذَا مَا اَلدَّهْرُ زَيَّنَ اَهْلَهُ ... وَفَتَّاقُ اَبْكَارِ اَلْكَلَامِ اَلْمُحَبَّرِ

وَقَالَ آخَرُ :

يَرْمُونَ بِاَلْخُطَبِ اَلطِّوَالِ وَتَارَةً ... وَحْيِ اَلْمَلَاحِظِ خَشْيَةَ اَلرُّقَبَاءِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

إِذَا مَا ٱنْتَدَى خَاطِبًا لَمْ يُقَـلْ ... لَهُ أَطِلِ ٱلْقَوْلَ أَوْ قَصِّرِ
طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ ٱلْكَلَا ... مِ لَمْ يَعْيَ يَوْمًا وَلَمْ يَهْذِرِ
فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ ... قُضِي لِلْمُطِيلِ عَلَى ٱلْمُقْصِرِ
وَإِنْ هُوَ أَوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ ... قُضِي لِلْمُقِلِّ عَلَى ٱلْمُكْثِرِ

وَوَجَدَ ٱلنَّاسَ إِذَا خَطَبُوا فِي ٱلصُّلْحِ بَيْنَ ٱلْعَشَائِرِ أَطَالُوا . وَإِذَا أَنْشَدُوا ٱلشِّعْرَ بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ فِي مَدِيحِ ٱلْمُلُوكِ أَطْنَبُوا . وَٱلْإِطَالَةُ وَٱلْإِطْنَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ إِيجَازٌ . وَقِيلَ لِقَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ : مَا عِنْدَكَ فِي حَمَالَاتِ دَاحِسٍ . قَالَ : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ وَرِضَى كُلِّ سَاخِطٍ وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنْ مَطْلَعِ ٱلشَّمْسِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ . فَقِيلَ لِأَبِي يَعْقُوبَ ٱلْخُرَيْمِيِّ : هَلَّا ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ : آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ فَقَالَ : وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ) . قَالَ : أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ وَٱلتَّعْرِيضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّكْشِيفِ . وَقَدْ رَأَيْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ أَنَّهُ : إِذَا خَاطَبَ ٱلْعَرَبَ وَٱلْأَعْرَابَ أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَ ٱلْإِشَارَةِ . وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكَى عَنْهُمْ جَعَلَ ٱلْكَلَامَ مَبْسُوطًا . وَقَلَّ مَا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْقُرْآنِ إِلَّا مُطَوَّلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعَ مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَكَلَامُ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا هُوَ شَوْبُ ٱلْإِيجَازِ بِٱلْإِطْنَابِ . وَٱلْفَصِيحُ ٱلْعَالِي مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقَصْدِ ٱلْمُتَوَسِّطِ لِيُسْتَدَلَّ بِٱلْقَصْدِ عَلَى ٱلْعَالِي وَلِيَخْرُجَ ٱلسَّامِعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فَيَزْدَادَ

نَشَاطُهُ وَتَتَوَفَّرَ رَغْبَتُهُ فَيَتَصَرَّفُوا فِي وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ إِيجَازِهِ وَإِطْنَابِهِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّكْرَارَ لِتَوَكُّدِ ٱلْقَوْلِ لِلسَّامِعِ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَفِي فَصِيحِ ٱلشِّعْرِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ مُهَلْهِلٌ :

عَلَى أَنْ لَيْسَ عِدْلًا مِنْ كُلَيْبِ

فَكَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْتًا . وَهٰكَذَا قَوْلُ ٱلْحَرْثِ ٱبْنِ عَبَّادٍ :

قَرِّبَا مَرْبَطَ ٱلنَّعَامَةِ مِنِّي

كَرَّرَهَا فِي أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ هٰذَا لَمَّا كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَى تَكْرِيرِهَا مَاسَّةً وَٱلضَّرُورَةُ إِلَيْهِ دَاعِيَةً لِعِظَمِ ٱلْخَطْبِ وَشِدَّةِ مَوْقِعِ ٱلْفَجِيعَةِ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ ٱلْإِطْنَابَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مُسْتَحْسَنٌ . كَمَا أَنَّ ٱلْإِيجَازَ فِي مَكَانِهِ مُسْتَحَبٌّ وَلَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ فِي أَكْثَرِ أَنْوَاعِ مُكَاتَبَاتِهِ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ يَسْتَعْمِلُهَا إِذَا أَرَادَ ٱلْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ ٱلْفَصْلَيْنِ وَلَا يُعَاقِبُ ذٰلِكَ مِنْهُ. وَذٰلِكَ مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ عَظُمَتْ نِعَمُنَا عَلَيْهِ وَتَظَاهَرَ إِحْسَانُنَا لَدَيْهِ فَيَكُونُ ٱلْفَصْلُ ٱلْآخِيرُ دَاخِلًا فِي مَعْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ لَا يَعِيبُهُ أَحَدٌ . وَلَمَّا أُحِيطَ بِمَرْوَانَ قَالَ خَادِمُهُ بَاسِلٌ : مَنْ أَغْفَلَ ٱلْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ وَٱلصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ وَٱلْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ أَصَابَهُ مِثْلُ هٰذَا . وَهٰذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَإِنْ كَانَ مَعْنَى ٱلْفَصْلَيْنِ ٱلْآخِيرَيْنِ دَاخِلًا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ .

وَهٰكَذَا قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ حَبِيبِ بْنِ اَوْسٍ :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ ٱلسُّرَى وَغَنَاءٍ   مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ

وَٱلْغَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلْخَفْضِ وَٱلْعَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلسُّرَى . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى اَنَّ مُعْظَمَ ٱلْمَدَارِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ اِذَا دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلدُّخُولِ وَكَانَتِ ٱلْاَلْفَاظُ مُخْتَارَةً حَسُنَ ٱلْكَلَامُ . وَاِذَا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي مُرَتَّبَةً حَسَنَةً وَٱلْمَعَارِضُ سَيِّئَةً كَانَ ٱلْكَلَامُ مَرْدُودًا فَٱعْتَمِدْ عَلَى مَا مَثَّلْتُهُ لَكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن

في مواقع الاطناب

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ اَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهِ وَفِي ٱلتَّكْرِيرِ وَفِي ٱلتَّطْوِيلِ فَمَلَكَتْنِي حَيْرَةُ ٱلشَّبَهِ بَيْنَهُمَا طَوِيلًا . ثُمَّ وَجَدْتُهُ اِنَّهُ ضَرْبٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . لِاَنَّ مِنَ ٱلتَّأْكِيدِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ كَمَا مَرَّ وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِطْنَابُ لَيْسَ كَذٰلِكَ . وَرَاَيْتُ عُلَمَاءَ ٱلْبَيَانِ قَدِ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ اَلْحَقَهُ بِٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي هُوَ ضِدُّ ٱلْاِيجَازِ وَهُوَ عِنْدَهُ قِسْمٌ غَيْرُهُ فَاَخْطَاَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي كَاَبِي هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيِّ وَٱلْغَانِمِيِّ حَتَّى اَنَّهُ قَالَ : اِنَّ كُتُبَ ٱلْفُتُوحِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ مُطَوَّلَةً مُطْنَبًا فِيهَا . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فَاسِدٌ لِاَنَّهُ اِنْ عَنَى

بذلك انها تكون ذات معانٍ متعددة قد استقصي فيها شرح تلك الحادثة من قبح او غيره فذلك مسلّم . وان عنى بذلك انها تكون مكرّرة المعاني مطوّلة الالفاظ قصدا لإفهام العامّة فهذا غير مسلّم . وهو مما لا يذهب اليه من عنده ادنى معرفة بعلم الفصاحة والبلاغة . وعلى هذا فينبغي ان تكون الكتب جميعها مما يقرأ على عوامّ الناس وخواصهم ذات الفاظ سهلة مفهومة . وكذلك الاشعار والخطب ومن ذهب الى غير ذلك فانّه بنجوة عن هذا الفن . وعلى هذا فانّ الاطناب لا يختصّ به عوامّ الناس وانما هو للخواص كما هو للعوامّ . وسأبيّن حقيقته واحقق القول فيه بحيث تزول الشبهة التي خبط ارباب علم البيان من اجلها وقالوا اقوالا لا تعرب عن فائدة . والذي عندي فيه : انّه اذا رجعنا الى الاسماء واشتقاقها وجدنا هذا الاسم مناسبا لمسمّاه وهو في اصل اللغة مأخوذ (من اطنب في الشيء) اذا بالغ فيه . ويقال : اطنبت الريح اذا اشتدّت في هبوبها . واطنب في السير اذا اشتدّ فيه . وعلى هذا فان حملناه على مقتضى مسمّاه كان معناه المبالغة في ايراد المعاني . وهذا لا يختصّ بنوع واحد من انواع علم البيان وانما يوجد فيها جميعا اذ ما من نوع منها الّا ويمكن المبالغة فيه . واذا كان الامر كذلك فينبغي ان يفرد هذا النوع من بينها ولا يتحقق افراده الّا بذكر حدّه الدالّ على حقيقته . والذي يحدّ به ان يقال : هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة فهذا حدّه الذي يميّزه

عَنِ ٱلتَّطْوِيلِ اِذِ ٱلتَّطْوِيلُ هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ .
وَامَّا ٱلتَّكْرِيرُ فَاِنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا كَقَوْلِكَ لِمَنْ
تَسْتَدْعِيهِ : اَسْرِعْ اَسْرِعْ . فَاِنَّ ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدٌ وَٱللَّفْظَ وَاحِدٌ . وَٱلتَّكْرِيرُ
جُزْءٌ مِنَ ٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنْهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ
يَأْتِي لِفَائِدَةٍ فَهُوَ اِطْنَابٌ وَلَيْسَ كُلُّ اِطْنَابٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِفَائِدَةٍ .
وَامَّا ٱلَّذِي يَأْتِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلتَّطْوِيلِ وَهُوَ
اَخَصُّ مِنْهُ . فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ تَطْوِيلٌ
وَلَيْسَ كُلُّ تَطْوِيلٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَكُنْتُ قَدَّمْتُ ٱلْقَوْلَ
فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ
زِيَادَةٍ عَلَيْهِ . وَاِذَا تَقَرَّرَتْ هٰذِهِ ٱلْحُدُودُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْمُشَارُ اِلَيْهَا فَاِنَّ
مِثَالَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَٱلتَّطْوِيلِ مِثَالُ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ فِي
ثَلَاثَةِ طُرُقٍ : فَٱلْاِيجَازُ هُوَ اَقْرَبُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ اِلَيْهِ وَٱلْاِطْنَابُ
وَٱلتَّطْوِيلُ هُمَا ٱلطَّرِيقَانِ ٱلْمُتَسَاوِيَانِ فِي ٱلْبُعْدِ اِلَيْهِ . اِلَّا اَنَّ طَرِيقَ
ٱلْاِطْنَابِ تَشْتَمِلُ عَلَى مَنْزَهٍ مِنَ ٱلْمَنَازِهِ لَا يُوجَدُ فِي طَرِيقِ ٱلتَّطْوِيلِ
وَٱلْاِطْنَابُ يُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَيُوجَدُ تَارَةً
فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ اَبْلَغُ لِاتِّسَاعِ
ٱلْمَجَالِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنَّهُ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْاَوَّلُ)
ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ يَرِدُ حَقِيقَةً وَمَجَازًا .
اَمَّا (ٱلْحَقِيقَةُ) فَمِثْلُ قَوْلِهِمْ : رَاَيْتُهُ بِعَيْنِي وَقَبَضْتُهُ بِيَدِي وَوَطِئْتُهُ
بِقَدَمِي وَذُقْتُهُ بِفَمِي . وَكُلُّ هٰذَا يَظُنُّ ٱلظَّانُّ اَنَّهُ زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ

إِلَيْهَا وَيَقُولُ : إِنَّ ٱلرُّؤْيَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِٱلْعَيْنِ وَٱلْقَبْضَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْيَدِ وَٱلْوَطْءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْقَدَمِ وَٱلذَّوْقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْفَمِ . وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ بَلْ هٰذَا يُقَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَعْظُمُ مِثَالُهُ وَيَعِزُّ ٱلْوُصُولُ إِلَيْهِ فَيُؤَكَّدُ ٱلْأَمْرُ فِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ دَلَالَةً عَلَى نَيْلِهِ وَٱلْحُصُولِ عَلَيْهِ . وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنْهُ (عَلَى سَبِيلِ ٱلْمَجَازِ) فَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ . فَفَائِدَةُ ذِكْرِ ٱلصُّدُورِ هٰهُنَا أَنَّهُ قَدْ تُعُورِفَ وَعُلِمَ أَنَّ ٱلْعَمَى عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ مَكَانُهُ ٱلْبَصَرُ وَهُوَ أَنْ تُصَابَ ٱلْحَدَقَةُ بِمَا يَطْمِسُ نُورَهَا . وَٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلْقَلْبِ تَشْبِيهٌ وَمَثَلٌ فَلَمَّا أُرِيدَ إِثْبَاتُ مَا هُوَ خِلَافُ ٱلْمُتَعَارَفِ مِنْ نِسْبَةِ ٱلْعَمَى إِلَى ٱلْقُلُوبِ حَقِيقَةً وَنَفْيُهُ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ ٱحْتَاجَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ إِلَى زِيَادَةِ تَصْوِيرٍ وَتَعْرِيفٍ لِيَتَقَرَّرَ أَنَّ مَكَانَ ٱلْعَمَى إِنَّمَا هُوَ ٱلْقُلُوبُ لَا ٱلْأَبْصَارُ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ كَثِيرَةٌ مَحَاسِنُهُ وَافِرَةٌ لَطَائِفُهُ وَٱلْمَجَازُ فِيهِ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ لِمَكَانِ زِيَادَةِ ٱلتَّصْوِيرِ فِي إِثْبَاتِ وَصْفِ ٱلْحَقِيقِيِّ لِلْمَجَازِيِّ وَنَفْيِهِ عَنِ ٱلْحَقِيقِيِّ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْمُخْتَصُّ بِٱلْجُمَلِ فَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَى ضُرُوبٍ أَرْبَعَةٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا أَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ فَيُؤْتَى فِيهِ بِمَعَانٍ مُتَدَاخِلَةٍ . إِلَّا أَنَّ كُلَّ مَعْنًى يَخْتَصُّ بِخَصِيصَةٍ لَيْسَتْ لِلْآخَرِ . وَذٰلِكَ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

قَطَعَتْ إِلَيَّ ٱلزَّابِيَيْنِ هِبَاتُهُ ... وَٱلْتَاثَ مَأْمُورُ ٱلسَّحَابِ ٱلْمُسْبَلِ

مِنْ مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ ... بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ

فَقَوْلُهُ : (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ)

تَدَاخَلَتْ مَعَانِيهِ إِذِ ٱلْمِنَّةُ وَٱلصَّنِيعَةُ وَٱلْإِحْسَانُ مُتَقَارِبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِتَكْرِيرٍ لِأَنَّهُ لَوِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ : مِنَّةٍ وَصَنِيعَةٍ وَإِحْسَانٍ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ تَكْرِيرًا . وَلٰكِنَّهُ وَصَفَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ بِصِفَةٍ أَخْرَجَتْهَا عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ فَقَالَ : (وَمِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْإِشْتِهَارِ لِعِظَمِ شَأْنِهَا . (وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْبَكَارَةِ أَيْ أَنَّهَا لَمْ يُؤْتَ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ . (وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ) فَوَصَفَهُ بِٱلْغُرَّةِ وَٱلتَّحْجِيلِ أَيْ هُوَ ذُو مَحَاسِنَ مُتَعَدِّدَةٍ . فَلَمَّا وَصَفَ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ ٱلْمُتَدَاخِلَةَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِأَوْصَافٍ مُتَبَايِنَةٍ صَارَ ذٰلِكَ إِطْنَابًا وَلَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا . وَلَمْ أَجِدْ فِي ضُرُوبِ ٱلْإِطْنَابِ أَحْسَنَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَا أَلْطَفَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَقَوْلِهِ :

ذَكِيٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفُهُ ‏ ‏ ‏ وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سَائِلُهْ

فَإِنَّ غَرَضَهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْكَرَمِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَطَاءِ إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَجَعَلَ ضُيُوفَهُ تُضِيفُ وَرَاجِيَهُ يُرْجَى وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ . وَلَيْسَ هٰذَا تَكْرِيرًا لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ضُيُوفِهِ تُضِيفُ أَنْ تَكُونَ رَاجِيهِ مَرْجُوًّا وَلَا أَنْ يَكُونَ سَائِلُهُ مَسْئُولًا لِأَنَّ ضَيْفَهُ يَسْتَصْحِبُ ضَيْفًا طَمَعًا فِي كَرَمِ مُضِيفِهِ وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ أَنْ يُعْطِيَ ٱلسَّائِلَ عَطَاءً كَثِيرًا يَصِيرُ بِهِ مُعْطِيًا . وَرَاجِيهِ يُرْجَى أَيْ أَنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِهِ رَجَاءُ رَاجٍ فَقَدْ أَيْقَنَ بِٱلْفَلَاحِ وَٱلنَّجَاحِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُرْجَى لِمَكَانِ رَجَائِهِ إِيَّاهُ . وَهٰذَا أَبْلَغُ ٱلْأَوْصَافِ ٱلثَّلَاثَةِ . (ٱلضَّرْبُ

ٱلثَّانِي) يُسَمَّى ٱلنَّفْيَ وَٱلْإِثْبَاتَ وَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّفْيِ ثُمَّ يُذْكَرَ عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِثْبَاتِ أَوْ بِٱلْعَكْسِ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِهِمَا زِيَادَةٌ لَيْسَتْ فِي ٱلْآخَرِ وَإِلَّا كَانَ تَكْرِيرًا . وَٱلْغَرَضُ بِهِ تَأْكِيدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَٱعْلَمْ أَنَّ لِهٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ فَائِدَةً كَبِيرَةً وَهُوَ أَوْكَدُ وُجُوهِهِ أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . وَٱلْمَعْنَى فِي ذٰلِكَ سَوَاءٌ إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي ٱلثَّانِيَةِ قَوْلَهُ : وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ لَكَانَ حُكْمُ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ حُكْمَ ٱلتَّكْرِيرِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَنْبَغِي أَنْ يُتَأَمَّلَ وَيُنْعَمَ ٱلنَّظَرُ فِيهِ . (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ) هُوَ أَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدُ تَامًّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةٍ ثُمَّ يُضْرَبَ لَهُ مِثَالٌ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

تَرَدَّدَ فِي خُلُقَيْ سُؤْدَدٍ   سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا

فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا   وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي يَدُلُّ عَلَى ٱلْأَوَّلِ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ وَٱلسَّيْفَ لِلْبَأْسِ ٱلْمَهِيبِ إِلَّا أَنَّ فِي ٱلثَّانِي زِيَادَةَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّتِي تُفِيدُ تَخْيِيلًا وَتَصْوِيرًا .

(اَلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَسْتَوْفِيَ مَعَانِيَ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ خُطْبَةٍ اوْ قَصِيدَةٍ. وَهٰذَا اَصْعَبُ ٱلضُّرُوبِ ٱلْاَرْبَعَةِ طَرِيقًا اَوْ اَضْيَقُهَا بَابًا لِاَنَّهُ يَتَفَرَّعُ اِلَى اَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَاَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ وَلَيْسَ ٱلْخَاطِرُ ٱلَّذِي يَقْذِفُ بِٱلدُّرَرِ فِي مِثْلِهِ اِلَّا مَعْدُومَ ٱلْوُجُودِ وَمِثَالُهُ وَمِثَالُ ٱلْاِيجَازِ مِثَالُ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ وَٱلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ بِثَلَاثَةِ طُرُقٍ: وَقَدْ اَوْرَدتُّ هٰهُنَا مِثَالًا لِهٰذِهِ ٱلْاَسَالِيبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَجَعَلْتُهَا عَلَى هَيْئَةِ ٱلْمَقْصِدِ ٱلَّذِي تُسْلَكُ اِلَيْهِ ٱلطُّرُقُ ٱلثَّلَاثَةُ... فَاَقُولُ : قَدْ وَرَدَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ كِتَابٌ كَتَبَهُ طَاهِرُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ اِلَى ٱلْمَأْمُونِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَقَتْلِهِ اِيَّاهُ وَهُوَ : كِتَابِي اِلَى اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرَأْسُ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ بَيْنَ يَدَيَّ وَخَاتَمُهُ فِي يَدِي وَعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تَحْتَ اَمْرِي وَٱلسَّلَامُ. وَهٰذَا كِتَابٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَى شَدِيدُ ٱلِاخْتِصَارِ. وَاِذَا كُتِبَ مَا هُوَ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِطْنَابِ قِيلَ فِيهِ مَا اَذْكُرُهُ وَهُوَ مَا اَنْشَأْتُهُ مِثَالًا فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيُعْلَمَ بِهِ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ : اَصْدَرَ كِتَابَهُ هٰذَا وَقَدْ نُصِرَ بِٱلْفِئَةِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْفِئَةِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱنْقَلَبَ بِاَيْدِ ٱلْمَلَأِ وَٱلْعَيْنِ ٱلْقَرِيرَةِ وَكَانَ ٱنْتِصَارُهُ بِجَدِّ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا بِجَدِّ نَصْلِهِ وَٱلْجَدُّ اَغْنَى مِنَ ٱلْجَيْشِ. وَاِنْ كَثُرَتْ اَمْدَادُ خَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَجِيءَ بِرَأْسِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَهُوَ عَلَى جَسَدٍ غَيْرِ جَسَدِهِ وَلَيْسَ لَهُ قَدَمٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ. وَلَا يَدٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَبْطُشُ بِيَدِهِ. وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ

مُؤذِنٌ بقِصَرِ شأْنهِ وحَسَدَتِ الضِّبَاعُ الطَّايرَ عَلَى مَكانها مِنْهُ وَهُوَ غيرُ مَحْسُودٍ عَلَى مَكَانهِ. وَاحضِرَ خَاتَمُهُ وهُوَ الخَاتَمُ الَّذِي كَانَ الأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ اسطُرِهِ. وكَانَ يرْجُو انْ يُصدِرَ كِتابَ الفَتْحِ بِخَتْمِهِ فَحَالَ وُرُودُ المَنيَّةِ دُونَ مَصْدَرِهِ . وَكَذَالِكَ البَغْيُ مَرْتَعُهُ وَبِيلٌ . وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ وَسَيْفُهُ وَإِنْ مَضَى فَإِنَّهُ عِنْدَ الضَّرْبِ كَلِيلٌ . وَالعَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى امِيرِ المُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سِلْمًا وَاعطَتْهُ البَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وليس مَنْ تَابَعَ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا. وَهُمْ الآنَ مَصْرُوفُونَ تَحْتَ الأَوَامِرِ مُمْتَحَنُونَ بِكَشْفِ السَّرائِرِ مُطِيعُونَ بِاللِّواءِ الَّذِي خَصَّهُ اللهُ بِاسْتِفْتَاحِ المَقَالِدِ وَاسْتِيطَاءِ المَنَابِرِ وَعَلَى اللهِ اتْمَامُ النِّعَمِ الَّتِي افْتَتَحَهَا وَاجَابَةِ امِيرِ المُؤْمِنِينَ إِلَى مُقْتَرَحَاتِهِ الَّتِي اقْتَرَحَهَا وَالسَّلامُ. وَهَذَا الكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الحُسَيْنِ مِنَ المَعْنَى الَّا انَّهُ فَصَّلَ ذَلِكَ الإِجْمَالَ. وَلَوْ كُتِبَتْ عَلَى وَجْهِ التَّطْوِيلِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ: اصْدَرَ كِتَابَهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَالْتَقَى عَسْكَرُ امِيرِ المُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّ البَاغِي. وَتَطَاعَنَ الفَرِيقَانِ وَتَزَاحَفَ الجَمْعَانِ. وَحَمِيَ القِتَالُ وَاشْتَدَّ النِّزَالُ. وَتَرَادَفَتِ الكَتَائِبُ وَتَلاحَقَتِ المَقَانِبُ. وَقُتِلَ عِيسَى بْنُ مَاهَانَ وَاحْتُزَّ رَأْسُهُ وَنُزِعَ الخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ وَخُلِعَ وَتُرِكَ جَسَدُهُ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَالسِّبَاعِ وَالذِّئَابِ وَالضِّبَاعِ. وَانْجَلَتِ الوَقْعَةُ عَنْ غَلَبِ الخَلِيفَةِ وَنَصْرِهِ وَخِذْلانِ عَدُوِّهِ وَقَهْرِهِ وَالسَّلامُ. فَهَذَا الكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَطْوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ مَعَانِيَ يَتِمُّ الغَرَضُ بِدُونِهَا. فَانْظُرْ الَى هَذِهِ الكُتُبِ الثَّلاثَةِ وَتَأَمَّلْهَا وَقِسْ لِمَا مَا يَأْتِي مِنْهَا

الفصل السابع

في البديع

البحث الاول

في حقيقة علم البديع

(عن ابن جابر الاندلسي والحاج خلفا)

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

اَلْبَدِيعُ مَأْخُوذٌ مِنْ بَدَعَ اَلشَّيْءَ يَبْدَعُهُ بَدْعًا إِذَا أَنْشَأَهُ وَبَدَأَهُ. وَيُقَالُ اِبْتَدَعَ اَلشَّيْءَ إِذَا اخْتَرَعَهُ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَالْبَدِيعُ يُطْلَقُ بِإِزَاءِ مَعَانٍ يُقَالُ هٰذَا بَدِيعٌ اَيْ مُحْدَثٌ عَجِيبٌ فَيَكُونُ فِي صِيغَةِ اَلْمَفْعُولِ وَيَكُونُ اَيضًا مِنْ صِيغَةِ اَلْفَاعِلِ. وَمِنْهُ اَلْبَدِيعُ فِي اَسْمَاءِ اَللّٰهِ تَعَالَى لِإِبْدَاعِهِ اَشْيَاءَ وَإِحْدَاثِهِ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَالْبَدِيعُ اَيْضًا اَلْجَدِيدُ يُقَالُ : سِقَاءٌ بَدِيعٌ وَحَبْلٌ بَدِيعٌ اَيْ جَدِيدَانِ. وَيُقَالُ : اَبْدَعَ اَلشَّاعِرُ إِذَا صَنَعَ اَلْبَدِيعَ فِي شِعْرِهِ. وَامَّا اَلْبَدِيعُ اِصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ اَلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى اَلْحَالِ اَلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ فِي اَلدَّلَالَةِ وُضُوحًا وَخَفَاءً. فَقَوْلُهُ : (عِلْمٌ) جِنْسٌ دَخَلَ تَحْتَهُ كُلُّ عِلْمٍ. وَقَوْلُهُ : (يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ اَلْعُلُومَ كُلَّهَا مَا عَدَا عِلْمَ اَلْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهَا لِاَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ اَلْعُلُومِ لَا يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ. وَقَوْلُهُ :

(اَلْمُطَابِقُ لِمُقْتَضَى اَلْحَالِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ اَلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ اَلَّذِي لَمْ يُطَابِقْ مُقْتَضَى اَلْحَالِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . وَقَوْلُهُ : (اَلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ اِلَى آخِرِهِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ اَلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ اَلَّذِي يُطَابِقُ مُقْتَضَى اَلْحَالِ وَلَمْ يَذْكُرْ كَيْفِيَّاتِ طُرُقِ دَلَالَتِهِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . فَتَحَصَّلَ مِنْ هٰذَا اَلْحَدِّ اَنَّ اَلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ لَا يُسَمَّى بَدِيعًا اِلَّا بِشَرْطَيْنِ : اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ اَلْكَلَامُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى اَلْحَالِ . وَاَنْ تَكُونَ كَيْفِيَّاتُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ مَعْلُومَةَ اَلْوُضُوحِ وَاَلْخَفَاءِ . فَالشَّرْطُ اَلْاَوَّلُ هُوَ عِلْمُ اَلْمَعَانِي . وَالشَّرْطُ اَلثَّانِي هُوَ عِلْمُ اَلْبَيَانِ فَاِنْ عُدِمَ اَلشَّرْطَانِ اَوْ اَحَدُهُمَا مِنَ اَلْكَلَامِ لَمْ يَكُنِ اَلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ذٰلِكَ اَلْكَلَامِ بَدِيعًا . اَمَّا (مَرْتَبَةُ) هٰذَا اَلْعِلْمِ فَبَعْدَ مَرْتَبَةِ عِلْمَيِ اَلْمَعَانِي وَاَلْبَيَانِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَجْعَلْهُ عِلْمًا عَلَى حِدَةٍ فَتَاَمَّلْ . وَظَهَرَ مِنْ هٰذَا مَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ . وَاَمَّا مَنْفَعَتُهُ فَاِظْهَارُ رَوْنَقِ اَلْكَلَامِ حَتَّى يَلِجَ اَلْاُذُنَ بِغَيْرِ اَذًى وَيَتَعَلَّقَ بِاَلْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَاِنَّمَا دَوَّنُوا هٰذَا اَلْعِلْمَ لِاَنَّ اَلْاَصْلَ وَاِنْ كَانَ اَلْحُسْنَ اَلذَّاتِيَّ وَكَانَ اَلْمَعَانِي وَاَلْبَيَانُ مِمَّا يَكْفِي فِي تَحْصِيلِهِ لٰكِنَّهُمْ اَعْتَنَوْا بِشَأْنِ اَلْحُسْنِ اَلْعَرَضِيِّ اَيْضًا لِاَنَّ اَلْحُسْنَ اِذَا عَرِيَ مِنَ اَلْمُزَيِّنَاتِ رُبَّمَا يَذْهَلُ بَعْضُ اَلْقَاصِرِينَ عَنْ تَتَبُّعِ مَحَاسِنِهِ فَيَفُوتُ اَلتَّمَتُّعُ بِهِ

البحث الثاني

في ان البديع احد علوم الادب الستة

(عن بديعية العميان)

وَذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا نَظَرْتَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلعَرَبِيِّ اِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ ٱللَّفظُ وَهُوَ عِلْمُ ٱللُّغَةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِ ٱللَّفظِ بِحَسَبِ مَا يَعْتَرِيهِ مِنَ ٱلْحَذفِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْبَدَلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَهُوَ عِلْمُ ٱلتَّصْرِيفِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُفْهَمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرَكَّبِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ اَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلعَرَبِيَّةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ مُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِحَسَبِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ طُرُقِ دَلَالَةِ ٱلْكَلَامِ اِيضَاحًا وَخَفَاءً بِحَسَبِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ . فَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْأُوَلُ لَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا اِلَّا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . لِاَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِيهَا ٱلْفَاظُهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْآخِرَةُ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِاَنَّهَا رَاجِعَةٌ اِلَى ٱلْمَعَانِي وَلَا فَرْقَ فِيهَا فِي ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ اِذْ هُوَ اَمْرٌ رَاجِعٌ اِلَى ٱلْعَقْلِ وَلِذٰلِكَ قُبِلَ مِنْ اَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلْاِسْتِشْهَادُ بِكَلَامِ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَاَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ وَهَلُمَّ جَرًّا . (وَهُنَا تَنْبِيهٌ) وَهُوَ اَنَّ اَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ فِي ٱلْكَلَامِ كَٱلْمِلْحِ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخَالِ

فِي ٱلْوَجَنَاتِ وَٱلشِّيَةِ فِي ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَاتِ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخِيلَانُ فِي ٱلْخَدِّ وَٱلشِّيَةُ فِي ٱلْخَيْلِ قَبُحَ ذَٰلِكَ وَخَرَجَ عَنْ بَابِ ٱلْاِسْتِحْسَانِ فَكَذَٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ إِذَا كَثُرَ وَتُكُلِّفَ تَمُجُّهُ ٱلطِّبَاعُ وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْكَلَامِ سَهْلًا عَلَى ٱلطِّبَاعِ مُسْتَعْذَبًا فِي ٱلْأَسْمَاعِ عَارِيًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْحُسْنِ وَاقِعًا مَوْقِعَ ٱلزَّهْرِ مِنَ ٱلْغُصْنِ فَإِذَا فَرَطَ فِي ٱلزِّيَادَةِ خَاطَبَتْهُ ٱلطِّبَاعُ :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ ۝ وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي ٱلْخَصَرِ

البحث الثالث

في نسبة علم البديع الى علمَي المعاني والبيان

(من شرح بديعيَّة العميان ايضًا)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلَانِ فِي حَدِّ ٱلْبَدِيعِ عَلِمْتَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِمَا نِسْبَةُ ٱلْمُرَكَّبِ إِلَى مُفْرَدَاتِهِ إِذْ لَا يَدْخُلُ فِي ٱلْحَدِّ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ مُفْرَدَاتِ ٱلْمَحْدُودِ ٱلَّتِي تَرَكَّبَ مِنْهَا . فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ إِلَّا بِوُجُودِ مُفْرَدَاتِهِ كَذَٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِوُجُودِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْكَلَامِ عُدِمَ ٱلْبَدِيعُ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ يُعْدَمُ بِعَدَمِ مُفْرَدَاتِهِ فَلَوْ وُجِدَ كَلَامٌ خَالٍ مِنْ سَابِقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي أَوْ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ طُرُقِ ٱلدَّلَالَةِ فِي ٱلظُّهُورِ وَٱلْخَفَاءِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ أَعَمَّ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ عِلْمُ

ٱلْمَعَانِي وَأَخَصَّهَا عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ لِأَنَّهُ مُتَرَكِّبٌ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ وَزِيَادَةٍ وَٱلْقَاعِدَةُ أَنَّ ٱلْأَخَصَّ يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْأَعَمِّ وَزِيَادَةٍ . وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلْمَعَانِي مُنْدَرِجٌ تَحْتَ ٱلْبَدِيعِ وَكُلُّ بَدِيعٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمَا جُزْءَاهُ . وَكُلُّ بَيَانٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي لِأَنَّهُ جُزْؤُهُ وَلَيْسَتِ ٱلْمَعَانِي مُسْتَلْزِمَةً لِلْبَيَانِ وَلَا لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِمَا وَذٰلِكَ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ تُعْلَمْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَلَا وُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَلَا ٱلْبَيَانُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَدِيعِ إِذْ يُوجَدُ بِدُونِهِ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَعُلِمَتْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَوُجُوهُ تَحْسِينِهِ . وَإِذَا عَلِمْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ فَٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَدِيعِ كَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنُّطْقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَلَا يُوجَدُ ٱلْبَدِيعُ بِدُونِهِمَا كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلْإِنْسَانُ بِدُونِ ٱلْحَيَاةِ . وَٱلنُّطْقُ وَٱلْمَعَانِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْبَيَانِ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلنُّطْقِ فَتُوجَدُ ٱلْمَعَانِي بِلَا بَيَانٍ كَمَا يُوجَدُ ٱلْحَيَوَانُ بِلَا نُطْقٍ . وَلَا يُوجَدُ ٱلْبَيَانُ بِلَا مَعَانٍ كَمَا لَا يُوجَدُ ٱلنُّطْقُ بِدُونِ ٱلْحَيَوَانِ . وَهٰذَا بَسْطُ مَا يُوجَدُ فِي بَيَانِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱللهُ أَعْلَمُ . وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ أَنَّ ٱلْمَعَانِي رَاجِعَةٌ إِلَى مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ وَٱلْبَيَانَ رَاجِعٌ إِلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِي ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ . فَكَمَا أَنَّ ٱلْبَدِيعَ لَا بُدَّ لَهُ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْوَضْعِيَّةِ . كَذٰلِكَ فِي ٱلْبَيَانِ لَا بُدَّ لَهُ أَيْضًا مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْحَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَلَوْ قَالَ فِي ٱلْمَعَانِي : (زَيْدٌ قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) . أَوْ

قَالَ : (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ خَطَأً . كَذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ لَوْ قَالَ : (زَيْدٌ جَوَادٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) أَوْ قَالَ : (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ جَوَادٌ) كَانَ خَطَأً

البحث الرابع

في اقسام البديع

(عن شرح بديعية العميان)

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَصُّوا عَلَى أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِبَابَيْنِ : بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ وَبَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱلْمَعْنَى أَوْ بِٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ مَعًا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱللَّفْظِ فَقَطْ فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى فَقَطْ كَٱلتَّوْرِيَةِ وَتَجَاهُلِ ٱلْعَارِفِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱللَّفْظِ . وَقِسْمٌ بِٱللَّفْظِ فَقَطْ كَٱلتَّجْنِيسِ وَرَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْمَعْنَى . وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى كَٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِمَّا لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فِيهِ حَظٌّ . وَأَسْقَطَ صَاحِبُ ٱلْإِيضَاحِ هٰذَا ٱلْقِسْمَ وَجَعَلَ ٱلْبَدِيعَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى وَهُوَ ٱلْأَبْيَنُ



البحث الخامس

في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيَّات

(عن كشف الظنون باختصار وتصرُّف)

اِعلَمْ انَّ قُدَمَاءَ ٱلْمُصنِّفِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ هٰذَا ٱلْفَنَّ فِي آخِرِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ . اِلَّا انَّ ٱلْمُتَاخِرِينَ زَادُوا عَلَيْهِ شَيْئًا كَثِيرًا وَنَظَمُوا فِيهِ قَصَائِدَ وَاَلَّفُوا كُتُبًا.وَمِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِعِلْمِ ٱلْبَدِيعِ كِتَابٌ لِاَبِي ٱلْعَبَّاسِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) وَهُوَ اَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ . وَكَانَ جُمْلَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا سَبْعَةَ عَشَرَ نَوْعًا اَلَّفَهُ سَنَةَ ٢٧٤ هـ (٨٨٧ م) . وَعَاصَرَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَجَمَعَ مِنْهَا عِشْرِينَ نَوْعًا تَوَارَدَ مَعَهُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنْهَا فَتَكَامَلَ لَهُمَا ثَلَاثُونَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ . امَّا ٱلسَّكَّاكِيُّ فَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ سِوَى تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ نَوْعًا.ثُمَّ اقْتَدَى ٱلنَّاسُ بِقُدَامَةَ وَٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَكَانَ غَايَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا اَبُو هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِكِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ.ثُمَّ جَمَعَ فِيهَا ٱبْنُ ٱلرَّشِيقِ ٱلْقَيْرَوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) فِي ٱلْعُمْدَةِ مِثْلَهَا وَاَضَافَ اِلَيْهَا خَمْسَةً وَسِتِّينَ بَابًا فِي اَحْوَالِ ٱلشِّعْرِ وَاَغْرَاضِهِ . وَتَلَاهُمَا شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلتِّيفَاشِيُّ فَبَلَغَ بِهَا ٱلسَّبْعِينَ.ثُمَّ تَصَدَّى لَهَا ٱلشَّيْخُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ فَاَوْصَلَهَا اِلَى ٱلتِّسْعِينَ وَاَضَافَ اِلَيْهَا مِنْ مُسْتَخْرَجَاتِهِ ثَلَاثِينَ سُلِّمَ لَهُ مِنْهَا عِشْرُونَ . وَاَجْرَى تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعَ فِي ٱلْآيَاتِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ

وسماه التحرير وهو اعم كتاب صنف فيه لانه لم يتكل على النقل دون النقد . وذكر انه وقف على اربعين كتابا في هذا العلم

والبديعيات المشتهرة هي بديعية الشيخ الاديب صفي الدين الحلي سماها كافية البديعية وشرحها شرحا حسنا . حذا حذوه الشيخ عبد الرحمان الحميدي . وبديعية ابي جعفر احمد الرعيني المتوفى سنة ٧٧٩ﻫ (١٣٧٧ م) وهذه البديعية تعرف ببديعية العميان . وبديعية الشيخ شمس الدين ابي عبدالله محمد بن جابر الاندلسي المتوفى سنة ٧٨٠ ﻫ (١٣٧٨ م) وبديعية الشيخ عز الدين الموصلي ووجيه الدين اليمني المتوفى في حدود سنة ٨٠٠ ﻫ (١٣٩٨ م) وبديعية الشيخ تقي الدين بن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ ﻫ (١٤٣٣ م) وسماها التقديم تشتمل على مئة وستة وثلاثين نوعا ثم شرحها شرحا مفيدا وهو مجموع ادب قل ان يوجد في غيره . وبديعية الشيخ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ﻫ (١٥٠٠ م) وتسمى نظم البديع ثم شرحها . وبديعية الفاضلة عائشة الباعونية نظمتها على مثال قصيدة الحموي مع عدم تسمية النوع . واتى بعدها الشيخ عبد الغني النابلسي ونظم قصيدتين التزم باحداهما تسمية النوع

بديعيَّة الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري

مدح بها السيد المسيح ورسلهُ الاطهار

وهي مشتملة على مائة وثمانين نوعًا مع التزام تسمية النوع

براعة المطلع

بَرَاعَةُ ٱلْمَدْحِ فِي نَجْمٍ ضِيَاهُ سَمِي   تَهْدِي بِمَطْلَعِهَا مَنْ عَنْ سَنَاهُ عَمِي

الجناس المطلق والمركب

تَطْلِيقُ هَمِّي بِتَرْكِيبِ ٱلْمَدِيحِ لَهُ   رُحْ لِي إِلَيْهِ بِهِ رُحِي كَذَا هِمَمِي

الجناس المذيل

سَنَاهُ فِي ٱلْكَوْنِ بَاهٍ بَاهِرٌ عَجِبٌ   وَذَيَّلَ ٱلْكَوْنَ نُورًا مَاحِقَ ٱلظُّلَمِ

الجناس اللاحق

دَرْبُ ٱلْهُدَى مَنْ بِهِ قَدْ سَارَ ٱلْحَقَهُ   كَمْ حَائِرٍ بَائِرٍ بِٱلرُّشْدِ مِنْهُ رُمِي

الجناس التام والمطرف

أَتَمَّ بَدْرَ ٱلسَّمَا مِصْبَاحُهُ وَسَمَا   فَإِنْ هَوِيتُ بِهِ ٱلتَّطْرِيفَ لَمْ أُلَمِ

الجناس المصحف والمحرف

أَرَاحَ تَصْحِيفُهُ ذِهْنًا أَزَاحَ لَهُ   تَحْرِيفَ قَوْلٍ غَدَا فِي ٱلْحُكْمِ وَٱلْحِكَمِ

الافتنان

فَاقَ ٱفْتِنَانِي وَمَدْحِي فِي مَحَاسِنِهِ   يَا تَعْسَ عُمْرٍ مَضَى بِٱلْمَدْحِ لَمْ يَقُمِ

المطابقة

فَلَمْ أُطَابِقْ عَلَى بُعْدِ ٱلْأَحِبَّةِ بَلْ   إِنِّي أُطَابِقُ فِي قُرْبِي لِحَذْرِهِمِ

سلامة الاختراع

سَلَامَتِي فِي ٱخْتِرَاعِي نَظْمَ قَافِيَةٍ   أَرْجُو بِهَا ٱلنَّظْمَ فِي أَجْزَاءِ سِلْكِهِمِ

الاستعارة

إنِّي ٱسْتَعَرْتُ جِيَادَ ٱلدَّمْعِ فِي سَفَرِي   جَرْيًا وَرَاءَ مَتَابٍ فِي سَبِيلِهِمِ

الجناس المعنوي

وَعُدتُّ بِٱسْمِ ٱبْنِ رَعْدٍ ثُمَّ بِٱسْمِ أَبِي   إِسْحَقَ يَا مَعْنَوِيٌّ فِي ٱلْهَوَى بِهِمِ

الاستطراد

مُسْتَطْرِدًا فِي هَوَاهُمْ خَيْلَ مُنْعَطِفِي   كَأَدْمُعِي قَدْ جَرَتْ شَوْقًا لِقُرْبِهِمِ

الاستخدام

سَقَى ٱلْإِلٰهُ ٱلْحَيَا خَيْلًا رَعَتْهُ وَقَدْ   تَخَدَّمَتْهَا قَصْدَ إِدْرَاكٍ لِوَصْلِهِمِ

التخيير

بِرَبْعِهِمْ قَدْ تَخَيَّرْتُ ٱلْعَنَاءَ وَلَا م   ٱلْبَقَاءَ فِي سَعَةٍ فِي غَيْرِ رَبْعِهِمِ

التذييل

أَذُمُّ تَذْيِيلَ عَذْلٍ طَالَ مِنْكَ كَفَى   يَا عَاذِلِي ٱلْعَذْلُ مَذْمُومٌ مِنَ ٱلْأُمَمِ

الايداع

وَعِنْدَ إِيدَاعِهِ سَمْعِي مَلَامَتَهُ   مَزَجْتُ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

الجناس اللفظي وجناس القلب

قَدْ ضَلَّ رَأْيًا بِطَعْنٍ ظَلَّ يَلْفِظُهُ   فَٱلْقَلْبُ مَاحَالَ مِنْ لَاحٍ عَنِ ٱلذِّمَمِ

الاكتفاء

لَمْ يَكْتَفِ ٱلْعَاذِلُ ٱلنَّمَّامُ مِنْ حِيَلٍ   فَكَمْ لِذَاكَ خَبَا لِلْعَاشِقِينَ كَمِي

التفويف

اِرْحَمْ وَدَعْ وَٱتَّئِدْ وَٱشْفَقْ وَلِنْ وَأَرِحْ   فَوَفِّ وَوَشِّ وَجُدْ وَٱنْظِمْ وَمِقْ وَهِمِ

الملفق

أَبَى نَوَالِيَ بِٱلتَّلْفِيقِ مِنْهُ كَمَا   أَبَانَ وَالِيَ وَجْدٍ عَنْ وَلَائِهِمِ

الارقط

قَدْخَابَ مَنْ مِنْهُ يَرْجُو خُطَّةَ وَجَدَى وَشَانَ رَقْطٌ بِهِ قَدْ بَانَ مِنْ اَضَمِ

الالتفات

فَمَا اَلْتَفَتُّ اِلَى مَكْرٍ بِتَوْشِيَةٍ عَرِّجْ رِكَابَكَ عَنْ تِيهٍ اِلَى اَللَّقَمِ

الجناس المقلوب المستوي

حَرِّفْ اَخَاكُرَبٍ بَرِّكْ اَخَا فَرَحٍ فَيَسْتَوِي اَلْقَلْبُ بِالْاَفْرَاحِ لَا اَلْغُمَمِ

الموازبة

يَا لَاَئِمِي خَلِّ قَوْلاً فِي مُوَارَبَةٍ فَعَاقِلٌ اَنْتَ يَا ذَا اَلْعَذْلِ فَاسْتَقِمِ

الالتزام

اِنِّي لَمُلْتَزِمٌ خُلْدًا بِحُبِّهِمِ حَتَّى اَلْمَنَايَا بِهَا عَيْشٌ لِصَبِّهِمِ

رد العجز على الصدر

بِهِمْ اَرُدُّ عَلَى صَدْرِ اَلْخُصَامِ عَجْزَهُ وَاُخْزِي اَلْعِدَى يَوْمَ اَلْوَغَى بِهِمِ

المقابلة

اِنْ رُحْتُ مُنْزَعِجًا خَوْفًا بِمَسْئَلَةٍ فَقَابِلُوا بِالشِّفَا وَاَلْاَمْنِ وَاَلنِّعَمِ

المراجعة

قَالَ اَسْلُهُمْ قُلْتُ حَاشَا لِي فَرَاجَعَنِي فَقَالَ دَعْهُمْ فَقُلْتُ اَلسَّمْعُ فِي صَمَمِ

الهزل الذي يراد به الجد

بِاَلْجِدِّ هَازَلَنِي وَاَلدَّمْعُ مُنْسَجِمٌ فَقَالَ اَرْوِ اَلظَّمَا مِنْ مَنْهَلٍ شَبِمِ

القول بالموجب

قَوْلِي لَهُ مُوجَبٌ اِذْ قَالَ اَنْتَ لَهُمْ سَالٍ فَقُلْتُ لِجِسْمِي مِنْ سَعِيرِهِمِ

المتراكم

قَدْ قَدَّ قَدُّ فُؤَادِي عَضْبُ غِيبَتِهِ مِنْهَا تَرَاكَمَتِ اَلْاَحْزَانُ مِنْ اَلَمِي

الاستدراك

فَقَالَ مَكْرًا بِسُقْمٍ اَنتَ بَلْ شُغُلٍ ... فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكاً لٰكِنْ بِعِشْقِهِمِ

المناقضة

اِنّي اُنَاقِضُ عَهْدِي لِلْحَبِيبِ اِذَا ... مَا شِبْتُ اَوْ عُدتُّ طِفْلًا بَعْدَ مَا هَرِمِ

حسن الاتباع

حُسْنُ اتِّبَاعٍ لَهُمْ قَلْبِي اصْطَفَاهُ هَوًى ... فَالْقَلْبُ عِنْدِي لِغَيْرِ الْعِشْقِ لَمْ يَقُمِ

تشابه الاطراف

تَشْبِيهُ اَطْرَافِ اَقْوَالِي سَمَا بِهِمِ ... بِهِمْ مَدِيحِي غَدَا فِي اَبْلَغِ الْحِكَمِ

السهولة

سُهُولَةُ النَّظْمِ تَحْلُو فِي مَدِيحِهِمِ ... لَا فِي مَدِيحِ الظِّبَا وَالْغِيدِ لِلْحَشَمِ

الجناس الخالي او المعجم

نَبَذْتُ تَفْنِينَ تَشْبِيبٍ بِذِي شَغَفٍ ... يَفْتَنُّ فِي غُنُجٍ جَفْنٍ جُنَّ بِالْعَجَمِ

التهكم

بِهِمْ رَاَى عِزَّهُ تِيهًا فَذَلَّ بِهِمْ ... تَهَكُّمًا قُلْتُ يَا بُشْرَاكَ بِالنَّدَمِ

الهجاء في معرض المدح

بِمَعْرِضِ الْمَدْحِ قَدْ يَهْجُوكَ قَائِلُهُ ... مَا مِثْلُكُمْ بِاحْتِمَالِ الضُّرِّ وَالرَّغَمِ

الابهام

كَمْ زَادَ اِبْهَامَ نُصْحِي ذَا الْعَذُولِ وَكَمْ ... يَا لَيْتَ اِبْهَامَهُ فِي حَيِّزِ الْعَدَمِ

النزاهة

تَزَّهَتْ سَمْعِي بِحَقٍّ عَنْ نَصَائِحِهِ ... اِذْ لَمْ اَرَ الْحَقَّ فِي قَوْلٍ وَلَا كَلِمِ

المغايرة

اُغَايِرُ النَّاسَ فِي حُبِّي لِذِي عَذَلٍ ... مُسْتَنْطِقًا فَمُهُ حُبًّا لِذِكْرِهِمِ

الجناس الموصل

نَفْسِي لَهُمْ عَشِقَتْ حُبَابِهِمْ شُغِفَتْ فَحُبُّهُمْ صِلَةٌ تُنْفَى بِهَا غُمَمِي

الاستثناء

اَهْوَى ٱلْخُطُوبَ بِلَا ٱسْتِثْنَا لِحُبِّهِمِ اِلَّا مَـلَامَ عَذُولِي لِي لِاَجْلِهِمِ

الجناس المهمل

كَلَا ٱلْاِلٰهُ ٱمْرَءًا رَامَ ٱلْوِدَادَ لَهُ وَاَهْمَـلَ ٱلْوُدَّ لِلْاَسْوَاءِ وَٱلْحُرَمِ

الجناس الاخيف

اَحَلَّهُ خَيْفَ سَعْدٍ فِي لِوَا نُجُبٍ كَمَا شَبِيبَةَ عُمْرٍ جُبَّـةَ ٱلسَّلَمِ

الالغاز

مِنْ مَرْمَرِ ٱلرُّشْدِ خُذْ شَطْرًا بِشَطْرِ م عَيْنِ ٱللّٰهِ مُتَّحِمًا لِلُّغْزِ تَفْتَهِمِ

الجناس المقطع

وَاِنْ اَرَدتَّ دَوَاءً زُرْ ذُرَاهُ وَرِدْ وَاِنْ اَرَدتَّ رِوًى دَعْ وِرْدَ ذِي زَأَمِ

المحاجاة

وَٱسْتَشْفِهِ فِي ٱلتَّحَاجِي مُمْعِنًا نَظَرًا بِقَوْلِهِ فَٱلْاَسَا مِلْكِي وَمِنْهُ رُمِ

الكلام الجامع

جَمْعُ ٱلْـكَلَامِ اِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ حِكَمًا لَمْ يُلْفِ مَنْ ذَاقَ فِيهِ لَذَّةَ ٱلدَّسَمِ

الاقتباس

مِنْ مَجْمَعِ ٱلشَّوْكِ هَلْ مَنْ يَجْتَنِي عِنَبًا لَمْ تُقْتَبَسْ لَذَّةٌ مِنْ عَاطِلِ ٱلْـكَلِمِ

التوجيه

وَجِّهْ اِلَى الرَّبِّ نَعْتًا اَنْتَ تَابِعُهُ يَرْفَعْكَ مِنْ خَفْضِ رُتْبَاتٍ اِلَى ٱلْعِظَمِ

عكس الاشارة

بِحَقِّ بِرٍّ فَقُمْ لَا فِي اِشَارَتِـهِ فَاِنَّ عَـكْسَ ٱسْمِهِ مَعْنَاهُ كَٱلْعَلَمِ

المطمع

قد طابَ للنَّفسِ في الأسواءِ مطمعُها بَلْ طالَ فيها ولَمْ تعدِلْ إلى النَّدَمِ

الرجوع

ما لي رُجوعٌ إلى حالي لأُصلِحَها بَلَى إذا مَعْ هُدَى رَبِّي سعى قَدَمي

عتاب النفس

يا نَفسُ عِي وارْعَوي وأصغي إلى عَتَبي حتَّامَ أنتِ بِجَهْلٍ غيرِ منْصَرِمِ

التسليم

هِيَ لِزَعْمِكِ قَدْ سَلَّمتُ مُرتَضِياً فَما يَكونُ جَوابي يَومَ مُحْتَكَمي

القسم

فلا أُنِلْتُ المُنَى إنْ مِلْتُ مُتَّبِعاً هواكِ في غيرِ ما أهوى وذا قَسَمي

حسن التخلص

فرَغبتي والهوى حُسنُ التخلُّصِ مِنْ إثْمي بِمَدحِ وَسيطِ النَّاسِ كُلِّهِمِ

الاطراد

يَسوعُ بِكْرُ الإلهِ ابنُ البَتولِ سُلا لَةُ المُلوكِ ورَبٌّ في اطِّرادِهِمِ

حصر الجزئي والحاقه بالكلي

فَرْدٌ بِهِ تُحصَرُ الأنصارُ أجمعُهُمْ فالجُزْءُ يُلحَقُ بالكُلِّيِّ لِلعِظَمِ

العكس

نَفسُ الجَمالِ جَمالُ النَّفسِ فيهِ بَدا يا عَكسَ مَن عَن سَنا هذا الجَمالِ عَمِي

المماثلة

فالآبُ ماثَلَهُ والرُّوحُ وافَقَهُ والكُنهُ شارَكَهُ بالعُظمِ والقِدَمِ

التفسير

كُنهٌ ثُلاثِيُّ أُقنومٍ يُفَسِّرُهُ آبٌ وابنٌ ورُوحٌ في وَحيدِهِمِ

المذهب الكلامي

مَذْهَبِي فِي كَلَامِي مِنْهُ مُنْقِذُنَا ... لَوْ لَمْ يَصِرْ بَشَرًا لَمْ نَنْجُ مِنْ ضَرَمِ

المناسبة

لَاهُوتُهُ كَامِلٌ وَٱلطُّهْرُ نَاسَبَهُ ... نَاسُوتُهُ فَاضِلٌ فِي ٱلْخَلْقِ وَٱلشِّيَمِ

ارسال المثل

فَٱلْحُسْنُ فِي ٱلْخَلْقِ أَرْبَى فِيهِ عَنْ مَثَلٍ ... وَٱلْفَضْلُ أَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ

الترديد

فَهْوَ ٱلْبَدِيعُ لَنَا هٰذَا ٱلْبَدِيعُ سَنًى ... بِهِ ٱلْبَدِيعُ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي

التكرار

تَكْرَارُ مَدْحِي بِمَا بِٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ ... م ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ

الترتيب

لَهُ ٱلْمَلَائِكُ وَٱلْإِنْسَانُ أَجْمَعُهُ ... وَمَا سِوَاهُمُ فِي ٱلتَّرْتِيبِ كَٱلْخَدَمِ

التشريع

لَمَّا ٱنْحَنَى وَبِتَشْرِيعِ ٱلْفِدَاءِ بَدَا ... نِلْنَا ٱلْمُنَى فَنَجَوْنَا مِنْ رَدَى ٱلْعَرِمِ

التكميل

أَوْفَى أَبَاهُ تَمَامًا دَيْنَ آدَمِهِ ... حَمْدًا لَهُ فَاقَ تَكْمِيلًا بِذَا ٱلْكَرَمِ

الجناس المرفوّ

هَيَّا مَدَارَ نَعِيمٍ قَدْ رَفَاهُ بِهِ ... وَطَمَّ دَارَ جَحِيمٍ حَالِكِ ٱلظُّلَمِ

الجناس المشتق

هَدَى إِلَى ٱلْمَنْهَجِ ٱلْهَادِي بُغَاةَ هُدًى ... وَمِنْ هُدَاهُ ٱلْخَلَاصُ ٱشْتُقَّ لِلْأُمَمِ

النقل

تَمَّتْ نُقُولُ نُبُوَّاتٍ بِهِ وَمَضَتْ ... بِهِ ٱلْخَلِيلُ نَجَا مِنْ وَابِلِ ٱلضَّرَمِ

تشبيه شيئين بشيئين

شَيْئَانِ قَدْ اَشْبَهَا شَيْئَيْنِ فِيهِ لَنَا   تَعَطُّفٌ وَنَدًى كَالْبَحْرِ وَالدِّيَمِ

التشطير

تَشْطِيرُ نِعْمَتِهِ ما بَيْنَ أُمَّتِهِ   كَالنَّجْ فِي عِظَمٍ قَدْ كَانَ فِي الْقِسَمِ

الطيّ والنشر

فَالطَّيُّ وَالنَّشْرُ وَالتَّبْدِيلُ عَنْ كَرَمٍ   لِلْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْاَحْوَالِ وَالشِّيَمِ

الايغال

فِي السَّعْيِ اَوْغَلَ فِي تَمْهِيدِهِ سُبُلًا   اِلَى الْخَلَاصِ بِحُبٍّ غَيْرِ مُنْكَتِمِ

الاشارة

وَمِنْ اِشَارَاتِهِ بِالْوَعْظِ كَمْ نَجَحَتْ   لَهُمْ فُنُونٌ بِهَا زَادُوا بِبِرِّهِمِ

الايجاز

وَقَوْلُهُ مُوجَزٌ فِي صُنْعِ مُعْجِزَةٍ   اِنْ قَالَ اَشْفَى وَاَحْيَا بَالِيَ الرِّمَمِ

التوشيع

تَوْشِيعُ مَذْهَبِهِ فِي فَضْلِ سُنَّتِهِ   مُثْبِتُ الْاَمْجَدَيْنِ الْعَهْدِ وَالذِّمَمِ

التورية

وَكَمْ عُقُودٍ لَهُمْ حَلَّتْ فَوَائِدُهُ   بِحُسْنِ تَوْرِيَةٍ حَلَّتْ لِسَانَ فَمِي

النوادر

كَمْ مِنْ نَوَادِرِ بَذْلٍ مَارَسَتْ يَدُهُ   حَتَّى جَرَى دَمُهَا الْبَذْلِ كَالدِّيَمِ

البسط

تَعَوَّدَ الْجُودَ مَعْ بَسْطِ لِرَاحَتِهِ   لِلْعُودِ جَادَ بِهَا مَدًا بِلَا سَقَمِ

الجمع مع التقسيم

جَمْعٌ تَقَسَّمَ يَوْمَ الصَّلْبِ فِي فِرَقٍ   مِنْ قَاتِلٍ وَمُهِينٍ ثُمَّ مُنْتَقِمِ

الجمع

فَٱلْجَلْدُ وَٱلْهُزْؤُ وَٱلتَّشْتِيمُ مَعْ عَذَلٍ   اِهَانَـةٌ نَالَهَا مِنْ بَغْيِ جُمعِهِم

جناس البعض

بَعْضٌ حَمَاقَتُهُمْ زَادَتْ حَمَاسَتَهُمْ   جَوْرًا وَبَعْضٌ كَكَلْبٍ كَالِبٍ نَهِمِ

المشوّش

وَشَوَّشُوا ٱلْفَرْعَ مِنْ خَدْشٍ بِهَامَتِهِ   وَٱلْقَدْغُ فِي ٱلْجِسْمِ وَٱلْكَفَّيْنِ وَٱلْقَدَمِ

التشبيه

وَٱلْجِسْمُ اِنْ جِئْتُ تَشْبِيهًا لِحَالَتِهِ   قُلْ كَٱلْخِلَالِ نُحُولًا مِنْ نَكَالِهِمِ

تجاهل العارف

تَجَاهَلَ ٱلنَّاسُ فِي عِرْفَانِ صُورَتِهِ   قَالُوا اَسُقْمٌ بِهِ اَمْ بِٱلنَّكَالِ رُمِي

المساواة

بِٱلْمَوْتِ سَاوَى ٱلْمَلَا اَمَّا قِيَامَتُهُ   فَاَوْضَحَتْ قُدْرَةَ ٱللَّاهُوتِ كَٱلْعَلَمِ

التوهيم

تَوْهِيمُ قَلْبٍ جَلَتْ بُشْرَى قِيَامَتِهِ   جَلَّتْ بِنَصْرٍ وَعَزَّتْ سَاعَةَ ٱلْغُمَمِ

الجناس الكامل

وَبَعْدَمَا قَدْ قَضَى فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ اِلَى م   ٱلْعُلَا ٱرْتَقَى ذَا ٱلْجَمِيلُ ٱلْكَامِلُ ٱلشِّيَمِ

الانسجام

وَمِنْ لَدُنْهُ ٱلْمُعَزِّي حَلَّ مُنْسَجِمًا   عَلَى تَلَامِيذِهِ كَٱلْأَلْسُنِ مِنْ ضَرَمِ

التسهيم

تَسَهَّمُوا ٱلْاَرْضَ لِلْبُشْرَى فَقَالَ لَهُمْ   وَتَلْمِذُوا عَمِّدُوا كُلًّا مِنَ ٱلْاُمَمِ

التمكين

جَالُوا بِتَمْكِينِ عَزْمٍ فِي بِشَارَتِهِمْ   وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْذِيبٍ وَسَفْكِ دَمِ

الجناس المركب المجموع

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ حُبّـاً كَمَالِهِمِ ... وَجَمْعُ تَرْكِيبِ فَضْلٍ فِي كَمَالِهِمِ

الإرداف

وَارْدَفُوا الْعَزْمَ بَأْساً اسْكَنُوهُ مُحَالَ ... م الْحُبِّ فِي السَّـيْرِ لِلْبُشْرَى بِرَبِّهِمِ

الاتساع

بِيضُ الْمَفَارِقِ بَلْ طُهْرُ النُّفُوسِ هُمُ ... وَبِاتِّسَاعِ الْحِجَى فَازُوا بِقَصْدِهِمِ

الاستتباع

يَسْتَتْبِعُونَ بِمَحْضِ النُّصْحِ فِعْلَ هُدًى ... وَيَحْفَظُونَ تُقَاهُمْ حِفْظَ دِينِهِمِ

المردَّد

وَمِنْ مُرَدَّدِ إِنْذَارٍ حَكَوْهُ فَذُو ... م الْهَوَى هَوَى كَذَاكَ الْعَابِدُ الصَّنَمِ

الترصيع

هُمْ رَصَّعُوا أَدَباً مِنْ دُرِّ لَفْظِهِمِ ... كَمْ أَبْدَعُوا خُطَباً فِي سِرِّ وَعْظِهِمِ

ايتلاف اللفظ مع الوزن

تَآلَفَ اللَّفْظُ مَعْ وَزْنٍ بِمَدْحِهِمِ ... لِرَبِّهِمْ ضِمْنَ نَظْمٍ فِيهِ مُنْسَجِمِ

ايتلاف اللفظ مع المعنى

اللَّفْظُ فِي الْمَدْحِ مَعْ مَعْنَاهُ مُؤْتَلِفٌ ... فَلِلْمَعَانِي تَرَى الْأَلْفَاظَ كَالْخَدَمِ

الفرائد

وَكَمْ مِنْ فَرَائِدِ دُرٍّ فِيهِ قَدْ نَظَمُوا ... عِقْدَ النَّشِيدِ فَاعْجَبْ بِانْتِظَامِهِمِ

ايتلاف المعنى مع الوزن

تُؤَلِّفُ الْوَزْنَ وَالْمَعْنَى نَشَائِدُهُمْ ... صَحِيحَـةً عَذْبَةً فِي اللَّحْنِ وَالنَّغَمِ

التسميط

تَسْمِيطُهُمْ دُرَراً أَضْحَى بِهِ غُرَراً ... أَمْسَى لَنَا قَمَراً فِي لَيْلَةِ الْغُسَمِ

ايتلاف اللفظ مع اللفظ

وَٱللَّفظُ لِلحَمدِ فِي ٱلأَفوَاهِ مُؤتَلِفٌ   مَعْ لَفظِ مَدحٍ بَدَا مِنْ أَلسُنِ ٱلدِّيَمِ

الابداع

إِبدَاعُ نَظمِهِمِ دَمعِي جَلَا وَحَلَا   ايدَاعُ نَثرِهِمِ سَمعِي كَمُنتَظِمِ

التفريع

مَا نَسمَةٌ حَمَلَت مِسكًا لَطَائِفُهَا   يَومًا بِأَطيَبَ مِنْ تَفرِيعِ فَضلِهِمِ

المدح في معرض الذم

فِي مَعرِضِ ٱلذَّمِّ مَدحًا قَد خَصَصتُ بِهِمْ   لَا عَيبَ فِيهِمْ سِوَى ٱلإِيفَاءِ بِٱلذِّمَمِ

الجناس المرفل

وَبِٱلأَيَادِي أَيَادِيهِمْ سَمَتْ كَرَمًا   فَرَاحَ يَرفُلُ بِٱلإِثرَاءِ ذُو ٱلعَدَمِ

الكناية

تَزَاحُمٌ لِعُفَاةٍ يُسرِعُونَ الَى   فِرَاتِهِمْ ذَا يُكَنِّي عَنْ سَخَائِهِمِ

التوزيع

عَلَى ٱلعُفَاةِ جَمِيعًا وَزَّعُوا نِعَمًا   فَعَادَ أَعوَزُهُمْ بِٱلعِزِّ وَٱلعِظَمِ

الاشتراك

سَادُوا بِصَدرٍ غَدَا بِٱلعِزِّ مُشتَرِكًا   صَدرِ ٱلجُلُوسِ عَلَى كُرسِي قَضَائِهِمِ

الموازنة

مُوَازِنٍ وَاتِنٍ مُستَركَنٍ حَسَنٍ   مُستَعلِنٍ فَاتِنٍ مُستَمكِنٍ فَخِمِ

المؤتلف والمختلف

فَجَمعُ مُؤتَلِفٍ فِيهِمْ وَمُختَلِفٍ   حُكمًا وَفَضلًا فَسِمعَانُ بِذَاكَ سُمِي

الايضاح

مَا بَينَهُمْ صَخرَةٌ لِلحَقِّ مُوضِحَةٌ   بَنَى ٱلمَسِيحُ عَلَيهَا بَيتَ جَمعِهِمِ

الطاعة والعصيان

مَنْ يُطِعْ حُكْمَهُ يُرْحَمْ لَدَى شَجَبٍ ... وَمَنْ عَصَى أَمْرَهُ يُحْرَمْ مِنَ ٱلنِّعَمِ

حسن النسق

نَثْرِي يُنَاسِقُهُمْ شِعْرِي يُطَابِقُهُمْ ... ثَغْرِي يُوَافِقُهُمْ فِي مَدْحِ رَبِّهِمِ

التجزئة

أَرْبَيْتُ فِي هَمِّي جَزَّأْتُ فِي كَلِمِي ... رَوَّيْتُ فِي قَلَمِي أَرْوَيْتُ كُلَّ ظَمِي

المتوازن

تَوَازَنَتْ حِكَمِي حَمْدًا لِمُنْتَسِمِ ... مُلَازِمًا مَدْحَهُ نَظْمًا بِمُنْسَجِمِ

التسجيع

تَسْجِيعُ مُنْتَظِمِي مَدْحًا حَلَا بِفَمِي ... حَاكَيْتُ فِي رَنَمِي ٱلشُّحْرُورَ بِٱلنَّغَمِ

الاتفاق

يَسُوعُ وَٱسْمُهُ فِي تَخْلِيصِنَا ٱتَّفَقَا ... فَهْوَ ٱلْمُخَلِّصُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِقَمِ

الاعتراض

فَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْنَا فِي عِبَادَتِهِ ... وَهْوَ ٱلْإِلٰهُ وَمَنْ يَعْبُدْهُ يَعْتَصِمِ

العنوان

بِهِ ٱلسَّفِينَةُ نَجَّتْ نُوحَ وَهْيَ غَدَتْ ... عُنْوَانَ بِيعَتِهِ تُوقِي مِنَ ٱلْعَرِمِ

الترشيح

فَحَلَّ مَرْكَبَ تِيهٍ حِينَ رَكَّبَهَا ... فَكَمْ تَرَشَّحَ مِنْهَا ٱلرُّشْدُ فِي ٱلظُّلَمِ

التلميح

تَلْمِيحُ تَعْلِيمِهَا ذَاكَ ٱلسِّرَاجُ بِهِ ... يُهْدَى وَفِي ٱلسُّرْجِ إِرْشَادٌ إِلَى ٱللَّقَمِ

التتميم

تَتْمِيمَ سِرِّ ٱلْفِدَا وَٱلْحُبِّ سَلَّمَهَا ... يَا سَعْدَهَا وَٱضْمَحَلَّ ٱلْبُؤْسُ بِٱلنِّعَمِ

التصريع

تَصْرِيعُ أَبْوَابِهَا يُوقِي مِنَ الْخَصِمِ فَالْمَرْءُ دَاخِلَهَا كَالْمَرْءِ فِي الأُطُمِ

التجريد

يَنَالُ صَوْبَ الْحَيَا مِنْ بَسْطِ رَاحَتِهَا مَنْ قَدْ تَجَرَّدَ عَنْ كُفْرٍ بِرَبِّهِمِ

المعمّى

حَوَى أَرِيجَ بَهَارٍ قَلْبُهُ وَسَمَا مِنْ شَمِّهِ يَهْتَدِي مَنْ عَنْ غِنَاهُ عَمِي

التعريض

تَطْوِيلُ تَعْرِيضِ هَاجِيهَا يُعَظِّمُهَا وَالْبُغْضُ لِلْحَقِّ مَكْرُوهٌ كَذِي أَضَمِ

التنكيت

دَعِ الْمُنَكِّتَ إِذْ فِي ذِي الْكَنِيسَةِ وَحْـ ـدَهَا نَجَاةٌ مِنَ الطُّوفَانِ وَالضَّرَمِ

التوشيح

فَالرَّبُّ وَشَّحَهَا مِنْ عِصْمَةٍ حُلَلًا أَوْقَتْ خُطَى حُكْمِهَا مِنْ زَلَّةِ الْقَدَمِ

تنسيق الصفات

فَانْجُدْ لَهُ عِنْدَ تَنْسِيقِ الصِّفَاتِ وَقُلْ رَبٌّ إِلٰهٌ قَدِيرٌ كَامِلُ الشِّيَمِ

التعطف

فَاخْتَارَ ذَاكَ الصَّفَا رَأْسًا وَقَالَ لِذَا الْمُخْتَارِ كُنْ رَاعِيًا وَاعْطِفْ عَلَى الْغَنَمِ

العقد

مَهْمَا تَحُلُّ بِأَرْضٍ يَنْحَلِلْ بِسَمَا وَمَا رَبَطْتَ بِعَقْدِ الرَّبْطِ مِنْكَ رُمِي

التعليل

لَوْ لَمْ يَجِئْنَا بِتَعْلِيلٍ تَجَسُّدُهُ مِنْ مَرْيَمٍ مَا شُفِينَا مِنْ ضَنَى السَّقَمِ

المجاز

هِيَ الْمَجَازُ لِإِدْرَاكِ الشِّفَاءِ هِيَ م الْعَرْشُ الرَّفِيعُ وَبُرْجُ الْبَارِئِ النَّسِمِ

المبالغة

بِاخَلَاصُ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ ... أَرَدْتَ بَالِغْ وَقُلْ بَلْ سَائِرِ الْأُمَمِ

التوليد

لِكُلِّ هَوْلٍ طَرَا تُرْجَى شَفَاعَتُهَا ... نَالَ الْعِبَادُ بِهَا تَوْلِيدَ أَمْنِهِمِ

الاغراق

لَوْ تَابَ إِبْلِيسُ يَبْغِي مَاءَ نِعْمَتِهَا ... لَأَغْرَقَتْهُ بِتَيَّارٍ مِنَ النِّعَمِ

الغلوّ

فَقَطْرَةٌ مِنْ نَدَاهَا لَا غُلُوَّ بِهَا ... تَكَادُ تُحْيِي رَمِيمًا صَارَ كَالْعَدَمِ

التضمين

وَخَلْقُهَا فَاقَ فِي حُسْنٍ تَضَمَّنَهُ ... وَإِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

المدح المفرّغ

يَسْمُو الْمَدِيحُ بِتَفْرِيغٍ لِطَلْعَتِهَا ... سُمُوَّ خُلْقٍ حَوَتْ بِالْحِلْمِ مُلْتَئِمِ

التعديد

تَعْدِيدُ أَفْضَالِهَا يُبْدِي لِسَامِعِهِ ... طُهْرًا وَبِرًّا وَحِلْمًا مَعْ عُلَى الشِّيَمِ

التهذيب والتأديب

تَهْذِيبُ تَأْدِيبِهَا قَدْ زَادَنَا عَجَبًا ... بِصَبْرِهَا حِينَ تَعْذِيبِ ابْنِهَا الْعَلَمِ

التفصيل

فِي شَرْحِ آلَائِهِ التَّفْصِيلُ مُتَّسِعٌ ... يَكِلُّ عَنْ شَرْحِهَا ذُو الْفَهْمِ وَالْحِكَمِ

ائتلاف المعنى مع المعنى

وَصْلٌ وَفَضْلٌ لَهُ لِلْمُعْنَيَيْنِ غَدَا ... تَآلُفٌ نَحْوَ صِدِّيقٍ وَمُجْتَرِمِ

التوكيد

لَهُ الْقَضَاءُ بِتَوْكِيدٍ يَدِينُ بِهِ ... أَمَا تَعِي أَنَّهُ الدَّيَّانُ لِلْأُمَمِ

صناعة التنويع

تَنْوِيعُ سَطْوَتِهِ يَوْماً يُحَاكِمُهُمْ   كَاللَّيْثِ كَالسَّيْفِ كَالْجَبَّارِ كَالضَّرِمِ

المشاكلة

يَجْزِي إِسَاءَةَ شَانِيهِ بِسَيِّئَتِهِ   يُشَاكِلُ الْخَيْرَ خَيْرًا حُفَّ بِالْكَرَمِ

مجنح القلب

مُدْنٍ لِصَفْحٍ جَنَاحَ الْقَلْبِ عَاطِفَهُ   إِذَا رَأَى تَوْبَةً وَالدَّمْعُ فِي نَدَمِ

الجمع مع التفريق

فِي وَجْهِهِ النُّورُ لِلْأَصْحَابِ يَشْمَلُهُمْ   وَلِلْعِدَا النَّارُ فِي تَفْرِيقِ جَمْعِهِمِ

مراعاة النظير

وَجْهُ السَّمَاءِ بِهِ كَالْبَرْقِ مُلْتَمِعٌ   رَاعَى النَّظِيرَ بِوَجْهٍ لِلظِّبَاءِ سَمِي

التفريق

قَالُوا هُوَ الْمَلْكُ وَالتَّفْرِيقُ يَظْهَرُ لِي   فَذَاكَ فَانٍ وَهٰذَا غَيْرُ مُنْعَدِمِ

السلب والايجاب

لَا يُوجِبُ السَّلْبَ فِي إِعْزَازِ عُصْبَتِهِ   وَيُوجِبُ الذُّلَّ لِلْأَشْرَارِ فِي النِّقَمِ

المتقارب

أَرْجُو التَّقَارُبَ مِنْ أَعْدَادِ زُمْرَتِهِ   لَا مِنْ عَدِيدِ الْعِدَا فِي الْحَشْرِ وَالزَّحَمِ

حسن البيان

حُسْنُ الْبَيَانِ بِنُورٍ مِنْهُ أَرْشَدَنِي   إِلَى التَّقَرُّبِ مِنْ أُولَئِكَ الْخَدَمِ

المزاوجة

إِذَا تَزَاوَجَ هَمِّي وَالْتَجَأْتُ لَهُ   بِالْمَدْحِ فُزْتُ وَوَقَّانِي مِنَ الْغُمَمِ

الاستعانة

مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْماً وَاسْتَعَنْتُ بِهِ   إِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

التقسيم

فَالْكَوْنُ قَدْ عَمَّهُ تَقْسِيمُ أَنْعُمِهِ   جِنْسًا وَنَوْعًا وَفَرْدًا وَهُوَ فِي شَمَمِ

التمثيل

تُرْبِي عَلَى السَّيْلِ فِي التَّمْثِيلِ نِعْمَتُهُ   شَتَّانَ مَا بَيْنَ طَلٍّ وَالْحَيَا الْعَرِمِ

نفي الشيء بايجابه

لَا يَنْتَفِي الْجُودُ مِنْ إِيجَابِهِ أَبَدًا   وَلَا يَشِينُ بِمَنٍّ رَوْنَقَ النِّعَمِ

مختوم الطرفين

مِنْ فَضْلِهِ أَرْتَجِي تَخْتِيمَهُ طَرَفِي   قَضِيَّتِي فِي الْقَضَا بِالْمَجْدِ وَالْعِظَمِ

التضمين المزدوج

تَضْمِينُ حَمْدِي لَهُ لِلْفَضْلِ مُزْدَوِجًا   عَقْلًا وَنَقْلًا جَنَانِي جَاءَهُ وَفَمِي

الموارد

مَوَارِدَ الْفِكْرِ فِي مَدْحِ الْأَزِمَّةِ   لِمَنْ غَدَا لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

التطريز

تَطْرِيزُ حَمْدِي بِمَدْحِي فِيهِ مُلْتَحِمٌ   يَا حُسْنَ مُلْتَحِمٍ يَا حُسْنَ مُلْتَحِمِ

الاحتراس

إِلَيْكَ جِئْتُ أَيَا مَوْلَايَ مُنْسَحِقًا   قَلْبًا وَمُحْتَرِسًا خُذْنِي مِنَ الْخَدَمِ

المصغر

قُلَيْسَتِي مِنْ زُلَيْلَاتٍ جَنَتْ صَغُرَتْ   وَلِيَ عُزَيْمِي مُهَيْزِيًا وَلَمْ يَقُمِ

التدبيج

فَأَزْرَقَ أَبْيَضُ وَجْهِي حِينَ دَبَّجَهُ   سَوَادُ إِثْمِي بِصِبْغٍ فِيهِ مُتَّسِمِ

المضارع

وَبِاضْطِرَابِ جَنَانٍ وَاضْطِرَامِ حَشًا   نَازَعَتْ ذَا زَلَّةٍ فِي يَوْمِ مُحْتَكَمِ

التصريف

فَالْقَلبُ حرَّقَهُ التَّصرِيفُ فِي عِلَلٍ   وَالْجَفْنُ قَرَّحَهُ التَّــدْمِيعُ فِي نَدَمِ

براعة الطلب

بَرَاعَتِي فِي مَدِيحِي مُنْتَهَى طَلَبِي   فَأَسْأَلْ سَخَاكَ فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى الْكَلِمِ

الادماج

أَدْمَجْتُ فِي مَدْحِهِ شَكْوَايَ مِنْ زَلَلِي   وَعَسْجَدُ الْخَدِّ مِنْ ذَا الدَّمْعِ كَالْعَنَمِ

الحذف

أَرُومُ مِنْهُ انْتِصَارًا حَاذِفًا هَلَعًا   وَعَاضِدًا وَقْتَ هَوْلِ الْحَشْرِ وَالنِّقَمِ

التاريخ

بِهِ الْآثِمُ جَنَى بِرًّا فَقُلْتُ بِهِ   مُذْ أَرَّخُوهُ لَنَا بِالْبِرِّ مُغْتَنِمِي *

حسن الختام

بِهِ غَدَا فِي عَلَاءٍ حُسْنُ مُبْتَدَإِي   هَبْنِي بِهِ يَا إِلٰهِي حُسْنَ مُخْتَتَمِي

ختام الختام

وَأَخْتِمُ خِتَامِي بِأَنْ أَحْظَى بِمَطْلَعِكَ   م الْبَاهِي بِجَذْرِ السَّنَى يَا مُرْشِدَ الْأُمَمِ



* قولهُ: (لنا بالبر مغتنمي) تاريخ بحساب الجُمَّل للسنة التي فيها نظمت هذه البديعيَّة وهي سنة ١٨٥٨

البحث السادس

في المطابقة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٩٤ من علم الادب)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ هُوَ فِي ٱلْمَعَانِي ضِدُّ ٱلتَّجْنِيسِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ لِأَنَّ ٱلتَّجْنِيس هُوَ اَنْ يَتَّحِدَ ٱللَفْظُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَيَان ضِدَّيْنِ . وَقَدْ اَجْمَعَ اَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى اَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ فِي ٱلْكَلَامِ هِيَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ . وَخَالَفَهُمْ فِي ذٰلِكَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ ٱلْمُطَابَقَةُ اِيرَادُ لَفْظَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلصِّيغَةِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلتَّجْنِيسُ بِعَيْنِهِ . غَيْرَ اَنَّ ٱلْأَسْمَاءَ لَا مُشَاحَّةَ فِيهَا اِلَّا اِذَا كَانَتْ مُشْتَقَّةً . وَلْنَنْظُرْ نَحْنُ فِي ذٰلِكَ وَهُوَ اَنْ نَكْشِفَ عَنْ اَصْلِ ٱلْمُطَابَقَةِ فِي وَضْعِ ٱللُّغَةِ وَقَدْ وَجَدْنَا ٱلطِّبَاقَ فِي ٱللُّغَةِ مِنْ طَابَقَ ٱلْبَعِيرُ فِي سَيْرِهِ اِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ مَوْضِعَ يَدِهِ وَهٰذَا يُؤَكِّدُ مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ لِاَنَّ ٱلْيَدَ غَيْرُ ٱلرِّجْلِ لَا ضِدُّهَا وَٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يَقَعَانِ فِيهِ وَاحِدٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْمَعْنَيَانِ يَكُونَانِ مُخْتَلِفَيْنِ وَٱللَّفْظُ ٱلَّذِي يَجْمَعُهُمَا وَاحِدٌ . فَقُدَامَةُ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابَقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلِٱسْمُ مُشْتَقًّا مِمَّا سُمِّيَ بِهِ وَذٰلِكَ مُنَاسِبٌ وَوَاقِعٌ فِي مَوْقِعِهِ اِلَّا اَنَّهُ جَعَلَ لِلتَّجْنِيسِ ٱسْمًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُطَابَقَةُ وَلَا بَأْسَ بِهِ اِلَّا اِنْ كَانَ مِثْلَهُ بِٱلضِّدَّيْنِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ فَاِنَّهُ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ ٱلْأَصْلَ ٱلَّذِي

اَصَّلَهُ بِاَلْمِثَالِ اَلَّذِي مَثَّلَهُ . وَاَمَّا غَيْرُهُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةِ فَاِنَّهُمْ سَمَّوْا هٰذَا اَلضَّرْبَ مِنَ اَلْكَلَامِ مُطَابِقًا لِغَيْرِ اَشْتِقَاقٍ وَلَا مُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُسَمَّاهُ . هٰذَا اَلظَّاهِرُ لَنَا مِنْ هٰذَا اَلْقَوْلِ اِلَّا اَنْ يَكُونُوا عَلِمُوا لِذٰلِكَ مُنَاسَبَةً لَطِيفَةً لَمْ نَعْلَمْهَا نَحْنُ . وَلْنَرْجِعْ اِلَى ذِكْرِ هٰذَا اَلْقِسْمِ مِنَ اَلتَّأْلِيفِ وَاِيضَاحِ حَقِيقَتِهِ فَنَقُولُ : اَلْاَلْيَقُ مِنْ حَيْثُ اَلْمَعْنَى اَنْ يُسَمَّى هٰذَا اَلنَّوْعُ اَلْمُقَابَلَةَ لِاَنَّهُ لَا يَخْلُو اَلْحَالُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : اِمَّا اَنْ يُقَابَلَ اَلشَّيْءُ بِضِدِّهِ اَوْ يُقَابَلَ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . وَلَيْسَ لَنَا وَجْهٌ ثَالِثٌ . (فَاَمَّا اَلْاَوَّلُ) وَهُوَ مُقَابَلَةُ اَلشَّيْءِ بِضِدِّهِ كَالسَّوَادِ وَاَلْبَيَاضِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا فَاِنَّهُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا مُقَابَلَةٌ فِي اَللَّفْظِ وَاَلْمَعْنَى وَاَلْآخَرُ مُقَابَلَةٌ فِي اَلْمَعْنَى دُونَ اَللَّفْظِ . اَمَّا اَلْمُقَابَلَةُ فِي اَللَّفْظِ وَاَلْمَعْنَى فَكَقَوْلِهِ : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا . فَقَابَلَ بَيْنَ اَلضَّحِكِ وَاَلْبُكَاءِ وَاَلْقَلِيلِ وَاَلْكَثِيرِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ : لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ . وَهٰذَا مِنْ اَحْسَنِ مَا يَجِيءُ فِي هٰذَا اَلْبَابِ . وَقَالَ اَيْضًا : خَيْرُ اَلْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ . وَمِنَ اَلْحَسَنِ اَلْمَطْبُوعِ اَلَّذِي لَيْسَ بِمُتَكَلَّفٍ قَوْلُ عَلِيٍّ لِعُثْمَانَ : اِنَّ اَلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ وَاَلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ وَاَنْتَ رَجُلٌ اِنْ صُدِقْتَ سَخِطْتَ وَاِنْ كُذِبْتَ رَضِيتَ . فَقَابَلَ اَلْحَقَّ بِاَلْبَاطِلِ وَاَلثَّقِيلَ اَلْمَرِيَّ بِاَلْخَفِيفِ اَلْوَبِيِّ وَاَلصِّدْقَ بِاَلْكَذِبِ وَاَلسُّخْطَ بِاَلرِّضَا وَهٰذِهِ خَمْسُ مُقَابَلَاتٍ فِي هٰذِهِ اَلْكَلِمَاتِ اَلْقِصَارِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ لَمَّا قَالَ اَلْخَوَارِجُ : (لَا حُكْمَ اِلَّا لِلّٰهِ تَعَالَى) : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ اُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ .

وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ احضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَقْتُلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا ٱسْمُكَ . قَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . قَالَ بَلْ أَنْتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ . وَقَدْ كَانَ ٱلْحَجَّاجُ مِنَ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْمَعْدُودِينَ وَفِي كَلَامِهِ هٰذَا مُطَابَقَةٌ حَسَنَةٌ فَإِنَّهُ نَقَلَ ٱلِٱسْمَيْنِ إِلَى ضِدِّهِمَا فَقَالَ : فِي (سَعِيدٍ) شَقِيٌّ . وَفِي (جُبَيْرٍ) كُسَيْرٌ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ . وَمِمَّا وَجَدْتُهُ فِي لُغَةِ ٱلْفُرْسِ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُبَاذُ أَحَدُ مُلُوكِهِمْ قَالَ وَزِيرٌ : حَرَّكَنَا بِسُكُونِهِ . وَأَوَّلُ كِتَابِ ٱلْفُصُولِ لِبُقْرَاطَ فِي ٱلطِّبِّ قَوْلُهُ : ٱلْعُمْرُ قَصِيرٌ وَٱلصِّنَاعَةُ طَوِيلَةٌ . (وَأَمَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلْأَضْدَادِ) فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ٱلْمُقَنَّعِ ٱلْكِنْدِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى   وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدَا

فَقَوْلُهُ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . بِمَعْنَى قَوْلِهِ : كَثُرَ مَالِي فَهُوَ إِذًا مُقَابَلَةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْأَضْدَادِ ٱللَّفْظِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ نَحْوُ : قَامَ وَقَعَدَ . وَحَلَّ وَعَقَدَ . وَقَلَّ وَكَثُرَ . فَإِنَّ ٱلْقِيَامَ ضِدُّ ٱلْقُعُودِ . وَٱلْحَلَّ ضِدُّ ٱلْعَقْدِ . وَٱلْقَلِيلَ ضِدُّ ٱلْكَثِيرِ . فَإِذَا تُرِكَ ٱلْمُفْرَدُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَتُوُصِّلَ إِلَى مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ كَانَ ذٰلِكَ مُقَابَلَةً مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَقَوْلِ هٰذَا ٱلشَّاعِرِ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . فِي مَعْنَى (كَثُرَ مَالِي) وَهٰذِهِ مُقَابَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لَا لَفْظِيَّةٌ فَٱعْرِفْ ذٰلِكَ . (وَأَمَّا مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . فَهِيَ ضَرْبَانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنْ لَا يَكُونَ مِثْلًا . (وَٱلْآخَرُ) أَنْ

يَكُونَ مِثْلًا . فَٱلضَرْبُ ٱلْاَوَّلُ يَتَفَرَّعُ اِلى فَرْعَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ بِهِ وَٱلْمُقَابَلِ نَوْعُ مُنَاسَبَةٍ وَتَقَارُبٍ . كَقَوْلِ قُرَيْطِ ٱبْنِ أُنَيْفٍ :

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ اَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ اِسَاءَةِ اَهْلِ ٱلسُّوءِ اِحْسَانَا

فَقَابَلَ ٱلظُّلْمَ بِٱلْمَغْفِرَةِ وَلَيْسَ هُوَ ضِدًّا لَهَا . اِلَّا اَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْمَغْفِرَةُ قَرِيبَةً مِنَ ٱلْعَدْلِ حَسُنَتِ ٱلْمُقَابَلَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلظُّلْمِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) مَا كَانَ بَيْنَ ٱلْمُقَابَلِ وَٱلْمُقَابَلِ بِهِ بُعْدٌ وَذَاكَ مِمَّا لَا يَحْسُنُ ٱسْتِعْمَالُهُ . كَقَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

لِمَنْ يَطْلُبُ ٱلدُّنْيَا اِذَا لَمْ يُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ اَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

فَاِنَّ ٱلْمُقَابَلَةَ ٱلصَّحِيحَةَ بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُبْغِضِ لَا بَيْنَ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمُجْرِمِ وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِهٰذَا ٱلضَّرْبِ ضَرْبٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسَمَّى ٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي وَكَانَ يَنْبَغِي اَنْ نَعْقِدَ لَهُ بَابًا مُفْرَدًا لٰكِنْ اِذْ رَاَيْنَاهُ يَنْظُرُ اِلَى ٱلتَّقَابُلِ مِنْ وَجْهٍ وَصَلْنَاهُ بِهِ . اَمَّا ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي فَهُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى مَعَ اَخِيهِ لَا مَعَ ٱلْاَجْنَبِيِّ . مِثَالُهُ اَنْ تَذْكُرَ وَصْفًا مِنَ ٱلْاَوْصَافِ وَتَقْرُنَهُ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ وَيَلْتَئِمُ بِهِ فَاِنْ ذَكَرْتَهُ مَعَ مَا يَبْعُدُ مِنْهُ كَانَ ذٰلِكَ قَدْحًا فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَاِنْ كَانَ جَائِزًا . وَقَدْ رَاَيْتُ اَبَا نُوَاسٍ يَقَعُ فِي هٰذَا ٱلْغَلَطِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ فِي وَصْفِ ٱلدِّيكِ :

لَهُ ٱعْتِدَالٌ وَٱنْتِصَابُ قَدٍّ ... وَجِلْدُهُ يُشْبِهُ وَشْيَ ٱلْبُرْدِ
كَاَنَّهَا ٱلْهُدَّابُ فِي ٱلْفِرِنْدِ ... مُحَدَّوْدِبُ ٱلظَّهْرِ كَرِيمُ ٱلْجَدِّ

فَإِنَّهُ ذَكَرَ ٱلظَّهْرَ وَقَرَنَهُ بِذِكْرِ ٱلْجِدِّ وَهٰذَا لَا يُنَاسِبُ هٰذَا لِأَنَّ ٱلظَّهْرَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْجَدَّ فِي ٱلنَّسَبِ. وَأَمَّا (ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي) فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَبَانِي ٱلْأَلْفَاظِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ:

فَٱذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ يُثْنِي عَلَيْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْأَوْعَارُ

وَٱلْأَحْسَنُ أَنْ: يُقَالُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ أَوِ ٱلسُّهُولُ وَٱلْأَوْعَارُ. لِيَكُونَ ٱلْبِنَاءُ ٱللَّفْظِيُّ وَاحِدًا أَيْ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظَانِ وَارِدَيْنِ عَلَى صِيغَةِ ٱلْجَمْعِ أَوِ ٱلْإِفْرَادِ. وَإِذَا أَنْصَفْنَا هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ وَجَدْنَا ٱلنَّاثِرَ مُطَالَبًا بِهِ دُونَ ٱلنَّاظِمِ لِمَكَانِ إِمْكَانِهِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ. (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) هُوَ فِي مُقَابَلَةِ ٱلشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَهُوَ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمُفْرَدِ بِٱلْمُفْرَدِ. (وَٱلْآخَرُ) مُقَابَلَةُ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ. (ٱلْفَرْعُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِهِ: نَسُوا ٱللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ. وَقَدْ رُوعِيَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَثِيرًا فَإِذَا وَرَدَ فِي صَدْرِ آيَةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ كَانَ جَوَابُهُ مُمَاثِلًا كَقَوْلِهِ: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ غَيْرَ جَوَابٍ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْمُرَاعَاةَ ٱللَّفْظِيَّةَ. (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي فِي مُقَابَلَةِ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ) اِعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْجُمْلَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُسْتَقْبَلَةً قُوبِلَتْ بِمُسْتَقْبَلَةٍ. وَإِنْ كَانَتْ مَاضِيَةً قُوبِلَتْ بِمَاضِيَةٍ وَرُبَّمَا قُوبِلَتِ ٱلْمَاضِيَةُ بِمُسْتَقْبَلَةٍ وَٱلْمُسْتَقْبَلَةُ بِٱلْمَاضِيَةِ إِذَا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ: قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي. فَإِنَّ هٰذَا تَقَابُلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى وَلَوْ كَانَ ٱلتَّقَابُلُ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لَقَالَ: وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لَهَا

البحث السابع

في حقيقة التجنيس

(عن كتاب جنان الجناس للصفدي وعن الشريشي وابن الاثير)

(راجع صفحة ١١٨ من علم الادب)

اعلَمْ انَّ ٱلتجنيسَ غرَّةٌ شادخةٌ في وَجه ٱلكلامِ وقد تصرَّف ٱلعُلَماء مِنْ ارباب هٰذِهِ ٱلصناعة فيهِ فغرَّبوا وشرَّقوا لاسيما ٱلمحدَثينَ مِنهم. وصنَّفَ ٱلناسُ فيهِ كُتُبًا كثيرةً وجعلوهُ ابوابا متعدِّدةً وٱختلفوا في ذلكَ وادخلوا بعضَ تلكَ ٱلأبوابِ في بعض . وإنَّما سُمِّي هٰذا ٱلنوعُ مِنَ ٱلكلامِ مجانِسًا لِأنَّ حروفَ ألفاظِهِ يكونُ تركيبُها مِنْ جنسٍ واحِدٍ . امَّا حقيقتُهُ فٱعلَمْ انَّ اربابَ ٱلبلاغةِ عرَّفوهُ بحدودٍ ٱختلفَتْ اقوالهم فيها . فقالَ ٱلرُّمَّانيُّ : هوَ بيانُ ٱلمعاني بانواعٍ مِنَ ٱلكلامِ يجمعُها اصلٌ واحِدٌ مِنَ ٱللُّغةِ . وقالَ قُدامةُ : هوَ ٱشتراكُ ٱلمعاني في ألفاظٍ متجانسة على جهةِ ٱلاشتقاق . وقالَ ٱبنُ ٱلمُعتزّ : هوَ انْ تجيءَ بكلمةٍ تجانِسُ اختَها . وقالَ ٱبنُ ٱلاثيرِ ٱلجزريُّ : ٱلجناسُ هوَ انْ يكونَ ٱللفظُ واحِدا وٱلمعنى مختلِفًا. وقال بدرُ ٱلدينِ ٱبنُ ٱلنحويَّةِ في ضوءِ ٱلمصباحِ : هوَ انْ يؤتَى بمتماثلَيْنِ في ٱلحروفِ او بعضِها متغايرَيْنِ في اصلِ ٱلمعنى في غيرِ ردِّ ٱلعجزِ على ٱلصدرِ . فهٰذا جملةُ ما حضرَني مِنْ حدودِ ٱلقومِ عِندَ تعليقِ هٰذا ٱلفصلِ .

(قلتُ) اما حدُّ ٱلرُّمَّانيِّ فإنَّهُ اسلَمُ مِمَّا بعدَهُ لكنَّهُ غيرُ جامعٍ

لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ جِنَاسُ ٱلتَّصْحِيفِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْمُرَكَّبِ وجِنَاسُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْجِنَاسُ ٱلْمُطَمِّعُ . وَاَمَّا حَدُّ قُدَامَــةَ فَاِنَّهُ عَرَّفَ ٱلشَّيْءَ بِنَفْسِهِ وَهٰذَا غَيْرُ جَائِزٍ لِاَنَّ قَوْلَهُ : (فِي اَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ) يُفْضِي اِلى ٱلدَّوْرِ لِاَنَّنَا بِهٰذَا لَا نَعْرِفُ ٱلْمُتَجَانِسَ اِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْجِنَاسِ وَلَا نَعْرِفُ ٱلْجِنَاسَ اِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْمُتَجَانِسِ فَاَدَّى ذٰلِكَ اِلَى ٱلدَّوْرِ وَهُوَ مُحَالٌ . وَيُمْكِنُ ٱلْجَوَابُ عَنْهُ بِاَنْ يُقَالَ : اِنَّهُ مَا اَرَادَ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱلِاصْطِلَاحِ بَلِ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱللُّغَةِ اَيْ فِي ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ حَدٌّ مُضْطَرِبٌ اِذْ فِيهِ لَفْظٌ مُوهِمٌ وَٱلْحُدُودُ يُجْتَنَبُ فِيهَا مِثْـلُ ذٰلِكَ . وَقَوْلُهُ : (عَلَى جِهَةِ ٱلِاشْتِقَاقِ) يَخْرُجُ عَنْــهُ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ اِلَّا ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُشْتَقَّ . وَاَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَهُوَ اَيْضـاً تَعْرِيفٌ دَوْرِيٌّ وَذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحُـدُودِ وَٱلرُّسُومِ . وَاَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْاَثِيرِ فَهُوَ اَيْضاً غَيْرُ جَامِعٍ لِاَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ مِثْلُ ٱلْجِنَاسِ ٱلْمُزْدَوِجِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْجِنَــاسِ ٱلْخَطِّيِّ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمَعْنَوِيِّ عَلَى مَا سَيَظْهَرُ لَكَ عِنْدَ كَشْفِ كُلِّ مَاهِيَّـةٍ مِنْ اَنْوَاعِهِ . وَاَمَّا حَدُّ بَدْرِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلنَّحْوِيَّةِ فَاِنَّ قَوْلَهُ : (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَـلُ ٱلْمُمَاثِلَ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ لَفْظاً اَوْ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ يُخْرِجُ بِهِ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (اَوْ بَعْضِهَا) مُدْخِلٌ لِلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْمُخَالِفِ وَٱلِاشْتِقَاقِ . وَقَوْلُهُ : (مُتَغَايِرَيْنِ فِي اَصْلِ ٱلْمَعْنَى) لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِاَنَّ هٰذَا مَعْلُومٌ فِي قَوْلِهِ : (مُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ) اَيْ دُونَ مَعْنَاهُمَا لٰكِنْ فِيهِ زِيَادَةُ بَيَانٍ . وَقَوْلُهُ : (فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ

عَلَى ٱلصَّدْرِ) هٰذَا لَاحَاجَةَ إِلَيهِ وَلَا فَائِدَةَ فِي هٰذَا ٱلِاحْتِرَازِ كَمَا يَظْهَرُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ وَلَوْ زَادَ قَوْلَهُ: بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ صُورَتِهَا لَكَانَ أَجْوَدَ لِيَدْخُلَ فِيهِ ٱلْجِنَاسُ ٱلْخَطِّيُّ . وَٱلَّذِي ٱخْتَارُهُ أَنَا فِي رَسْمِ ٱلْجِنَاسِ أَنْ أَقُولَ : هُوَ ٱلْإِتْيَانُ بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ أَوْ زِيَادَةٍ فِي أَحَدِهِمَا أَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ نَظْمًا أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ . وَلَعَلَّ هٰذَا ٱلرَّسْمَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِمَّا ذُكِرَ . فَقَوْلِي (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمُلُ ٱلْمُمَاثِلَ لَفْظًا وَمَعْنًى. وَقَوْلِي : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ أَخْرَجَ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ زَيْدٌ . وَأَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلتَّامَّ كَقَوْلِكَ يَحْيَى يَحْيَا . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُرَكَّبَ كَقَوْلِكَ: نِعْمَتُهُ ذَاهِبَهْ . إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَهْ. وَقَوْلِي : (أَوْ بَعْضِهَا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطَمَّعَ كَقَوْلِكَ : ٱلْأَمْوَاهُ وَٱلْأَمْوَالُ . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُقَارِبَ كَقَوْلِكَ :ٱلْهُمُومُ عَلَى قَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَقَوْلِي :(أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْخَطِّيَّ كَقَوْلِكَ : لَا تُضِعْ يَوْمَكَ فِي نَوْمِكَ . وَقَوْلِي : (أَوْ زِيَادَةٍ) فِي أَحَدِهِمَا أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْأَحْجَارِ جَارٍ . وَقَوْلِي : أَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ: بِيضُ ٱلصَّحَائِفِ وَٱلصَّفَائِحِ . وَقَوْلِي (أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُغَايِرَ كَقَوْلِكَ : ٱغْتَنِمْ هُبَاتِ ٱلْهِبَاتِ . وَقَوْلِي : (أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ نَظْمًا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمَعْنَوِيَّ كَقَوْلِكَ: أَمْرٌ عَظِيمٌ تَظْهَرُ ٱللُّوثَةُ فِيهِ بِٱلْأَسَدِ . إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقُولَ :

(بِٱللَّيْثِ) ثُمَّ عدلتَ إِلى مَا يُرادِفُهُ وهُوَ ٱلاسَدُ . وَقَوْلِي : (نَظْمًا) إِعلَامٌ بِأَنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلجِنَاسِ إِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلنَّظْمِ دُونَ ٱلنَّثْرِ . وَتَظْهرُ عِلَّةُ هٰذَا فِي مَكَانِهِ . فَتَدَبَّرْ هٰذَا ٱلرَّسْمَ تَجِدْهُ مَا اخَلَّ بِنَوْعٍ مِنْ انْوَاعِ ٱلجِنَاسِ . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ : إِنَّ ٱلجِنَاسَ يَحْسُنُ إِذَا قَلَّ وَاتَى فِي ٱلْكَلَامِ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَلَا ٱسْتِكْرَاهٍ وَلَا بُعْدٍ وَلَا مَيْلٍ إِلَى جَانِبٍ . وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَيْهِ بِكَثْرَةِ ٱسْتِعْمَالِهِ إِلَّا مَنْ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ كَٱلنُّجُومِ ٱلزَّاهِرَةِ فِي أُفُقِ ٱلأَلْفَاظِ . وَإِذَا خَلَتْ بُيُوتُ ٱلأَلْفَاظِ مِنْ سُكَّانِ ٱلْمَعَانِي تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ ٱلأَطْلَالِ ٱلْبَالِيَةِ

البحث الثامن

في ذكر انواع التجنيس

إِعلَمْ انَّ انْوَاعَ ٱلجِنَاسِ كَثِيرَةٌ ٱقْتَصَرْنَا عَلَى ذِكْرِ اخَصِّهَا وَاوَّلُهَا ٱلجِنَاسُ (ٱلْمُرَكَّبُ) وَهُوَ انْ يَكُونَ احَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ كَلِمَةً مُفْرَدَةً وَٱلاُخْرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : فَٱلاولُ مَا تَشَابَهَ لَفظًا وَخطًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

عَضَّنَا ٱلدَهْرُ بِنَابِهْ   لَيتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهْ

وَٱلثاني مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ لفظًا لَا خطًا وَيسَمَّى ٱلمَفرُوقَ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لَا تَعرِضَنَّ عَلَى ٱلرُّوَاةِ قَصِيدَةً   مَا لَمْ تكُنْ بَالَغتَ فِي تَهْذِيبهَا

وَإِذَا عَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ   عَدُّوهُ مِنْكَ وَسَاوِساً تَهْذِي بِهَا

وَلِلْجِنَاسِ ٱلْمُرَكَّبِ نَوْعٌ يُسَمَّى (ٱلْمَرْفُوَّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ جُزْءاً مُسْتَقِلاً وَٱلْآخَرُ مُجَزَّأً مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى كَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ :

وَٱلْمَكْرَ مَهْمَا ٱسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ   لِتَقْتَنِيَ ٱلسُّؤْدَدَ وَٱلْمَكْرُمَهْ

وَقَوْلِهِ :

وَلَا تَلْهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَٱبْكِهِ   بِدَمْعٍ يُحَاكِي ٱلْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ

وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ ٱلْحِمَامَ وَوَقْعَهُ   وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَسُّفٍ وَتَعْقِيدٍ فِي ٱلتَّرْكِيبِ . وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُلَفَّقُ) وَحَدُّهُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ ٱلرُّكْنَيْنِ مُرَكَّباً مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُرَكَّبِ وَقَلَّ مَنْ أَفْرَدَهُ عَنْهُ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَكَمْ لِجِبَاهِ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ   مَجَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُذَيَّلُ وَٱللَّاحِقُ) . فَٱلْمُذَيَّلُ هُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفاً فِي آخِرِهِ فَصَارَ لَهُ كَٱلذَّيْلِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ   تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

عَذِيرِيَ مِنْ دَهْرٍ مُوَارٍ مُوَارِبٍ   لَهُ حَسَنَاتٌ كُلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وَقَدْ تَأْتِي ٱلزِّيَادَةُ فِي آخِرِ ٱلذَّيْلِ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي رِثَاءٍ :

فيالكَ مِنْ حَزمٍ وعَزمٍ طَواهُما ... جَديدُ الرَّدى تَحتَ الصَّفا والصَّفائحِ

وَأرقُّ ما سَمِعتُ فِي هٰذا ٱلبابِ قَولُ ٱلقائِلِ :

اِنَّ ٱلبُكاءَ هُوَ ٱلشِّفاءُ م مِنَ ٱلجَوى بَيْنَ ٱلجَوانِحْ

وَامَّا (ٱللاحِقُ) فَهوَ مَا اُبدِلَ فِي اَحدِ رُكنَيهِ حَرفٌ مِنْ غَيرِ مَخرَجِهِ كَقَولِ بَعضِهِمْ فِي جَوابِ رِسالَةٍ : وَصَلَ كِتابُكَ فَتَناوَلتُهُ بِٱليَمِينِ وَوَضَعتُهُ مَكانَ ٱلعِقدِ ٱلثَّمِينِ . وَكَقَولِ ٱلآخَرِ : اَمَا ٱليَتيمَ فَلا تَقْهَرْ . وَاَمَا ٱلسَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ . وَٱلفَرقُ بَيْنَ ٱلجِناسِ ٱللاحِقِ وَٱلجِناسِ ٱلمُضارِعِ اَنَّ حُرُوفَ ٱللاحِقِ لَيسَتْ مِنْ مَخرَجٍ وَاحِدٍ كَٱلنُّونِ وَٱلقافِ فِي : (تَقْهَرْ وَتَنْهَرْ) . وَامَّا حُرُوفُ ٱلمُضارِعِ فَاِنَّها مُتَشابِهَةٌ فِي ٱلمَخرَجِ كَما وَرَدَ فِي ٱلحَديثِ : اِنَّ ٱلخَيلَ مَعقُودٌ بِنَواصِيها ٱلخَيرُ . وَمِثلُهُ قَولُ بَعضِهِم : ٱلبَرايا اَهدافُ ٱلبَلايا . فَاِنَّ ٱلرَّاءَ وَٱللامَ مِنْ مَخرَجٍ وَاحِدٍ

وَمِنْ اَنواعِ ٱلتَّجنِيسِ (ٱلتَّامُّ) . وَهُوَ مَا تَماثَلَ رُكناهُ وَٱتَّفَقا لَفظًا وَٱختَلَفا مَعنًى مِنْ غَيرِ تَفاوُتٍ فِي تَصحِيحِ تَركِيبِهِما وَٱختِلافِ حَرَكَتِهِما سَواءٌ كانَا مِنِ ٱسمَيْنِ اَوْ مِنْ فِعلَيْنِ اَوْ مِنِ ٱسمٍ وَفِعلٍ فَاِنَّهُمْ قالُوا : اِذا ٱنتَظَمَ رُكناهُ مِنْ نَوعٍ وَاحِدٍ كَٱسمَيْنِ اَوْ فِعلَيْنِ سُمِّيَ مُماثِلًا وَاِنِ ٱنتَظَما مِنْ نَوعَيْنِ كَٱسمٍ وَفِعلٍ سُمِّيَ مُستَوفًى . وَجُلُّ ٱلقَصدِ تَماثُلُ ٱلرُّكنَيْنِ فِي ٱللَّفظِ وَٱلخَطِّ وَٱلحَرَكَةِ وَٱختِلافُهُما فِي ٱلمَعنَى . فَمِنهُ قَولُ اَميرِ ٱلمُؤمِنِينَ عَلِيٍّ : صَولَةُ ٱلباطِلِ ساعَةٌ وَصَولَةُ ٱلحَقِّ اِلَى ٱلسَّاعَةِ . وَمِنَ ٱلشِّعرِ قَولُ بَعضِهِمْ فِي رِثاءِ صَغيرٍ ٱسمُهُ يَحيَى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ ... اِلَى رَدِّ اَمْرِ اللّٰهِ فِيهِ سَبِيلُ

وَكَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ اِذَا احْتَدَمَ الْوَغَى ... وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمِنْهُ الْجِنَاسُ (الْمُطَرَّفُ) وَهُوَ مَا زَادَ اَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ حَرْفًا فِي طَرَفِهِ الْاَوَّلِ . وَهٰذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُذَيَّلِ . فَاِنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْمُذَيَّلِ تَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَاَمَّا الْمُطَرَّفُ فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ فِي اَوَّلِهِ لِتَصِيرَ لَهُ كَالطَّرَفِ وَيُسَمَّى اَيْضًا النَّاقِصَ وَالْمُرْدَفَ وَالْمُزْدَوِجَ وَالْمُكَرَّرَ وَالْمَرْدُودَ وَالْمُجَنَّبَ وَفِي تَسْمِيَتِهِ اخْتِلَافٌ . وَالزِّيَادَةُ تَكُونُ تَارَةً فِي اَوَّلِ الرُّكْنِ الثَّانِي وَتَارَةً فِي اَوَّلِ الرُّكْنِ الْاَوَّلِ كَقَوْلِهِمْ : لَمَّا مَلَأَ الصَّاعَ انْصَاعَ . وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ اِلَيَّ عَوَارِفُ ... ثَنَائِي عَلَى تِلْكَ الْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَرٍ مِنْ بِرِّهِ وَلَطَائِفٍ ... لِشُكْرِي عَلَى تِلْكَ اللَّطَائِفِ طَائِفُ

وَمِنْ اَنْوَاعِ الْجِنَاسِ (اللَّفْظِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَتَمَاثَلَ رُكْنَانِ وَيَتَجَانَسَا خَطًّا اِلَّا اَنَّ اَحَدَهُمَا يُخَالِفُ الْآخَرَ بِاِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْهُ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَمَا الَّذِي يُكْتَبُ بِالضَّادِ وَالظَّاءِ كَقَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ اِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَكَقَوْلِ ابْنِ الْعَفِيفِ :

اَحْسَنُ خَلْقِ اللّٰهِ وَجْهًا وَفَمًا ... اِنْ لَمْ يَكُنْ اَحَقَّ بِالْمَدْحِ فَمَنْ

وَمِنْ اَنْوَاعِ الْجِنَاسِ (الْجِنَاسُ الْمَقْلُوبُ) وَسَمَّاهُ قَوْمٌ الْمَعْكُوسَ وَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا عَكْسُ الْاَلْفَاظِ وَالثَّانِي عَكْسُ الْحُرُوفِ . فَالْاَوَّلُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَادَاتُ السَّادَاتِ . سَادَاتُ الْعَادَاتِ وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

إنَّ اللَّيالي لِلأنامِ مَناهِلٌ تُطْوَى وتُنْشَرُ بَيْنَها الأعمارُ
فَقِصارُهُنَّ مَعَ الهُمومِ طَويلةٌ وطِوالُهُنَّ مَعَ السُّرورِ قِصارُ

وهذا الضَّرْبُ مِنَ التَّجنيسِ لَهُ حَلاوةٌ وعَلَيْهِ رَوْنَقٌ وقد سَمَّاهُ قُدامَةُ بنُ جَعْفَرٍ الكاتِبُ: (التَّبديلَ). وذلكَ اسمٌ مُناسِبٌ لِمُسَمَّاهُ لأنَّ مُؤلِّفَ الكلامِ يأتي بِما كانَ مُقَدَّمًا في جُزْءِ كلامِهِ الأوَّلِ مُؤَخَّرًا في الثَّاني وبِما كانَ مُؤَخَّرًا في الأوَّلِ مُقَدَّمًا في الثَّاني. وأمَّا الضَّرْبُ الثَّاني مِنْ هذا القِسْمِ وهُوَ عَكْسُ الحُروفِ فَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ:

أهْدَيْتُ شَيْئًا يَقِلُّ لَوْلا أُحْدوثَةُ الفالِ والتَّبَرُّكْ
كُرْسِي تَفاءَلْتُ فيهِ لَمَّا رَأَيْتُ مَقْلوبَهُ يَسُرُّكْ

ورُبَّما كانَ البيتُ كُلُّهُ مَعْكوسًا يُقْرَأُ طَرْدًا وعَكْسًا والبيتُ الثَّاني مِنْهُ مَعْكوسٌ كَقَوْلِ الأرَّجانيِّ:

أُحِبُّ المَرْءَ ظاهِرُهُ جَميلٌ لِصاحِبِهِ وباطِنُهُ سَليمُ
مَوَدَّتُهُ تَدومُ لِكُلِّ هَوْلٍ وهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدومُ

ومِنْ أنْواعِهِ (الجِناسُ المُقارِبُ) ومِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ جِناسَ الاشْتِقاقِ وجِناسَ الاقْتِضابِ وهُوَ يَنْقَسِمُ إلى أنْواعٍ مِنْها أنْ يَكونَ الرُّكْنانِ اسْمَيْنِ كَقَوْلِ الصَّاحِبِ: إنَّ الهُمومَ بِقَدْرِ الهِمَمِ. وكَقَوْلِ القائِلِ: رَوْحٌ ورَيْحانٌ. ومِنْها أنْ يَكونَ أحَدُ الرُّكْنَيْنِ اسْمًا والآخَرُ فِعْلًا نَحْوُ: وَجَّهْتُ وَجْهي إلى اللهِ. ومِنْها أنْ يَكونَ الرُّكْنانِ فِعْلَيْنِ. كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

إِنْ تَرَ ٱلدُّنيَا اَغَارَتْ ۞ وَنُجُومَ ٱلسَّعْدِ غَارَتْ
فَصُرُوفُ ٱلدَّهْرِ شَتَّى ۞ كُلَّمَا جَارَتْ اَجَارَتْ

وَمِنْ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (اَلْمَعْنَوِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَحَدُ رُكْنَيِ ٱلْجِنَاسِ دَالاًّ عَلَى مَعْنَى ٱلْآخَرِ فِي غَيْرِ اَلْفَاظِهِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ اَسْتَدْرَكَهُ فُضَلَاءُ ٱلْمُتَاخِرِينَ وَٱسْتَخْرَجُوهُ وَبَعْضُهُمْ لَا يَعُدُّهُ جِنَاساً لِاَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْكَلَامِ لِتَوَعُّرِ مَسْلَكِهِ . وَسَبَبُ وُرُودِ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلْكَلَامِ اَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَقْصِدُ ٱلْمُجَانَسَةَ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ لَفْظَتَيْنِ فَلَا يُوَافِقُهُ ٱلْوَزْنُ عَلَى اِثْبَاتِ اَحَدِ رُكْنَيِ ٱلْجِنَاسِ فَيَعْدِلُ اِلَى مَا يُوَافِقُهُ مَعْنًى وَيُخَالِفُهُ لَفْظاً وَعَلَى هٰذَا لَا وُرُودَ لِهٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ اِذْ لَا وَزْنَ يَضْطَرُّهُ اِلَى ٱلْاِتْيَانِ بِذٰلِكَ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ اَرْبَابِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ يَمْدَحُ ٱلْمُهَلَّبَ بْنَ اَبِي صُفْرَةَ وَيَذْكُرُ فِعْلَهُ بِقَطَرِيِّ بْنِ ٱلْفُجَاءَةِ وَكَانَ قَطَرِيٌّ يُكَنَّى اَبَا نَعَامَةَ :

حَدَا بِاَبِي اُمِّ ٱلرِّئَالِ فَاَجْفَلَتْ ۞ نَعَامَتُهُ مِنْ عَارِضٍ مُتَلَهِّبِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : حَدَا بِاَبِي نَعَامَةَ فَاَجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ اَيْ رُوحُهُ فَلَمْ يُسَاعِدْهُ ٱلْوَزْنُ فَقَالَ : بِاَبِي اُمِّ ٱلرِّئَالِ لِاَنَّ ٱلرِّئَالَ فِرَاخُ ٱلنَّعَامَةِ . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلشُّعَرَاءَ عِنْدَ نَظْمِ هٰذِهِ ٱلْاَبْيَاتِ مَا نَحَوْا هٰذِهِ ٱلْمَقَاصِدَ ٱلْبَعِيدَةَ . وَلَا يَخْفَى مَا فِي هٰذَا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَٱلتَّعَسُّفِ

الفصل الثامن

في فنون الانشاء

البحث الاول

في المثل وشرفهِ

(عن الميداني)

(راجع صفحة ١٢٦ من علم الادب)

قَالَ ٱلْمبرّدُ: ٱلْمَثَل مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْمِثَـالِ وَهُوَ قَوْلٌ سَائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ ٱلثَّانِي بِٱلْاَوَّلِ وَٱلْاَصلُ فِيهِ ٱلتَّشبِيهُ. فَقَوْلُهُمْ: مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْـهِ اِذَا ٱنْتَصَبَ مَعْنَاهُ: اَشْبَهَ ٱلصُّورَةَ ٱلْمُنْتَصِبَةَ. وَفُلَانٌ اَمْثَلُ مِنْ فُلَانٍ اَيْ اَشْبَهُ بِمَا لَهُ ٱلْفَضْلُ. وَٱلْمِثَالُ ٱلْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ ٱلْمُقْتَصِّ مِنْهُ بِحَالِ ٱلْاَوَّلِ فَحَقِيقَةُ ٱلْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَٱلْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ ٱلْاَوَّلِ. كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا ... وَمَا مَوَاعِيدُهَا اِلَّا ٱلْاَبَاطِيـلُ

فَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ عَلَمٌ لِـكُلِّ مَا لَا يَصِحُّ مِنَ ٱلْمَوَاعِيدِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ: ٱلْمَثَلُ لَفظٌ يُخَالِفُ لَفظَ ٱلْمَضْرُوبِ لَهُ وَيُوَافِقُ مَعْنَـاهُ مَعْنَى ذٰلِكَ ٱللَّفظِ. شَبَّهُوهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي يُعْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: سُمِّيَتِ ٱلْحِكَمُ ٱلْقَائِمُ صِدْقُهَا فِي ٱلْعُقُولِ اَمْثَالًا لِانْتِصَابِ صُوَرِهَا

فِي ٱلعُقُولِ مُشتَقَّةٌ مِنَ ٱلْمُثُولِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلِٱنتِصَابُ . وَقَالَ اِبرَاهِيمُ ٱلنَّظَّامُ : يَجتَمِعُ فِي ٱلْمَثَلِ اَربَعَةٌ لَاتَجتَمِعُ فِي غَيرِهِ مِنَ ٱلكَلَامِ اِيجَازُ ٱللَّفظِ وَاِصَابَةُ ٱلْمَعنَى وَحُسنُ ٱلتَّشبِيهِ وَجُودَةُ ٱلكِنَايَةِ فَهُوَ نِهَايَةُ ٱلبَلَاغَةِ . قَالَ ٱبنُ ٱلْمُقَفَّعِ : اِذَا جُعِلَ ٱلكَلَامُ مَثَلًا كَانَ اَوضَحَ لِلمَنطِقِ وَآنَقَ لِلسَّمعِ وَاَوسَعَ لِشُعُوبِ ٱلحَدِيثِ . قَالَ آخَرُ : اِنَّ ٱلْاَمثَالَ هِيَ وَشْيُ ٱلكَلَامِ وَجَوهَرُ ٱللَّفظِ وَحُلَى ٱلْمَعنَى ٱلَّتِي تَخَيَّرَتهَا ٱلعَرَبُ وَقَدَّمَتهَا ٱلعَجَمُ وَنَطَقَ بِهَا كُلُّ زَمَانٍ وَدَارَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ . فَهِيَ اَبقَى مِنَ ٱلشِّعرِ وَاَشرَفُ مِنَ ٱلخِطَابَةِ . لَمْ يَسِرْ شَيْءٌ مَسِيرَهَا وَلَاعَمَّ عُمُومَهَا حَتَّى قِيلَ : اَسيَرُ مِنْ مَثَلٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا اَنتَ اِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ   يَعرِفُهُ ٱلجَاهِلُ وَٱلخَابِرُ

هٰذَا وَاِنَّ ٱلْاَمثَالَ تَتَحَلَّى بِفَرَائِدِهَا صُدُورُ ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَحَاضِرِ . وَتَتَحَلَّى بِفَوَائِدِهَا قُلُوبُ ٱلبَادِي وَٱلحَاضِرِ . وَتَتَقَيَّدُ اَوَابِدُهَا فِي بُطُونِ ٱلدَّفَاتِرِ وَٱلصَّحَائِفِ . وَتَطِيرُ نَوَاهِضُهَا فِي رُؤُوسِ ٱلشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ ٱلتَّنَائِفِ . يَحتَاجُ ٱلخَطِيبُ وَٱلشَّاعِرُ اِلَى اِدمَاجِهَا وَاِدرَاجِهَا لِٱشتِمَالِهَا عَلَى اَسَالِيبِ ٱلحُسنِ وَٱلجَمَالِ

وَٱعلَمْ اَنَّ ٱلحَاجَةَ اِلَى ٱلْاَمثَالِ شَدِيدَةٌ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلعَرَبَ لَمْ تَضَعِ ٱلْاَمثَالَ اِلَّا لِاَسبَابٍ اَوجَبَتهَا وَحَوَادِثَ ٱقتَضَتهَا . فَصَارَ ٱلْمَثَلُ ٱلْمَضرُوبُ لِاَمرٍ مِنَ ٱلْاُمُورِ عِندَهُمْ كَٱلعَلَامَةِ ٱلَّتِي يُعرَفُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَلَيسَ فِي كَلَامِهِمْ اَوجَزُ مِنهَا وَلَا اَشَدُّ ٱختِصَارًا . وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا اَذكُرُهُ لَكَ لِتَكُونَ مِنْ مَعرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ فَاَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ

ٱلْعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ أَمْثَالِهِمْ (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْأَمْرِ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمَشْهُورِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ : أَنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهَنُوا عَلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلشَّهْرِ . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يُرَى . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَغِيبُ ٱلْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا . فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : إِنَّ قَوْمِي يَبْغُونَ عَلَيَّ . فَقَالَ ٱلْحَكَمُ : إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ . فَذَهَبَتْ مَثَلًا . وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ : (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) . إِذَا أُخِذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى ٱلْقَرَائِنِ ٱلْمَنُوطَةِ بِهِ وَٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي قِيلَ مِنْ أَجْلِهَا لَا يُعْطِي مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا قَدْ أَعْطَاهُ ٱلْمَثَلُ . وَذَاكَ ٱلْمَثَلُ لَهُ مُقَدِّمَاتٌ وَأَسْبَابٌ قَدْ عُرِفَتْ وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ . وَحَيْثُ كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذَلِكَ جَازَ إِيرَادُ هٰذِهِ ٱللَّفَظَاتِ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلْمُقَدِّمَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ وَٱلْأَسْبَابُ ٱلْمَعْرُوفَةُ لَمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ : (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بَلْ مَا كَانَ يُفْهَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَعْنًى مُفِيدٌ . لِأَنَّ ٱلْبَغْيَ هُوَ ٱلظُّلْمُ وَٱلْقَمَرُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا فَكَانَ يَصِيرُ مَعْنَى ٱلْمَثَلِ : إِنْ كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ ٱلْقَمَرُ . وَهٰذَا كَلَامٌ مُخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى لَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ . فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَمْثَالُ كَٱلرُّمُوزِ وَٱلْإِشَارَاتِ ٱلَّتِي يُلَوَّحُ بِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي

تَلوِيحًا صَارَتْ مِنْ اَوجَزِ ٱلْكَلَامِ وَاَكْثَرِهِ ٱخْتِصَارًا . وَمِنْ اَجلِ ذٰلِكَ قِيلَ فِي حَدِّ ٱلْمَثَلِ : إِنَّهُ ٱلْقَوْلُ ٱلْوَجِيزُ ٱلْمُرْسَلُ لِيُعْمَلَ عَلَيْهِ وَحَيْثُ هِيَ بِهٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ فَلَا يَنْبَغِي ٱلاخلَالُ بِمَعْرِفَتِهَا

البحث الثاني

في آداب المثل وشروطهِ

(عن الماوَردي ومقدمة كليلة ودمنة)

(راجع صفحة ١٣٣ من علم الادب)

وَمِنْ آدَابِ ٱلْحَكِيمِ اَنْ يَجْتَنِبَ اَمْثَالَ ٱلعَامَّةِ ٱلْغَوْغَاءِ وَيَتَخَصَّصَ بِاَمْثَالِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْأُدَبَاءِ فَإِنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ اَمْثَالًا تُشَاكِلُهُمْ فَلَا تَجِدُ لِسَاقِطٍ إِلَّا مَثَلًا سَاقِطًا وَتَشْبِيهًا مُسْتَقْبَحًا . . . .

وَلِذٰلِكَ عِلَّتَانِ : إِحدَاهُمَا اَنَّ ٱلْأَمْثَالَ مِنْ هَوَاجِسِ ٱلْهِمَمِ وَخَطَرَاتِ ٱلنُّفُوسِ وَلَمْ يَكُنْ لِذِي ٱلْهِمَّةِ ٱلسَّاقِطَةِ إِلَّا مَثَلٌ مَرْذُولٌ وَتَشْبِيهٌ مَعْلُولٌ. وَٱلثَّانِيَةُ اَنَّ ٱلأَمْثَالَ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ اَحْوَالِ ٱلْمُتَمَثِّلِينَ بِهَا فَبِحَسَبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ تَكُونُ اَمْثَالُهُمْ . فَلِهَاتَيْنِ ٱلعِلَّتَيْنِ وَقَعَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ اَمْثَالِ ٱلْخَاصَّةِ وَاَمْثَالِ ٱلعَامَّةِ وَرُبَّمَا اَلِفَ ٱلْمُتَخَصِّصُ مَثَلًا عَامِيًّا اَوْ تَشْبِيهًا رَكِيكًا لِكَثْرَةِ مَا يَطْرُقُ سَمْعَهُ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱلأَرَاذِلِ فَيَسْتَرْسِلُ فِي ضَرْبِهِ مَثَلًا فَيَصِيرُ بِهِ مَثَلًا كَالَّذِي حُكِيَ عَنِ ٱلأَصْمَعِيِّ : إِنَّ ٱلرَّشِيدَ سَاَلَهُ يَوْمًا عَنْ اَنْسَابِ بَعْضِ ٱلْعَرَبِ . فَقَالَ : عَلَى ٱلْخَبِيرِ

سَقطتَ يا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ : اَسْقَطَ ٱللهُ جَنْبَيْكَ اَتُخَاطِبُ اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْخِطَابِ . فَكَانَ ٱلْفَضْلُ ٱبْنُ ٱلرَّبِيعِ مَعَ قِلَّةِ عِلْمِهِ اَعْلَمَ بِمَا يُسْتَعْمَلُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُحَاوَرَةِ ٱلْخُلَفَاءِ مِنَ ٱلْاَصْمَعِيِّ ٱلَّذِي هُوَ وَاحِدُ عَصْرِهِ وَقَرِيعُ دَهْرِهِ . وَلِلْاَمْثَالِ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَوْقِعٌ فِي ٱلْاَسْمَاعِ وَتَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُلُوبِ لَا يَكَادُ ٱلْكَلَامُ ٱلْمُرْسَلُ يَبْلُغُ مَبْلَغَهَا وَلَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرَهَا لِاَنَّ ٱلْمَعَانِيَ بِهَا لَائِحَةٌ وَٱلشَّوَاهِدَ بِهَا وَاضِحَةٌ وَٱلنُّفُوسَ بِهَا وَامِقَةٌ وَٱلْقُلُوبَ بِهَا وَاثِقَةٌ وَٱلْعُقُولَ لَهَا مُوَافِقَةٌ . وَلَهَا اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ : اَحَدُهَا صِحَّةُ ٱلتَّشْبِيهِ . وَٱلثَّانِي اَنْ يَكُونَ ٱلْعِلْمُ بِهَا سَابِقًا وَٱلْكُلُّ عَلَيْهَا مُوَافِقًا . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يُسْرِعَ وُصُولُهَا لِلْفَهْمِ وَيَعْجَلَ تَصَوُّرُهَا فِي ٱلْوَهْمِ مِنْ غَيْرِ ٱرْتِيَاءٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا وَلَا كَدٍّ فِي ٱسْتِنْبَاطِهَا . وَٱلرَّابِعُ اَنْ تُنَاسِبَ حَالَ ٱلسَّامِعِ لِتَكُونَ اَبْلَغَ تَأْثِيرًا وَاَحْسَنَ مَوْقِعًا . فَاِذَا ٱجْتَمَعَتْ فِي ٱلْاَمْثَالِ ٱلْمَضْرُوبَةِ هٰذِهِ ٱلشُّرُوطُ ٱلْاَرْبَعَةُ كَانَتْ زِينَةً لِلْكَلَامِ وَجَلَاءً لِلْمَعَانِي وَتَدَبُّرًا لِلْاَفْهَامِ

قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ : يَجِبُ عَلَى قَارِئِ ٱلْاَمْثَالِ اَنْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهَا وَلَا يَظُنَّ اَنَّ نَتِيجَتَهَا اِنَّمَا هِيَ ٱلْاِخْبَارُ عَنْ حِيلَةِ بَهِيمَتَيْنِ اَوْ مُحَاوَرَةِ سَبُعٍ لِثَوْرٍ فَيَنْصَرِفَ بِذٰلِكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ ٱلصَّيَّادِ ٱلَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ ٱلْخُلْجَانِ يَصِيدُ فِيهِ ٱلسَّمَكَ فِي زَوْرَقٍ . فَرَاَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي عَمِيقِ ٱلْمَاءِ صَدَفَةً تَتَلَأْلَأُ حُسْنًا فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيمَةٌ . وَكَانَ قَدْ اَلْقَى

شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَٱشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ . فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ لِيَأْخُذَ ٱلصَّدَفَةَ . فَلَمَّا اَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَاشَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ وَٱلْقَى شَبَكَتَهُ فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَاى اَيضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ اِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ ٱلصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي اَمْوَالًا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلْجُهَّالُ عَلَى اِغْفَالِ اَمْرِ ٱلتَّفَكُّرِ فِي ٱلْاَمْثَالِ وَٱلْاِغْتِرَارِ بِهَا وَتَرْكِ ٱلْوُقُوفِ عَلَى اَسْرَارِ مَعَانِيهَا وَٱلْاَخْذِ بِظَاهِرِهَا دُونَ ٱلْاَخْذِ بِبَاطِنِهَا . وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ اِلَى ٱلنَّظَرِ فِي اَبْوَابِ ٱلْهَزْلِ مِنْهَا فَهُوَ كَرَجُلٍ اَصَابَ اَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى اِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلزَّهْرِ وَقَطْعِ ٱلشَّوْكِ فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ اَحْسَنَ فَائِدَةً وَاَجْمَلَ عَائِدَةً . وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي ٱلْاَمْثَالِ اَنْ يَعْلَمَ اَنَّهَا تَنْقَسِمُ اِلَى اَرْبَعَةِ اَغْرَاضٍ : اَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ اِلَى وَضْعِهَا عَلَى اَلْسِنَةِ ٱلْبَهَائِمِ غَيْرِ ٱلنَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ اَهْلِ ٱلْهَزْلِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ اِلَى قِرَاءَتِهَا فَتُسْتَمَالُ بِهِ قُلُوبُهُمْ لِاَنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْغَرَضُ بِٱلنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ ٱلْحَيَوَانَاتِ . وَٱلثَّانِي اِظْهَارُ خَيَالَاتِ ٱلْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ ٱلْاَصْبَاغِ وَٱلْاَلْوَانِ لِيَكُونَ اُنْسًا لِقُلُوبِ ٱلْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهَا اَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ ٱلصُّوَرِ . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَتَتَّخِذَهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ ٱنْتِسَاخُهَا وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلَقَ عَلَى مُرُورِ ٱلْاَيَّامِ . وَلِيَنْتَفِعَ

بِذٰلِكَ ٱلْمُصَوِّرُ وَٱلنَّاسِخُ اَبَدًا . وَٱلْغَرَضُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلْاَقْصَى مَخْصُوصٌ بِٱلْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً لِتَكُونَ ٱلْاَمْثَالُ رِيَاضَةً لِعَقْلِهِمْ اِذْ فِيهَا يَجِدُونَ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَاَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ اَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَاُولَاهُ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ *

البحث الثالث

في آداب المحادثة والرواية

(عن مروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٦٩ من علم الادب)

قَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ : لَا تَحْسُنُ ٱلْمُحَادَثَةُ اِلَّا بِحُسْنِ ٱلْفَهْمِ . وَقَالُوا : تَعَلَّمْ حُسْنَ ٱلِاسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ . وَحُسْنُ ٱلِاسْتِمَاعِ هُوَ اَشْهَى اِلَى ٱلْمُحَدِّثِ حَتَّى يَنْقَضِيَ حَدِيثُهُ . وَمِنْ اَدَبِ

---

* وقال بعضهم في وصف كليلة ودمنة :

اذا افتخر الرجال بفضل علم ... ومدَّت فيهِ السنة طويلهْ
ففاخر ما استطعت بما حوتهُ ... بطون كتاب دمنةَ مع كليلهْ
كتاب يغرق البلغاء فيهِ ... وألباب الورى منهُ كليلهْ
وكم فيهِ عجائب كامنات ... على دنيا وآخرةٍ دليلهْ
وكم حكم على افواه طير ... وآداب وامثال مقولهْ
يراها الجاهل المأفون هزلًا ... وحسبكها لعاقلها فضيلهْ

ٱلْحَدِيثِ وَمُوجِبَاتِهِ اَنْ لَا يُقْتَضَبَ اقْتِضَابًا وَلَا يُهْجَمَ عَلَيْهِ وَاَنْ يُتَوَصَّلَ اِلَى اِجْرَائِهِ بِمَا يُشَاكِلُهُ . وَاَنْ يُسْتَنْسَبَ لَهُ مَا يَحْسُنُ اَنْ يَجْرِيَ فِي غَرَضِهِ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُ ٱلْمُفَاوَضَةِ مُتَعَلِّقًا بِبَعْضٍ عَلَى حَسَبِ مَا قَالُوا فِي ٱلْمَثَلِ : اِنَّ ٱلْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ تَشَعُّبَهُ وَتَفَرُّعَهُ عَنْ اَصْلٍ وَاحِدٍ اِلَى وُجُوهٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَثِيرَةٍ اِذْ كَانَ ٱلْعَيْشُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَلِيسِ ٱلْمُمْتِعِ . وَقَالَ رَجُلٌ : اِنِّي مَا اَمَلُّ ٱلْحَدِيثَ . فَقَالَ ٱلسَّامِعُ : اِنَّمَا يُمَلُّ ٱلْعَتِيقُ لَا ٱلْحَدِيثُ . وَقَدْ اَكْثَرَتِ ٱلشُّعَرَاءُ مِنَ ٱلْاِغْرَاقِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱلرُّومِيِّ :

وَسَئِمْتُ كُلَّ مَآرِبِي ... فَكَاَنَّ اَطْيَبَهَا غَثِيثُ
اِلَّا ٱلْحَدِيثَ فَاِنَّهُ ... مِثْلُ ٱسْمِهِ اَبَدًا حَدِيثُ

وَاَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ اِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ :

وَضَجِرْتُ اِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ ... حَسَنِ ٱلْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمَا

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْمُحَدِّثِينَ مِنْ اَهْلِ ٱلْاَدَبِ اَنَّ مِنَ ٱلْاَدَبِ عَدَمَ اِطَالَةِ ٱلْحَدِيثِ مِنَ ٱلنَّدِيمِ وَاَنَّ اَحْلَى لِحَدِيثِهِ وَاَحْسَنَ لِمَوْقِعِهِ اَنْ يَجْتَنِبَ مِنْهُ ٱلْاَحَادِيثَ ٱلطِّوَالَ ذَاتَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُغْلَقَةِ وَٱلْاَلْفَاظِ ٱلْحُشْوِيَّةِ ٱلَّتِي اَفْتَنَّ بِاقْتِصَاصِهَا سُمَّارُ ٱلْمَجَالِسِ وَتَتَعَلَّقُ بِهَا ٱلنُّفُوسُ وَتُحْتَسَى عَلَى اَوَاخِرِهَا ٱلْكُؤُوسُ . فَاِنَّ ذٰلِكَ بِمَجَالِسِ ٱلْقُصَّاصِ اَشْبَهَ مِنْهُ بِمَجَالِسِ ٱلْخَوَاصِّ . وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَاَجَادَ فِيهِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَوَصَفَ ذٰلِكَ مِنْ اَوْصَافِ ٱلشَّرَابِ عَلَى ٱلْمُعَاقَرَةِ فَقَالَ :

بَيْنَ اَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامُ

وَهٰذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ ذَهَبَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱسْتِمَاعِ ٱلْمُلَحِ

البحث الرابع

في حقيقة التاريخ وموضوعه

(عن كشف الظنون للحاج خلفا ومروج الذهب للسعودي)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَلتَّأْرِيخُ فِي ٱللُّغَةِ تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ مُطْلَقًا . وَيُقَالُ : اَرَّخْتُ ٱلْكِتَابَ تَأْرِيخًا وَوَرَّخْتُهُ تَوْرِيخًا كَمَا فِي ٱلصِّحَاحِ وَهُوَ مُعَرَّبٌ . وَعُرْفًا هُوَ تَعْيِينُ وَقْتٍ لِيُنْسَبَ اِلَيْهِ زَمَانٌ يَأْتِي عَلَيْهِ اَوْ مُطْلَقًا يَعْنِي سَوَاءٌ كَانَ مَاضِيًا اَوْ مُسْتَقْبَلًا . وَقِيلَ : تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ بِٱسْتِنَادِهِ اِلَى اَوَّلِ حُدُوثِ اَمْرٍ شَائِعٍ مِنْ ظُهُورِ مِلَّةٍ اَوْ دَوْلَةٍ اَوْ اَمْرٍ هَائِلٍ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلسُّفْلِيَّةِ مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوعُهُ جُعِلَ ذٰلِكَ مَبْدَأً لِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَوْقَاتِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَجِبُ ضَبْطُ اَوْقَاتِهَا فِي مُسْتَأْنَفِ ٱلسِّنِينَ . وَقِيلَ : عَدَدُ ٱلْأَيَّامِ وَٱللَّيَالِي بِٱلنَّظَرِ اِلَى مَا مَضَى مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشُّهُورِ اِلَى مَا بَقِيَ . وَعِلْمُ ٱلتَّأْرِيخِ هُوَ مَعْرِفَةُ اَحْوَالِ ٱلطَّوَائِفِ وَبُلْدَانِهِمْ وَرُسُومِهِمْ وَصَنَائِعِ اَشْخَاصِهِمْ وَاَنْسَابِهِمْ وَوَفَيَاتِهِمْ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَمَوْضُوعُهُ اَحْوَالُ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمَاضِيَةِ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمَاضِيَةِ . وَفَائِدَتُهُ ٱلْعِبْرَةُ بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ

الْمَاضِيَةِ وَالتَّنَصُّحُ بِهَا وَحُصُولُ مَلَكَةِ التَّجَارِبِ بِالْوُقُوفِ عَلَى تَقَلُّبَاتِ الزَّمَنِ لِيُحْتَرَزَ عَنْ أَمْثَالِ مَا نُقِلَ مِنَ الْمَضَارِّ وَيُسْتَجْلَبَ نَظَائِرُهَا مِنَ الْمَنَافِعِ . وَهٰذَا الْعِلْمُ كَمَا قِيلَ عُمُرٌ آخَرُ لِلنَّاظِرِينَ وَانْتِفَاعٌ (لِلْمُطَالِعِ) فِي مِصْرِهِ بِمَنَافِعَ تَحْصُلُ لِلْمُسَافِرِينَ

وَلَوْلَا تَقْيِيدُ الْعُلَمَاءِ خَوَاطِرَهُمْ عَلَى الدَّهْرِ لَبَطَلَ أَوَّلُ الْعِلْمِ وَضَاعَ آخِرُهُ إِذْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ الْأَخْبَارِ يُسْتَنْبَطُ وَالْفِقْهُ مِنْهَا يُسْتَثَارُ وَالْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ وَأَصْحَابُ الْقِيَاسِ مِنْهَا يَبْنُونَ . وَأَهْلُ الْمَقَالَاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ وَمَعْرِفَةُ النَّاسِ مِنْهَا تُؤْخَذُ وَأَمْثَالُ الْحُكَمَاءِ فِيهَا تُوجَدُ وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ . وَآدَابُ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ وَالْحَرْبِ مِنْهَا تُلْتَمَسُ وَكُلُّ غَرِيبَةٍ مِنْهَا تُعْرَفُ وَكُلُّ أُعْجُوبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطْرَفُ . وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتِعُ بِسَمَاعِهِ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ وَيَسْتَعْذِبُ مَوْقِعَهُ الْأَحْمَقُ وَالْعَاقِلُ وَيَأْنَسُ بِمَكَانِهِ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ الْخَاصِّيُّ وَالْعَامِّيُّ وَيَمِيلُ إِلَى رِوَايَتِهِ الْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ . وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يُوصَلُ بِهِ كُلُّ كَلَامٍ وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَيُحْتَمَلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ وَيُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ . فَفَضِيلَةُ عِلْمِ الْأَخْبَارِ بَيِّنَةٌ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى عِلْمِهِ وَتَيَقُّنِ مَا فِيهِ وَإِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ إِلَّا إِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلْعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ وَاسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ

البحث الخامس

في شرف التاريخ

(عن ابن خلدون)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

امَّا بَعْدُ فَإِنَّ فَنَّ ٱلتَّأْرِيخِ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي تَتَـدَاوَلُهَا ٱلْأُمَمُ وَٱلْأَجْيَالُ وَتُشَدُّ إِلَيْهَا ٱلرَّكَائِبُ وَٱلرِّحَالُ وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهَا ٱلسُّوقَةُ وَٱلْأَغْفَالُ . وَتَتَنَافَسُ فِيهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأَقْيَالُ . وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهَا ٱلْعُلَمَاءُ وَٱلْجُهَّالُ . إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى اخْبَارٍ عَنِ ٱلْأَيَّامِ وَٱلدُّوَلِ . وَٱلسَّوَابِقِ مِنَ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُوَلِ . تَنْمُو فِيهَا ٱلْأَقْوَالُ وَتُضْرَبُ فِيهَا ٱلْأَمْثَالُ . وَتُطْرَفُ بِهَا ٱلْأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا ٱلْاحْتِفَالُ . وَتُؤَدِّي لَنَا شَأْنَ ٱلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا ٱلْأَحْوَالُ . وَٱتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا ٱلنِّطَاقُ وَٱلْمَجَالُ . وَعَمَرُوا ٱلْأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمِ ٱلْارْتِحَالُ . وَحَانَ مِنْهُمُ ٱلزَّوَالُ . وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ . وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِئِهَا دَقِيقٌ . وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ ٱلْوَقَائِعِ وَاسْبَابِهَا عَمِيقٌ . فَهُوَ لِذَلِكَ اصِيلٌ فِي ٱلْحِكْمَةِ عَرِيقٌ . وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ . وَإِنَّ فُحُولَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي ٱلْاسْلَامِ قَدِ ٱسْتَوْعَبُوا اخْبَارَ ٱلْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ ٱلدَّفَاتِرِ وَاوْدَعُوهَا . وَخَلَطَهَا ٱلْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ وَهِمُوا فِيهَا وَٱبْتَدَعُوهَا . وَزَخَارِفَ مِنَ ٱلرِّوَايَاتِ ٱلْمُضْعَفَةِ لَفَّقُوهَا وَوَضَعُوهَا . وَٱقْتَفَى تِلْكَ ٱلْآثَارَ ٱلْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَٱتَّبَعُوهَا . وَادَّوْهَا إِلَيْنَا

كَمَا سَمِعُوهَا . وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا . وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا. فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ. وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ. وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ . وَٱلتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ. وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ . وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ. وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ. وَٱلْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ. وَٱلنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ . وَٱلْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلُ. وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلصَّوَابِ وَيَصْقُلُ . هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا . وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا . وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْإِمَامَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ. وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمُ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ . هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْأَنَامِلِ . وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ . مِثْلُ ٱبْنِ إِسْحٰقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ ٱبْنِ عُمَرَ ٱلْأَسَدِيِّ وَٱلْمَسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ. ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ ٱلْجَمَاهِيرِ . وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْأَثْبَاتِ. وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحَفَظَةِ ٱلثِّقَاتِ . إِلَّا أَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ . وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ. وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ أَوِ ٱعْتِبَارِهِمْ . فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا ٱلْأَخْبَارُ . وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْآثَارُ . ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ ٱلتَّوَارِيخِ لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ ٱلْمَنَاهِجِ وَٱلْمَسَالِكِ . لِعُمُومِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي

ٱلآفَاقِ وَٱلْمَمَالِكِ وَتَنَاوُلِهَا ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْغَايَاتِ فِي ٱلْمَآخِذِ وَٱلْمَتَارِكِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنِ ٱسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَٱلْأُمَمِ. وَٱلْأَمْرِ ٱلْعَمَمِ . كَٱلْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ . وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ ٱلْإِطْلَاقِ إِلَى ٱلتَّقْيِيدِ . وَوَقَفَ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْإِحَاطَةِ عَنِ ٱلشَّأْوِ ٱلْبَعِيدِ فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ . وَٱسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفْقِهِ وَقُطْرِهِ . وَٱقْتَصَرَ عَلَى أَحَادِيثِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ . كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْأَمَوِيَّةِ بِهَا . وَٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِٱلْقَيْرَوَانِ . ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ . وَبَلِيدُ ٱلطَّبْعِ وَٱلْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ . يَنْسِجُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ . وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِٱلْمِثَالِ . وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ ٱلْأَيَّامُ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ . وَٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ . فَيَجْلُبُونَ ٱلْأَخْبَارَ عَنِ ٱلدُّوَلِ . وَحِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْأُوَلِ . صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا . وَصِفَاحًا ٱنْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا . إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا . وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا . يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا . ٱتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا . وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ ٱلْأَجْيَالِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا . بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجَمَانِهَا فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا . ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ ٱلدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا . مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا . لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا . وَلَا يَذْكُرُونَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا . وَلَا عِلَّةَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا . فَيَبْقَى ٱلنَّاظِرُ

مُتَطَلِّعًا بَعْدُ إِلَى ٱفْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِيءِ ٱلدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا . مُفَتِّشًا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا. بَاحِثًا عَنِ ٱلْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ فِي تَنَاسُبِهَا. ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ ٱلِٱخْتِصَارِ . وَذَهَبُوا إِلَى ٱلِٱكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلِٱقْتِصَارِ . مَقْطُوعَةً عَنِ ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْأَخْبَارِ . مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ ٱلْغُبَارِ . كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ ٱلْعَمَلِ وَمَنِ ٱقْتَفَى هٰذَا ٱلْأَثَرَ مِنَ ٱلْهَمَلِ . وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهٰؤُلَاءِ مَقَالٌ . وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِقَالٌ . لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ ٱلْفَوَائِدِ . وَأَخَلُّوا بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْعَوَائِدِ

وَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَثْبَاتِ وَٱلْمُؤَرِّخِينَ ٱلْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱلْآرَاءِ . وَعَلِقَتْ بِأَفْكَارِهِمْ وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ ٱلْكَافَّةُ مِنْ ضَعَفَةِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْغَفَلَةِ عَنِ ٱلْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا كَذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَٱنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُّ ٱلتَّارِيخِ وَاهِيًا مُخْتَلِطًا . وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكًا وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي ٱلْعَامَّةِ . فَإِذًا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْبِقَاعِ وَٱلْأَعْصَارِ فِي ٱلسِّيَرِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْعَوَائِدِ وَٱلنِّحَلِ وَٱلْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْإِحَاطَةِ بِٱلْحَاضِرِ مِنْ ذٰلِكَ . وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْغَائِبِ مِنَ ٱلْوِفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ ٱلْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَٱلْمُخْتَلِفِ . وَٱلْقِيَامِ عَلَى أُصُولِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْمِلَلِ وَمَبَادِيءِ ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا . وَأَحْوَالِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ

حَادِثٍ وَاقِفًا عَلَى أُصُولِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ ٱلْخَبَرَ ٱلْمَنْقُولَ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ وَٱلْأُصُولِ . فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَٱسْتَغْنَى عَنْهُ . وَمَا ٱسْتَكْبَرَ ٱلْقُدَمَاءُ عِلْمَ ٱلتَّأْرِيخِ إِلَّا لِذٰلِكَ حَتَّى ٱنْتَحَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْبُخَارِيُّ وَٱبْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأُمَّةِ . وَقَدْ ذَهَلَ ٱلْكَثِيرُ عَنْ هٰذَا ٱلسِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ ٱنْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَٱسْتَخَفَّ ٱلْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي ٱلْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَٱلْخَوْضَ فِيهِ وَٱلتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ وَٱللُّبَابُ بِٱلْقِشْرِ وَٱلصَّادِقُ بِٱلْكَاذِبِ وَإِنَّ لِلّٰهِ عَاقِبَةَ ٱلْأُمُورِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّأْرِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَائِدَةِ شَرِيفُ ٱلْغَايَةِ إِذْ هُوَ يَقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلْإِقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ . لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا مُجَرَّدُ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلْإِجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ . وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ ٱلْمَغَالِطُ فِي حِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ لِٱعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا . لَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا

وَقَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

البحث السادس

في شروط التاريخ

(عن الفخري)

(راجع صفحة ١٩٧ من علم الادب)

وَإِنْ بَاشَرْتَ بِكِتَابَةِ تَارِيخٍ عَامٍّ فَتَكَلَّمْ عَلَى دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ بِمَجْمُوعِ مَا حَصَّلَ ذِهْنُكَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِي أَفَادَتْكَهَا مُطَالَعَةُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ وَٱذْكُرْ كَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاؤُهَا وَٱنْتِهَاؤُهَا وَطَرَفًا مُمْتِعًا مِنْ مَحَاسِنِ مُلُوكِهَا وَأَخْبَارِ سَلَاطِينِهَا . ثُمَّ إِذَا ذَكَرْتَ دَوْلَةً فَدَوْلَةً تَكَلَّمْتَ عَلَى كُلِّيَّاتِ أُمُورِهَا ثُمَّ ذَكَرْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِهَا وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنَ ٱلْوَقَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمَأْثُورَةِ فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ ذَكَرْتَ وُزَرَاءَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا وَطَرَائِقَ مَا جَرَى لَهُمْ .فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ ٱبْتَدَأْتَ بِٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي بَعْدَهُ وَبِمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ وَبِسِيَرِ وُزَرَائِهِ كَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْتَزِمْ فِيهِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ لَا تَمِيلَ فِيهِ إِلَّا مَعَ ٱلْحَقِّ

وَلَا تَنطِقَ فِيهِ إِلَّا بِالْعَدلِ . وَلَنْ تَعزِلَ سُلطَانَ الْهَوَى وَتَخرُجَ مِنْ حُكمِ الْمَنشَإِ وَالْمَرْبَى وَتَفرِضَ نَفسَكَ غَرِيبًا عَنهُمْ وَأَجنَبِيًّا بَيْنَهُمْ . وَثَانِيهِمَا أَنْ تُعَبِّرَ عَنِ الْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَقرُبُ مِنَ الْأَفهَامِ لِيَنتَفِعَ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ عَادِلًا عَنِ الْعِبَارَاتِ الْمُستَصعَبَةِ الَّتِي يُقصَدُ فِيهَا إِظهَارُ الْفَصَاحَةِ وَإِثبَاتُ الْبَلَاغَةِ فَطَالَمَا رَأَيتُ مُصَنِّفِي الْكُتُبِ قَدِ اعتَرَضَتْهُمْ مَحَبَّةُ إِظهَارِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ فَخَفِيَتْ أَغرَاضُهُمْ وَاعتَاصَتْ مَعَانِيهِمْ فَقَلَّتِ الْفَائِدَةُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ. هٰذَا وَإِنَّ كُتُبَ التَّوَارِيخِ إِنْ نُظِرَ بِعَيْنِ الْإِنصَافِ إِلَيهَا رُئِيَتْ أَنفَعَ مِنَ الْحَمَاسَةِ الَّتِي لَهِجَ النَّاسُ بِهَا وَأَخَذُوا أَوْلَادَهُمْ بِحِفظِهَا فَإِنَّ الْحَمَاسَةَ لَا يُستَفَادُ مِنهَا أَكثَرُ مِنَ التَّرغِيبِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالضِّيَافَةِ وَشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الْأَخلَاقِ فِي الْبَابِ الْمُسَمَّى بَابَ الْأَدَبِ وَالتَّأَنُّسِ بِالْمَذَاهِبِ الشِّعرِيَّةِ . وَالتَّارِيخُ يُستَفَادُ مِنْهُ هٰذِهِ الْخِصَالُ الْمَذكُورَةُ . وَيُستَفَادُ مِنْهُ قَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَأَدَوَاتُ الرِّئَاسَةِ . فَهٰذَا فِيهِ مَا فِي الْحَمَاسَةِ وَلَيسَ فِي الْحَمَاسَةِ مَا فِيهِ وَإِنَّهُ يُفِيدُ الْعَقلَ قُوَّةً وَالذِّهنَ حِدَّةً وَالْبَصِيرَةَ نُورًا وَهُوَ لِلْخَاطِرِ الذَّكِيِّ بِمَنزِلَةِ الْمِسَنِّ لِلْفُولَاذِ الْجَيِّدِ وَهُوَ أَيضًا أَنفَعُ مِنَ الْمَقَامَاتِ الَّتِي النَّاسُ فِيهَا مُعتَقِدُونَ وَفِي تَحَفُّظِهَا رَاغِبُونَ إِذِ الْمَقَامَاتُ لَا يُستَفَادُ مِنهَا سِوَى التَّمَرُّنِ عَلَى الْإِنشَاءِ وَالْوُقُوفِ عَلَى مَذَاهِبِ النَّظمِ وَالنَّثرِ . نَعَمْ وَفِيهَا حِكَمٌ وَحِيَلٌ وَتَجَارِبُ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُصغِرُ الْهِمَّةَ إِذْ هُوَ مَبنِيٌّ عَلَى السُّؤَالِ وَالِاستِجدَاءِ وَالتَّحَيُّلِ الْقَبِيحِ عَلَى تَحصِيلِ النَّزرِ الطَّفِيفِ فَإِنْ نَفَعَتْ مِنْ جَانِبٍ ضَرَّتْ مِنْ جَانِبٍ وَبَعضُ النَّاسِ تَنَبَّهُوا عَلَى هٰذَا مِنَ الْمَقَامَاتِ الْحَرِيرِيَّةِ وَالْبَدِيعِيَّةِ فَعَدَلَ

نَاسٌ إِلَى نَهْجِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : فَإِنَّهُ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي يُتَعَلَّمُ مِنْهُ ٱلْحِكَمُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَٱلْخُطَبُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلزُّهْدُ وَعُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ وَأَدْنَى فَوَائِدِهِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ . وَكَذٰلِكَ كُتُبُ ٱلتَّوَارِيخِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ رُبَّمَا أَضْجَرَتْهُ ٱلْمَهَامُّ وَٱلْأَشْغَالُ فَإِذَا رَوَّحَ فِكْرَهُ بِٱلنَّظَرِ فِيهَا دَفَعَ بِهَا ٱلْمَلَالَ وَتَذَكَّرَ بِهَا مَا أَنْسَتْهُ ٱلْأَشْغَالُ . . .

البحث السابع

في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات

(من كتاب صبح الاعشى لابي العبَّاس احمد القلقشندي)

(راجع صفحة ٢٠٧ من علم الادب)

(ٱلْأَصْلُ ٱلْأَوَّلُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ) ٱلْمَطْلُوبُ فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ مِمَّا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لِٱسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ . وَيَرْجِعُ حُسْنُ ٱلِٱفْتِتَاحِ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ إِلَى مَعْنَيَيْنِ: (ٱلْمَعْنَى ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى ٱلْمُبْتَدَإِ بِهِ إِمَّا بِٱلِٱفْتِتَاحِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ كَمَا فِي بَعْضِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ لِأَنَّ ٱلنُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ إِلَى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى . أَوْ بِٱلسَّلَامِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱلشَّارِعُ مُفْتَتَحَ ٱلْخِطَابِ أَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ . فَإِنَّ أَمْرَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلتَّلَطُّفِ وَٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَوَاطِرِ وَتَأْلِيفِ ٱلْقُلُوبِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱصْطِلَاحُ كُلِّ زَمَنٍ فِي ٱلِٱبْتِدَاءَاتِ . (ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا إِلَى مَا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ مِنْ سُهُولَةِ ٱللَّفْظِ

وَصِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَوُضُوحِ ٱلْمَعْنَى وَتَجَنُّبِ ٱلْحَشْوِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّانِي) بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ ٱلْمَطْلُوبَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ . بِأَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَجُزِهَا فَإِنْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ يُهَنِّئُ أَتَى فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّهْنِئَةِ . أَوْ كَانَ ٱلصَّدَدُ فِي ٱلتَّعْزِيَةِ أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعْزِيَةِ أَوْ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي أَتَى فِي أَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيُعْلَمَ مِنْ مَبْدَإِ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ . . . ثُمَّ مِنَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَا يَعْسُرُ مَعَهُ ٱلْإِتْيَانُ بِبَرَاعَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ فَيَأْتِي بِهَا فِيمَا يَلِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُقَدَّمَةِ ٱلْمُكَاتَبَةِ قَبْلَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْمَقْصُودِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّالِثُ) ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلَّتِي يَلْزَمُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي صَدْرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتِي فِي مُكَاتَبَةٍ . مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ كُتُبِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْجِهَادِ بِذِكْرِ ٱفْتِرَاضِهِ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَمَا وَعَدَ ٱللّٰهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِ أَعْدَائِهِ وَإِعْزَازِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَقَمْعِ ٱلْمُلْحِدِينَ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ ٱلْفَتْحِ بِإِنْجَازِ وَعْدِ ٱللّٰهِ ٱلَّذِي وَعَدَهُ أَهْلَ ٱلطَّاعَةِ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَٱلظَّفَرِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ جِبَايَةِ ٱلْخَرَاجِ بِحَاجَةِ قِيَامِ ٱلْمُلْكِ إِلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ حُقُوقِ ٱلسُّلْطَانِ فِي عِمَارَةِ ٱلثُّغُورِ وَتَحْصِينِ ٱلْأَعْمَالِ وَتَقْوِيَةِ ٱلرِّجَالِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّمَطِ . قَالَ فِي مَوَادِّ ٱلْبَيَانِ : وَعَلَى هٰذَا ٱلسَّبِيلِ جَرَتْ سُنَّةُ ٱلْكُتَّابِ فِي جَمِيعِ ٱلْكُتُبِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَٱلْفُتُوحِ وَٱلتَّهَانِي وَٱلتَّعَازِي وَٱلتَّهَادِي وَٱلِٱسْتِخْبَارِ وَٱلِٱسْتِبْطَاءِ وَٱلْإِحْمَادِ وَٱلْإِذْمَامِ وَغَيْرِهَا لِيَكُونَ

ذٰلِكَ بِسَاطًا لِمَا يُرِيدُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَحُجَّةً يَسْتَظْهِرُ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ لِاَنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرْشٍ يُفْرَشُ قَبْلَهُ لِيَكُونَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْاَسَاسِ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ . (قَالَ) : وَيُرْجَعُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ اِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْكَاتِبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تُشَاكِلُهَا . (ثُمَّ قَالَ) وَٱلطَّرِيقُ فِي اِصَابَةِ ٱلْمَرْمَى فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ اَنْ تُجْعَلَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْاَغْرَاضِ وَاَنْ يُوضَعَ لِلْاَمْرِ ٱلْخَاصِّ مُقَدِّمَةٌ خَاصَّةٌ وَلِلْاَمْرِ ٱلْعَامِّ مُقَدِّمَةٌ عَامَّةٌ وَلَا يُطَوَّلَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِقْتِصَارِ وَلَا يُقَصَّرَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ . وَلَا تُجْعَلَ اَغْرَاضُهَا بَعِيدَةَ ٱلْمَآخِذِ مُعْتَاصَةً عَلَى ٱلْمُتَصَفِّحِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكَاتِبَ رُبَّمَا قَصَدَ اِظْهَارَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي وُجُوهِ ٱلنُّطْقِ فَخَرَجَ اِلَى ٱلْاِمْلَالِ وَٱلْاِضْجَارِ ٱلَّذِي تَتَبَرَّمُ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ وَذَوُو ٱلْاَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ . اَمَّا ٱلْكُتُبُ ٱلَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ كَرِقَاعِ ٱلتُّحَفِ وَٱلْهَدَايَا وَنَحْوِهَا فَلَا تُجْعَلُ لَهَا مُقَدِّمَةٌ فَاِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ وَغَيْرُ وَاقِعٍ مَوْقِعَهُ . (ٱلْاَصْلُ ٱلرَّابِعُ) مَوَاقِعُ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلدَّائِرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَيَلْزَمُ اَنْ يُمَيِّزَ مَوْقِعَ كُلٍّ لِيَضَعَهُ مَكَانَهُ . وَقَالَ فِي ذَخِيرَةِ ٱلْكُتَّابِ : يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ اَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَوَاقِعَهَا لِيُرَتِّبَهَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا فَرْقًا يَقِفُهُ عَلَى ٱلْوَاجِبِ وَيَنْتَهِي بِهِ اِلَى ٱلصَّوَابِ فَيُخَاطِبُ كُلًّا فِي مُكَاتَبَتِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ . . وَمَتَى ٱسْتَمَرَّ ٱلْكَاتِبُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةِ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْمُنَاقَضَةِ نَقَصَتِ ٱلْمَعَانِي وَرَذُلَتِ ٱلْاَلْفَاظُ وَسَقَطَتِ ٱلْمَقَاصِدُ وَكَانَ

الكاتب قد اخل من الصناعة بعظيمها وترك من البلاغة غاية محكيها بل يجب ان بدا بخطاب رئيس او نظير او مرؤوس ان يكون ما يتخلل مكاتبته من الالفاظ على اتساق الى آخرها واطراد من غير مخالفة بينها ولا مضادة ولا مناقضة . نعم يحسن ذلك في معاتبات الاخوان والمداعبات الجارية بين الخلان . . . (الاصل الخامس) الادعية التي جرت عادة السلف وتبعهم الخلف باستعمالها في المكاتبات.والنظر فيها من ستة اوجه : (الاول) ان يعرف مراتب الدعاء ليوقعها في مواقعها ويوردها في مواردها . ويأتي ذلك في عدة ادعية منها : الدعاء باطالة البقاء والدعاء باطالة العمر . فالدعاء باطالة البقاء ارفع من الدعاء باطالة العمر . وذلك ان البقاء لا يدل على مدة تنقضي لانه ضد الفناء والعمر يدل على مدة تنقضي ولذلك يوصف الله تعالى بالبقاء ولا يوصف بالعمر . . (الثاني) ان يعرف ما يناسب كل واحد من ارباب المناصب الجليلة من الدعاء فيخصه به فيأتي بالدعاء في مكاتبة الملوك بدوام السلطان وخلود الملك . والى الامراء بالدعاء بعز النصر ومداومة النعمة . والى الوزراء من ارباب الاقلام بسبوغ النعماء وتخليد السعادة ودوام المجد.والى القضاة والحكام بالدعاء بعز الاحكام . والى التجار بالدعاء بمزيد الاقبال وشبه ذلك . (والثالث) ان يعرف ما يناسب كل حالة من حالات المكاتبات فيأتي كل حالة بما يناسبها من الدعاء فتكون الادعية دالة على مقاصد الكتاب

فَإنْ كَانَ فِي الْهَنَاءِ وَالشُّكْرِ اوِ التَّعْزِيَةِ اتَى كُلاً بِمَا يُنَاسِبُهُ. (الرَّابِعُ) انْ يَعْرِفَ مَوَاضِعَ الدُّعَاءِ عَلَى الْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ ... (الْاَصْلُ السَّادِسُ) انْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ الْمَكْتُوبَ اِلَيْهِ مِنَ الْاَلْقَابِ فَيُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْهَا. كَالْمَقَامِ وَالْمَقَرِّ وَالْجَنَابِ وَالنَّادِي وَالْمَجْلِسِ فِي زَمَانِنَا ... وَكَذٰلِكَ النُّعُوتَ. (الْاَصْلُ السَّابِعُ) انْ يُرَاعِيَ مَقَاصِدَ الْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِيَ لِكُلِّ مَقْصِدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَمَدَارُ ذٰلِكَ عَلَى امْرَيْنِ: (الْاَمْرُ الْاَوَّلُ) انْ يَأْتِيَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يَلِيقُ بِهَا وَيَتَخَيَّرَ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا فَإنْ ذَكَرَ النِّعْمَةَ حَمِدَ اللّٰهَ وَإنْ ذَكَرَ الْبَلْوَى شَفَعَهَا بِالْاِسْتِعَانَةِ بِاللّٰهِ وَالرُّجُوعِ اِلَيْهِ فِيهَا. وَيَلْتَحِقُ بِذٰلِكَ ايْضًا انَّهُ اِذَا ذَكَرَ الرَّئِيسَ فِي اثْنَاءِ الْمُكَاتَبَةِ دَعَا لَهُ مِثْلَ انْ يَقُولَ عِنْدَ ذِكْرِ السُّلْطَانِ: خَلَّدَ اللّٰهُ مُلْكَهُ وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا الْمَجْرَى. (الْاَمْرُ الثَّانِي) انْ يَتَخَطَّى التَّصْرِيحَ اِلَى التَّلْوِيحِ وَالْاِشَارَةِ اِذَا الْجَأَتْهُ الْحَالُ اِلَى الْمُكَاتَبَةِ بِمَا لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ وَاظْهَارُهُ عَلَى صَرَاحَتِهِ مِمَّا فِي ذِكْرِهِ اطِّرَاحُ مَهَابَةِ السُّلْطَانِ وَاسْمَاعُهُ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ اِخْلَالُ الْاَدَبِ فِي حَقِّهِ كَمَا لَوْ اَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَسُوءُهُ سَمَاعُهُ فَيَحْتَاجُ الْمُنْشِئُ اِلَى اسْتِعْمَالِ التَّوْرِيَةِ فِي هٰذِهِ الْمَوَاضِعِ وَالتَّلَطُّفِ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ هٰذِهِ الْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ خِيَانَةٍ فِي طَيِّ مَا لَا غِنَى بِهِ عَنْ عِلْمِهِ. وَهٰذَا مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ اِلَّا الْمُبَرِّزُ فِي الصِّنَاعَةِ الْمُتَصَرِّفُ فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ.. (الْاَصْلُ الثَّامِنُ) انْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ فَهْمِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ فِي الْمُكَاتَبَاتِ مِنَ اللِّسَانِ فَيُخَاطِبَ كُلَّ احَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ اللَّفْظِ وَمَا

يصلُ إليه فهمُهُ مِنَ الخطابِ (استشهادٌ مِنْ كتابِ الصناعتينِ)..
(الأصلُ التاسعُ) أنْ يراعيَ رتبةَ المكتوبِ عنهُ والمكتوبِ إليهِ في الخطابِ فيُعبِّرَ عن كلِّ واحدٍ منهما بما يليقُ بهِ . ويخاطبَ المكتوبَ إليهِ بما يليقُ بمقامِهِ . فأمّا المكتوبُ عنهُ فيختلفُ الحالُ فيهِ باختلافِ منصبِهِ ورتبتِهِ فيُعبّرُ في الكتبِ الصادرةِ عن أبوابِ الخلافةِ بأميرِ المؤمنينَ مثلُ أنْ يقالَ : فجرى أمرُ أميرِ المؤمنينَ في كذا على كذا . وأوعزَ أميرُ المؤمنينَ إلى فلانٍ بكذا واقتضى رأيُ أميرِ المؤمنينَ كذا وهلمَّ جرًّا. وكذلكَ أنْ يعرفَ قدرَ المكتوبِ إليهِ مِنَ الرؤساءِ والنظراءِ والعلماءِ والوكلاءِ ليفرقَ بينَ مَنْ يكتبُ إليهِ.. ألا ترى أنَّكَ لوْ خاطبتَ سلطانًا أوْ وزيرًا بالتعزيةِ عنِ المصيبةِ مِنْ مصائبِ الدنيا لما جازَ أنْ تبنيَ الكلامَ على وعظِهِ وتبصيرِهِ وإرشادِهِ وحضِّهِ على الأخذِ بحظٍّ مِنَ الصبرِ .. وإنَّما الصوابُ أنْ تبنيَ الخطابَ على أنَّهُ أعلى شأنًا وأرفعُ مكانًا مِنْ أنْ يُعزّى بخلافِ المتأخرِ في الرتبةِ فإنَّهُ إنَّما يُعزّى تنبيهًا وتذكيرًا وتصبيرًا وتعريفًا للواجبِ في تلقّي السرّاءِ بالشكرِ والضرّاءِ بالصبرِ ..
(الأصلُ العاشرُ) أنْ يراعيَ مواقعَ الآياتِ والسجعَ في الكتبِ وذكرَ أبياتِ الشعرِ في المكاتباتِ ...



الفصل التاسع

في حل الشعر والاحتذاء

البحث الاوَّل

في حسن الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٣٩ من علم الادب)

لَيسَ لِأَحَدٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْقَائِلِينَ غِنًى عَنْ تَنَاوُلِ ٱلْمَعَانِي مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَٱلصَّبُّ على قَوَالِبِ مَنْ سَبَقَهُ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ اِذَا اَخَذَهَا اَنْ يَكْسُوَهَا اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِ وَيُبْرِزَهَا فِي مَعَارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَصْفِهِ وَيُؤَدِّيَهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا ٱلْأُولَى وَيَزِيدَ فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَجَمَالِ حِلْيَتِهَا وَمَعْرِضِهَا . فَاِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَهُوَ اَوْلَى بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ اِلَيْهَا وَلَوْلَا اَنَّ ٱلْقَائِلَ يُؤَدِّي مَا سَمِعَ لَمَا كَانَ فِي طَاقَتِهِ اَنْ يَقُولَ وَاِنَّمَا يَنْطِقُ ٱلطِّفْلُ بَعْدَ ٱسْتِمَاعِهِ مِنَ ٱلْبَالِغِينَ . وَقَالَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ : لَوْلَا اَنَّ ٱلْكَلَامَ يُعَادُ لَنَفِدَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُّ شَيْءٍ ثَنَيْتَهُ قَصُرَ اِلَّا ٱلْكَلَامَ فَاِنَّكَ اِذَا ثَنَيْتَهُ طَالَ . عَلَى اَنَّ ٱلْمَعَانِيَ مُشْتَرِكَةٌ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ فَرُبَّمَا وَقَعَ ٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ لِلسُّوقِيِّ وَٱلنَّبَطِيِّ وَٱلزِّنْجِيِّ وَاِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا وَتَأْلِيفِهَا وَنَظْمِهَا . وَقَدْ يَقَعُ لِلْمُتَأَخِّرِ مَعْنًى سَبَقَهُ اِلَيْهِ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُلِمَّ بِهِ وَلٰكِنْ

كَمَا وَقَعَ لِلْاَوَّلِ وقَعَ لِلْآخِرِ . وَهٰذَا اَمْرٌ عَرَفْتُهُ مِنْ نَفْسِي فَلَسْتُ اَمْتَرِي فِيهِ . وَقَدْ قِيلَ : اِنَّ مَنْ اَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ كَانَ لَهُ سَالِخًا وَمَنْ اَخَذَهُ فَكَسَاهُ لَفظًا مِنْ عِنْدِهِ اَجْوَدَ مِنْ لَفْظِهِ كَانَ هُوَ اَوْلَى بِهِ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ . وَقَالُوا : اِنَّ اَبَا عُذْرَةِ ٱلْكَلَامِ مَنْ سَبَكَ لَفْظَهُ عَلَى مَعْنَاهُ . وَمَنْ اَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ . عَلَى اَنَّ اَبْتِكَارَ ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّبْقَ اِلَيْهِ لَيْسَ هُوَ فَضِيلَةً تَرْجِعُ اِلَى ٱلْمَعْنَى وَاِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ تَرْجِعُ اِلَى ٱلَّذِي ٱبْتَكَرَهُ وَسَبَقَ اِلَيْهِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ جَيِّدٌ وَاِنْ كَانَ مَسْبُوقًا اِلَيْهِ . وَٱلْوَسَطُ وَسَطٌ وَٱلرَّدِيءُ رَدِيءٌ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا اِلَيْهِمَا . وَقَدْ اَطْبَقَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ وَٱلْمُتَاخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ ٱلْمَعَانِي بَيْنَهُمْ فَلَيْسَ عَلَى اَحَدٍ فِيهِ عَيْبٌ اِلَّا اِذَا اَخَذَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ وَاَخَذَهُ فَاَفْسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَرُبَّمَا اَخَذَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْقَوْلَ ٱلْمَشْهُورَ وَلَمْ يُبَالِ كَمَا فَعَلَ ٱلنَّابِغَةُ فَاِنَّهُ اَخَذَ قَوْلَ وَهْبِ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرٍ :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ

وَقَالَ ٱلنَابِغَةُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... لَا ٱلنُّورُ نُورٌ وَلَا ٱلْاِظْلَامُ اِظْلَامُ

وَاَخَذَ قَوْلَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ فِي عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ :

هُوَ ٱلشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَاَفْضَلَتْ
عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فَقَالَ :

فَاِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ ... اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَسَنَتَّبِعُ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَٱلْحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي سُتْرَةٍ فَيُحْكَمُ لَهُ بِٱلسَّبْقِ إِلَيْهِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنًى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدَهُ فِي نَثْرٍ . أَوْ مِنْ نَثْرٍ فَيُورِدَهُ فِي نَظْمٍ أَوْ يَنْقُلَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمْرٍ فَيَجْعَلَهُ فِي مَدِيحٍ أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلَهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكْمُلُ بِهٰذَا إِلَّا ٱلْمُبْرِزُ وَٱلْكَامِلُ ٱلْمُقَدَّمُ فَمِمَّنْ أَخْفَى دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَسَتَرَهُ غَايَةَ ٱلسَّتْرِ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

جَمَعْتَ عُرَى أَعْمَالِهَا بَعْدَ فُرْقَةٍ ... إِلَيْكَ كَمَا ضَمَّ ٱلْأَنَابِيبَ عَامِلُ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْحِبَالِ ٱلرَّبَعِيِّ :

أُولَئِكَ إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رُزِئْتُهُمْ ... فَمَا ٱلْكَفُّ إِلَّا إِصْبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ نَقَلَهُ مِنْ مَعْنًى إِلَى آخَرَ :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا ... تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَخْطَلِ :

عَرُوفٌ لِحَقِّ ٱلسَّائِلِينَ كَأَنَّهُ ... بِعَقْرِ ٱلْمَتَالِي طَالِبٌ بِذُنُوبِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ وَزَادَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَوَّلِ قَوْلُهُ :

أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

مِنْ قَوْلِ ٱلسَّمَوْءَلِ :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا ... وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

أَوْرَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي نِصْفِ بَيْتٍ وَٱسْتَوْفَى ٱلتَّطْبِيقَ وَمِنْ هٰذَا ٱلضَّرْبِ قَوْلُهُ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ ٱلسَّمَاحَ فَمَا ... أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلخَيَّاطِ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ ٱبْتَغِي ٱلغِنَى ... وَلَمْ ادْرِ انَّ ٱلجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي

فَلَا انَا مِنْهُ مَا افَادَ ذَوُو ٱلغِنَى ... افَدتُ وَاعْدَانِي فَاتْلَفتُ مَا عِنْدِي

وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

أُحِبُّ ٱلرِّيحَ مَا هَبَّتْ شَمَالًا ... وَاحْسُدُهَا إِذَا هَبَّتْ جَنُوبَا

قَسَّمَ تَقْسِيمًا حَسَنًا وَمَعْنَاهُ : انَّ ٱلشَّمَالَ تَجِيءُ مِنْ نَاحِيَةِ صَدِيقِهِ إِلَيْهِ فَاحَبَّهَا وَٱلجَنُوبَ تَهِبُّ إِلَى ٱلحَبِيبِ فَحَسَدَهَا لِمُبَاشَرَتِهَا جِسْمَهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ جِرَانِ ٱلعَوْدِ :

إِذَا هَبَّتِ ٱلأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ ارْضِكُمْ ... وَجَدتُّ لِرَيَّاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدَا

وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ ايْضًا :

وَيُغْمِدُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱلنَّحْرِ وَٱلجِيدِ

عَلَى ٱلسَّابِقِ إِلَى هٰذَا ٱلمَعْنَى وَهُوَ بَعْضُ ٱلفُرْسَانِ اذْ يَقُولُ :

جَعَلْتُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱللَّيْثِ مِنْهُ ... وَبَيْنَ سَوَادِ لِحْيَتِهِ عِذَارَا

لِانَّ ٱلاغْمَادَ فِيهِ اشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ وَضْعِ ٱلعِذَارِ عَلَيْهِ . وَقَدْ زَادَ ابُو نُوَاسٍ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَدْ اطُولُ نِجَادَ ٱلسَّيْفِ مُحْتَبِيًا ... مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ هَزَّتْهُ ٱلانَابِيبُ

فَقَالَ ابُو نُوَاسٍ :

سَبْطُ ٱلبَنَانِ إِذَا ٱحْتَبَى بِنِجَادِهِ ... غَمْرُ ٱلجَمَاجِمِ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

قَوْلُهُ : غَمْرُ ٱلجَمَاجِمِ احْسَنُ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ مِثْلُ ٱلرُّدَيْنِيِّ .

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

اَشَمُّ طُوَالُ ٱلسَّاعِدَيْنِ كَأَنَّمَا ... يُلَاثُ نِجَادَا سَيْفِـهِ بِلِوَاءِ

اَحْسَنُ لَفظًا وَسَبكًا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ :

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعَالَ ٱلسِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ فِي ٱبْنَيْ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ ٱلْمَخَايِلِ فِيهِمَا ... لَوْ أُمْهِلَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

لَوْ يُنْسَبَانِ لَكَانَ هٰذَا غَارِبًا ... لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هٰذَا كَاهِلَا

اِنَّ ٱلْهِلَالَ اِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ ... أَيْقَنْتَ اَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

اَحْسَنُ وَاَجْوَدُ مِمَّا اَخَذَ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ ... لَوَ انَّ ٱلْمَنَايَا اَنْسَأَتْهُ لَيَالِيَا

لَا يَقَعُ بَيْتُ ٱلْفَرَزْدَقِ مَعَ اَبْيَاتِ اَبِي تَمَّامٍ مَوْقِعًا . وَاَخَذَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا وَامَرَتْنِي ٱلنَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا ... اِلَى اَحَدٍ اِلَّا اِلَيْكَ ضَمِيرُهَا

فَشَرَحَهُ وَقَالَ :

وَمَا طَوَّفْتُ فِي ٱلْآفَاقِ اِلَّا ... وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

مُقِيمُ ٱلظَّنِّ عِنْدَكَ وَٱلْاَمَانِي ... وَاِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي ٱلْبِلَادِ

وَاِلَى بَيْتِ ٱلْفَرَزْدَقِ يُشِيرُ ٱلْقَائِلُ :

مَدَحْتُكَ جَهْدِي بِٱلَّذِي اَنْتَ اَهْلُهُ

فَقَصَّرَ عَمَّا فِيكَ مِنْ صَالِحٍ جَهْدِي

فَمَا كُلُّ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ قُلْتُهُ

وَلَا كُلُّ مَا فِيهِ يَقُولُ ٱلَّذِي بَعْدِي

وَكُنْتُ إِذَا هَيَّأْتُ مَدْحًا لِمَاجِدٍ
أَتَانِي ٱلَّذِي فِيهِ بِأَدْنَى ٱلَّذِي عِنْدِي

وَمِنْ هَا هُنَا أَخَذَ أَبُو نُوَاسٍ قَوْلَهُ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ ٱلَّذِي نُثْنِي
وَإِنْ جَرَتِ ٱلْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ ٱلَّذِي نَعْنِي

وَيُشِيرُ إِلَى قَوْلِ ٱلْخَنْسَاءِ :

وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلدُّرُوعَ لِمَوْقِفٍ لَبِسَتْهُمُ ٱلْأَحْسَابُ فِيهِ دُرُوعَا

أَتَمُّ وَأَجْوَدُ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

لَبِسُوا ٱلْقُلُوبَ عَلَى ٱلدُّرُو عِ مُظَاهِرِينَ لِدَفْعِ ذٰلِكْ

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : إِنَّ ٱلنَّدَى حَيْثُ تَرَى ٱلضِّغَاطَا . فَأَخَذَهُ بَشَّارٌ وَقَدْ شَرَحَهُ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ :

تَسْقُطُ ٱلطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ ٱلْحَبُّ م وَتُغْشَى مَنَازِلُ ٱلْكُرَمَاءِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

يَزْدَحِمُ ٱلنَّاسُ عَلَى بَابِهِ وَٱلْمَشْرَبُ ٱلْعَذْبُ كَثِيرُ ٱلزِّحَامْ

وَسَمِعَ أَبُو تَمَّامٍ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ : إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ قَضَاءُ ٱللهِ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ . وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ ٱحْتِسَابًا سَلَوْتَ كَمَا تَسْلُو ٱلْبَهَائِمُ فَحَكَاهُ حِكَايَةً حَسَنَةً فِي قَوْلِهِ :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي ٱلتَّعَازِي لِأَشْعَثٍ ... وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ ٱلْمَآثِمِ

أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً ... فَتُؤْجَرَ أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ ٱلْبَهَائِمِ

خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَٱلْأَسَى ... وَتِلْكَ ٱلْغَوَانِي لِلْبُكَا وَٱلْمَآتِمِ

وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ لَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ . وَإِنَّمَا ٱلتَّسْلِيمُ وَٱلسَّلْوَةُ لِحَزْمَاءِ ٱلرِّجَالِ . وَإِنَّ ٱلْهَلَعَ وَٱلْجَزَعَ لِرَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ وَسَمِعَ قَوْلَ زِيَادٍ لِأَبِي ٱلْأَسْوَدِ . لَوْ أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَأَسْتَعْمَلْتُكَ . فَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ : إِنْ كُنْتَ تُرِيدُنِي لِلصِّرَاعِ فَإِنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ وَإِلَّا فَغَيْرُ شَدِيدٍ أَنْ آمُرَ وَأَنْهَى فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا ... كَأَنَّ ٱلْمَجْدَ يُدْرَكُ بِٱلصِّرَاعِ

وَلَمَّا قَالَ بَشَّارٌ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ ... وَفَازَ بِٱلطَّيِّبَاتِ ٱلْفَاتِكُ ٱللَّهِجُ

تَبِعَهُ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ فَقَالَ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ مَاتَ غَمًّا ... وَفَازَ بِٱللَّذَّةِ ٱلْجَسُورُ

فَلَمَّا سَمِعَ بَشَّارٌ هٰذَا ٱلْبَيْتَ قَالَ : ذَهَبَ ٱلْخَبِيثُ بِبَيْتِي . وَمِنْ حُسْنِ ٱلِٱتِّبَاعِ أَيْضًا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَيْثُ كَتَبَ : إِذَا كَانَ لِلْمُحْسِنِ مِنَ ٱلثَّوَابِ مَا يُقْنِعُهُ وَلِلْمُسِيءِ مِنَ ٱلْعِقَابِ مَا يَقْمَعُهُ ٱزْدَادَ ٱلْمُحْسِنُ فِي ٱلْإِحْسَانِ رَغْبَةً وَٱنْقَادَ ٱلْمُسِيءُ لِلْحَقِّ رَهْبَةً . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ : يَجِبُ عَلَى ٱلْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمُورَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ثُمَّ لَا يَتْرُكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ . فَإِنْ تَرَكَ ذٰلِكَ تَهَاوَنَ ٱلْمُحْسِنُ وَٱجْتَرَأَ ٱلْمُسِيءُ وَفَسَدَ

ٱلْأَمْرُ وَضَاعَ ٱلْعَمَلُ . وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبْ

فَكَتَبَ وَلَوْ أُمْسِكَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ لَنَطَقَ أَثَرُكَ عَلَيَّ . وَفِي فَصْلٍ آخَرَ : وَلَوْ جَحَدْتُكَ إِحْسَانَكَ لَأَكْذَبَتْنِي آثَارُهُ وَنَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدَاتُ ٱلْأَحْوَالِ أَعْدَلُ مِنْ شَهَادَاتِ ٱلرِّجَالِ . أَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَشَرَحَهُ فِي قَوْلِهِ :

حَالُ ٱلسَّدَادُ فِي عَمَّا يُرِيبُكُمْ ... لٰكِنْ فَمُ ٱلْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ
حَالٌ تَصِيحُ بِمَا أَوْلَيْتَ مُعْلِنَةً ... وَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ
كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ ... فَمَا يُدَاوِيكُمْ مِنِّي سِوَى ٱلْجُودِ

وَمِمَّنْ أَحْسَنَ ٱلْإِتِّبَاعَ أَيْضًا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ عَلِيٍّ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُتِيَ وَيَلْتَمِسُ ٱلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ . فَكَتَبَ : أَحَقُّ مَنْ أَثْبَتَ لَكَ ٱلْعُذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ مَنْ لَمْ يُخْلِ سَاعَةً مِنْ بِرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . وَأَخَذَهُ أَخْذًا ظَاهِرًا أَحْمَدُ بْنُ صُبَيْحٍ فَقَالَ : فِي شُكْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِحْسَانِ ٱلْأَمِيرِ شَاغِلٌ عَنِ ٱسْتِبْطَاءِ مَا تَأَخَّرَ مِنْهُ . وَأَخَذَهُ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ فَقَالَ : لَسْتُ مُسْتَقِلًّا لِشُكْرِ مَا مَضَى مِنْ بَلَائِكَ فَأَسْتَبْطِئَ دَرَكَ مَا أُؤَمِّلُ مِنْ مَزِيدِكَ . وَمِنْ هٰذَا أَيْضًا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً ... حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَأَخْبَرَ ٱلْأَخْفَشُ قَالَ : قَالَ أَبُو تَمَّامٍ لِٱبْنِ أَبِي رُؤَادٍ لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ : أَنْتَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ

ٱبْنُ أَبِي رُؤَادٍ : مَا أَحسَنَ هٰذَا مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَهُ . قَالَ : مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ وَلَيسَ عَلَى ٱللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . أَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِي وَاحِدِ

وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا ٱلكَلَامَ يَظُنُّهُ مَسْرُوقًا مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ   رَأَيْتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَسَمِعَ قُلَيبٌ ٱلْمُعْتَزِلِيُّ أَبيَاتًا لِلْعُتْبِيِّ وَهِيَ :

أَفَلَتْ بِطَالَتُـهُ وَرَاجَعَهُ   حِلْمٌ وَأَعقَبَهُ ٱلْهَوَى نَدَمَا

أَلْقَى عَلَيْهِ ٱلدَّهْرُ كَلْكَلَهُ   وَأَعَارَهُ ٱلإِقْتَارَ وَٱلْعَدَمَا

فَإِذَا أَلَمَّ بِهِ أَخُو ثِقَـةٍ   غَضَّ ٱلْجُفُونَ وَمَجْمَجَ ٱلْكَلِمَا

فَقَالَ لِبَعْضِ ٱلْمُلُوكِ يَسْتَعْطِفُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِهِ : جَعَلَنِي ٱللهُ فِدَاكَ . لَيسَ هُوَ ٱلْيَوْمَ كَمَا كَانَ أَمْسِ إِنَّهُ وَحَيَاتِكَ أَفَلَتْ بِطَالَتُهُ إِيْ وَٱللهِ وَرَاجَعَهُ حِلْمُهُ وَأَعقَبَهُ وَحَقِّكَ ٱلْهَوَى نَدَمًا أَلْقَى ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِ كَلْكَلَهُ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ إِذَا رَأَى أَخَا ثِقَةٍ غَضَّ بَصَرَهُ وَمَجْمَجَ كَلَامَهُ .

وَبِهٰذَا يُعْرَفُ أَنَّ حَلَّ ٱلْمَنظُومِ وَنَظْمَ ٱلْمَحْلُولِ أَسْهَلُ مِنِ ٱبْتِدَائِهِمَا لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا حُلَّتْ مَنظُومًا أَوْ نُظِمَتْ مَنْثُورًا حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ تَزِيدُ فِيهَا شَيْئًا فَتَنْحَلُّ أَوْ تَنْقُصُ مِنْهَا شَيْئًا فَتَنْتَظِمُ . وَإِذَا أَرَدْتَ ٱبْتِدَاءَ كَلَامٍ وَجَدْتَ ٱلْمَعَانِيَ غَائِبَةً عَنْكَ فَتَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ يُحْضِرُكَهَا وَٱلْمَحْلُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ عَلَى أَرْبَعَـةِ أَضْرُبٍ : ضَرْبٌ مِنْهَا يَكُونُ بِإِدْخَالِ لَفْظَةٍ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ . وَضَرْبٌ يُحَلُّ بِتَأْخِيرِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَقْدِيمِ أُخْرَى فَيَحْسُنُ مَحْلُولُهُ وَيَسْتَقِيمُ . وَضَرْبٌ مِنْهُ يُحَلُّ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ وَلَا يَحْسُنُ وَلَا يَسْتَقِيمُ . فَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ فَمِثَالُـهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

صدرِ كلامٍ قُلَيبِ المعتزليّ . وأمّا الضربُ الثاني فمثالُهُ ما ذكر بعضُ الكُتّابِ من قولِ البحتريّ :

نطلُبُ الأكثرَ في الدُّنيا وقدْ   تَبلغُ الحاجةُ فيها بالأقلْ

ثُمَّ قال : فإذا نثرتَ ذلك ولم تَزِدْ في ألفاظهِ شيئًا قلتَ : نطلُبُ في الدُّنيا الأكثرَ ونبلُغُ منها الحاجةَ بالأقلّ . فأمّا الضربُ الثالثُ فهوَ أن تُوضعَ ألفاظُ البيتِ في مواضعَ لا يَحسُنُ وضعُها في غيرِها فيَحِلُّ إذا نُثِرَ بتأخيرِ لفظٍ وتقديمِ آخرَ فيحتاجُ نثرُهُ إلى النُّقصانِ منهُ والزِّيادةِ فيهِ . كقولِ البحتريّ أيضًا :

يُسَرُّ بعُمرانِ الدِّيارِ مُضَلَّلٌ   وعُمرانُها مُستأنَفٌ من خرابِها

ولمْ أرتضِ الدُّنيا أوانَ مجيئِها   فكيفَ ارتضائيها أوانَ ذهابِها

فإذا نُثِرَ على هذا الوجهِ قيلَ : يُسَرُّ مُضَلَّلٌ بعُمرانِ الدُّنيا ومن خرابِها عُمرانُها مُستأنَفٌ ولم أرتضِ أوانَ مجيئِها الدُّنيا فكيفَ أوانَ ذهابِها ارتضائيها . فهذا نثرٌ فاسدٌ فإذا غيّرتَ بعضَ ألفاظهِ حسُنَ وهوَ أن تقولَ : يُسَرُّ المُضَلَّلُ بعُمرانِ الدِّيارِ وإنّما يُستأنَفُ عُمرانُها من خرابِها . وما ارتضيتُ الدُّنيا أوانَ مجيئِها فكيفَ ارتضيها أوانَ ذهابِها . ونحنُ نقولُ إنَّ منَ النَّظمِ ما لا يُمكِنُ حلُّهُ أصلًا بتأخيرِ لفظةٍ وتقديمِ أخرى منهُ حتّى يَلحقَ بهِ التَّغييرُ والزِّيادةُ والنُّقصانُ . مثلُ قولِ الشاعرِ :

لِسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ   فلمْ يبقَ إلّا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ

فالمصراعُ الأوّلُ يُمكِنُ أن تُؤخَّرَ ألفاظُهُ وتُقدَّمَ فيصيرُ نثرًا ،

مُسْتَقِيماً وَهُوَ اَنْ تَقُولَ : فُؤَادُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ . وَلَا يُمْكِنُ فِي ٱلْمِصْرَاعِ ٱلثَّانِي ذٰلِكَ حَتَّى تَزِيدَ فِيهِ اَوْ تَنْقُصَ مِنْهُ لِاَنَّ ٱلْمِصْرَاعَ ٱلثَّانِي اِنَّمَا هُوَ تَذْيِيلٌ لِلْمِصْرَاعِ ٱلْاَوَّلِ فَاِذَا اَرَدتَّ اَنْ تَحُلَّهُ حَلًّا مُقْتَصِرًا بِغَيْرِ لَفْظِهِ قُلْتَ : اَلْاِنْسَانُ شَطْرَانِ لِسَانٌ وَجَنَانٌ . وَمِمَّا لَا يُمْكِنُ حَلُّهُ بِتَقْدِيمِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَأْخِيرِ اُخْرَى اَيْضًا قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

اَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا اَمَا وَٱللّٰهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبْقَى

فَتَحْتَاجُ فِي نَثْرِهِ اِلَى تَغْيِيرِهِ وَاِبْدَالِ اَلْفَاظِهِ فَتَقُولُ : اَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ مَاتُوا وَمَضَوْا وَطَعَنُوا فَنَاَوْا فَوَٱللّٰهِ مَا ظَعَنُوا لِتُقِيمَ وَمَا رَامُوا اِلَّا لِتَرِيمَ . وَلَا مَاتُوا لِتَحْيَا وَلَا فَنُوا لِتَبْقَى . وَفِي هٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظِ طُولٌ وَلَيْسَ بِصَائِرٍ عَلَى مَا خَبَّرْتُكَ فَاِنْ اَرَدتَّ اخْتِصَارَهُ قُلْتَ : اَمَا وَٱللّٰهِ اِنَّ ٱلْمَوْتَ لَمْ يُصِبْكَ فِي اَبِيكَ اِلَّا لِيُصِيبَكَ فِيكَ . وَٱلضَّرْبُ ٱلرَّابِعُ اَنْ تَكْسُوَ مَا تَحُلُّهُ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِكَ . وَهٰذَا اَرْفَعُ دَرَجَاتِكَ . وَمِنْهُ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِلرَّبِيعِ بْنِ خَيْثَمٍ وَقَدْ رَاَى اجْتِهَادَهُ فِي ٱلْعِبَادَةِ : قَتَلْتَ نَفْسَكَ . فَقَالَ : رَاحَتَهَا اَطْلُبُ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

سَاَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ مِنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيِّ فَقَالَ نَثْرًا : اِنَّ امْرَاً لَمْ يَعُدَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ اِلَّا اَبًا مَيِّتًا لَمُعْرِقٌ لَهُ فِي ٱلْمَوْتِ . فَاَخَذَهُ اَبُو نُوَاسٍ فَقَالَ :

وَمَا ٱلنَّاسُ اِلَّا هَالِكٌ وَٱبْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي ٱلْهَالِكِينَ عَرِيقُ

وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ اَبِي تَمَّامٍ :

فَإِنْ نَجِدْ عِلَّةً نُعَمُّ بِهَا حَتَّى تَرَانَا نُعَادُ مِنْ مَرَضِهْ

فَكَتَبَ مَنْ نَزَلَ مَنْزِلَتِي مِنْ طَاعَتِكَ وَمُشَارَكَتِكَ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُهَنَّأَ بِالنِّعْمَةِ تَحْدُثُ عِنْدَكَ وَيُعَزَّى عَلَى النَّائِبَةِ تُلِمُّ بِكَ. فَنَقَلَ الْعِيَادَةَ إِلَى الْمُصِيبَةِ وَالتَّعْزِيَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْكِتَابَةُ نَقْضُ الشِّعْرِ. وَقِيلَ لِلْعَتَّابِيِّ: بِمَ قَدَرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ. فَقَالَ: بِحَلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ. وَأَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ:

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا قَدِ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

وَزَادَ فِيهِ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ وَمِنْهُ أَخَذَ. وَهُوَ قَوْلُهُ:

وَجُنْحُ لَيْلٍ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

لِأَنَّ الْاكْتِحَالَ يَكُونُ بِالْإِثْمِدِ وَلَا يَكُونُ بِالْقَارِ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ الْعَبَّاسِ:

لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلْ

فَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى وَسَطْوَتُهَا لِلْأَجَلْ

وَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ

وَأَخَذَ الْمَعْنَى الْأَمِيرُ أَبُو عَزِيزٍ قَتَادَةُ أَمِيرُ مَكَّةَ فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى يَدِهِ مِنْ أَبْيَاتٍ:

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ تَلْثِمُ ظَهْرَهَا وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

فَأَتْبَعَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَأَحْسَنَ الْإِتْبَاعَ فَقَالَ:

أَصْبَحْتُ بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ وَالْحُرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا

فَامْدُدْ إِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا بَذْلَ النَّوَالِ وَظَهْرُهَا التَّقْبِيلَا

وَمَا أَلْطَفَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

وَمَا ٱلدَّهْرُ فِي حَالِ ٱلسُّكُونِ بِسَاكِنٍ
سِوَى أَنَّهُ مُسْتَجْمِعٌ لِوُثُوبِ

وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَقُلْتُ يَا قَوْمِ إِنَّ ٱللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ   عَلَى بَرَاثِنِهِ لِوَثْبَةِ ٱلضَّارِي

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ أَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا   رَأَى كَيْفَ يَرْقَى فِي ٱلْمَعَالِي وَيَصْعَدُ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

سَمَّاهُ أُسْرَتُهُ ٱلْعَلَاءَ وَإِنَّمَا   قَصَدُوا بِذٰلِكَ أَنْ يَتِمَّ عُلَاهُ

وَزَادَ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى ٱلْأَفْوَهِ وَٱلنَّابِغَةِ وَأَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فِي مَعْنًى تَدَاوَلُوهُ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْأَفْوَهِ :

وَتَرَى ٱلطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا   رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارْ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ :

إِذَا مَا غَزَوْا بِٱلْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ   عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ   إِذَا مَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَتَأَيَّا ٱلطَّيْرُ غَزْوَتَهُ   ثِقَةً بِٱلشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ

وَقَوْلُ مُسْلِمٍ :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا   فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

اَقامتْ معَ الرَّاياتِ حتَّى كأنَّها مِنَ الجيشِ اِلَّا انَّها لا تُقاتِلُ

وَقَوْلُهُ : (اَقامتْ معَ الرَّاياتِ زِيادةٌ) وزادَ عليهِمْ بعضُ المُحْدَثِينَ فقالَ :

حتَّى تكادَ على اَحيائِهِمْ تقعُ

وقالَ اَبو تمَّامٍ :

هِمَّةٌ تَنْطَحُ النُّجومَ وجِدٌّ آلِفٌ لِلْحَضيضِ فهوَ حَضيضُ

اَخذَهُ البُحْتُرِيُّ فحسَّنَهُ وهوَ قولُهُ :

مُتَحَيِّرٌ يَغْدو بعزمٍ قائمٍ في كلِّ نائبةٍ وجِدٍّ قاعِدِ

وممَّا اَخذَهُ مِنْ اَبي تمَّامٍ فقسَّمَهُ تقسيمًا حسنًا قولُهُ :

مَلِكٌ لَهُ في كلِّ يومِ كريهةٍ اِقدامُ غِرٍّ واَعْتِزامُ مُجرِّبِ

هوَ مِنْ قولِ اَبي تمَّامٍ :

ومُجرَّبونَ سقاهُمُ مِنْ بأسِهِ فاِذا لَقُوا فكأنَّهُمْ اَغمارُ

وقالَ اَبو العتاهيةِ :

كَمْ نِعمةٍ لا يُستقلُّ بِشُكْرِها لِلّٰهِ في طَيِّ المَكارِهِ كامِنَهْ

اَخذَهُ اَبو تمَّامٍ فقالَ :

قَدْ يُنعِمُ اللّٰهُ بِالبَلْوى وَاِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي اللّٰهُ بعضَ القومِ بِالنِّعَمِ

فزادَ عليهِ لِاَنَّهُ اَتى بعكسِ المعنى وقالَ اَبو تمَّامٍ :

رَاَيتُ رجائِي فيكَ وحدَكَ هِمَّةً ولٰكِنَّهُ في سائِرِ النَّاسِ مَطْمَعُ

فاَخذَهُ البُحْتُرِيُّ فاَختصرَهُ فقالَ :

ثَنَى اَمَلِي فاَحتازَهُ عنْ معاشِرٍ يَبيتونَ وَالآمالُ فيهِمْ مَطامِعُ

فَاَخَذَهُ اَبْنُ اَلرُّومِيِّ فَقَالَ :

بِهِ صَدَقَ اللهُ الاَمَانِي حَدِيثَهَا وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ وَالاَمَانِي وَسَاوِسُ

وَقَالَ اَبُو تَمَّام :

اَنْضَرَتْ اَيْكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى عَادَ غُصْنِي سَاقًا وَكَانَ قَضِيبَا

فَقَالَ اَلْبُحْتُرِيُّ وَزَادَ :

حَتَّى يَعُودَ اَلذِّئْبُ لَيْثًا ضَيْغَمًا وَالْغُصْنُ سَاقًا وَالْقَرَارَةُ نِيقَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَفِيمَا اَوْرَدْتُ كِفَايَةٌ

البحث الثاني

في قبح الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٤٣ من علم الادب)

وَقُبْحُ اَلاَخْذِ اَنْ تَعْمِدَ اِلَى اَلْمَعْنَى فَتَتَنَاوَلَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ اَوْ اَكْثَرِهِ اَوْ تُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ مُسْتَهْجَنٍ. وَاَلْمَعْنَى اِنَّمَا يَحْسُنُ بِالْكُسْوَةِ . اَخْبَرَ بَعْضُ اَصْحَابِنَا قَالَ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ : اِنَّا اِذَا سَمِعْنَا اَلْحَدِيثَ مِنْكَ نَسْمَعُهُ بِخِلَافِ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِكَ . قَالَ : اِنِّي اَجِدُهُ عَارِيًا فَاَكْسُوهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِيهِ حَرْفًا . اَيْ مِنْ غَيْرِ اَنْ اَزِيدَ فِي مَعْنَاهُ شَيْئًا فَمَا اُخِذَ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَادَّعَى آخِذُهُ اَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ وَلٰكِنْ وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لِلاَوَّلِ كَمَا سُئِلَ اَبُو عَمْرِو بْنُ اَلْعَلَاءِ عَنِ اَلشَّاعِرَيْنِ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى . فَقَالَ : عُقُولُ اَلرِّجَالِ

تَوَافَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهَا وَذٰلِكَ قَوْلُ طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ   يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

وَهُوَ قَوْلُ اَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ   يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

فَغَيَّرَ طَرَفَةُ ٱلْقَافِيَةَ . وَقَالَ ٱلْبُعَيْثُ :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا   بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا كُلَيْبًا قَدِيمُهَا

وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا   بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ جِدًّا وَٱلْأَخْذُ إِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ مَعِيبًا وَإِنِ ٱدَّعَى ٱلْآخِرُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ ٱلْأَوَّلِ بَلْ وَقَعَ لَهُ كَمَا وَقَعَ لِذَاكَ فَإِنَّ صِحَّةَ ذٰلِكَ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلْعَيْبُ لَازِمٌ لِلْآخِرِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْقَوْمُ فِي قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ خَوَاطِرَهُمْ تَقَعُ مُتَقَارِبَةً كَمَا أَنَّ أَخْلَاقَهُمْ وَشَمَائِلَهُمْ تَكُونُ مُتَضَارِعَةً وَأَنْشَدتُ ٱلصَّاحِبَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادٍ :

كَانَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ أَظِلِّهِ

فَسَبَقَنِي وَقَالَ :

فَغَدَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ

وَكَذٰلِكَ كُنْتُ قُلْتُ : فَعَلَى هٰذَا جَائِزٌ مَا يُدَّعَى لَهُمْ وَٱلظَّاهِرُ مَا قُلْنَاهُ فَهٰذَا ضَرْبٌ . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلْأَخْذِ ٱلْمُسْتَهْجَنِ أَنْ يَأْخُذَ ٱلْمَعْنَى فَيُفْسِدَهُ أَوْ يُعَرِّضَهُ أَوْ يُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ قَبِيحٍ وَكِسْوَةٍ

مُسْتَزَدَّ لَهُ . وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي كَرِيمَةَ :

قَفَاهُ وَجْهٌ ثُمَّ وَجْهُ الَّذِي قَفَا ه وَجْهٌ يُشْبِهُ الْبَدْرَا

وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَاس :

بَزَّ حُسْنَ الْوُجُوهِ حُسْنُ قَفَانَا

وَأَخَذَهُ أَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ النَّابِغَةِ بِقَوْلِهِ لِلنُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ : أَيُفَاخِرُكَ ابْنُ جَفْنَةَ وَاللَّاتِ لَأَمْسُكَ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِهِ وَلَقَذَالُكَ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَلَيَسَارُكَ أَسْمَحُ مِنْ يَمِينِهِ . وَلَعَبِيدُكَ أَكْثَرُ مِنْ قَوْمِهِ وَلَنَفْسُكَ أَكْبَرُ مِنْ جُنْدِهِ وَلَيَوْمُكَ أَشْرَفُ مِنْ دَهْرِهِ . وَلَوَعْدُكَ أَنْجَزُ مِنْ رِفْدِهِ . وَلَهَزْلُكَ أَصْوَبُ مِنْ جِدِّهِ . وَلَكُرْسِيُّكَ أَرْفَعُ مِنْ سَرِيرِهِ . وَلَفَتْرُكَ أَبْسَطُ مِنْ شِبْرِهِ . وَلَأُمُّكَ خَيْرٌ مِنْ أَبِيهِ . وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَحْمُودٍ الْوَرَّاقِ :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ

إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ

وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ تَضِيقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ

فَقَالَ وَأَسَاءَ :

الْحَمْدُ لِلهِ إِنَّ اللهَ ذُو نِعَمٍ لَمْ يُحْصِهَا عَدَدًا بِالشُّكْرِ مَنْ حَمِدَا

شُكْرِي لَهُ عَمَلٌ فِيهِ عَلَيَّ لَهُ شُكْرٌ يَكُونُ لِشُكْرٍ قَبْلَهُ مَدَدَا

فَهَذَا مِثَالُ قُبْحِ الْأَخْذِ فَاعْلَمْهُ . وَأَخَذَ ابْنُ طَبَاطِبَا قَوْلَ عَلِيٍّ قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . فَقَالَ :

فيالائمي دعني أغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه

فأخذه بلفظه وأخرجه بغيضاً متكلفاً . والجيد قول الآخر : (فقيمة كل امرئ علمه) فهذا وإن كان أخذه ببعض لفظه فإن بيته أحسن موقعاً منه من بيت ابن طباطبا. ومما قصر فيه البحتري قوله :

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى مشغوفة بمواطن الكتمان

أخذه من قول عمرو بن معدي كرب :

والضاربين بكل أبيض مرهف والطاعنين مجامع الأضغان

فان قوله (مجامع الأضغان) أجود من قوله : مواطن الكتمان لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم فإذا وقع الطعن في موضع الضغن فذاك غاية المراد . وأنشد عبد الرحمن عن عمه :

حرام على أرماحنا طعن مدبر وتندق قدماً في الصدور صدورها

مسلمة أعجاز خيلي في الوغى مكلمة لباتها ونحورها

أخذه أبو تمام فقال :

أناس إذا ما استحكم الروع كسروا

صدور العوالي في صدور الكتائب

فأحسنا جميعاً ومثله قول الآخر :

يلقى السيوف بنحره وبوجهه ويقيم هامته مقام المغفر

ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا فهدمت ركن المجد إن لم يعقر

ومثله قول بكر بن النطاح :

يَتَلَقَّى ٱلنَّدَى بِوَجْهٍ حَيِيٍّ   وَصُدُورَ ٱلْقَنَا بِوَجْهٍ وَقَاحِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

لَا يَقَعُ ٱلطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمِ   لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ أَتَيْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ . فَقِسْ بِمَا أَوْرَدْتُهُ عَلَى مَا تَرَكْتُهُ فَإِنِّي لَوِ ٱسْتَقْصَيْتُهُ خَرَجَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ عَنِ ٱلْمُرَادِ وَزَاغَ عَنِ ٱلْإِيثَارِ وَبِٱللهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في حلّ الشعر

(عن المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٤٤ من علم الادب)

حَلُّ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا وَهُوَ أَدْنَاهَا مَرْتَبَةً أَنْ يَأْخُذَ ٱلنَّاثِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ فَيَنْثُرُهُ بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهٰذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ أَخَذَ عِقْدًا قَدْ أُتْقِنَ نَظْمُهُ وَأُحْسِنَ تَأْلِيفُهُ فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ وَكَانَ يَقُومُ عُذْرُهُ فِي ذٰلِكَ أَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِثْلِهِ أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا نَثَرَ ٱلشِّعْرَ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ ٱلسَّرِقَةِ فَيُقَالُ : هٰذَا شِعْرُ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ لِكَوْنِ أَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ بَعْضُ ٱلْعِرَاقِيِّينَ فَجَاءَ مُسْتَقْبَحًا لَا مُسْتَحْسَنًا .

كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ اَبْيَاتِ اَلْحَمَاسَةِ :

وَاَلَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَاَنَّمَا   تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ
اَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَاَبْصَرَ قَصْدَهُ   وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ اَلنَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

(فَيُقَالُ) فِي نَثْرِ هٰذَيْنِ اَلْبَيْتَيْنِ : فَكَمْ لَقِيَ اَلَدَّ ذَا حَنَقٍ كَاَنَّهُ يَنْظُرُ اِلَى اَلْكَوَاكِبِ مِنْ عَلٍ وَتَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فَكَوَاهُ فَوْقَ نَاظِرَيْهِ وَاَكَبَّهُ لِفَمِهِ وَيَدَيْهِ . فَلَمْ يَزِدْ هٰذَا اَلنَّاثِرُ عَلَى اَنْ اَزَالَ رَوْنَقَ اَلْوَزْنِ وَطُلَاوَةَ اَلنَّظْمِ لَاغَيْرُ . وَمِنْ هٰذَا اَلْقِسْمِ ضَرْبٌ مَحْمُودٌ لَاعَيْبَ فِيهِ وَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَلْبَيْتُ مِنَ اَلشِّعْرِ قَدْ تَضَمَّنَ شَيْئًا لَايُمْكِنُ تَغْيِيرُ لَفْظِهِ فَحِينَئِذٍ يُعْذَرُ نَاثِرُهُ اِذَا اَتَى بِذٰلِكَ اَللَّفْظِ . وَكَذٰلِكَ اَلْاَمْثَالُ اَلسَّائِرَةُ فَاِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا عَلَى مَا جَاءَتْ فِي اَلشِّعْرِ . (وَاَمَّا اَلْقِسْمُ اَلثَّانِي) فَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَ اَلْاَوَّلِ وَاَلثَّالِثِ فِي اَلْمَرْتَبَةِ وَهُوَ اَنْ يَنْثُرَ اَلْمَعْنَى اَلْمَنْظُومَ بِبَعْضِ اَلْفَاظِهِ وَيُعَبِّرَ عَنِ اَلْبَعْضِ بِاَلْفَاظٍ اُخَرَ وَهُنَاكَ تَظْهَرُ اَلصَّنْعَةُ فِي اَلْمُمَاثَلَةِ وَاَلْمُشَابَهَةِ وَمُؤَاخَاةِ اَلْاَلْفَاظِ اَلْبَاقِيَةِ بِاَلْاَلْفَاظِ اَلْمُرْتَجَلَةِ فَاِنَّهُ اِذَا اَخَذَ لَفْظًا لِشَاعِرٍ مُجِيدٍ قَدْ نَقَّحَهُ وَصَحَّحَهُ فَقَرَنَهُ بِمَا لَا يُلَائِمُهُ كَانَ كَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ لُؤْلُؤَةٍ وَحَصَاةٍ . وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ اَلْاِنْتِصَابِ لِلْقَدْحِ وَاَلْاِسْتِهْدَافِ لِلطَّعْنِ وَاَلطَّرِيقُ اَلْمَسْلُوكُ اِلَى هٰذَا اَلْقِسْمِ اَنْ تَأْخُذَ بَعْضَ بَيْتٍ مِنَ اَلْاَبْيَاتِ اَلشِّعْرِيَّةِ هُوَ اَحْسَنُ مَا فِيهِ ثُمَّ تُمَاثِلَهُ . وَسَاُورِدُ هٰهُنَا مِثَالًا وَاحِدًا لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْمُتَعَلِّمِ (فَاَقُولُ) : قَدْ وَرَدَ هٰذَا اَلْبَيْتُ مِنْ شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

وَحداءٍ تَمْلَأُ كُلَّ أُذُنٍ حِكْمَةً ... وَبلَاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

فَقَوْلُهُ (تَمْلَأُ كُلَّ أُذُنٍ حِكْمَةً) مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْحَسَنِ وَهُوَ أَحسنُ مَا فِي ٱلْبَيْتِ فَإِذَا أَردتَ أَنْ تَنْثُرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَلَا بُدَّ مِن ٱسْتِعْمَالِ لَفْظِه بِعَيْنِهِ لِأَنَّهُ فِي ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى مِنَ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ . فَعَلَيْكَ أَنْ تُؤَاخِيَهُ بِمِثْلِهِ وَهٰذَا عَسِرٌ جِدًّا وَهُوَ أَصْعَبُ مِثَالًا مِنْ نَثْرِ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ لِأَنَّهُ مَسْلَكٌ ضَيِّقٌ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّعَرُّضِ لِمُمَاثَلَةِ مَا هُوَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجُودَةِ . وَأَمَّا نَثْرُ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ فَذٰلِكَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ نَاثِرُهُ عَلَى حَسبِ مَا يَرَاهُ وَلَا يَكُونُ مُقَيَّدًا فِيهِ بِمِثَالٍ يُضْطَرُّ إِلَى مُؤَاخَاتِهِ . وَقَدْ نَثَرْتُ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْمُشَارَ إِلَيْهَا وَأَتَيْتُ بِهَا فِي جُمْلَةِ كِتَابٍ فَقُلْتُ : وَكَلَامِي قَدْ عُرِفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱشْتَهَرَ . وَفَاقَ مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ . وَإِذَا عُرِفَ ٱلْكَلَامُ صَارَتِ ٱلْمَعْرِفَةُ لَهُ عَلَامَةً . وَأُمِنَ مِنْ سَرِقَتِهِ إِذْ لَوْ سُرِقَ لَدَلَّتْ عَلَيْهِ ٱلْوَسَامَةُ . وَمِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِهِ أَنْ يَمْلَأَ كُلَّ أُذُنٍ حِكْمَةً . وَيَجْعَلَ فَصَاحَةَ كُلِّ لِسَانٍ عُجْمَةً . وَإِذَا جَرَتْ نَفَثَاتُهُ فِي ٱلْأَفْهَامِ قَالَتْ : أَهٰذِهِ بِنْتُ فِكْرَةٍ أَمْ بِنْتُ كَرْمَةٍ . فَٱنْظُرْ كَيْفَ فَعَلْتُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَإِنِّي لَمَّا أَخَذْتُ تِلْكَ ٱلْكَلِمَاتِ مِنَ ٱلْبَيْتِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْتَزَمْتُ بِأَنْ أُوَاخِيَهَا بِمَا هُوَ مِثْلُهَا أَوْ أَحْسَنُ مِنْهَا فَجِئْتُ بِهٰذَا ٱلْفَصْلِ كَمَا تَرَاهُ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْعَلَ فِيمَا هٰذَا سَبِيلُهُ . (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ أَعْلَى مِنَ ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْأَوَّلَيْنِ فَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ ٱلْمَعْنَى فَيُصَاغَ بِأَلْفَاظٍ غَيْرِ أَلْفَاظِهِ . وَثَمَّ يَتَبَيَّنُ حِذْقُ ٱلصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ وَيُعْلَمُ مِقْدَارُ تَصَرُّفِهِ

فِي صِنَاعَتِهِ فَإِنِ ٱسْتَطَاعَ ٱلزِّيَادَةَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتِلْكَ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعَالِيَةُ وَإِلَّا أَحْسَنَ ٱلتَّصَرُّفَ وَأَتْقَنَ ٱلتَّأْلِيفَ لِيَكُونَ أَوْلَى بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا يَتَّسِعُ ٱلْمَجَالُ لِنَاثِرِهِ فَيُورِدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ . وَذٰلِكَ عِنْدِي شَبِيهٌ بِٱلْمَسَائِلِ ٱلسَّيَّالَةِ فِي ٱلْحِسَابِ ٱلَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بِعِدَّةِ أَجْوِبَةٍ . وَمِنَ ٱلْأَبْيَاتِ مَا يَضِيقُ فِيهِ ٱلْمَجَالُ حَتَّى يَكَادَ ٱلْمَاهِرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنْ ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَكُونُ هٰذَا لِعَدَمِ ٱلنَّظِيرِ . . . وَإِذَا ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْكَلَامُ إِلَى هٰهُنَا فِي ٱلتَّنْبِيهِ عَلَى نَثْرِ ٱلشِّعْرِ وَكَيْفِيَّةِ نَثْرِهِ وَذِكْرِ مَا يَسْهُلُ مِنْهُ وَمَا يَعْسُرُ . فَلْنُتْبِعْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فَنَقُولُ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا أَوْ كَانَ عِنْدَهُ طَبْعٌ مُجِيبٌ فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ ٱلدَّوَاوِينِ ذَوَاتِ ٱلْعَدَدِ وَلَا يَقْنَعْ بِٱلْقَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ يَأْخُذْ فِي نَثْرِ ٱلشِّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ . وَطَرِيقُهُ أَنْ يَبْتَدِئَ فَيَأْخُذَ قَصِيدًا مِنَ ٱلْقَصَائِدِ فَيَنْثُرَهُ بَيْتًا بَيْتًا عَلَى ٱلتَّوَالِي . وَلَا يَسْتَنْكِفْ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ أَنْ يَنْثُرَ ٱلشِّعْرَ بِأَلْفَاظِهِ أَوْ بِأَكْثَرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا ذٰلِكَ وَإِذَا مَرَنَتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ٱرْتَفَعَ عَنْ هٰذِهِ ٱلدَّرَجَةِ وَصَارَ يَأْخُذُ ٱلْمَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَنْ ذٰلِكَ فَيَكْسُوهُ ضُرُوبًا مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِخَاطِرِهِ بِمُبَاشَرَةِ ٱلْمَعَانِي لِقَاحٌ فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِيَ غَيْرَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي وَسَبِيلُهُ أَنْ يُكْثِرَ ٱلْإِدْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا وَلَا يَزَالَ عَلَى ذٰلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةً . فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا أَوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَفَّقَتِ ٱلْمَعَانِي فِي

أثناء كلامه وجاءت الفاظه معسولة مغسولة وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص رقصاً . وهذا شيء خبرته بالتجربة ولا ينبئك مثل خبير

تمّ بعونه تعالى



فهرس

المقالات